



جمعية البلاغ الثقافية
Al-Balagh Cultural Association

السلسبيل المورود قصة رحلة الخلود

أ.د. / عبد السلام المجيدي

الإهداء

إلى كل من له فضلٌ عليّ يتقدمهم: الوالدان الكريمان..اللهم اجعلهما بابين لعبدك الفقير إلى جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر..

وإلى شيوخ الأجلاء منار هدايتي.. ثم إلى توائم روحي، وأبناء أمتي: إليكم ثمرة قلبي، وماء فؤادي.. خرج من حناياي يُشرق نوره بين يديّ، وأرجو أن يستتم نوره من خلفي في دنياي وأخراي.. أقدمه راجياً أن ينادي المنادي عليه: هذا مغتسلٌ باردٌ وشراب.. وأردته لي ولأمتي والخطوب كوالح، والغواسق تغشاهم.. تذكراً لليوم الآخر، يضيء الدرب لكل سائر.. حيث لا قوة في هذا العصر ولا ناصر.. إلا ما يعده المرء خالصاً للودود الغافر.. وما هذه الأسطر إلا خفقات قلبٍ، وتطلعات روح.. أرجو أن تكون أنيساً لا يُمل، وجليساً لا يترك،، يذكر بالمستقبل الحق، ويشحذ الهمة إلى مقعد صدق.. عند مليكٍ مقتدر.. وقد أمّلتُ من ربي به فضلاً، راجياً أن أنال وسام ((فإنك بأعيننا))، وأظفر بالانضواء تحت راية ((إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار)).. وعَلَّني أن أنال أعظم مما أصف.. فضلاً من ربي ونعمة.. مغفرةً ورحمة.. عسى أن يكون حناناً وزكاة.. وأن يكون ربي بي حفيماً.. وأن يجعلني عنده مرضياً.. ويزيدني فوق ذلك شيئاً طيباً كثيراً مباركاً فيه.. فيرفعني مكاناً علياً... آمين .

تقديم فضيلة الشيخ علامة اليمن/ محمد بن إسماعيل العمراني

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الأمي الأمين، وعلى آله، وبعد:

فهذا كتاب "السلسيل المورود- قصه رحلة الخلود" للشيخ الدكتور / عبد السلام مقبل المجيدي، وهو من خيرة طلبة العلم الذين درسوا عليّ، وكتابه هذا في علم السلوك والإقبال على الآخرة، وتشويق الناس إلى الجنة، قصد منه مؤلفه إبراز منهجية جديدة في الوعظ والإرشاد، وإيقاظ النائمين، وتنبيه الغافلين، وإصلاح المائلين، وإرشاد الجاهلين، وتشويق الراغبين لسلوك مدارج السالكين إلى جنات الخالدين... مقتنياً فيه آثار من سبق من جهابذة العلماء العاملين المؤلفين في الزهديات والوعظيات أمثال الأئمة: أحمد بن حنبل، وابن أبي الدنيا، والغزالي، وابن الجوزي، وابن القيم، وابن رجب رحمهم الله أجمعين.

وقد صاغه مؤلفه بأسلوب أدبي، وقصصي جذاب، مع تجديد في الأسلوب، وحلاوة في العبارة، والتزام بعزو النصوص إلى مصادرها، وتخريجها، واعتماد للصحيح منها في صلب الكتاب، وللكاتب مؤلفات قيمة سبقت هذا الكتاب منها (تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم، ولا إنكار في مسائل الخلاف) ومن قدم لهذا الكتاب القيم الشيخ الدكتور/حسن محمد الأهدل، والشيخ/محمد الصادق، أسأل الله عز وجل أن ينفع به من سيطلع عليه من العلماء والمتعلمين، وأن يجزي مؤلفه خير الجزاء، ويزيد في الشباب الفضلاء من أمثاله، وسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم.

صفر ١٤٢٥ هـ محمد بن إسماعيل العمراني.

تقديم فضيلة العلامة الأستاذ الدكتور/ حسن الأهدل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: لقد اطلعت على ما كتبه الأخ الدكتور عبد السلام مقبل المجيدي في كتابه الذي بعنوان (قصة رحلة الخلود) أو المسمى السلسبيل المورود، وهذا الكتاب قصة مشوقة تحكي تصورات محبته عن مشاهد تتناول الحياة الأخروية مستوحاة من نصوص القرآن والسنة، صاغها الكاتب بأسلوب قصصي فريد يصف زفاف شاب إلى جنة الخلود.. تحدث فيها في البداية في مقدمة تبعث روح المسارعة والمسابقة إلى النعيم لعباد الله المقربين الصالحين في شوق وحنين، ثم تطرق بعد ذلك إلى زفاف الأفراح بين السماء والأرض عارضاً بأسلوبه الأدبي الشيق المشهد الأول بين يدي حياة جديدة متناولاً الموت في قصته، ويصور حب الشباب المؤمن لهذا الموت الذي هو موعد للقاء ربه مع خيار عباد الله من أصحاب القلوب المنية. ثم يصور في المشهد الثاني استقبال هذا الشاب في العالم الجديد.. عالم الحقيقة والسعادة مع أولياء الله في الملأ الأعلى.. ويستمر الكاتب- وفقه الله تعالى- في عرض المشهد الثالث في رحلة الخروج والعروج مبيناً أن هذا الزفاف رحلة السعادة إلى الملأ الأعلى من العوالم الفانية إلى العوالم الباقية.. ويذكره نعيم الفوز العظيم بأنيسه القرآن وبمحاربه الإيمان.. وهكذا ينتقل به إلى المشهد الرابع حيث طمأنينة البرزخ وأفراحه.. وفي المشهد الخامس يذكر بالابتلاء في القبور، وبالأسلحة التي تنفعه هناك من الأعمال الصالحة كالإيمان وتلاوة القرآن ليبشر في ختام ذلك بنتيجة الفوز الكبير.. ويتنقل بين لقاءات النعيم لأرواح المؤمنين في البرزخ، وتلقي الملائكة للروح الطاهرة، ثم يبين في المشهد الذي بعده منزلة هذه الروح في العالم الجديد.. فتخشع بسماع ذلك أصحاب القلوب المنية.. ويذكر ما يكون في هول المحشر المهيب مصوراً القيامة وبدء الحساب، ومكانة النبي ﷺ في مثل هذا اليوم، ورحمته بأمته في يوم المحشر، ويستمر في عرض بقية المشاهد التي يطول ذكرها في هذه العجالة مصوراً القيامة بمختلف

صورها ومشاهدها وما يلقاه أهل السعادة من الخلود الأبدي في الجنة والسرور والنعيم، وما يلقاه أهل النار من الحسرة والندامة، وما يتمتع به أهل الجنة بما حصلوا عليه من وفاء العهد، ولذة النعيم وما تلقوه من رحمة الله وكرمه، ثم ختم قصته بخاتمة تجعل قارئ القصة بعد تذوقه لها يبادر إلى ملء حياته بالخيرات والأعمال الصالحات متلهفاً على لحظة المفارقة من الحياة الدنيا.. قائلًا: (يا ليت قومي يعلمون).. وهذا الخطاب موجهاً في القصة على لسان الشاب إلى كل قارئ لها حيث يقول صاحب القصة: (أيها الحبيب لي ولك لا نغيرنا كان الخطاب).

إنها رحلة ممتعة، وقصة هادفة ومفيدة يعيش معها المرء لحظات وساعات وأيام لا يمل سياقها وحديثها.. يرتع القارئ في جنباتها.. يتنعم بالنظر في روضاتها.. يتصور تلك المشاهد والمواقف فيبصر ويتأمل ويرجو الفوز الكبير في مواطن.. يتحسر على ما كسبت يده في أيام العمر وساعة الغفلة.. ولعل العاقل يستفيد منها ويتوب.. ونسأل الله لنا وللكتاب التوفيق والسداد، وجزيل الأجر والثواب.. إنه على ذلك قدير.. وصلى الله على سيدنا وعلى آله وصحبه وسلم..

كتبه أ.د. حسن محمد الأهدل

تقديم فضيلة الشيخ / محمد الصادق مغلس المراني

الحمد لله رب العالمين وﷺ على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، أما بعد:
فقد قرأت كتاب (على مشارف الجنة)^(١) للكاتب الناشئ الشيخ (الدكتور) عبد السلام مقبل المجيدي حفظه الله، ووجدته كما سماه بحق - قصة حقيقية تصف زفاف مؤمن إلى جنة الخلود.

وإذا كان بعض المنبهرين في هذا الزمان - زمان الانهزام - قد أخذوا بأساليب ومناهج الغرب في الخطاب - الغث منها والسمين - فاستوردوا المسرح مثلاً، وكثيرٌ منهم لم يتحرروا من إسفافاته وضلالاته، واستقدموا فكر القصص الروائية، ومعظمهم لم يسلموا من سوء آتاهم وافترآته.. فإن كاتبنا في هذه القصة قد سلك مسلك التمييز والمخالفة للمغضوب عليهم والضالين، وذلك هو الذي يقتضيه منهج ديننا في كل ما يجب وينبغي ويمكن أن نخالفهم فيه، لأن الصراط المستقيم يقتضي مخالفة أصحاب الحجيم.

لقد اعتمد كاتبنا في قصته على القرآن الكريم، وهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلى النصوص النبوية التي لا مدخل فيها للهوى، وإنما هي وحي يوحى. وأضاف الآثار الثرية والشعرية عن السلف وعلماء التزكية، وابتعد عن المبالغات والخيالات، وعن اصطناع الوقائع واختلاق الأحداث. ومضى مع الحقائق بأسلوب أدبي جميل، وتصويرٍ فني جذاب يشد القارئ عند تفسيره وشرحه للنصوص، ويسهم في نقلك إلى عالم الغيب وكأنه صار عالم الشهادة مع إيقاظٍ للقلوب، وإثارة للشجون، وترغيبٍ وترهيبٍ، وطول نفسٍ عجيبٍ في مصاحبة صاحب القلب المنيب في تفاصيل جميع المراحل.

وقد حشد الكاتب نصوصاً كثيرةً عن الموت والبرزخ والبعث والحساب والصراط والميزان والجنة والنار والنعيم والعذاب وغير ذلك. وقلما تجد ذلك في كتابٍ مع تحري الدقة والصحة

(١) هذه إحدى التسميات المقترحة للكتاب، وكانت أولها.

والجدة في الطرح والتشويق، وبذل الجهد الكبير في الجمع والسبك والصيغة. ويكاد يلمس المطلع ذلك في كل صفحة من صفحات الكتاب.

إن مادة هذا الكتاب غذاء هامّ وضروري للروح. وإذا كان من أعده قد اجتهد في الإعداد، ولحقه من المشقة ما لحقه حتى أخرج هذه المائدة الشهية، فإن من حقه على الجائعين والمحتاجين أن يبادروا لإشباع أرواحهم وسد حاجاتهم، ولا سيما الشباب الذين هم في سن فورة الطموح لا يكاد يشبعهم شيء، ينتقلون من مائدة إلى مائدة، ومن تشكييل إلى تشكييل، ولن يجدوا- مع غيرهم- بغيتهم إلا في الدار الآخرة إذا استعدوا لها، في الجنة التي هي الموطن الأول للإنسان. وسيكتشفون في نهاية المطاف أن كل الذي فوق التراب تراب، وإن ما هاهنا ينفذ وما عند الله باق، وأنه لا بقاء إلا للإخلاص والعمل الصالح. وأن الدنيا وشعاراتها حتى لو خادعت باسم الدين أحياناً كسرابٍ بقية، وأن الجحيم هي عقبي معظم الناس لأنهم لم يعقلوا هذه الحقائق وأمثالها، وأنه لا نجاة إلا للقلّة التي عقلت في الوقت المناسب، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ﴿ففرّوا إلى الله﴾.

لقد أحسن كاتب القصة جزاه الله خيراً في عمله الدعوي الأدبي العلمي، وأسأله سبحانه أن يأجره على ذلك ويضاعف مثوبته، وأن يغفر لنا ذنوبنا مع سائر أحبائنا وإخواننا، وأن يجعلنا من حزية الصالحين وأن يحشرنا مع عباده المقربين، ويجعلنا من ورثة جنة النعيم، ويقىنا عذاب الجحيم، ويسلكنا في زمرة الذين سبقت لهم الحسنى، فلا يسمعون حسيس جهنم، وهم فيما اشتهدت أنفسهم خالدون، إنه - ربنا سميع قريب. وكتبه الفقير إلى مغفرة الله ورحمته محمد الصادق مغلّس المراني

صنعاء في ٢٧ شعبان ١٤٢٤ هـ

٢٣/١٠/٢٠٠٣ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله على آلائه.. هداانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.. لقد جاءت
رسول ربنا بالحق، ومقال الصدق، صلى الله وسلم عليهم أجمعين.. اللهم صلِّ على محمدٍ
صلاةً أزْدلف بها إلى مغفرتك، وسلم عليه تسليماً أُحشِرُ به في زمرة أوليائك.. اللهم اجعل
صلاتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين محمدٍ عبدك
ورسولك إمام الخير، وقائد الخير، ورسول الرحمة.. اللهم ابعته مقاماً محموداً يغطه به الأولون
والآخرون، وعلى آله وأصحابه الكرام الطيبين، الأخيار الطاهرين.

اللهم إني أعوذ بك أن أقول بحقٍ أطلب به غير طاعتك، وأعوذ بك أن أتزين
للناس بشيءٍ يشينني عندك.. أعوذ بك أن تجعلني عبرةً لأحدٍ من خلقك في مقام
الخزي.. اجعلني ممن ابتدأته بفضلك.. وأعقبته بودك، ورأفتك، ورحمتك.

إلهي ومولاي: أسيرُ الخطايا عند بابك واقفٌ على وجلٍ ممّا علمت.. وخائفٌ
إلهي: لئن ضاق عني عفوك الواسع الذي أُرَجِّي لإسرائي فياني لتألف^(١)

هذا الكتاب يحكي قصةً حقيقيةً.. بسم الله مجراها ومرساها:

وبعد:

فهذه قصةٌ حقيقيةٌ لم يقصّها عليك خبرٌ يتناقله السُّمَّار في نواديهم.. يلهون به.. ولا نبأ
روته الجرائد.. وتناقلته وكالات الأنباء المعتادة.. ولكنها خبرٌ صادقٌ نقلته إليك إذاعة النبأ

(١) لأبي الوليد بن الفرضي بتصرف.. انظر: تذكرة الحفاظ / ٣ / ١٠٧٨.

العظيم الصادر عن الملك الخلاق العليم.. إنها قصة تقرأها.. فتجذبك إليها جذباً بما تحمله من إثارة وتشويق.. وتلمح مع كل سطرٍ من أسطرها ملامح المستقبل القادم.. ونهاية البداية الصادقة.. نهاية الدنيا.. النهاية التي سترها واقعة صادقة لا ريب فيها { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ } [الذاريات: ٥].

إنها قصة شابٍ كان شاكراً ذاكراً طائعاً أوّاباً.. فانتاً مخلصاً تواباً.. قد جعله ربي من المصطفين الأخيار.. من المخلصين المخلصين الأبرار.. قمتُ بتتبع سيرته، والتقاط أنفاسه، وتدوين قصته.. كما رسمها القرآن الكريم حيث يتم زفافه إلى عالم الخلود، في فردوس العزيز المجيد.. فتأمل معي قصته على الحقيقة.. وارجع بها إلى دنياك.. ارجع بها إلى دنياك لتتظن: أنت حقاً على سوي الطريقة.

أي حبيباه: نَقَلْتُ إليك أحداث هذه القصة، ومشاهدها العامة والتفصيلية من كتاب الله -عزَّ جاره- ومن سنة النبي ﷺ، وهو الذي ارتفع مقداره ﷺ.. وأسميتها بالقصة متبعاً فيها قول مولاي الودود -وقوله الصدق-: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُ الْقَصَصَ الْحَقَّ﴾ (ال عمران: ٦٢).. وكتابك هذا يشبه أن يكون توسيعاً لحديث البراء بن عازب ﷺ في العبد المؤمن إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا وإقبالٍ على الآخرة^(١).

هذه قصةٌ تلاها كتاب الله وحيّاً يُبَاشِرُ الأرواحا

تستثير النفوس نحو رحيلٍ لبلادٍ تمحضت أفراحا^(٢)

أيا خاطب الجنة: ترى في تضاعيف هذه القصة وصفاً رائعاً لزفاف مؤمنٍ محبتٍ فانتٍ إلى جنة الله التي أُشْرِعت لها ميادين السباق.. وبُذلت في سبيلها الأعناق.. إِنَّ تَذَكَرَ النعيم الذي

(١) وهو حديث عظيم مشهور رواه أحمد ٤/ ٢٨٧، وأبو داود ٤/ ٢٣٩، والحاكم ١/ ٩٣، وصححه على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، وصححه ابن القيم في إعلام الموقعين ١/ ١٧٨، وتهذيب السنن ٨/ ٣١٦، وصححه الألباني في أحكام الجنائز ص ١٥٩.

(٢) للشاعر المبدع: عبد الرحمن العديني.

يلقاه المؤمن تُنسى معه الأحزان.. ويستيقظ معه الغافل في الدنيا بالدنيا.. ويفيق الوسنان..
 أفنطمع في كريم صحبتك إليه حيث جنة من الله ورضوان؟.. **أيا حبيباه:** فهلا أخذت
 استعدادك معنا لتكون في اليوم الحق من الفائزين؟.. هلا قللت من الانشغال بلهو اللاهين..
 اسمع إلى وعد رب العالمين، وحبیب المشتاقين ﴿ أَقْمَنَ وَعَدَنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ
 مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ (القصص: ٦١).
 وعندها يحق لنا أن نتساءل ببراءة: هل أقض مضاجع النائمين.. ذكر رب العالمين.. لجنة
 عرضها السموات والأرضين؟. وهل يستطيع أن يحيط علماً بها وصف الواصفين..؟ أم هل
 تستطيع الكلمات أن تكشف عما حوته من نعيمها المكنون...؟.. بل الناس عنها سامدون،
 والعمدة في غفلة لاهون، والخوالف ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم
 يلعبون.. لاهية قلوبهم..

هل أقض المنام ذكر عليّ لنعيم مُزَّينٍ بالخلود؟
 أجل أخي: قم معي لتحيا في خلود.. هاتفاً راقياً في صعود.. هانئاً ناظراً للمزيد.

أيها المشتاق لنعيم تتناول له الأعناق، وتذوب لنيله الأحداق:

سابق في تدبر الآيات المشرقات.. انظر في هاتيك البيئات العظيمة.. لترى القارئ لها
 يشعر باحتياح شوقه لها في جسده الكليل.. يتساءل بلهفة: متى سيصل الفؤاد العليل..
 لذلك المقيّل.. ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ (الفرقان: ٢٤).. بل املاً عينيك
 بنور الحقائق.. وقل لسائر الخلائق.. ما قاله التائب المنيب السابق.. لأمه قديماً.. استمع منه
 قولاً حكيماً: "يا أماه إن لي موقفاً طويلاً بين يدي ربّ جليل، فلا أدري أيؤمر بي إلى ظلّ

ظليل، أو إلى شر مقيل. إني أخاف عناء لا راحة بعده أبداً، وتويخاً لا عفو معه (١).. فيا رب هيب لنا من أمرنا رشداً.. واجعل معونتك العظمى لنا سنداً.
 إنه النعيم الحق.. قطع الله تحمينات الظانين حين أرادوا وصفه، ومنع تخرص المتخرصين حين راموا كشف ستر لذائده.. فقال -عزَّ جاره-: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ (السجدة: ١٧).. حسبك أن ترى حقيقةً واحدةً، وقانوناً عاماً يوضح تواضع من ظنَّ أنه يمكنه تصور ما سيلقاه المؤمن من تكريمٍ. فقد قرر الحديث الشريف أنه ((ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء)) (٢).

انظر عباد الله المقربين.. يتسابقون إلى معرفة ذلك النعيم.. بشوقٍ وحنين:

ها هو ذا موسى -عليه السلام- يسأل ربه -جلَّ جلاله-: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة.. فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: كيف أدخل الجنة، وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟. فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملكٍ من ملوك الدنيا؟.

تصور ذلك: كل ما حوت الدنيا من لذائذ وأراضٍ وأثمارٍ ومتاع.. تكون لأدنى أهل الجنة منزلة يجد فيها البساتين والقصور والقلاع.. انظر إلى الرجل: إنه لا يصدق نفسه.. فيقول: رب رضيت. يقاطع الحديث لشدة فرحه.. فيقول الله له: ذلك لك ومثله، ومثله، ومثله، قال الرجل في الخامسة -مقاطعاً ولا يملك نفسه من السعادة والسرور: ((رضيت ربّ. فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتئت نفسك، ولذت عينك، فيقول الرجل: رضيت رب))، تلعث لسانه فلا يستطيع أن يقول كلمةً غيرها فرحاً وسروراً، غبطةً وحبوراً.

(١) التبصرة لابن الجوزي ص ٢٩.

(٢) الضياء في المختارة ١٠ / ١٦ موقوفاً على ابن عباس وهو في حكم المرفوع ولذا أورده السيوطي في الجامع الصغير على أنه مرفوع، وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٤ / ٣١٦: رواه البيهقي موقوفاً بإسنادٍ جيد، وصححه الألباني في الصحيحة ٢١٨٨.

وسأل موسى -عليه السلام- عما يلقاه أعلاهم منزلة فقال: ربّ فأعلاهم منزلة؟. قال: أولئك الذين أردتُ. غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها. فلم تر عينٌ، ولم تسمع أذنٌ، ولم يخطر على قلب بشرٍ. قال: ومصادقه من كتاب الله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ (السجدة: ١٧) (١).

القلب محترق، والدمع مستبق والكرب مجتمع، والصبر مفترق
كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الهوى والشوق والقلق
إنه النعيم القادم في الآخرة لا يساوي مدينةً، أو دولةً، أو أرضاً. الدنيا كلها لا تساوي عنده جناح بعوضة. فهلا أبديت همتك له، وأصابك من حب النعيم الحقيقي الشوق والوَلَه. فصرت في الدنيا كالغريب تنتظر الوصول إلى دار كرامة الحبيب. كان عطاء السلمي يقول في دعائه: اللهم ارحم في الدنيا غربتي، وارحم في القبر وحشتي، وارحم موقفي غدا بين يديك (٢). فيا رب اجعلني ممن أحب عبادك إليك.

منهج كتابة هذه السلسلة المباركة:

لقد سلكتُ في رواية هذه القصة منهجاً فريداً مرجحاً به بين الأحداث التي رسمتها هذه المشاهد القرآنية لتكون لوناً من ألوان التفسير الموضوعي الذي امتزج بالتصوير الفني (٣). وهذا المنهج لا أدعي فيه الجدة، لكنني أدعي أن السالكين له قليل. ومنهجٌ هذا حاله يحتاج

(١) مسلم ١/ ١٧٦.

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٣٨١.

(٣) وأرجو أن أفتح في ذلك آفاقاً لمنهجية جديدة في التفسير الموضوعي.. تقريباً للغة القرآن، واستمتاعاً بما حيث تضائل الإحساس بما تحويه من معانٍ ومشاهد.. وهو ما أكثر الشكوى منه سيد قطب في كتبه: مقومات التصور الإسلامي، وخصائص التصور الإسلامي، والظلال وغيرها.. ومن قبله حمل الهم مصطفى صادق الرافعي، وتلميذه النابغة محمود شاكر.. رحم الله الجميع.

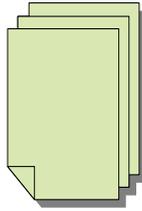
إلى أن يُثري بكتاباتٍ تقوي أركانه، وتدعم بنيانه، وتُجمل تبيانه.. وأرجو الله -عزَّ جاره- أن يجعل كتابي هذا جواداً سابقاً في هذا المضمار، تطلب النسخ على منواله قادة الأخيار. كما ابتعدتُ في هذا الكتاب عن الأسلوب العلمي الجاف بنمطه القاصر.. رغباً في الخطاب العاطفي العامر... ألا ترى معي أنه أسلوبٌ يُمتنع الناظر، ويُهَيِّجُ خاطر.. وهو يرى المستقبل المجيد الزاهر.. في جنة الله تعالى يوم لا تنفع قوة ولا ناصر.. إلا من رحمه الرحيم العفو الغافر. أيا حبيب الجنة: هذا الكتاب لنفسِي كُتِبَتْه، ولأبي وأمي سطرته، ولأخوتي زفته، ولأخواتي نظمته. كُتِبَتْه ليكون تذكراً لأعز أخلائي البررة ممن تعاهدتُ معهم رُوحِي لاقتحام العقبة، عسى أن نكون في سلك الفئة المطهرة.. طالبين الفوز بالدرجات العلى. رحمةً من الله وحناناً وركاة، ورغبة في الشرف في الآخرة.. وكنت أسميته: السلسيل المورود في قصة رحلة الخلود، وعلى مشارف الجنة، واقترح بعض الأحبة تسميته: نزهة المشتاقين في زفاف المؤمن إلى جنان الخالدين. عسى ربي -عزَّ جاره- أن يرفعني به درجاتٍ في الدنيا والآخرة، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، ويثبني به أعظم الفوز والمغفرة.

كتبه / عبد السلام مقبل المجيدي

s1435y@gmail.com

الثلاثاء ٣ من رجب الفرد ١٤٢٤ من هجرة من له العز والشرف والجلال ﷺ

الموافق ٢ / ٩ / ٢٠٠٣ م



الفصل الأول

الأفراح بين السماء والأرض

بداية العرس والزفاف..
تعالوا إلى بهجته من ثقالٍ أو خِفاف
هنا الطهر والجمال ولآلئ الأصداف

المشهد الأول الخطوات المجيدة.. بين يدي حياة جديدة

أحبتني الكرام- جعلني الله وإياكم من أصحاب الجنة دار السلام برحمة الملك الرحيم العلام:-
أقصُّ عليكم قصة صاحبٍ من أعزِّ الأصحاب.. إنه شابٌّ رائعٌ -إذا عرفته- صار في قلبك
له معزةُ الأحاب.. سترى إشراق النور في وجهه؛ فهو دائم الذكر لربه الوهاب.. الرحيم
التواب، ولنرمز إلى اسمه بهذا الاسم الرائع: عبد الله.. تيمناً بأحب الأسماء إلى الله مولانا
ومولاه، وهذا الاسم هو أجمل الأسماء في عرف كل عبدٍ منيبٍ حلِيمٍ أوَاه،
ولنبداً في ذكر قصته.. طالبين الله.. راغبين في لطفه ومغفرته ورحمته وحبه ورحمته:
كان ممن كُتِبَتْ له السعادة، وسَبَقَتْ له من ربه الحسنَى وزيادة..ها هو ذا تراه في دنياه
ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، خاضعاً لمولاه، ذليلاً بين يديه.. يبتغي بذلك
الشرف، ويروم أن يكون من سكان العُرف:

دُلُّ الفتى في الحبِّ مَكْرُمَةٌ وخضوعه لحبيبه شَرْفٌ

وهو في الوقت ذاته هينٌ لينٌ.. ليس في قلبه غِلٌّ للذين آمنوا.. يراه بعض صحبه.. فيرى نور
الإيمان في وجهه.. ويراه آخرون فينادونه في سرهم: أيها المخبت المنيب، أيها الأواب الحفيظ
يا صاحب المؤمنين الصالحين الصادقين.. إنا نراك من المحسنين.. ينادونه بذلك لما اعتادوه من
مراقبته لله، وحفظه لحدوده، وكثره ذكره لليوم الفزع الأكبر المبين.. أدى أمانة الوظيفة، واتسم
بالأخلاق الرائعة الشريفة، مضى في دنياه على ذلك، ومضت دنياه بذلك..

المفاجأة:

ها هي ذي صفحات أيامه تُطوى.. وساعاته تُقضى.. وجاءته الحقيقة التي لطالما تعامل معها غيره على أنها مجرد وهم يُروى.. وفي لحظة مفاجئة للمحبين: في ريعان شبابه.. يجيئه الأجل، وينزل به القضاء.. انقضت تلك السنون، وانصرمت معها أحلام العمر.. الأمر كما قال الحسن البصري: لم يزل الليل والنهار سريعين في نقص الأعمار، وتقريب الآجال.. هيهات قد صحبا نوحاً وعاداً وثموداً وقروناً بين ذلك كثيراً، فأصبحوا قد أقدموا على ربهم، ووردوا على أعمالهم^(١).

هذا الشاب الرائع هجم عليه الموت بغتة، وأتاه الأجل فجأة.. نعم! لم يعلم الميعاد.. لم يعلم ميعاد موته.. وأنى له أو لغيره أن يعلم ذلك ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ (لقمان: ٣٤).. لكنه أعد لهذا الميعاد عُدته.. انظر إليه الآن.. إنه على سرير الموت: هو في سكرات الموت، والناس حوله.. بين باكٍ، وشاكٍ، وحزينٍ قلق، ومحبٍ مشفق.. بعضهم يكاد يُعصُّ بريقه من الألم، والبعض يضع يده على جبهته من الدهشة، وأهله يبكون.. ويكون حقاً.. ويكتمون أصوات بكائهم بأيديهم، ويغالبون دموعهم بطأطأة وجوههم إلى الأرض.. وفجأة.. قطع المشهد صياح بعض محبيه.. لقد صاح صياحاً مصحوباً ببيأسٍ ظاهر: ﴿وقيل من راقٍ﴾ (القيامة: ٢٧) فيرقيه؟ هل من طبيبٍ فيشفيه؟ هل من خبيرٍ حكيمٍ يدافع عنه ويحميه؟.. ولكن الأمر واضح.. فإن صاحبنا ﴿يغشى عليه من الموت﴾ (الأحزاب: ١٩) فكيف يمكن لراقٍ أن يرقيه؟ وأنى لطبيبٍ أن يشفيه؟:

فكل امرئٍ لاقٍ من الموت سكرةً له ساعةٌ فيها يذل ويضرعُ

(١) جامع العلوم والحكم ص ٣٨٣.

إنه الموت "قصر الله به رقاب الجبابرة، وكسر به ظهور الأكاسرة، وقصّر به آمال القياصرة الذين لم تنزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافرة" (١)..
إنه الموت يهجم عليه.. يتغشاه..

يا لِفَزَعِ المحبين فدموعهم في الآفاق.. إذا دنت لحظات الفراق (وقيل من راق).
يا هنيئاً لمن أسعفه حظه من التسبيح بالعشي والإشراق، فسُرَّ وجهه واستنار يوم التلاق،
وفرح يوم في ساعةٍ يقال فيها (من راق).
أبشر يا من راقبت الملك الجليل الخلاق، وأكرمت بالطاعة وتحري الحلال وأكرم
الأرزاق، إنه يوم عيدك: يوم يقال (من راق).

ولكنه الموت أيضاً: قَرَّبَ الله به منزلة الأتقياء، وحقق به وعوده لأهله من الأصفياء، وجعله
مخلصاً للأنقياء، وموعداً في حقهم لألد لقاء، وأراحهم به من دنيا العناء.. رضي الله عن
عمار؛ اسمعه يهتف وهو يرى بوارق الموت لائحة.. اسمعه فعطور هتافه فائحة: غداً ألقى
الأحبة مُجَدِّداً وحزبه (٢).. إنه يتذكر جمال الصحبة، ودفء المودة الصادقة والقرية.
في هذه الأثناء.. هرع إليه بعض خلصائه مطمئناً مخففاً.. آملاً مدداً في عمر، وعافيةً في
بدن.. ولكن هيهات فقد رد عليه المخبت المنيب بصوتٍ خفيضٍ يعتريه الوهن:
دعنا من هذا.. فإن كل شيءٍ عند ربي بمقدار.. ثم أوماً ببصره نحو السماء يقول بصوت
متحشرج:

إلهي أنا الذي أمرتني فَقَصَّرْتُ.. ونهيتني فعصيتُ..

(١) انظر: إحياء علوم الدين ٤ / ٤٤٨ ..

(٢) الطبراني في الأوسط ٦ / ٣٠١، وخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩ / ٢٩٨، وقال: "رواه الطبراني، وإسناده حسن"، وقد روي عن
بلال، ومثله قال ابن عباس لعائشة في مرض موتها: (ما بينك وبين أن تلقى الأحبة إلا أن يفارق الروح الجسد..) كما عند أحمد ١ /

إلهي أنا الذي أمرتني ففصرتُ.. ونهيتني فعصيتُ..
 (اللهم أقل العثرة، وأعف عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرحُ غيرك.. فما وراءك
 مذهب)..
 وحانت منه سكتةٌ ظهر عليه فيها التعب.. لكنه ما لبث حتى تابع لهثاته، وابتهالاته نحو
 ربه.. يُكرِّرُ الدعاء، ويُعيد النداء.. ولم لا.. لم لا وهو في موقف الرجاء.. قال فيما قال آنذاك
 وصوته يستقيم تارةً، ويتقطع أخرى:
 ولكنك الآن رجائي يا أرحم الراحمين.. اللهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك.. اللهم إن
 كان صغر في جنب عطائك عملي، فقد كبر في حسن رجائك أملي..
 إلهي.. مولاي.. آن الرحيل إليك، وأزف القدوم عليك، ولا عذر لي بين يديك.. لا عذر
 لي إلا طلب رحمتك التي وسعت كل شيء..
 إلهي أنت الرحيم الغفور، وأنا العاصي المستجير..
 إلهي أنت العفو الرحمن الودود، وأنا الجاني الجحود..
 مولاي أنت السيد الملك الجبار، وأنا العبد المعترف بالعجز والافتقار.. ارحم خضوعي وذلتي
 بين يديك.. ولا حول ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين.
 ثم تتالت دموعٌ غزائرٌ عذابٌ من مقلتيه.. تسيل على خديه.. لتزيد من حواليه ألماً وحرزناً
 وبكاءً.

يا إلهي أنا الذي قد عصيتُ	وإلى الوزرِ يا إلهي انتهيتُ
غَرَّني سِتْرُك الجميلُ ونفسي	فاكتسبتُ الذنوبَ ويحي اكتسبتُ
غير أني حملتُ قلباً محبباً	لك ربي، و إنني ما يؤسْتُ

فأفلُ عثرتي وحقق رجائي ربّ إني من كل ذنبي تبتُّ^(١)

قال له صاحبه: فلأي شيء هذا البكاء وأنت في موقف الرجاء؟

قال -وقد رجعت إليه بعض قوته واستقام صوته-:

يا أنس الدنيا: هو للرجاء.. ألا ترى أنني أنتظر من الله رسولاً يبشّرني بالجنة أو بالنار..

(وكيف لا أبكي.. وقد ركبتُ ما نهاني عنه، وتركت ما أمرني به.. آه.. هاهي الدنيا ذهبت في

الحال.. وبقيت الأعمال.. بقيت الأعمال قلائد في أعناق الرجال..)

لقد عملتُ لموقفي هذا عشرين سنةً.. وها هو ذا الباب سيفتح لي الآن إما بالسعادة أو

بالشقاوة.. وإنما أنتظر وفداً من ربّ كريمٍ رحيمٍ.. يجيب الدعاء ولا يخيب الرجاء..

يا لجمال كلماته! كأنه يردد ما رده الشافعي عند مرض موته رحمه الله تعالى من قوله:

أجدني من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقاً، وبكأس المنية شارباً، وعلى ربي جل وعز واردة،

فلا أدري تصير روحي إلى الجنة فأهنيها؟ أم إلى النار فأعزيها؟ وأنشد يقول:

ولما قسا قلبي وضاق مذاهبي جعلتُ رجائي دون عفوك سلماً

تعاطمني ذنبي فلما عدلته بعفوك ربي كأن عفوك أعظماً

فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو مئةً وتكرّماً

فإن تنتقم مني فلسنت بآيس ولو دخلت نفسي بجرمي جهماً

ولولاك لم يغوى إبليس عابد فكيف وقد أغوى صفيك آدماء

وإني لآتي الذنب أعرف قدره وأعلم أن الله يعفو ترحماً^(٢)

إنه مصير العالمين.. ﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع

الحاسبين﴾ (الأنعام: ٦٢).

(١) لحادينا على طريق الجنة: عبد الرحمن العديني.

(٢) سير أعلام النبلاء ٧٦/١٠، وقال الذهبي: إسناده ثابت عنه.

نظر إليه بعض أصحابه نظرة حبٍ وولِّه وهيام، وذهب فكره بعيداً سابحاً فيما يراه أمامه وتذكر حياة هذا العبد المنيب بين الأنام:

"هذا الحبيب المنيب المسجى على فراشه.. طالما تمتت شفتاه بذكر الموت استعداداً له.. كم كان يلهج أمامنا عندما تشتد منازعات الجدال، ويطغى كلُّ منا على صاحبه بما يملك من أقوال.. كان يقطع ذلك كله بقوله: نسأل الله لنا حسن الختام والأعمال..".

وتابع صاحبه تفكيره:

"لم أعلم إلا الآن.. أنه بكثرة تذكره للموت كان يتشرف بالانضمام بذلك إلى زمرة الأكياس الذين وصفهم النبي ﷺ لما سئل: من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله؟ فقال: أكثرهم ذكراً للموت، وأشدهم استعداداً له.. أولئك هم الأكياس.. ذهبوا بشرف الدنيا.. وكرامة الآخرة^(١)."

لكم كان يُدكِّرنا في ذلك بقول عمر بن عبد العزيز لصاحبٍ له: أكثر ذكر الموت.. فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك، وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك.

وانسابت دمعتان ذهبتان من مآقي صاحبه وهو ينظر إليه بإكبارٍ له، وألم على الشعور بأنه سيفارقه عما قريب.. ولكنه تابع تفكيره وقد حانت منه ابتسامة مفاجئة:

لكم كان يُرَدِّدُ على مسامعنا أثراً وارداً على لسان الحبيب المصطفى والشفيع المرتضى ﷺ.. أثراً أخذ عليه مجامع نفسه.. وإن الكلمة الطيبة لحقيقةً أن تأخذ النفس، وتأسرها.. ((والذي نفسي بيده ما طرفت عيناى إلا ظننت أن شَفْرِي^(٢) لا يلتقيان حتى يقبض الله روعي، ولا رفعتُ طرفي فظننتُ أنى واضعه حتى أبيض، ولا لقمْتُ لقمَةً إلا ظننتُ أنى لا أسيغها حتى أغص بها من الموت.

(١) الطبراني في الأوسط ٦/ ٣٠٨، وقال العراقي في المعنى ٤/ ٤٥١: "أخرجه ابن ماجه مختصراً وابن أبي الدنيا بكماله بإسناد جيد".

(٢) الشَّفْرُ: واحد أشفار العين، وهي حروف الألفان التي بنيت عليها الشعر، وهو الهدب.. انظر: مختار الصحاح ص ١٤٤.

يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده إن ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين))^(١).

موعد الصفاء مع أحب لقاء:

دعنا من تفكير صاحبه وبكائه المختلط بابتسامةٍ عجيبة.. ولنعد للنظر إلى صاحبنا المنيب.. كما نحسبه والله حسيبه.. إنه الشاب الرائع القانت العجيب:

فقد أحب لقاء الله فلا ريب أن الله يحب لقاءه..

ذكر عنه بعض الجالسين من الشباب الصالحين أنه ربما مرت عليه في حياته أوقاتٌ كره فيها الموت.. لا لشيء إلا "خيفةً من أن يختطفه قبل تمام التوبة، وقبل إصلاح الزاد وهو معذورٌ في كراهة الموت هنا، ولا يدخل هذا تحت قوله ﷺ: ((من كره لقاء الله كره الله لقاءه))^(٢)، فإن هذا لا يكره الموت ولقاء الله، وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقاءه على وجهٍ يرضاه فلا يعد كارهاً للقاءه، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له، وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا، وأما العارف برّبّه فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعد لقاؤه بحبيبه.. حبيبه الذي حرص في حياته على ألا يخلف له ميعاداً فما أشد لهثاته وحرصه على إدراك تكبيرة الإحرام.. لأنه موعد اللقاء.. مع الكبير الجليل الودود ذي العلياء.

والحب.. الحبُّ لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب..

أعجبت هذه الجملة بعض الحاضرين فرددها: والحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب..

(١) الطبراني في مسند الشاميين ٢ / ٣٦٥، والبيهقي في شعب الإيمان ٤ / ١٢١، وانظر كتاب التذكرة للقرطبي ص ١٥.

(٢) البخاري ٥ / ٢٣٨٦، ومسلم ٤ / ٢٠٦٥.

أكمل أحدهم الحديث -بينما صاحبنا المنيب في غشيته-: "نعم المحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب..ولهذا قد يستبطن مجيء الموت..وقد يحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين، وموطن البلاء المبين، ولينتقل إلى جوار رب العالمين، ويتفياً فردوس الخالدين.. كما روى عن حذيفة رضي الله عنه أنه لما حضرته الوفاة قال: حبيبٌ جاء على فاقةٍ..حبيبٌ جاء على فاقةٍ..لا أفلح من ندم.."^(١)، ولا ندم من عمل لآخرته فغنم وسلم.

أيها الحبيب: لا تقف جامداً عند قراءة هذه العبارة بل ارفع يديك..ناج حبيبك بأصغريك، وقل: اللهم إنا نعوذ بك من الندم..نعوذ بك في الدارين من الخزي وحسرة الألم.

تردد الإفاقة والإغماء..لا تفلق..قد سبق ذلك مع خير الناس صلى الله عليه وسلم:

وفي هذه الأثناء أفاق صاحبنا من غشيته.. وما زال يكابد سكرات الموت..وعلق أحدهم مخففاً من جزع بعض أهله عليه:

"مهلاً..مهلاً..أما علمتم أن النبي صلى الله عليه وسلم كابد السكرات مراتٍ ومراتٍ..يحاول أن يفيق للصلاة فيذهب ليقوم فيغشى عليه..ثم يفيق فيذهب ليقوم فيغشى عليه..ثم يذهب ليقوم فيغشى عليه..وهو في ذلك كله صلى الله عليه وسلم يُغسل بالماء لينهض..وكم مسح عرقه الشريف صلى الله عليه وسلم وهو في السكرات". وعلى الرغم من هذا الحديث الذي يُعلّم الناس الصبر إلا أن المتحدث ما فرغ منه حتى انسكب دمه..وْحَقُّ له أن يدمع:

أيا عين حقلك أن تدمعي ويا نفس حقلك أن تجزعي

ويا كل جارحة لي عليك حفيظ فَبِكِّي ونوحى معي

كان هناك شخصٌ صامتٌ بين الحاضرين..ينظر نحو الجسد المسجى ثم يطأطئ نظره نحو الأرض..وفجأة انسابت منه دمعةٌ يتيمةٌ بعد أن رأى العرق يغزو جسد صاحب

(١) انظر: إحياء علوم الدين ٤ / ٤٥٠.

السريير.. وتمتم بكلماتٍ.. وصار حاله ناطقاً بالآف الجمل والعبارات.. انطلق بعض الحاضرين يسأله عن سرِّ ذلك.. فأجابه متنهداً: إنه لمن أحب الناس إليّ.. ولكنني لم أظفر به في الأيام الأخيرة.. ووَدِدْتُ لو كلمته قبل أن يحدث له ما حدث.. أما وقد امتلأ عرقاً، وظهرت معه أعراض الفراق.. فهو الموت لا محالة فإن النبي ﷺ يقول: ((موت المؤمن بعرق الجين))^(١).. ففعل العرق بشارته له بتحقُّق إيمانه إن شاء الله، وتكفير بقية خطيئة له أو رفعة درجاته.. لقد قال ابن مسعود: (موت المؤمن بعرق الجين.. تبقى عليه البقية من الذنوب فيجازى بها عند الموت).. الله! الله! أو ربما لأنه جاءته البشرية خجل واستحي فغرق جبينه^(٢).. يا أصحاب: لقد شعرت بموته لذلك، وعلى الرغم مما أظهرته للناس من تجلِّدٍ.. فقد خانتني عبرتي... وأظهر الحزن والشوق لهذا الحبيب لوعتي.

لساني كتومٌ لأسراركم ودمي كتومٌ لسري مذيع
فلولا دموعي كتمت الهوى ولولا الهوى لم يكن لي دموع

لتقرَّ القلوب الراجية لقاء الله ولتطمئن بالتكريم؛ ولتنتظر ما وعدها الله إياه، انتظار الواثق المستيقن بحب ربه العظيم؛ فإنه ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآتٍ، وهو السميع العليم﴾.

أبشروا! هنا موعدٌ مع المعنى الحقيقي لحسن الظن بالله:

وماله ألا يرجو ذلك وهو يعلم أنه ينبغي أن يكون في فراش الموت على موعدٍ مع حسن ظنه بربه.. بعد أن قدَّم بين يدي حسن ظنه بالله أعمالاً صالحة، وربه سبحانه يقول له ((أنا عند ظن عبدي بي فليظن عبدي بي ما شاء))^(٣).

(١) أحمد ٣٥٧ / ٣، الترمذي ٣ / ٣١٠، وقال: هذا حديث حسن، ورواه الحاكم ١ / ٣١٥، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وانظر التذكرة ص ٢٤، وأثر ابن مسعود.

(٢) انظر: فيض القدير ٦ / ٢٥٣.

(٣) ابن حبان ٢ / ٤٠١، وأصله في البخاري ٦ / ٢٦٩٤.

قال بعض الجالسين بحدوءٍ ظاهر: "ألا إنَّ هذا الموقف هو موقف حسن الظن بالله.. فإن النبي ﷺ قال: ((لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل))^(١)..".

أجابه آخر: "نعم..

ولكن كم كانت غفلة من أحسن ظنه بربه وهو يملأ ظهره من الأوزار..

يا لغفلة من يزعم أنه يُحسِّنُ ظنه بربه، مع أنه يسلك في حياته سلوك الفجار..

يا غفلة من يقيد حياته ويوثقها.. بخطايا هي غلاظ الأثقال والآصار".

التفت إلى القوم صديقٌ من أعز أصدقاء الحبيب المسجى على فراشه، وقال:

"..لقد تربى هذا الشاب المنيب على مائدة القرآن في حسن الظن بالله.. ما زلتُ أذكر يوماً

من الأيام ونحن نتذاكر هذا الموضوع.. فذكر أحدنا أن شيخ الوعاظ في مدرسة القرآن.. الإمام

الحسن البصري شرح معنى حسن الظن بالله شرحاً عجيباً مؤثراً فقال:

(إن قوماً أهتتم أمانى المغفرة، ورجاء الرحمة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم أعمالٌ

صالحة.. خرجوا من الدنيا وليست لهم أعمالٌ صالحة،

يقول أحدهم: إني لحَسَنُ الظنِّ بالله، وأرجو رحمة الله وكذب،

لو أحسن الظن بالله لأحسن العمل لله،

ولو رجا رحمة الله لطلبها بالأعمال الصالحة، يوشك من دخل المفازة-أي الصحراء- من غير

زادٍ ولا ماءٍ أن يهلك).."، وهل هناك مفازة وصحراء مظلمة أعظم من عرصات القيامة؟..

حيث ألم المذنبين.. حيث الحسرة والندامة.. ثم أخذت المتكلم نشغفةً من بكاءٍ.. فتحامل على

نفسه، وكفكف دمه، والتفت نحو صاحبنا المنيب المسجى على فراشه في حبِّ ورجاء،

وقال:

(١) مسلم ٤/ ٢٢٠٦.

لما تذاكرنا ذلك في مجلسنا، وسمع هذا الحبيب كلام الحسن البصري قال: فماذا تنتظرون هلم
فَلْتُرْكِ مجلسنا بطاعةٍ من ذكرٍ وصلاةٍ.. يذكركم الله بها يوم نلقاه.."

حسن ظني بحسن عفوك يا ربُّ جميلٌ، وأنت مالكٌ أمري
صنْتُ سري عن القرابة والأهل جميعاً وكنت موضع سري
يوم هتك الستور عن حُجُبِ الغيب فلا تهتكن للناس سري
لقبِّي حجتِي وإن لم تكن يا رب لي حُجَّةً ولا وجه عذرٍ

إنه صاحب القلب المنيب: لم تجتمع عليه سكرة الموت وحسرة الفوت.. واحدة تكفي:

نعم! نعم! ها هنا يكون حسن الظن بالله بعد عمرٍ حافلٍ بالصالحات، وكتابٍ للحياة مليءٍ بالحسنات.. دخل بعض الأحبة على شيخٍ من شيوخ التربية الإيمانية هو أبو حازم الأعرج لما حضره الموت فقالوا له: يا أبا حازم كيف تجددك؟ قال: أجديني بخير.. أجديني راجياً الله عز وجل.. حسن الظن به.. إنه والله لا يستوي من غدا وراح يعمر عقد الآخرة لنفسه، فيقدمها أمامه قبل أن ينزل به الموت حتى يقدم عليها فيقوم لها وتقوم له، ومن غدا وراح في عقد الدنيا يعمرها لغيره ويرجع إلى الآخرة لا حظ له فيها ولا نصيب^(١).

مسك الختام لخير حياةٍ مع الأنام:

وهنا استنار وجه الشاب المخبت المنيب، ورجفت الشفتان تتمتان.. وتساءل الناس وهم ينظرون: إنه يريد أن يقول شيئاً.. ماذا يريد أن يقول؟ أهو تأوّه؟ أهو وصيةٌ لم يكتبها؟ لا! إنه ينطق بكلمات النور.. نطق بأجل كلمةٍ يتحرك بها اللسان، ويفكر بها الجنان.. وأعذب ترنيمٍ يجب أن ينطق به المؤمن في آخر لحظات حياته الدنيا بلهفةٍ وحبٍّ

(١) حسن الظن بالله ص ١١٦.

وحنان.. لقد بدأ يرفع صوته ويكرر كلامه كأنما يستمع له المشرقان والمغربان.. فتتضح كلمات النور من شفثيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله..

اخضلت الوجنات بالدموع بين الحاضرين.. عندما سمعوه ينطق بكلمة التوحيد، واعتراهم الشوق له والحنين..

كبر بعضهم فقال: الله أكبر.. هتف آخرون: لقد دفع ثمن الجنة.. وتسلم مفتاحها. أليس ثمنها لا إله إلا الله؟..

أليس مفتاح باهما: لا إله إلا الله؟.

قال بعض الحاضرين والدموع تغالبه:

لله حياته والله موته.. لقد ثبته الله ﴿بالقول الثابت في الحياة الدنيا﴾ (إبراهيم: ٢٧) (١).

وحانت التفاتة حادة غريبة من أحد الحاضرين نحو صاحب القلب المنيب المسجى على فراشه.. كانت التفاتته مدهشة حتى نبهت من حوالبه.. فسألوه عن ذلك فقال:

ألا ترون إلى إشراق لونه.. انظروا إليه.. كم هو مشرق اللون.. صدق الله ورسوله، فقد قال ﷺ: ((إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند موته إلا أشرق لها لونه، ونفس الله عنه كربته، ورأى ما يسره.. وهي لا إله إلا الله)) (٢).

ثبتته الله حتى نطق بكلمة التوحيد.. في هذا الموقف الصعب الشديد.. نطق بكلمة التوحيد.. فاستحق الهناء والتمجيد.. وخسى بذلك عدوه الشيطان المرید.. فكيف يشقى وقد كان في

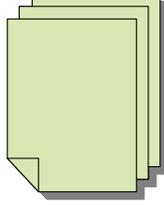
صحته وعافيته وساعة موته مع الولي الحميد:

كيف أشقى؟! وقد أنرت سبيلي
وشرحت الفؤاد بالتنزيل
كيف أشقى؟! وأنت مني قريب
تتجلى ببرك الموصول

(١) كما قال ابن عباس.. انظر: تفسير القرطبي ٩ / ٣٦٥.

(٢) أحمد ١ / ١٦١ في قصة مائة، وصحح إسناده الأرنؤوط، وقد رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

كيف أشقى؟! وأنت مالكُ أمري
أنت حسبي وراحمي ووكيلِي
كيف أشقى؟! وقد رحمتَ لجوئي
ورميتَ العدو بالتخذيَلِ
كيف أشقى؟! ومهجتي في هناءٍ
أنت يا رب مؤنسي وخليلي^(١)



(١) من قصيدة لشاعرنا المبدع عبد الرحمن العديني وفقه الله تعالى.

المشهد الثاني
الغيب يتحول إلى شهادة:
نحن ((أولياؤكم)).. إنه إعلان السعادة

الدرس الخامس:

آخر استفاقةٍ.. انظر من القادم ليلقى أحباءه وعشاقه:

الناس حول الشاب المنيب بين جاهشٍ بالبكاء، ومترقبٍ يلهج بالدعاء:

لملم بقايا قلبك المتصدع وارحم جفونك من لهيب الأدمع

ولكنهم لا يدرون.. لا يدرون أن مفاجآت السعادة بدأت تتوالى عليه من السماء.. ففي هذه الأثناء بدأت تحدث له قصةٌ عجيبة لا يدركها النائمون لا.. ولا الأصحاء:

استقبل العالم الجديد.. نعيمٌ أعد لكل أبوابٍ برّ قانتٍ سعيد:

كان وحده يرى سبب سكينته وأنسه.. وحده بين أكوام الناس المتحلّقين حوله المحيطين به يشاهد معنى سروره وعرسه.. إنه يرى عالماً جديداً.. مخلوقاتٌ نقيةٌ بديعة الخلق.. حسنة الوجوه حسنة الثياب من الملاء الأعلى.. يراها وهي تنزل عليه بصورةٍ لا أبهى ولا أحلى.. ثم هاهي - وفي لحظاتٍ - قد اجتمعت عليه، وحقّت بسريره، وملاّت عليه مجلسه.. يا للعجب! هو لا يستطيع فتح عينيه بصورةٍ سويةٍ ليشهد أهله وأعز أصحابه ما حوله من الأنباء والخبر.. ولكنه يستطيع أن يشهد عالماً جديداً تعجز أن تراه أعين الأسوياء من البشر.. إنه يرى عالم الغيب يتحول في هذه اللحظة الحاسمة من حياته إلى عالم شهادة.. {نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَرَ} [المدثر: ٣٦، ٣٧].

من هي هذه المخلوقات التي يراها تملأ عليه ناظره.. وما زال يراها تتوافد وتنزل عليه؟

إنها الملائكة تنزل عليه بأمر ربها.. والناس حوالبه للحقائق لا يشهدون، بل هم في شغلٍ آخر غافلون.. والبيان الرباني يخاطبهم: ﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ (الواقعة: ٨٥)..
 ينظر القانت إلى الملائكة هادئاً ساكناً.. لو استطاع لنطق مُرَجَّباً.. لو استطاع لنطق محيياً.. لو استطاع لتحرك طرباً، لو استطاع لقال كما قال مُجَّد بن المنكدر لصفوان بن سليم عند موته:
 (لو ترى ما أنا فيه لقرت أعينكم)^(١).

دعوه! لا تلوموه! دعوه!	فقد علم الذي لم تعلموه
رأى علم الهدى فسمى إليه	وطالب مطلباً لم تطلبوه
أجاب دعاءه لما دعاه	وقام بحقه ووضعتموه
بنفسي من ممنوح قرب	وطاعم مطعم لم تطعموه ^(٢)

لأول مرة: إنها أصوات الملائكة الأعلى تُسمع في الدنيا^(٣):

الملائكة تتوافد عليه.. رآها وهي تنزل عليه.. هكذا وصفها ربنا- عزَّ جاره- {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: ٣٠].

ملائكة الرحمة والحنان ما إن تنزل عليه، وتجلس من حوالبه مدَّ البصر.. حتى تنطق مباشرة له بما هو أثمن من الذهب والجواهر والدُّرر.. تقول له: لا تحف ولا تحزن.

(١) وقد ثبت في تراجم بعض أهل العلم وغيرهم من الصالحين أنهم كانوا يرحبون بملائكة الرحمة عند نزولهم.

(٢) النور السافر عن أخبار القرن العاشر ص ١٧٢.

(٣) كيفية قبض روح المؤمن وردت في روايات كثيرة متواترة منها في البخاري ١/ ٤٦٢، ١/ ٤٤٨، مسلم ٤/ ٢٢٠٠.. ومن أجمع هذه الأحاديث حديث البراء بن عازب الذي رواه أحمد ٤/ ٢٧٨، وأبو داود ٤/ ٢٣٩، والحديث مشهور معلوم الصحة، وتم تخريجه في المقدمة.. ومن ذلك حديث أبي هريرة الذي رواه ابن حبان ٧/ ٢٨٣.. ومعظم ما سيرد في هذا المشهد والمشهدين اللذين يليانه يرجع إلى هذه المراجع، ولذا لن يعود الكاتب للتوثيق..

الله! الله!.. إنه يسمع الآن البشرى.. البشرى بالنجاح في مسيرة حياته الحافلة بالأعمال الصالحة.. لقد كان ينتظر سماع ذلك أكثر من انتظار العاشق لمحبه، وأعظم من خبر الانتساب إلى الوظيفة المرموقة أو التفوق في الدراسة لطالبه.. نطقت الملائكة ففاح النطق شداً وعبيراً ولو استطاع لامتلاً هو بما تيهأ وسروراً، وكانت أول كلمة يسمعها تساوي الدنيا وما فيها، لقد قالت له: لا تحف ولا تحزن..

في ساعة الانتقال: كفاها بشرى.. من أولياته ومحبيه من المملأ الأعلى:

ماذا سيقول - لو استطاع أن يقول- وأول كلمة من عالم الغيب يسمعها: لا تحف ولا تحزن..

يا للملائكة الحبيبة! سخرها الرب الودود لتستغفر له في الدنيا، ولتستغفر لمن معه من الذين آمنوا.. كانت تقول وهو حيّ صحيحٌ سويّ قوي.. يعبد ربه الجليل.. تتزئم بأعظم كلمات المحبة التي بيّنها التنزيل.. وتُظهِرُ في كلماتها إشفاقاً عليه وعلى أصحابه في الدنيا في وقت عزّ فيه الصاحب النبيل:

{ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ } { غافر: ٧ } ..

كان في دنياه يسمع ترنيمها في القرآن تطلب للمؤمنين التكريم.. فتقول: { رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } { غافر: ٨ } ..

كان في دنياه يرى إشفاقها على المقصرين من عذاب أليم.. فتقول: { وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ } { غافر: ٩ } ..

الله! كان يرى حبها له في الدنيا.. يحسُّ به.. فيمتلئ قلبه طمأنينةً وبشراً.. وها هو ذا الآن يسمعها بأصواتها العذبة، ويراها بميئاتها النقية.. وهي تزف له أعظم كلمة كان ينتظرها منذ عرف الله والرسول والدنيا والآخرة والجنة والنار: لا تخف ولا تحزن..
أنتظر -أيا حبيباه- أن يحدث لك المشهد ذاته بلهفٍ وشوقٍ كما كان ينتظره؟.

بداية الزفاف:

ما زال الطاهر المخبت المنيب في دنياه تغالبه السكرات، الناس من حوله في شغلٍ عظيمٍ وحزنٍ جسيم، وهو في شغلٍ عنهم في فرحٍ لا يستطيع التعبير عنه بسبب آلام الموت.. وإن كان بهاء ملائكة الرحمة ونورها قد انعكس على وجهه، وهو بين الحياة والموت.. ربما تساءلت: ما معنى تلك البشرية؟ فاسمع الجواب يا صفوة الأحاب.. من ريك التواب.. إذ يصف لنا ربنا -عزَّ جارِه- مشهدَ تنزُّل الملائكة عليه بأدق التفاصيل.. أبشر أيها المخبت فلك مصيرٌ كهذا المصير الجميل، إن عشت لربك حقاً وأنت بين يديه عبدٌ مُحَبَّبٌ ذليلٌ.. إنها "تنزل عليه فيما يَعْنُ له بما يشرح صدره، ويدفع عنه الخوف والحزن" (١)، وتُعلنُ بذلك بدء مراسيم زفافه إلى الآخرة.. فتقول له: لا تخف مما يستقبلك من أمر الآخرة، ولا تحزن على ما يستدبرك من أمر الدنيا؛ فإن كل شيءٍ ترجوه سيتحقق لك وما هو أعظم منه، وكل شيءٍ تخشاه سيُدْفَعُ عنك، وما هو أعظم منه.. كأن الملائكة تقول له: أتخاف من الأمور العظام التي تستقبلك بعد الموت؟ (٢) فلا تخف.. فإنك تستقبل الموت ويستقبلك وقد أويتَ إلى ركنٍ شديد.. إنه ركن الله.. أليس هو الصاحب في السفر.. بل والحضر.. وهو المليك المقتدر؟..

(١) انظر: تفسير البيضاوي ٥ / ١١٤.

(٢) هذا تفسير مجاهد.

ومع ذلك فأنت أيضاً في حراسة الكرام المقربين، من الملائكة الأطهار القانتين، وستُحَفَّفُ عنك آلام الموت فاطمئن ولا تخف.. فكل أمر تحبه متحققٌ مستقر.

وعلام تحزن؟ أتخزن على ما خلفت من أهلٍ ومالٍ وبنين؟ فلا تحزن على ما حَلَّفت.. فإن ولاية الله لك ستجري فيهم بما تحب كما لو كنت حياً وأفضل من ذلك،، أليس هو الخليفة في الأهل؟.

اسمع إلى الملائكة تقول له -كما يقول مجاهد-: لا تخافوا الموت، ولا تحزنوا على أولادكم فإن الله خليفتم عليهم^(١).

أيها القانت الأواب: لا تخف أن يُردَّ ثوابك، ولا تحزن على ذنوبٍ فرطت منك في حالة ضعف:

كأن الملائكة تقول: أيها القانت: ممّ تخاف وعلام تحزن؟ أتخاف يا ولي الله أن يُردَّ ثوابك، وألا يقبل عملك.. خوفاً من أن يكون صاحبه رياء، أو قلقاً من ألا تكون أتقنته، أو إشفاقاً من الذنوب التي اقترفتتها عندما ضعفت نفسك.. فخشيت أن تهلك الذنوب صالح الأعمال..؟ ها هي ذي الملائكة تقول له -كما يقول عطاء بن أبي رباح-: لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول، ولا تحزنوا على ذنوبكم.. فإني أغفرها لكم^(٢).

لله أنت أيها القانت الأواب: لطالما كنت تفرع من ذنوبٍ فرطت منك في لحظة ضعفٍ، وتخاف من علام الغيوب على أفعالٍ سالفات خشيت من مغبتها.. هنيئاً! لقد كانت التوبة نصوحاً، وعاد الشيطان بعد أن أُوعِكَ باستغفارك خاسئاً كسيحاً:

اعفُ عني وأقبلْ عشرتي يا غيائثاً لملمات الزمن
رب لا تعاقبني فقد عاقبني ندمٌ أقلق روعي في البدن

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٥ / ٣٥٩.

(٢) تفسير القرطبي ١٥ / ٣٥٩.

إن تؤاخذني فمن ذا أرتجي؟ وإن لم تعف عن ذنبي فمن؟

ولم الخوف أو الحزن وأمامك الآن دار السعادة، وعند ربك أعم الوفادة:

تظل الملائكة توالي التبشير على هذا العبد المنيب.. المحتضر، فبعد كل التطمينات السابقة تحتم البشرى له بما كان ينتظر سماعه فإن عمله في الدنيا، ونجاحه في اختبارها يتوقف على أن يسمع أنه قد استحق الجائزة المترتبة على النجاح وهي.. ما هي الجائزة المنشودة؟ إنها الجنة التي ما نام يوماً عن سؤالها، ولا غابت ساعةً عن باله..

ولذا تبادره ملائكة الرحمة من حبها له بكبرى البشائر: {أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: ٣٠].. الجنة التي وعدك بها الله، وحدثك عنها الرسل.. أبشر بها أيها المنيب.. فالآن موعد رحيلك إليها:

فحي على جنات عدنٍ فإنها منازلك الأولى وفيها المخبئ

أيها الأبرار الصالحون: أبشروا {بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: ٣٠] بما في الدنيا فإنكم واصلون إليها، مستقرون فيها، خالدون في نعيمها.

أيها الحبيب الصفي: في رحلة الأهوال القادمة الصعبة.. الصعبة:

لربما خطر ببال المؤمن ساعتها إن أمكنه التفكير^(١) أن يتساءل في لحظة وجوم بعد نشوة فرح: ولكن الرحلة من سكرات الموت إلى دار السعادة يتخللها القبر وأهواله، والقيامة وعرضاتها، والحساب وفضائحه، والعبور على جسر جهنم وشدته.. فكيف سأصل إلى الجنة؟ كيف السبيل للأمان في هذا الطريق الذي تُنسف فيه الجبال، وتخبو فيه أنوار الشمس والقمر؟ كيف السبيل للأمان؟ وهاهنا تقطع عليه الملائكة حبال تفكيره لتطمئنه عن السبيل

(١) يظهر أنه يمكنه التفكير بدليل استيعابه لمعاني هذه البشائر، ولثبوت ذلك على من يغشى عليه من الموت، وقد قال النبي ﷺ في مرض موته قبل قبضه بلحظات وهو يخير من جديد: في الرفيق الأعلى الأسعد..

للوصول إلى الجنة فتقول له: { نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } [فصلت: ٣١] نحن معكم في الدنيا والآخرة.. فلا تفرعوا من وحشة الطريق.. فنحن- كما يقول مجاهد-: نحن قرناؤكم الذين كنا معكم في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قالوا: لا نفارقكم حتى ندخلكم الجنة..

تقول لهم الملائكة- كما يقول السدي وغيره-: نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا نحفظ أعمالكم، ونلهمكم الحق، ونحملكم على الخير.. نسددكم، ونوفقكم، ونحفظكم من بين أيديكم، ومن خلفكم بأمر الله بدل ما كانت الشياطين تفعل بالكفرة، وسنبقى معكم في الآخرة نؤنسكم من وحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط، ونوصلكم إلى جنات النعيم^(١) حينما يتعادى الكفار وقرناؤهم^(٢).. حتى نسلمكم إلى الجنة.. إلى دار السعادة..

أجل.. كان الحفظة وملائكة الرحمة قريين من المؤمن في الدنيا لقربه من ربه.. وكانوا يحفظونه ويتولونه لأنه تولى الله:

من له في ثروة الهادي نصيب فهو من جبريل في الدنيا قريب

وهذا التبشير يتكرر عند موته وفي قبره وحين يبعث^(٣) زيادةً في التطمين لشدة الهول في يوم الفرع المبين.

.. بل اطمئن يا ولي الله فإن الملائكة تتولاك، والله من قبلها وبعدها يتولاك فالله ولي المؤمنين ومولاهم^(٤).

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ١٠٠.

(٢) البيضاوي ٥ / ١١٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٤ / ١٠٠.

(٤) انظر: تفسير القرطبي ١٥ / ٣٥٩.

أيها المشتاق.. هل أتاك نبا قصة حبٍ طاهرٍ صادقٍ بين مخلوقين.. تجاهله العشاق^(١):

إنها قصة الحب الممتدة من الدنيا وتبقى حتى تستقر أيها العروس في قصرك الأبدي، وملكك السرمدي: قصة الحب الطاهر بين الملائكة الكرام الحافظين وبين البشر المؤمنين، ولذا تتابع الملائكة أخلاءها المؤمنين في الدنيا بالاستغفار لهم والدعاء، وبالحفظ من الآفات والبلاء، وفي سكرات الموت تأتيهم مبشرةً مُهَيَّئَةً، ويوم القيامة تتلقاهم كأحر ما يكون التلقي، وفي الجنة تدخل عليهم من كل باب، وستتبع قصة الحب هذه عياناً كما بينها القرآن المجيد.

وحسبك أن تعلم هنا -أيها المشتاق- أن الملائكة تبادر إلى تبشيرك في المواطن العصبية بما يرفع عنك الهمَّ ويُذهبُ عنك وعورة الموقف:

كما قال تعالى: {هُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [يونس: ٦٤] إذا المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة، وأما بشراهم في الآخرة فكما قال تعالى: {لَا يَحْزَنُهُمُ الْقَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} [الأنبياء: ١٠٣] ^(٢)...

أيها الغريب.. في دنياه.. الشاكي من عدم الصاحب القريب: احفظ الله في دنياك فإن الملائكة تحبك وتصحبك في دنياك وأخراك... ولنعد إلى العبد المنيب المسجى على فراشه:

دغدغة عواطف العبد المخبت على فراش موته بذكر بعض نعيم دار السعادة:

ومن حب الملائكة للعبد المنيب وتبشيرها له، وقربها منه، ورغبتها في التخفيف عنه من آلام الموت تنطلق في ذكر بعض ما سيلقى في دار السعادة.. تدغدغ عواطفه، وتهيب نفسه، وتفعمه فتقول له بعد ذلك: {وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ}

(١) لفظة العشق هنا من باب المجازة في بيان شدة الحب لا بالمعنى المعروف وهو العشق لمن ينكح فهو غير مراد في الكتاب.

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٤٢٥.

[فصلت: ٣١] كأنها تقول له: يا حبيب! ماذا تريد أكثر من التبشير بالجنة؟ على عاداتكم أيها البشر! تقلقون على الرغم من أننا قد بشرناكم بأعظم بشرى.. ألا نخبركم عن الجنة.. ألا نشوقكم لتحبوا نزولنا عليكم لقبض أرواحكم: لكم {وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ} [فصلت: ٣١] لكم ما تسألون وتتمنون وتطلبون.. فمهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم^(١)، وذلك كله {نُزُلًا} [فصلت: ٣٢] ضيافةً لكم {مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ} [فصلت: ٣٢] رد نزولك في دار السعادة، ومكان الريادة يتحقق لك ذلك.. فهو مقدمٌ لك من غفورٍ رحيم^(٢).

ألا يكفيك يا ولي الله أن لك في الجنة ما تشتهي نفسك.. ولك فيها ما تطلب.. من طعامٍ وشرابٍ ولباسٍ ونساءٍ، وخدمٍ وولدانٍ وقصورٍ، وأراضٍ وأنهارٍ، ووسائل نقلٍ، وبُسطٍ، وكؤوسٍ، وأكوابٍ... وَسِعَ خيالك وَعَدَّدَ إن أحبيث.. لا تعدد! لأن لك فيها ما تشتهي نفسك وتقرُّ عينك من الملاذ.. حتى.. لما سأل رجل النبي ﷺ عن الجنة أفيها خيل؟ قال: ((ذلك لك، ولك ما اشتهدت نفسك وقرت عينك)) كأنه يقول له: اطمئن ففي الجنة خيلٌ لا كخيول الدنيا، ولا تهم لأن لك كل ما تشتهي نفسك.. ولك كل لذة هنيئة طيبة، ونعيمٍ عظيمٍ مما لم يخطر ببالك.. وبه تقر عينك.. يا ولي الله فهل عرفت لماذا قال النبي ﷺ: ((وقرت عينك)) بعد قوله: ((تشتهي نفسك)).. وفي رواية تبين بعض مواصفات الخيل أن عبد الرحمن بن ساعدة قال: كنت أحب الخيل.. فقلت: يا رسول الله! هل في الجنة خيل؟ فقال: ((إن أدخلك الله الجنة يا عبد الرحمن كان لك فيها فرسٌ من ياقوت له جناحان يطير بك حيث شئت))^(٣).

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٠٠.

(٢) نزلاً على التفسير الأول منصوب على الحالية، أو جمع نازل وهو حال أيضاً.. وهذا هو التفسير الأول لها.

(٣) الطبراني في الكبير ٤/ ١٨٠.. مجمع الزوائد ١/ ٧٥، وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

يا ولي الله فما تريد بعد ذلك أكثر؟ استمع مشتاقاً ثم ارفع يديك راجياً وقل: اللهم اجعلنا من أوليائك يا أرحم الراحمين.

ولكن من الذي يحقق كل هذا؟ من الذي يجعل الأمنيات واقعةً، والغيب شهادةً، والخيالات حقيقةً، والرجاء ماثلاً أمام الأعين؟.

تقول له الملائكة: كل ذلك لكم -يا ولي الله-: ما تشتهي نفسك، وكل ما تطلب سيتحقق لك رزقاً وضيافةً يضيفكم بها الغفور الرحيم.. نعم الغفور الرحيم {نُزِّلًا مِنْ عَفُورٍ رَحِيمٍ} [فصلت: ٣٢]..

أيها الحبيب المشتاق: أتدري لماذا اختارت الملائكة وصف الله بالغفور الرحيم في هذا الموضوع؟ لم تختَر هذا الوصف إلا ليظهر لك يا ولي الله أن الله -جلَّ جلاله- يعامل أوليائه هناك وينظر إليهم من منطلق غفرانه.. لذنوبهم، كأنها تقول له: يضيفكم في دار رحمته من منطلق غفرانه لذنوبكم، ورحمته بكم بإدخالكم دار السلام، ومحل الكرام.. فلن يقابلكم بأسمائه الحسنى التي فيها القهر والجبروت والهيمنة والانتقام.. كلا! كلا.. بل يقابلكم باسم الغفور الرحيم^(١).. وهذه الكلمة البديعة {نُزِّلًا مِنْ عَفُورٍ رَحِيمٍ} [فصلت: ٣٢] تشعر بأن ما يتمنون بالنسبة إلى ما يعطون قليل.. فإن ما يُعطونه لا يخطر على بالهم فكيف يتمنونه؟.. ذلك كالنزل للضيف لا يخطر على باله ما سيقدم له غالباً^(٢)..

(١) هذا هو التفسير الثاني بجعل نزلاً مصدرًا منصوباً. انظر تفسير القرطبي ١٥ / ٣٥٩.

(٢) البيضاوي ٥ / ١١٤.

إنها البشرية.. تتابع.. أما المجرمون فيقولون حجراً محجوراً:

وهكذا تمضي ملائكة الرحمة في تبشير ولي الله في كل موطنٍ من مواطن الانتقال إلى رحمة الله الخالدة في الجنة، فإنها تبشره - كما يقول وكيع وابن زيد-: في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث^(١)،

وقارن بين هذه البشرية في هذا الموقف وبين حال المجرم الذي يقول الله تعالى عنه: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا} [الفرقان: ٢٢] وذلك في وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار والغضب من الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: أخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث.. اخرجي إلى سموم وحميم وظل من يحموم، فتأبى الخروج، وتتفرق في البدن فيضربونه.. يا للضرب.. لو تراهم في ذلك الموقف لرأيت شيئاً مفرعاً عظيماً {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الأنفال: ٥٠] بخلاف حالك أيها المؤمن المخبت القانت في وقت احتضارك فإنها تبشرك بالخيرات، وحصول المسرات^(٢).. أصغيت سمعك لهذه البشائر؟..

يا لهفة عبدٍ وهو يسمع هذه البشرية،

لله لهفة عبدٍ وهو يوالي المعصية تلو المعصية في حياته الحسرى،

لله لهفة عبدٍ وهو يقدم لذائد دارٍ دابر أهلها مقطوعٌ مصبحين...

لله لهفة عبدٍ وهو يطرح قيام الليل ويبيت في غفلاته تارةً بعد أخرى..

ويل عبدٍ.. ألم يعلم بأن الله يرى..

قم في ظلام الليل واقصد مهيمناً يراك إليه في الدجى تتوسلُ

(١) تفسير القرطبي ١٥ / ٣٥٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ٣١٥.

وقل يا عظيم العفو لا تقطع الرجا فأنت المنى يا غابتي والمؤمل
 فيا ربّ.. فأقبل توبتي بتفضل لمن اشتكى حالي.. ومن أتوسل؟

بعد هذه البشائر المتتابعة: ما هي أعظم أمنية لك أيها المخبت المنيب:

ماذا تتوقع من المخبت المنيب بعد سماعه كل تلك البشائر إلا أن يطير قلبه فرحاً وشوقاً للقاء ربه، وهنا يتجدد على الأسماع الأوابة، والقلوب المخبته التوبة، والنفوس الشريفة المهابة قول النبي ﷺ: ((من أحب لقاء الله أحب لقاءه ومن كره لقاءه كره لقاءه)) قلنا: يا رسول الله! كلنا نكره الموت. قال ﷺ: ((ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائرٌ إليه، فليس شيءٌ أحب إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى، فأحب لقاءه..)) (١) ..

يا أيها المخبت الأواب: انظر إلى وصف النبي ﷺ: فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى..

يا ساهر الليل أرقاً تفكر في جنات عدن..ها هو ذا يومك هلّ واقترَب..
 يا داعم العين خوفاً من النار، وشوقاً إلى دار السلام.. ها هو ذا طريقك قد أُضِيت أعلامه فسبِّح واقترَب..

يا ساجداً يناجي ربه في ظلم الليالي بقلبٍ محبٍ مضطرب..ها هو ذا منار سعدك قد ظهرت حقائقه، وانتهدت أوهامه..فماذا تنتظر؟ ماذا تنتظر؟ أسرج الشراع، وأعلِن في الناس الخبر الذي تُحبُّ أن يُذاع: {قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ} [يس: ٢٦، ٢٧]..

يا لخبرٍ تقف الدنيا تعجباً له: المخبت المنيب ينتظر بفارغ الصبر أن يخرج من دنيا الأوهام..

(١) ابن حبان ٧/ ٢٨٠.

يرى أن عيشه بعد سماع هذه البشائر حرامٌ في حرامٍ..
 يرى أن عيشه بعد سماع هذه البشائر تأخّر عن نيل المرام..
 والباكون من حوله لا يعلمون أي سعادةٍ يذوق، وفي أي أمرٍ قد انشغل عنهم وهام..
 سيكون..يبكون وربما يصرخون يودون لو يبقى ساعةً من نهارٍ، أو يُمتنعون به سائر الأيام..
 ما علموا أنه يود أن يُعجلَ به إلى ربه..إلى دار السلام.

أيتها الملائكة الطاهرة: عجلي..عجلي..يا رب طال شوقي إليك فعجل قدمي عليك:
 بدأ المخبت الأواب يتغرغر،

وشعر الناس من حوله أن الروح قد بلغت الحلقوم، فما من الموت مفر..
 واهتز بعضهم إشفافاً عليه، وحباً له، وبرزت الدموع الحزينة تترى لا تستقر..
 ولشدة الحب، وقسوة الفراق عاد الأمل يتحرك في قلب أحدهم فظن أنه يمكن شفاؤه بوسيلةٍ
 أو بأخرى..وهكذا طبع المحبين..يودون أن يدفعوا عن أحبتهم الفراق ولو كان عين
 اليقين..قام يتحرك داخلاً وخارجاً عسى أن يُهدى لتذكر طيبٍ يعالجه، أو علاجٍ
 يسعفه...ولكن هل يمنع المقدر المحتوم؟..وكيف تُرى السماء الصافية وقد ملأت ساحتها
 الغيوم؟..

وانهارت مقاومة الأحياب، وجثوا على ركبهم في عجزٍ وهم يرون حياة صاحبهم قد استحالت
 إلى سراب، ورفعوا أيديهم إلى الله في ذلٍ واقتراب، ونادوا مجدداً بصيحاتٍ متأهبةٍ قد مُزجتْ
 بدموع الإحباط والاحتساب..نادوا {وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ} [القيامة: ٢٧]؟ هل من
 شافٍ؟(١)..أطلقوا صيحاتهم الملتأثة بدموعهم..هل من راقٍ؟ "على وجه الاستبعاد واليأس

(١) على التفسير الثاني بأن ذلك كان على وجه الاستبعاد لا البحث عن طيب وهو التفسير الأول، وقد تقدم في مكانه.

أي ما يقدر أحدٌ أن يرقيه من الموت" (١)..ومنادي الحق ينادي {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ} [الواقعة: ٨٣، ٨٤]..
 وأنتم حينئذٍ تنظرون أمري وسلطاني..فلا تستطيعون إلا الإذعان والتضرع..
 وأنتم حينئذٍ تنظرون إلى الميت لا تقدرين له على شيءٍ...
 إنه لقاء الموت " وصلت الروح إلى هذا الموضوع بحيث فارقت ولم تفارق.. فهي برزخٌ بين الموت والحياة، كما أنها إذا فارقت صارت في برزخٍ بين الدنيا والآخرة" (٢)،
 ومنادي الحق ينادي: هل أنتم {تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الواقعة: ٨٧] هل تستطيعون ذلك؟.

هل للفتى من بنات الدهر من واقبي؟ أم هل له من حمام الموت من راقبي؟

آخر نظرةٍ إلى دنيا الكدح:

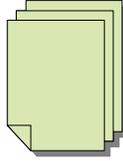
هنا تمّ الوصف القرآني للحظات القبض الأخيرة المشاهدة لمن حول الحبيب المنيب:
 (١) بدا اليأس من الطبيب، واستولى الضيق على كل صدرٍ رحيب، حزناً على فراق العبد المنيب.
 (٢) هنا {وَوَظَنَ أَنَّهُ الْفِرَاقُ} [القيامة: ٢٨] ظنَّ ثم تيقن حبيب النفوس أنه الفراق للدنيا وخاصةً بعد أن عاين الملائكة، وتيقن من حوله أنه الفراق لحبيبهم {وَوَظَنَ أَنَّهُ الْفِرَاقُ} [القيامة: ٢٨] فراق الدنيا والأهل والمال والولد..
 أسعديني بدمعك الرقراقِ لفراق الحبيب يوم الفراقِ

(١) تفسير القرطبي ١٩/١١٢.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص ١٤٨.

٣) ونظروا إليه، فإذا ساقاه..ساقاه تلتفان أحياناً مع شدة النزاع {وَأَلْتَقَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ} [القيامة: ٢٩] فاتصلت بجسده الضعيف شدةً بشدة..شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة^(١) فهو بلاءٌ ببلاء، والتفت لهذه الشدة والسكرات ساقاه..أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجله على الأخرى^(٢)، ثم ترى رجله تموتان، وساقه تبيسان فلم تستطيعا حمله ولقد كان عليهما جوالا^(٣)..يا لشدة الضعف، ورقة الحال، وهينة العجز التي يصير إليها عبدٌ طالما حاول ملء الدنيا ضجيجاً وصراخاً..فقد اجتمع عليه أمران شديدان: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه^(٤)..

هنا يلقي آخر نظرة على الدنيا..إنه آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة تلتقي الشدة بالشدة إلا من رحمه الله.. تلتقي شدة كرب الموت بشدة هول المطلاع..إلى أين؟ إلى أين؟! إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذِ الْمَسَاقِ} [القيامة: ٣٠]..ولكن المخبت يساق إلى ربه الذي كان به في الدنيا حفيماً، وهو جاعله في الآخرة رضيعاً.. ثم جري لصاحبنا المخبت في هذا الهول، والمنظر المحزن لطفٌ آخر يخفف عنه الكربة، ويلطف شدة خروج الروح من البدن..فماذا حدث؟.



(١) كما هو تفسير ابن عباس (رضي الله عنهما).

(٢) كما هو تفسير الشعبي وقتادة.. انظر: تفسير القرطبي ١٩ / ١١٢.

(٣) كما هو تفسير الحسن البصري. تفسير القرطبي ١٩ / ١١٢.

(٤) هذا قول الضحاك وابن زيد.

المشهد الثالث
رحلة الخروج:
إنه الزفاف وسعادة العروج

نعيمٌ في عذاب الموت؟ هل تتصور ذلك؟:

والآن وحتى لا يطول عليك الأمر.. أشرف بهدوءٍ حتى تشاهد ما يحدث للعبد المنيب في هذه اللحظات، انظر إليه، وعين حاله بعين البصيرة فهي أنفذ من رؤية البصر:

بهاءً وسناءً.. إنها رحلةٌ في آفاق الجمال.. تلعم في بداية الترحال:

هاهو ((العبد المؤمن.. في انقطاعٍ من الدنيا، وإقبالٍ من الآخرة))^(١).. وها هي ذي ملائكة الرحمة قد نزلت إليه ((من السماء)).. فما أجمل أشكالهم، وما أطيب ريحهم، فهم ((بيض الوجوه..-بيض الوجوه حتى- كأن وجوههم الشمس)).. كأن وجوههم الشمس الصافية.. رأيت نورها وسناها؟ ألمحت كيف تسبغ على الأرض بهاءها وإشراقها.. فكأنهم هي، وكأنها هم أولاء، ولكن ما هذا الذي معهم؟ يا لجمال منظره، ولنعومة مخبره، ويا لعبق رائحته.. إنه ((كفنٌ من أكفان الجنة، وحنوطٌ من حنوط الجنة)) وهذا الكفن عبارةٌ عن ((حريرةٍ بيضاء)) حتى توضع الروح فيها، ولا بد من تطيبه مع طيبه، ولذا كان الحنوط مع الكفن.. الكفن لباس.. والحنوط عطرٌ حسنٌ يملأ الأنفاس.. وفي زحمة الناس.. أخذت ملائكة الرحمة أمكنتها.. لبت الناس الباكين حوله يشهدون عرسه.. فإن الملائكة قد جلست منه ((مد البصر)) ((ثم)) لا يتم نشط الروح إلا بوجود ملك الموت العظيم بهيبته وقوته، ولذا تنتظر الملائكة لنزول ملك الموت ليستل روحه.. ها هو ذا! ها هو ((يجيء ملك الموت -عليه السلام- حتى يجلس عند رأسه))، انظر إليه.. يشتد عليه الموت.. ويتألم لخروج روحه.. ولكنك

(١) هذا حديث البراء المشهور الذي رواه أحمد ٤/ ٢٧٨، وأبو داود ٤/ ٢٣٩، وتقدم تخرجه في المقدمة.

إذا انتقلت إلى عالم الغيب فإنك ستراه تأتيه ملائكتك ربه من {وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا} [النازعات: ٢] طيبين مطيبين.. فيبدأون بجذب روحه برفقٍ ف(تنشط أرواح المؤمنين) أي تُحلُّ حلاً رقيقاً كما ينشط العقال من يد البعير، وكما ينشط الدلو من البئر فيحل حلاً برفق.. بخلاف الكافر الذي تنزع روحه نزعاً مغرقاً في النزع.. وتسبح الملائكة سبحاً في إخراجها من جسده وعروقه كسبح الغواص الذي يخرج الشيء من أعماق البحر.. (١).

ووصلت الروح الحلقوم، ثم خرجت كأطيب ما ذرأها عليه الحي القيوم.. يا للمنظر الذي حاز كل جمال، وغشيه كل جلال.. حُقق للمترنم أن يقول فيه وفي الملك المباشر الذي يصنع هذه النقلة البديعة:

إن الذي أصبح طوعاً يمينه إن لم يكن قمراً فليس بدونه
ذلي له في الحب من سلطانه وسقام جسمي من سقام جفونه (٢)

لا! بل يقال عن ملك الرحمة:

حُي له والروح قبضُ بنانه ونعيم جسمي من نعيم جفونه (٣)

استقبل تحية الخروج فرحاً جَدلاً من عالم الفانية إلى عالم الباقية:

وتأمل أي حبيباه: تأمل وانظر إليه، حيث تنهال عليه التحيات العطرة على ثلاثة أشكال.. استمع إلى حُداء الملائكة وهي تحييه عند خروج روحه.. ترتل تحاياها له ليشرق له عالم الخلود، ويظهر له النعيم المقيم:

التحية الأولى: من الله الجليل الكبير المتعال الذي جعل للمؤمنين وداً.. قد جعل لعبده هذا وداً إذ ما إن خرجت روحه من جسده حتى كان النداء الإلهي: {يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ

(١) تفسير البيضاوي ٥/ ٤٤٥.

(٢) تذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٧٨.

(٣) عددٌ من هذه الاستدراكات البديعة مستفادٌ من عددٍ من شيوخنا ممن راجع الكتاب جزاهم الله خيراً.

(٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّاتٍ {الفجر: ٢٧ - ٣٠}.

يا أيتها النفس المطمئنة: المؤمنة الساكنة الموقنة.. التي أيقنت أن الله ربها العلي الوهاب.. فأخبتت لذلك، واطمأنت بإيمانها وبما سيأتيها من وعد حقٍ وثواب..
يا أيتها النفس المطمئنة الراضية بقضاء الله التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها.. ف" اطمأنت النفس إلى الله تعالى.. اطمأنت إلى كفه".
يا أيتها النفس المطمئنة: المخلصة الآمنة من عذاب الله، التي اطمأنت لأنها بشرت بالجنة عند الموت، وعند البعث، ويوم الجمع..

يا أيتها النفس المطمئنة: العارفة بربها التي لا تصبر عنه طرفة عين.. المطمئنة بذكره تعالى في غفلةٍ من الثقلين.. فالذين آمنوا تطمئن {قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ} {الرعد: ٢٨} (١) فتطيب لمراهم كل عين.

التحية الثانية: من ملك الموت: ((فيقول)) عند خروج الروح الطاهرة - كما يخبر الحبيب المصطفى ﷺ -: ((أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرةٍ من الله ورضوان)).. الله! الله! يا لصوت البشرى والنعيم والحنان، ويكرر النداء حباً: ((يا أيتها النفس المطمئنة اخرجي راضيةً مرضيةً مرضياً عنك)).

التحية الثالثة: من الملائكة.. من ملائكة الرحمة حوله.. إذ يبدأون تلك الروح الطيبة بالسلام فيقولون: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} {الزمر: ٧٣}.. سلام.. وهل للمرء شيءٌ أحب إليه من أن يسمع

(١) انظر: تفسير القرطبي ٥٧ / ٢٠، الروح ص ٩٣، وقال: وقد قال غير واحد من الصحابة والتابعين: إن هذا يقال لها عند خروجها من الدنيا، يبشرها الملك بذلك.. ولا يباي ذلك قول من قال: إن هذا يقال لها في الآخرة.. فانه يقال لها عند الموت، وعند البعث، وعند دخول الجنة.. وهذه من البشرى التي قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ توعَدُونَ﴾.. وهذا التنزل يكون عند الموت، ويكون في القبر، ويكون عند البعث، وأول بشارة الآخرة عند الموت.

أنه في سلامٍ، وسيصير إلى سلامٍ.. أولاً توقد مشعلك أيها المقدام.. لمصيرٍ كمصير هذا الهمام؟.. ثم يرتلون له أنشودة الاستقبال العذبة: ((اخرجي راضيةً مرضياً عنك إلى روح وريحان، ورب غير غضبان))، ولا ينسى هؤلاء الطيبون المطيبون من الملائكة أن يهنئوا المؤمن فور خروج روحه بحصوله على جائزة النجاح في اختبار الدنيا: الجنة.. فإن المؤمنين تتوفاهم الملائكة {طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل: ٣٢].. نعم! إنها الجنة في كل لحظة ينبغي أن يُذكَر المؤمن المخبت بسعة الله الغالية.. "فيا عجباً ممن آثر الحظ الفاني الخسيس.. على الحظ الباقي النفيس.. وباع جنّة عرضها الأرض والسموات.. بسجنٍ ضيقٍ بين أرباب صغار الأمنيات" (١).

ثم تعلن ملائكت الرحمة الثناء العطر لهذا العبد الفائز على الملأ: ((فيقولون: ما وجدنا ريحاً أطيب من هذا)).

ثم يقولون: أيها الراحل عن الدنيا.. المقبل إلى الدرجات العليا: سلامٌ لك.. سلامٌ لك فعسى أن تكون من السابقين المقرّبين أهل الجلال والتكريم.. {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ} [الواقعة: ٨٩]،

أو أقلُّ أحوالك أن تكون من أصحاب اليمين.. من الأبرار المخبتين: {فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ} [الواقعة: ٩١].. "فسلامٌ لك أيها الراحل عن الدنيا حال كونك من أصحاب اليمين" (٢).. إنه مقام التكريم الذي تهفو إليه النفوس التواقّة، والقلوب المشتاقّة.. كم هو حجم شوقك له أيها المتيم؟ يا مقام التكريم والبشائر.. يا محل الآمال والمكرّمات:

أحبك لا تفسير عندي لصبوتي أفيسرُ ماذا.. والهوى لا يُفسرُ

(١) حادي الأرواح ص ٤ بتصرف.

(٢) حادي الأرواح ص ٦٦.

وتأبى جراحي أن تضم شفاهها كأنَّ جراح الحب لا تَنَحُّرُ
 لا! ذلك قليلٌ يا محلَّ المكرمات.. بل أناجيك بجملة قلبية لا بفصاحة بياني العاجز:
 أحب لقاء الله لستُ مُفَسِّرًا أفسر ماذا؟ حبه لا يُفَسِّرُ
 ويأبى بياني أن يفيض مُعَبَّرًا لأن عميق الحب ليس يُعَبَّرُ

الملائكة تتنافس على حمل الروح الطاهرة؟ من يريد صورةً تذكاريةً؟:

لا تبعدن عنه أيا حبيباه واخترق حجب الغيب ببصيرة النبوة، وانظر إليه تخرج روحه.. فكيف هي ريحه.. إنه ((يخرج كأطيب ريح المسك)) إلى الملائكة الأطهار الطيبين.. ومن لطف خروجها وعدم نزعه تخرج ((تسيل كما تسيل القطرة من فيّ السقاء)).. وذلك على يد ملك الموت، ويقوم ملك الموت يسلمها ((كما تسلم الشعرة من العجين))، ((فيأخذها))، ولكن لغيره ملائكة الرحمة عليها، وعدم حبهم أن تتصل الروح الطاهرة بمعنى الموت، يأخذونها من يد ملك الموت فور أن يتم عمله بإخراجها من جسدها.. إذ إنه لما ((أخذها)) لكأن ملائكة الرحمة غارت وتسابقت فر((لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها))..
 تَنَعَّم وأنت تنظر إليهم يبتدرونه.. كأن الكل يحب أن يتشرف بمس روحه الطاهرة.. والكلام البلدي البشري الصادق أقول لك: تراهم كأن كل واحدٍ منهم يود أن لو كان له تذكارة مع روحه الطيبة، ومن تنافسهم على ذلك يصطلحون على شيءٍ يجعل جميعهم يشرف بمس روحه؛ إذ((يناوله بعضهم بعضاً)).. أتفرح من حسن المشهد، أم تبكي شوقاً له؟.

ولا غرو.. فهؤلاء الملائكة هم {فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا} [النازعات: ٤] الذين يسبقون بأرواح المؤمنين إلى الجنة، وهم {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا} [النازعات: ٥] الذين يدبرون أمر ثوابها بأن يهيئوها لإدراك ما أعد لها من اللذات^(١).

الملائكة توصي بعضها بالرفق بك.. يا للشوق إلى دفء هذا الحنان:

وبعد أن يناوله بعضهم بعضاً ينقلونها من أيديهم لـ ((يجعلوها في كفن من أكفان الجنة [في حريرة بيضاء] [من مسك ومن ضبائر الريحان]))، كما يخلطونها بـ ((حنوط من حنوط الجنة))، وربما وضعوها في الكفن وطيبوها من الحنوط قبل ذلك.. ثم ((طويت عليه الحريرة ثم يبعث بها إلى عليين))، وعند ذلك يكلم ملائكة الرحمة بعضهم بعضاً إشفافاً على صاحبهم الحبيب، وحباً لروحه الطيبة.. وعمله الصالح المنيب ((فيقولون: ارفقوا به فإنه خرج من غم الدنيا)).. فلله موقفٌ تنهال فيه عبارات الحب، وتراويل الحب من الملائكة على هذه الروح.. إنه لسان صدقٍ يتبوؤه الإنسان في الآخرين.. ويا رب ألقنا بذلك برحمتك يا أرحم الراحمين.

لئن كانت نفس الكافر والمجرم تنأى الملائكة عن حملها، وتنفر عن سلها، وتأنف أن ترقى بها إلى السماء حيث يقول ملك الموت لمن حوله من الملائكة: {وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ} [القيامة: ٢٧] أي من يرقى بهذه النفس، وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها فيقول ملك الموت: يا فلان اصعد بها^(٢).. فيؤحتم عليه ملك الموت أن يصعد بها، وإلا فالكل راغبٌ عنها، لا يريد أن يحملها.. أما نفس صاحبنا المخبت فإن الملائكة تتنافس عليها، حتى

(١) انظر: تفسير البيضاوي ٥/ ٤٤٥، على أحد التفسيرات.. والكلام هنا عن الأرواح المؤمنة وإلا فالصفات السابقة تنطبق على ما تفعله الملائكة للكفار ولكن بالعكس.

(٢) تفسير القرطبي ١٩/ ١١٢، وهذا هو التفسير الثالث للآية (راق) هنا من رقي يرقى إذا صعد كما جاء عن ابن عباس أيضا وأبي الجوزاء.

يتناقلوها فيما بينهم.. تصور ذلك المشهد البديع: كلُّ يريد أن يرتشف من طهر نفسك المؤمنة.. كل ملكٍ يجب أن يلتمس الشرف بمصاحبة نفسك الطاهرة.. وليس ذلك لمالٍ تملكه، أو لجبروتٍ تتمع به النفوس.. كلا! بل حباً ورغبةً، لهفةً وشوقاً.. آه.. تعس مُلكُ الدنيا! تعس وانتكس.. هنيئاً.. هنيئاً لصاحبٍ يغدو في هذا المشهد..

العروج إلى السماء.. زفافٌ جديد:

ولأن روحه خرجت طيبةً مطيبةً من جسده، ثم طيبت أكثر بوضعها في تلك الحريرة الناعمة الرائعة من ((ذلك الكفن))، وزاد طيبها شذاً وعبيراً بوضعها ((في ذلك الخنوط)) فإن رحلة العروج إلى السماء قد بدأت.. إذ يعلن النبي ﷺ أنه ((يبعث بها إلى عليين)) بعد ذلك. تابعه أيا حبيباه! لا تطرف عينك عنه فهذا هو ذا - كما يصف النبي ﷺ -: ((يخرج منها)) يخرج من الأرض ((كأطيب نفحةٍ مسكٍ وجدت على وجه الأرض)). وفي الطريق إلى السماء.. ترتفع رايات الفرح والحب من الملائك الذين بين السماء والأرض وهم يشمون الرائحة الفيحاء قد ملأت عليهم الأرجاء، وانبعثت بها الأخبار حتى امتلأت بها الأصداء.. فيا لهذا العرس.. تأمل واهتف معي: اللهم فاجعلنا ممن ينالون شرف هذا اللقاء.. يصف الشفيع المرتضى ﷺ صعود الملائكة بها فيقول: ((يصعد)) الملائكة ((بها)).. يصعدون بالروح الطيبة ((فلا يمرون - بها - على مألٍ من الملائكة إلا)) أثار من التساؤلات المتلهفة عن هذه الروح الطيبة التي سعدت وفارقت غم الدنيا بنجاح.. تصور تساؤلات الملائك حوله عنه كيف توحى بعظمته، ومكانته عند ربك.. ها هي الملائكة تتساءل بلهفةٍ في كل موطنٍ تمر منه الروح الطيبة.

انقسم الملائكة الذين يزفونك إلى قسمين:

فقسّمهم المدبرون للأمر بين السماء والأرض يقولون في تساؤلاتهم: انظروا.. هذه ((روح طيبة جاءت من قبل الأرض))، ولا يقفون عند ذلك حتى يبادروا روحك بالدعاء المشفق المنيب لها حيث تقول ملائكة السماء: ((صلى الله عليك وعلى جسدك كنت تعمريه))^(١).. يا لهذا الدعاء الطاهر.. ما أحلى كلماته.. لقد كان هذا الدعاء الطاهر من الفم الطاهر كافياً.. ربّ ومولاي: اجعلنا من أصحابه..

ثم يجب أفراد هذا القسم من ملائكة السماء أن يتعرفوا شخصياً على الحبيب القادم من الأرض فيطرحون السؤال على مرافقيه من ملائكة الرحمة، وعلى العارفين من ملائكة السماء.. يطرحون سؤالهم: ((ما هذا الروح الطيب))؟، ولقوة الشذا الذي ينبعث من رائحتها يسألون متعجبين عما لبست وتعطرت حتى صارت بهذه القوة من النفاذ ففي رواية لابن حبان: ((ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من الأرض؟)) يسألون عن الريح وهم يريدون الروح.. فإذا كانت رائحته قد ملأت الأرجاء.. فكيف بالروح التي انبعثت منها تلك الريح الفيحاء؟.

وأما القسم الثاني فهم من يزف الروح الطيبة إلى مكانها الموعود في السماء، ومعهم من يعلم عن هذه الروح الطيبة بين الملائكة الموكلين بالأمر بين السماء والأرض يجيبون.. تصور التساؤلات والإجابات تصدر همساً وجهراً عنك وأنت تُزف.. يجيب من يعلم من الملائكة ((يقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا)) نعم! في هذه اللحظات تصور أن الملائكة تقول عنك وتسميك بأحب أسمائك إليك، ويتبادلون الحديث إشادةً بك وثناءً عليك.. تصور وهم يطلبون لك أجمل الألقاب، ويفخمونك بأعظم الأوصاف حتى يعلم عنك من لا يعلم..

(١) هذا الدعاء العذب الزكي عند مسلم ٤/ ٢٢٠٢.

أيا حبيباه: هذا المشهد المرتقب ولا ألقاب الدنيا، وهذه الفخامة ولا فخامة الدنيا..

أيها المخبت الأواب: كبار الملائكة ينضمون لتشيع روحك في زفافها:

وتظل الملائكة تشيع روحه الطاهرة ((حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا))..ويقفون أمام ((أبواب السماء))..فهنا بوابة الدخول إلى عالم الملائكة الأعلى..مبتعداً عن طين الأرض وسفاسفها..تصور عظمته.. وتصور في مقابل ذلك شوقك ولهفتك..لا! بل تصور: أيعتربك الخجل وأنت تستعد لدخول السماء الدنيا..

ثم تقوم الملائكة التي تشيعه بالاستئذان لك لفتح السماء أبوابها..أيا صاحب القلب المنيب: ((فيستفتحون)) لك الأبواب..؟ فمن ذا يمنعك من الدخول؟..

عندها تُعاد التحايا العطرة فتقول ملائكة السماء: ((ما وجدنا ريحاً أطيب من هذه))، ثم تنطلق الملائكة لفتح لك مَرْحَبَةً مَحِيَّةً ((يفتح لهم))، وأثناء الفتح تسمع الثناء عليك مجدداً من مستقبليك؛ إذ يقول ملائكة السماء الدنيا: ((ما أطيب هذا الريح التي جاءتكم من الأرض..))، ويتقدم كبار الملائكة من ملائكة السماء الدنيا، ومقربوها لتحييتك ثم ينضمون إلى مراسم التشيع البهيجة، ومعالم الزفاف السعيدة، وبذا ((يشيعه من كل سماءٍ مقربوها إلى السماء التي تليها))..وهكذا تنتقل من سماءٍ إلى سماء، ومراسم الإجلال تحيط بك من كل جانبٍ، ولحظات الفرحة تعتربك من كل حدبٍ.. وأجمل الملائكة، وأشرفهم ينضمون إلى موكبك ليكونوا خدماً لك، وجنوداً في صفوفك..وفي كل مرةٍ عند كل سماءٍ.. وفي كل سماءٍ تتكرر التحايا والتهاني والثناء العطر، ف((لا يأتون سماءً إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين))..

هل رأيت خساسة الدنيا الآن، وعلمت خداع مظاهرها، وزيف احتشاد الناس مع الدنيويين رغباً ورهباً.

لقاء رائع بأبيك آدم.. وسعادة وابتهاج مستحکم:

وهناك في السماء الدنيا لربما ذكر المخبت المنيب آدم أبا البشر -عليه السلام-، إذ طالما بلغه من النبي ﷺ أن آدم كان ينظر إليه مبتهجا به وبمن معه من الأرواح المخبئة المؤمنة.. نعم! آدم -عليه السلام-.. صَوَّرَ لنا النبي ﷺ مشهده هناك قاعداً في السماء الدنيا وهو يرى ((على يمينه أسودة، وعلى يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى.. وهذه الأسودة عن يمينه، وعن شماله نسمة بنيه.. فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى))^(١).
لقد فرح بك آدم -عليه السلام- منذ القدم، وفرح بك الملائكة الآن فقد صرت في القمم.

اجتماع مع المخبتين من المؤمنين في السماء: هل تحلم بزيارة سريعة لأعز الأصدقاء الذين خرجوا قبلك من الدنيا؟

في أثناء عروجه بين السموات تقوم الملائكة بنقله إلى المكان الذي تقيم فيه ((أرواح المؤمنين))، وذلك حتى يزيد بشره وسروره.. ويتضاعف جوره.. وحتى يثبت قلبه أكثر.. وذلك قبل الامتحان الكبير الأول الذي سيواجهه في القبر..
زَفَّتْهُ الملائكة إلى أرواح المؤمنين حيث وجدَ أصدقائه الذين سبقوه بالخروج من دار الدنيا.. وكان قد تعاهد وإياهم على الثبات على الدين، وطلب اليقين..

أخي إن تغشتنا بزخرفها الدنا وإن قَعَدَتْ بنا القوى والعزائم
ذكرناك.. فالعهد القديم مُوثَّقٌ وميعادنا أن نلتقي بك قائم

تتلاقى أرواح المؤمنين.. حيث النعيم المقيم، والوصال الدائم الطاهر الحميم.. ولقد وصفها رسول الله ﷺ صفةً أبكت أهل البيت فقال: ((إن أرواح المؤمنين في حواصل طيرٍ خضرٍ ترعى في الجنة، وتأكل من ثمارها، وتشرب من مائها، وتأوي إلى قناديل من ذهبٍ تحت العرش

(١) ورد ذلك في حديث الإسراء الطويل.. انظر: البخاري ١/ ١٣٥، والأسودة: جمع لسواد الشخص أي ظله ومنظره من بعيد.

يقولون: ربنا ألحق بنا إخواننا، وآتنا ما وعدتنا))^(١).. ألا يُبكتنا ويُشجينا قولهم: " ربنا ألحق بنا إخواننا، وآتنا ما وعدتنا"؟.

ها هو ذا النبي ﷺ يشرك بذلك.. فيقول: ((إن أرواح المؤمنين تلتقي على مسيرة يوم ما رأى أحدهم صاحبه قط))^(٢).. فخذ هنيئاً مريئاً فقد طال الاشتياق لصحبٍ سبقوا.. فيا لذة العناق حين ملاقاتة الصحب الصادقين من الرفاق.

أُخذت الروح الطاهرة المخبئة إلى هناك حيث أرواح المؤمنين والتقت مع أحببتها، وانتقلت بين أفنان الجنان، وطابت الحياة -التي لا يعلم كنهها إلا رب العباد- في جوٍّ من الحنان، والتقى المخبث الأواب، بكل حبيبٍ من الأصحاب، قد سبقه إلى خير مآب.. فطوبى لمن حَسَنَ دينه وجاء ربه بخير متاب.

وُقُوبِلَ هناك -في مجتمع أرواح المؤمنين- باستقبالٍ حافلٍ ممن كان يعرفه ومن لا يعرفه.. وهؤلاء هم من سَيُقَابِلُ أهوال القيامة معه؛ فإذا رآهم قبل ذلك اطمأنَّ قلبه بهم عند معاينة الأهوال.. وهم عندما يرونه.. تراهم -كما يصف الحبيب المجتبي ﷺ- تراهم ((أشد فرحاً به من أحدكم بغائبه يقدم عليه)).. أشد فرحاً به إذ نجح في امتحانه الدنيوي، واجتازه بتوفيقٍ من الله ورضوانٍ.. وانضمَّ إلى زمرة البشر والسرور، والنعيم والحبور.. في جوار ربِّ ودودٍ غفور.. استقبلوه فيا حسن ذلك الاستقبال.

وحدث لصاحبنا من الترحاب، وحرارة اللقاء مع ((أهل الرحمة من عباد الله))^(٣) ما يحدث لنا حين نلقى ((البشير في الدنيا)).. وأراد قومٌ منهم أن يتدروه بالسؤال عن أصحابهم وأخلائهم في الدنيا.. فيبتدر بعضهم من محبيه.. ممن شعر أن فراق الدنيا وغمها جديراً بأن

(١) الحديث جاءت ألفاظه مروية في عدة كتب.. ولكن الرواية المجتمعة هنا عند ابن أبي عاصم في كتاب الجهاد ٢/ ٥٢٠.

(٢) أحمد ٢/ ٢٢٠.

(٣) الطبراني في الأوسط ١/ ٥٣، والكبير ٤/ ١٢٩.

يتنهد له الإنسان فرحاً وحبوراً، ويأخذ راحةً تجعله يلهج بالحمد والتسبيح كثيراً ((فيقولون: أنظروا صاحبكم -أجروه وأمهلوه- يستريح فإنه قد كان في كربٍ شديد)).. ولكن بعضهم كان قلقاً على أخيه وحبيبه من أهل الدنيا، ويريد أن يعرفَ ويطمئن: هل مات على الهدى والدين؟ أم بقي في الدنيا على النور واليقين؟.. أم كان من الأردلين.. لذا يبادره بعضهم ((يسألونه: ماذا فعل فلان؟ ماذا فعل فلان؟ [ما فعلت فلانة])) ((ثم)) تبدأ الأسئلة المتلهفة تُوجّه إليه فـ((يسألونه [فيستخبرونه عن معارفهم من أهل الأرض]: ماذا فعل فلان؟ وما فعلت فلانة؟ هل تزوجت؟..)).

يكررون الاسم لهفواً وإشفاقاً.. ويسألون عن أحبّتهم حباً وإخباتاً.. ويكثرون عليه: فواحدٌ من هنا، وآخر من هناك..

يا لله لهذا المشهد البديع: أدرُ دمع الوفاء الصادق المدرار.. وقل رحم الله أبا الدرداء المخبت المذكّر الذكّار الشكّار.. فما أكثر ما كان يقول بعد أن مات صديقه الحبيب ابن راحة: (اللهم إني أعوذ بك أن تعرض علي أخي عبد الله بن راحة من عملي ما يُستحيا منه)^(١).. ولذا تلهفتُ بعض الأرواح المؤمنة في السؤال عن أحبّهم ممن خلفوهم في الدنيا..

دعوه فإنه كان في غمّ الدنيا.. افرحوا بمرتبته العليا:

ولكن بقية المؤمنين لا يستحلون أن يُسأل صاحبنا المنيب عن أمور الدنيا.. وهو قد خرج لتوه من غمّها.. بل يطلبون من بقية الأرواح المتلهفة على أصحابها أن تكفّ عن طرح الأسئلة.. وتصبر حتى يرتاح العبد المنيب ((فيقولون: دعوه فإنه كان في غمّ الدنيا)).

نعم! دعوه.. فإنه لم يكد يتخلص من غمّ الدنيا وهمّها ونصّبها ولأوائها وسمومها، وغدر أهلها، وشر فجارها..

(١) الحاكم ٦٨٦/٢.

دعوه.. حتى يأخذ نفساً عميقاً ليرى ما حوله من بهاءٍ، وصفاءٍ..

دعوه حتى يشعر بأن ربه قد حقق له كل رجاء..

يا لذاك الحنان.. ألا ترفع يديك يا عابداً في الليالي.. فتقول: اللهم فبلغني ذاك المحل العالي.

ولكن صاحبنا المخبت المنيب يجد من روح الملائ الأعلی، ونعيم الأبد ما يجعله بعد ذلك يستجيب، فيخبرهم عما سأله عنه.. فإن كان المسؤول عنه حياً أخبرهم بخبره.. ((فإذا قال: تركت فلاناً في الدنيا أعجبهم ذلك))، ولكن ((إذا سأله عن الرجل قد مات قبله فيقول: هيهات قد مات ذاك قبلي؟ فيقولون: [ما جيء به إلينا]) ويضيفون بألم -: ((إن الله وإنا إليه راجعون.. ذهب به إلى أمه الهاوية.. فبئست الأم، وبئست المريية))^(١).. نعم! فبئست الأم، وبئست المريية..

أيها البررة الفائزون: وفي ذلك المجمع الذي ضمّ أرواحكم الطاهرة.. هناك تعرض أعمال إخوانكم من الأحياء ((على أقاربكم وعشائركم من أهل الآخرة، فإن كان خيراً فرحوا واستبشروا وقالوا: اللهم هذا فضلك ورحمتك فأتم نعمتك عليه، وأمته عليها، ويعرض عليهم عمل المسيء فيقولون: اللهم ألهمه عملاً صالحاً ترضى به عنه، وتقربه إليك))^(٢).. إنهم

(١) هذا الحديث فيه تفصيل لما ثبت عند النسائي ٤/٨، وصححه الألباني، وابن حبان ٧/٢٨٤، وصححه الأرنؤوط من تلقي الأرواح المؤمنة للميت، فالأصل قد ثبت صحيحاً، والزيادة المفصلة رواها الحاكم ٢/٥٨١، وقال: مرسلٌ صحيح، وكذا أوردها الطبراني في الأوسط ١/١٣٠، وأما عدم تصحيح صاحب العلل المتناهية له ٢/٩١٠، فراجع إلى السند الذي ساقه، ومثله ما ذكره في مجمع الزوائد ٣/٥٢.. على أن الزيادة التفصيلية أوردها كما وعظ بما الحسن البصري في رواية الحاكم موقوفةً عليه.. والحديث المجمل الذي ثبت يوحى بالتفصيل الذي هو محل نظرٍ في الثبوت.

(٢) الطبراني في الأوسط ١/٥٤، وانظر: مجمع الزوائد ٢/٣٢٧.

يدعون لأهل الدنيا بعد أن أكرمهم الله..فيا لشدة الصفاء والمحبة..يدعون فيقولون: ((اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا))^(١).

أيها القانت الأواب: ألا تُعدُّ لهذا الاجتماع الرحيب صياماً..أما تعد له قنوتاً وثباتاً وقياماً..لكم كان المخبتون من صحابة النبي ﷺ يذكرون هذا الاجتماع، ويطلبون من المحتضرين أن يبلغوا أصحابهم السابقين بنبا ثباتهم على الهدى واليقين.. اشتاق الصالحون من قبلُ للسلام على من سبقهم إلى رهم من المخلصين..فعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال: لما حضرت كعبا الوفاة أتته أم بشر بنت البراء بن معرور فقالت يا أبا عبد الرحمن! إن لقيت فلاناً فاقرأ عليه مني السلام. قال: غفر الله لك يا أم بشر نحن أشغل من ذلك.. قالت: يا أبا عبد الرحمن أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن أرواح المؤمنين في طير خضر تعلق بشجر الجنة [حتى يردها الله إلى أجسادها يوم القيامة]) قال: بلى! قالت: فهو ذاك^(٢)..إنه شوق الأحبة لأحبائهم في الدين..وسبيل الله المبين:

نعم هاجت الأطلالُ شوقاً كفى به.. من الشوق إلا أنه غيرُ ظاهرٍ

فما زلتُ أطوي النفسَ حتى كأنها.. بذي الرمثِ لم تخطُرَ على قلبِ ذاكرٍ

حياءً وإشفاقاً من الركبِ أن يروا.. دليلاً على مستودعاتِ السرائرِ^(٣)

وبعد قضاء لقاءٍ ممتعٍ مع المؤمنين، وتبادل التهاني بالنجاة والفوز في الاختبار الحقيقي المبين..تستمر مراسم التشييع إلى السموات العلى.

(١) أحمد ١٦٤ / ٣، وصححه الألباني..انظر ترتيب صحيح الجامع ٣٧ / ٤.

(٢) ابن ماجة ١ / ١٦٦..وحدِيث تعلق أرواح المؤمنين بشجر الجنة صحيح..انظر: ترتيب صحيح الجامع الصغير ٤ / ٢٠٢.

(٣) التذكرة الفخرية ص ١٢.

أبشُر بخير يومٍ مرَّ عليك: صك الرضوان، وشهادة الغفران، ونعيم الفوز العظيم.. يأمُر بإبرامه الرحمن:

وتستمر مراسم التشييع البهيجة تنقله من سماءٍ إلى سماءٍ.. ((حتى)) يرقى به كبار الملائكة المقربين ((إلى السماء السابعة)).. هناك يمر عليه خير يومٍ مذ ولدته أمه.. هناك يعلن المرسوم الإلهي بتعيينه في زمرة الأصفياء المقربين..

أيا خاطب الجنة: لا تغمض بصيرة عينيك! وتصور معي أيها الحبيب هذا المشهد وأملأ به قلبك وأذنيك.. هناك ((يقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبي في عليين))..

عندها رأيت وسمعت.. نعم! رأيت وسمعت.. رأيت وسمعت كيف حُتِم على كتاب سعادته الأبدية.. فقد كُتِب كتابه مع السابقين.. ومنادي الحق ينادي: {إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ} [المطففين: ١٨] فأعماله معهم - كما يقول الحبيب المختار ﷺ - ((في كتاب الله في السماء)) دون ارتياب، وقد أتى الملائكة كتابٌ من الله عز وجل محتومٌ بأمانه من العذاب..

وهكذا قُبِضَتْ روحه مَبَشَّرَةً طيبةً مُطَيِّبَةً.. وَصُعِدَ بها إلى الملاء الأعلى، وفتحت لها أبواب السماء، وتلقته الملائكة بالبشرى، ثم خرجوا معها، وشهدوا المقربون من الملائك في كل سماءٍ.. حتى ينتهوا بها إلى العرش.. وهناك حل عليه الرضوان، وجاءه الروح والريحان.. فأُخْرِجَ له من تحت العرش عليون؟ {وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ} [المطففين: ١٩].. واشوقاه لعلين حيث الشرف الأسمى، وسجل الكرامة الأعظم؟ أتدري ما عليون؟ أتدري ما فخامته وعظمته؟ أتعلم منزلته الرفيعة؟ إنه رِقٌّ - كتابٌ - مُعَلَّقٌ بالعرش أَرْقَمَ وَخَتَمَ لصاحبنا المنيب فيه بالنجاة من الحساب يوم الحساب، وشهده المقربون.. أكابر الملائكة والملاء الأعلى يشهدون.. ماذا يريد العبد من نعيمٍ وعظمةٍ وعلوٍ فوق ذلك؟ إن كتابه وصك نجاته، وشهادة تفوقه، وَوَسَمَ نجاحه.. "كِتَابٌ مَرْقُومٌ" [المطففين: ٢٠]، وليس مجرد أمرٍ غير مكتوبٍ.. بل هو مرقومٌ تحقيقاً

لكونه مكتوباً كتابةً حقيقيةً.. يُكْتَبُ له، ويوقع له به بمشهد المقربين من الملائكة والنبين،
وسادات المؤمنين" (١)..

أيا طالب السعادة العليا: لا تذهب بعيداً.. فإنك في دنياك ربما أتاك كتابٌ من مَلِكٍ أو حاكمٍ، أو توصيةً من أميرٍ أو وزيرٍ.. فذهب بك الفرح كل مذهبٍ أن يأتيك منهم شيءٌ من ذلك.. وأكبرت نفسك.. وربما علقت هذه الشهادة أو تلك التوصية على الجدران، والتمست لها الزخارف والألوان..

أيا عاشق الجنة وخاطب الرضوان: دعك من هذا الهديان..

وانظر إلى هذا التكريم العظيم من الملك الجليل الديان،
وتأمل في أن الشهود على شهادة نجاحه هنا هم الملأ الأعلى من الملائكة المقربين، والنبين والصديقين ورفيعي الشأن.. إنه الفوز الحق.. أما "أهل الدنيا فحيارى سكارى، فارسهم يركض، وراجلهم يسعى سعياً، لا غنيهم يشبع، ولا فقيرهم يقنع" (٢).. {فَدَرُّهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّى جِي} [المؤمنون: ٥٤]:

خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للنفاذ!
إنما ينقلون من دار أعمال إلى دار شقوة أو رشاد!

أيا أنيس القرآن.. أيا عابداً في محاريب الإيمان:

أيا صاحب القلب المنيب: هكذا كان شأنك أن يذكر اسمك في عليين.. يتناوبك ارتفاعٌ بعد ارتفاع.. رفعت روحك إلى أعلى الذرا، وسجل اسمك في عليين فوق جميع الورى، وشهده

(١) انظر: حادي الأرواح ص ٤٩.

(٢) انظر اغتنام الأوقات ص ١٣٢.

أعلى الخلق من المقربين المختارين من الملائكة فهم الملائكة الأعلى..ومنادي الحق ينادي {جَزَاءً
وَقَافًا} [النبا: ٢٦]..

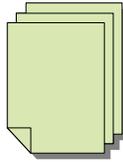
أيا عاشق الفردوس الأعلى: طالما كنت ترنو في دنياك إلى أعلى الأمكنة..فها أنت ذا تجزى
أعلى الجزاء في أعلى الأمكنة مع أعلى الخلق..

أي أنس القلب: شأنك: علو في علو..فأنعم به من علو مضاعف لا غاية له (١).

كيف ترى الفرحة يصنع بك يا حبيب القرآن..يا رفيع الإيمان..يا عالي الإحسان..إن كنت
بذلك المكان ترتفع ويُتَقَلَّ بك فتزدان.

وهناك في عليين: ماذا يقال في الوصف..؟ لا تغمض عينيك، ولا تبك..لا تغرق خديك
بالدموع..إلا أن يكون ذلك منك شوقاً وطرباً، وإشفافاً ألا تصل إن لم تتبغ له مُطَلَّباً..لا
تجلب الدمع الولوع إلا أن تكون دموع الفرحة أو دموع اللهفة والتعظيم، والرجاء من الرحيم
الكريم..عسى أن تزداد عند ربك جاهاً وحسباً..ثم التفت إلى أهل الدنيا ونادهم..نادهم:

تباً لطالب دنيا لا بقاء لها	كأنما هي في تعريفها حُلْمٌ
صفاؤها كدرٌ..سرورها ضررٌ	أماها غررٌ.. أنوارها ظلمٌ
شبابها هرْمٌ..راحاتها سَقَمٌ	لذاتها نَدَمٌ.. وجدائها عَدَمٌ
لا يستفيق من الأنكاد صاحبها	لو كان يملك ما قد مُلِكَتْ إِرْمٌ
فخلٍ عنها.. ولا تركزن لزهرتها	فإنها نعم.. في طيها نَقَمٌ
واعمل لدار نعيم لا نفاذ له	ولا يُخاف بها موتٌ ولا هرْمٌ



(١) انظر: تفسير القرطبي ١٩ / ٢٦٢.

المشهد الرابع
مرة أخرى.. إلى الأرض.. ولكن
اطمئن واستقبل أفراس البرزخ

ماذا حدث للجسد المسجى.. على الفراش أثناء أفراس الروح في الملاء الأعلى؟:
بعد أن تنتهي في السموات العلى مراسم التكريم والرحمة والغفران، ويصدر من الرب العظيم
مرسوم الرضوان، وتزهو الملائكة فرحاً بما ناله المخبت الأواب من الرحمن.. يُصَدِّرُ اللهُ -جلَّ
جلاله-.. الجليل الكبير المتعال أمره بإعادة عبده إلى الأرض تمضيةً لقضاء ليس له تديل ولا
اختلال.. ولكن بعد أن اطمأنَّ العبد المنيب إلى مصير السعادة القريب.. فتذوق شيئاً منه في
كل مرحلة من مراحل انتقاله.. فيقول اللهُ -جلَّ جلاله-: ((أعيدوه إلى الأرض؛ فإنني منها
خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى)).. فيُعاد حتى يُستكمل القضاء الإلهي في
البشر.. فيقول اللهُ لملائكته: ((انطلقوا به إلى آخر الأجل)).

ولكن ما حال جسده على الأرض، وما آل إليه أمر أحبائه الباكين، وأهله المصابين؟..
في بيته وعلى فراشه حيث غادرت روحه جسده أمام الحاضرين، وانطفأ أنينه في حين ازداد
الأنين الخافت من المحبين، قام بعضهم فأغمض عينيه ((فإن الروح إذا قُبِضَ تبعه
البصر))^(١)، وسجَّاه بغطاءٍ.. وقام بعض الصالحين فنادى نداءً الذاكرين، وابتهل ابتهاًل
الراجين اقتداءً بسيد النبيين وخير البشر أجمعين ﷺ فقال:
((اللهم اغفر لعبدك المنيب، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر
لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، وتَوَرَّ له فيه))^(٢)..

(١) انظر: مسلم ٦٣٤ / ٢.

(٢) دعاء النبي ﷺ لأبي سلمة في مسلم ٦٣٤ / ٢، والغابرين أي الباقيين.

وانطلق إليه بعض ذويه ومحبيه يلثمون جسده الطاهر، وينظرون إليه نظرة الفراق، وتسيح من أعينهم دمعة الأشواق.. وما يحسبون إلا أنه يرفل في وابلٍ من السعادة، وينعم في معية ملائك ربه بخير وفادة.. وما هي إلا لحظاتٍ حتى حملوه وهم يدعون له بالرحمة إلى مغسله ليغسلوه.. ثم كفنوا جسده بكفنٍ أبيض، وحنطوه بحنوطٍ من حنوط الأرض.. ولم يدروا بجمال الكفن الذي حملته ملائك الرحمة، ولو شموا أريج المسك الفائح من حنوط الجنة الذي غسلت روحه به لحقروا الدنيا..

الناس يبتهجون به في الدنيا.. وهم لا يعلمون فكيف لو علموا؟:

قام الأصحاب فجهزوا جسده الشريف إلى قبره، وحملوه في نعشه وهم ما يفتأون يخوضون في حُبِّهِ وِذْكَرِهِ، حتى أوصلوه إلى بيته الذي سيستقر فيه بقية دهره.. بدأت الجنازة بالسير.. والمحمول عليها لا يسمع شيئاً؛ إذ قد ارتفعت روحه إلى السماء لتنال صك الغفران والرضوان^(١)، وهنا يقص علينا القرآن، ونبي الفرقان ﷺ.. ما تعجز أعيننا القاصرة أن تراه، ونداء الحق يثبت المؤمنين {فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ} [الأعراف: ٧]. ففي هذه الأثناء أو قبلها بقليلٍ أو بعدها بقليلٍ أُعيدت ((روحه في جسده)) لاستكمال الحساب إعادةً معينةً لا تشبه حياة أهل الأرض إذ على الرغم من عودة روحه إلا أنه لا يستطيع أن يتحرك وهو مسجىً على سرير الموت، أو وهو داخل حفرته.. لإعادة روحه هنا إعادةً معينةً تدخل ضمن عالم الغيب.. وتبقى روحه معه حتى تغادره بعد سؤال الملكين ورؤيته لنعيمه في الجنة عبر فتحةٍ غيبيةٍ في القبر، وتغادر الروح إلى مكانٍ يعلمه الله^(٢)..

(١) أو صك الغضب والسخط والخسران لمن حبط عمله وكان من الغافلين.

(٢) وتبقى روح المجرم متصلةً بجسده نوع اتصال حيث يعذب في البرزخ ويحتل أن روح المؤمن تبقى كذلك متصلةً بالجسد نوع اتصال.

لله مكانك يا صاحب القلب المنيب: هذا مقامٌ يطمح إليه الطامحون:

مضت الجنازة المباركة، وسمعت أثناءها الناس يثنون على الأواب المخبت.. يمدحون عبادته.. ويثنون على أخلاقه، ويذكرون برّه بأمه وأبيه، ومعاملته الحسنة لسائر الناس.. يذكرون حب الناس له، وحبه للناس.. يذكرون مسامحته لهفواتهم، ومدافعتة للسيئة بالحسنة.. وهكذا كان الثناء..

وسمع السامعون رجلاً بين الجموع قد سمع كثرة ثناء الناس عليه فقال: وجبت له الجنة.. فقال له بعضهم: لا يصح أن نقطع لأحدٍ بالجنة؟..

فردّ عليه: ألم تسمعوا قول رسول الله ﷺ: ((من أثنتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أثنتم عليه شراً وجبت له النار.. أنتم شهداء الله في الأرض.. أنتم شهداء الله في الأرض.. أنتم شهداء الله في الأرض))^(١)..

وجرت الأفكار تناوش عقولاً أخرى: يا لبشائر الطهر التي تتبعك - يا صاحب القلب المنيب - حتى بعد أن غادرت عالم البشر.. فعند ربك كل صغيرٍ وكبيرٍ مُسْتَطَرٌ.. وهو ربك الودود سبحانه الذي أجرى على ألسنتهم ذكرك ليشهدوا لك كما شهد لك الملائة الأعلى بأعلى خير.. فهل من مذكر؟..

والتفت رجلٌ آخر إلى المصلين فقال: لله دره.. ما أكثر ما سيناله من خيرٍ، وما أعظم ما سيُصْرَفُ عنه من شر.. أكل هؤلاء اجتمعوا للصلاة عليه؟..

ثم تلفت حوله باكباً قائلاً: ربّ فاجعلني مثله وخيراً منه..

فاستفهم منه أحدهم: لم تردد مثل هذا الكلام؟ ولم تكثر الالتفات إلى من صلى عليه؟..

(١) مسلم ٢/٦٥٥.

قال: انظر إلى كثرة من صلى عليه.. هذا مقامٌ يطمح إليه الطامحون.. فقد قال النبي ﷺ: ((ما من رجلٍ مسلمٍ يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شَفَّعَهُم الله فيه))^(١).. وهؤلاء يزيدون على أربعين.. بل يفيضون..

وأكمل حديثه متأملاً مصير خيرٍ لنفسه: وكيف لا نشهد له بالجنة وقد رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً.. أتعلم يا أخي: ما أكثر ما شهدناه يقول: ((رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً في غدوته وعشيه.. وبعد كل أذانٍ.. وقد قال رسول الله ﷺ: ((يا أبا سعيد من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وجبت له الجنة))^(٢)).

دعهم أي أخاه.. دعهم يا -أنسَ النفس- في الدنيا يتحدثون مجرد تحدثٍ عن عالم اليقين.. وانتقل إلى عالم الغيب حيث الحق المبين.. لترى النبي ﷺ قد جعله عالماً للشهادة، إذ هم في أثناء سيرهم، وثنائهم، ودعائهم، وتسبيحهم رجعت روحه إليه.. سارت جنازته وقد ((احتملها الرجال على أعناقهم))^(٣).. وهي جنازةٌ ((صالحةٌ)) بشهادة الشهود، وواقع الحال.. ومضى موكب الجنازة المباركة والناس حولها يسرون ((بين يديها، وخلفها، وعن يمينها، وعن شمالها قريباً منها)).

عودة الروح الفرحة المستبشرة تنادي: قدموني.. قدموني:

ولأن الروح قد عاينت من رحمة الله في الملائ الأعلى، وأخذت من الله مرسوماً بأن يكون كتابها في عليين، فإنها فور أن عادت إلى جسده -نوع عودة-.. صاحت وهي على النعش.. صاحت صيحة الفرح لو كان في العالم من يسمع.. نادى فرحةً جذلانيةً: ((قدموني،

(١) مسلم ٢/٦٥٥.

(٢) مسلم ٣/١٥٠١.

(٣) البخاري ١/٤٤٢.

قدموني)) متلهفةً على إنهاء اختبارها الأول في القبر.. لم يشعروا بها وهي تستعجل الوصول إلى حفرتها.. لتبدأ لها سعادة الأبد..

قَدِّمُونِي.. قَدِّمُونِي: أنشودة الخلود.. لعبدٍ منيب.. أرضى ربه المجيد، فعاش قبل موته عيشة الحميد.. وهو سيلقى بعد موته مصير عبدٍ سعيد..

قَدِّمُونِي.. قَدِّمُونِي.. فمالكم قد أخرتموني.. عن مكان سعدي لا تُنظروني..

ولكن من يحمله على أعواد الخشب لا يشعرون.. وهتاف الواقع يصيح بهم لو كانوا يسمعون { يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ } [يس: ٢٦، ٢٧]. وهكذا أُعيد إلى الأرض ليستكمل القضاء دورته، ويمضي أمر الله والغافلون في غفلتهم يسكرون..

ولما ألدوا له ووضعوا جسده أهالوا عليه التراب، وأزجوا له دعوات الرحمة وابتهاج الرضوان، والدموع العذاب.. وانتظر أحبُّ الناس إليه، وأقرب الناس زلفى لديه.. انتظروا حوالي قبره يدعون له بالثبات فعلَ أولي الألباب.. وما دروا بما حدث له من كرامات، ولا ما زف له من بشائر، ولا بما ينتظره من نعمٍ سابغات..

ضمة القبر لا بُدَّ منها.. اطمئن إنها ليست عذاباً:

أتبعه نظرك القرآني.. لتراه أول ما أُدخِلَ القبر ضَمَّتُهُ الأرض وهو في قبره ضمتها الرهيبية! نعم.. ضَمَّتُهُ على الرغم من دينه وإيمانه.. على الرغم من إخبارته وحفظه لقرآنه.. سنةً قدريةً ماضيةً لا بُدَّ منها مع كل أحدٍ.. لا ينجو منها ناجٍ، ولا يدفعها سندٌ أو معتمد.. لقد وقع مثل ذلك من قبله لسعد بن معاذ رضي الله عنه فقال رسول الله ﷺ: ((هذا الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفاً من الملائكة.. لقد ضُمَّ ضمةً.. ثم فُرِّجَ عنه))^(١)

(١) النسائي في الصغرى ٤/ ١٠٠، وصححه الألباني.

ف((إن للقبر ضغطاً..ولو كان أحد ناجياً منها نجا منها سعد بن معاذ))^(١)..وشعر بالآلام
الضغطة..كما كان يشعر بالآلام الموت..
أفتري أن هذه الضغطة كانت تذكيراً بأن أعمال العبد مهما بلغت لم تبلغ العشر من نعم
ربنا وآلائه؟:

سبحان من لو سجدنا بالجباه له على شَبَا الشوك والمحمي من الإبر
لم تبلغ العشر من معشار نعمته ولا العشير ولا عشراً من العشرِ
أم تراها كانت تنبئها له ألا يأمن مكر الله حتى يدخل الجنة، ويحل عليه الرضوان..وتتم عليه
المنة؟

أم تراها ضمة الأم لولدها الذي خلق من تراب فربما كانت في حق المؤمن ضمة حب وشوق
وحنان، وفي حق غيره ضمة كضمة الساخط الغضبان؟..

ولكن هذه الشاب المنيب -بحمد الله مولاه- عاد من ضغطة القبر ناجياً..وكيف لا! وهو
يلوذ بالله الذي من استكفاه كفاه.. إذ ضَمَّتْهُ الأرض ضمةً عظيمةً ثم عاد لصالح أمره
ففرجت عنه..اللهم فَرِّجْ عَنَا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

لكأن هناك من أخبره حتى لا يأخذ منه الجزع مخبره ومظهره: اطمئن -أيها القائم بأمر
ربه- ولا تظنَّ الضمة عذاباً، فإن " بل هو أمرٌ يجده المؤمن كما يجد ألم فقد ولده وحميمه في
الدنيا، وكما يجد من ألم مرضه، وألم خروج نفسه، وألم سؤاله في قبره وامتحانه، وألم تأثره ببيكاء
أهله عليه، وألم قيامه من قبره، وألم الموقف، وهوله، وألم الورود على النار ونحو ذلك..فهذه
الأراجيف كلها قد تنال العبد وما هي من عذاب القبر، ولا من عذاب جهنم قط، ولكن

(١) أحمد ٦/٥٥.

العبد التقى يرفق الله به في بعض ذلك أو كله، ولا راحة للمؤمن دون لقاء ربه.. وإنما تتم الراحة وتكتمل عند أبواب الجنة وعلى عتباتها..^(١).

أيا حبيباه: أتابعنا في أحداثنا.. ألا تستحق ضمة لم ينج منها حتى الفائز سعد بن معاذ أن تنظر أمامك بإمعان، وتناجي الواحد الديان: ربِّ أسألك العفو واللفظ الخفي.. أسألك العفو والحنان الخفي...

وداع المحبين له.. أيسمَع ذلك الوداع:

بعد أن وضع المحبون حبيبهم في قبره ظن بعضهم أن ذلك هو منواه الأخير، وما علموا أنه بداية منواه الجديد في عالم الغيب في عالم الآخرة.. وقام بعض حُلص أصحابه منهم على قبره كالمدوع له.. وترقرقت العبرات تحطف معها الذكريات:

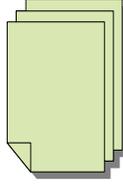
ولما استقلوا بأثقالهم وقد أزمعوا بالذي أزمعوا

قرنت التفاتى بأثارهم وأتبعتهم مُقلَّة تدمع

وغفل بعضهم فظنوه - مع أن الدموع تترقرق في عيونهم - لا يسمعهم، ولا يحس بوجودهم، والأمر كذلك بعد أن فارقت الروح، ولكن ما إن ((وُضِعَ في قبره وتولى عنه أصحابه)) حتى بدأ معه الحساب في عالم الغيب.. ولأن الروح قد أُعيدت إليه فإنه يسمعهم.. نعم! ((إنه ليسمع خفق [قرع] نعالهم إذا انصرفوا))^(٢).. وودَّ أن يكرر عليهم ما قد غاب عن كثيرٍ من الخلق في زمانٍ حلت الغفلة فيه محل الصدق.. وودَّ أن يُكرِّر عليهم هتاف النعيم الحق: { يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ } [يس: ٢٦، ٢٧].

(١) انظر: سير أعلام النبلاء ١ / ٢٩١.

(٢) البخاري ١ / ٤٤٨.



المشهد الخامس
ابتلاء في القبور..
ترقب نتيجة تملأ الفؤاد بالسرور

حرسٌ من القوات الإيمانية الخاصة حيث لا تنفع كل أسلحة الدنيا:

فور أن وُضِعَ الشاب الحبيب صاحب القلب المتيب في قبره.. توجهت إليه قُوَاتٌ من الحرس الإيماني الخاص في ذلك المكان المظلم.. تحرسه في قبره حراسةً قويةً دونها كل حراسات الدنيا.. فتكون ((الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجله))^(١).. يا طالب الفوز: هب لي حرساً كهؤلاء الحرس؟.. ثم هب لنفسك حرساً كهؤلاء الحرس.. هل تعرف طريق جذبهم نحوك؟ فماذا تنتظر إذن؟..

ثم يبدأ الهجوم عليه إذ يُسَلَطُ عليه العذاب حتى وهو مؤمن.. ((فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل)) وهكذا يكون دفاع الله عن الذين آمنوا.. وكلٌ بحسبه.. كلٌ بحسبه.. ومن قدم هنا شيئاً وجدته هناك.. ((ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام: ما قبلي مدخل))، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل))، ثم يؤتى من قبل رجله فتقول الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلي مدخل)).. وإنما يُتَحَسَّنُ من قبل هذه المواضع الأربعة التي تحيط به حتى يخوف أو يُزَعَبُ عند وقوع الاختبار وسؤال الملكين.. فإن كان ممن ترك هذه الأسلحة في دنياه، وأقبل على أسلحةٍ تنزل عنه فور خروجه من الدنيا احتوشه العذاب من كل مكان..

(١) ابن حبان ٧/ ٣٨١، وحسنه الأرنؤوط.

وإن كان ممن أعدَّ هذه القوات الخاصة من الأعمال الصالحة، وتسليح بهذه الأسلحة الثقيلة من الطاعات.. فأني لعذابٍ مع هذه الأسلحة أن يأتيه، أو لخوفٍ أن يعتريه، أو لرعبٍ أن يسري في عروقه.. بل هو الآن مطمئنٌ الآن.. شديد الاطمئنان.. أمام ما سيأتيه من ملكي الاختبار.. اللذين تخوف هيتتهما الدنيا بأسرها.. فهل من معدٍ لهذه الأسلحة لتكون له دفاعاً وحيداً بعد موته.. ألا فلتبكِ عيونٌ أضاعت أوقاتها في غير ما شيء.. عسى أن يصنع بكاؤها وندمها مجداً لها عند ربها:

نزف البكاء دموع عينك فاستعر عيناً لغيرك دمعها مدرار

لا! لا! بل قل -مقبلاً بحبٍ صادقٍ تثق من أن جزاءه سيكون جزاء الحسنی-:

هل لقلبٍ هام حباً أن يُرى يوماً نسياً؟

كيف والأشواق ثارت وافقت قلباً خلياً

حرمتم يوماً لجفنٍ أشعلت عزمًا فتياً

فتسامى القلب لهما ذاق حباً سرمدياً

وإذا عبدٌ منيبٌ هجر الخلق ملياً

مدَّ كفيه ابتهالاً أرسل الدمع السخياً

(كيف أنساك وروحي لم تكن لولاك شيئاً

قدت خطوي لم تدعني أقطع العمر شقياً

وملأت القلب نوراً كنت يا ربي حفياً

أنت يا مولاي حسي فاجعلن قلبي رضياً^(١))

(١) لحادينا على طريق الجنة: عبد الرحمن العديني.

يا صاحب سورة الملك.. هذا هو الوعد الحق:

ولربما تحسس عذاب القبر صاحبنا ذا القلب المنيب من جهاتٍ أخرى.. ولكنه كان يملك سلاحاً عظيماً طالما كان له صاحباً.. إنه سورة الملك.. تنبعت سورة الملك تحاج عن صاحبها، وتدفع عنه العذاب حيث ((يؤتى الرجل في قبره فتؤتى رجلاه فتقول رجلاه: ليس لكم على ما قبلي سبيل)) ثم تبين حيثيات الدفاع عنه فتقول: ((كان يقوم بي يقرأ سورة الملك)).. وهكذا أيضاً ((يؤتى من قبل صدره أو قال بطنه فيقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل)).. كان يقرأ بي سورة الملك، ثم يؤتى رأسه فيقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل.. كان يقرأ بي سورة الملك.. فهي المانعة تمنع من عذاب القبر))^(١).

نعم! أعلم أيا صاحبه أن قوماً من الغافلين لم يسمعوها عن هذه الأسلحة، ولا انتبهوا لها لأنهم {لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: ٦، ٧].. وإنما نحن نتبع ذكراً من ربنا يأمرنا أن ننظر إلى أسباب الدنيا، وأسباب الآخرة.

أول اختبار في عالم الغيب.. ترقب النتيجة بل توقعها بعد هذه المقدمات:

وبعد هذه المقدمات التي بعثت فيه اطمئناناً، وزادته سكيناً و يقيناً وإيماناً.. بدأ أول اختبار في عالم الغيب.. نعم! اختبار هكذا سماه النبي ﷺ فقال: ((أن هذه الأمة تُبتلى في قبورها)) حيث يأتيه ((ملكاً أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر، والآخر النكير)).. ولو رأيتهما لرأيت هولاً عظيماً.. فهما شديدان غليظان كما يظهر من اسميهما، حتى وصف النبي ﷺ أحدهما بأنه ((مَلَكٌ شَدِيدُ الْإِنْتِهَارِ))^(٢) ((فيجلسانه)) ((فيقال له: اجلس.. فيجلس))..

أيا طالباً في القبر الأمان: ارفع طرفك، وانظر إلى صاحبنا ذي القلب المنيب حيث جلس.. ولكنه.. وفي داخل قبره يجلس ((وقد مُتِّلتْ له الشمس وقد أدنيت للغروب)).. وهنا

(١) الترمذي ١٦٤ / ٥ وقال: "هذا حديث حسنٌ غريب"، الحاكم ٢ / ٥٤٠، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أحمد ٣ / ٣٤٦.

يبدأ الاختبار.. فيبتدره الملكان فيقولان له: ((ما كنت تقول في هذا الرجل ((أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم: ما تقول فيه وماذا تشهد به عليه؟)).

المؤمن يحاول قطع الاختبار.. ويحن إلى صلاته.. إنه يأرز إلى إيمانه:

الملكان يسألانه.. وعيناه تتجهان نحو الشمس التي توشك أن تغرب.. فيتلهف لصلاة العصر قبل أن تفوت والصلاة تؤدي في الدنيا، وقد مضى ذلك الزمان.. غير أنه المؤمن الولهان.. المتسرع بإيمانه، لا يغفل عما فيه رضوان ربه وإحسانه.. يبتدر الملكين بطلب.. بطلب غريب على الكسلة ((فيقول: دعوني حتى أصلي)). كان يتلهف على صلاته قبل أن يدخل وقتها.. فكيف إذا دخل؟ ((فيقولون: إنك ستفعل. أخبرنا عما نسألك عنه)). وهكذا تذكر صلاة العصر، وأنها يجب أن تؤدي قبل غروب الشمس..

يا للصلاة غذاء الروح وأنس القلب، وشفاء المجروح، وأمان النفس في الدنيا والآخرة.. يتذكرها المؤمن في قبره طلباً للأمان.. وشوقاً للرحمن.

لقد أعطى بذلك انطباعاً جديداً عن نجاحه المرتقب، وتوفيجه المكتسب بعد أن رأى الملكان دفاع الصلاة والزكاة والصيام وأعمال البر عنه..

أسئلة الاختبار العظيم.. إنه أهم اختبار شفوي أمام أقوى لجنة تمر عليك مذ عرفت الحياة:

يطرح الملكان أسئلة الاختبار بعد أن يُهدئا منه غيرته على فوات صلاته، ولذا يستغرب سؤالهم له وقد رأوا حرصه على دينه.. ففي رواية للحاكم ((قال: وعما تسألوني عنه)).

عدد الأسئلة في هذا الاختبار أربعة أسئلة.. وهي أسئلة مُركزة تقوم على التوفيق الإلهي، وعلى مسيرة حياة العباد في الدنيا: إعداداً لهذه الساعة العظيمة.. فمن أراد الآخرة وسعى لها

سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً [الإسراء: ١٩] ومصيرهم موفقاً:

قدما الأسئلة:

فكان السؤال الأول: ((من ربك؟)) فيجيب المؤمن بسرعة مصحوباً بتوفيق الملك المهيمن:

((ربي الله))..وما له ألا يعرف ربّه وقد كان هتافه به في كل لحظات حياته:
ولقد ذكرتكَ والخطوب كوالحُ **** سودّ، ووجه الدهر أغبرُ قاتمُ
فهتفت في الأسحار باسمك صارخاً **** فإذا محيا كلُّ فجرٍ باسمُ

السؤال الثاني: ((يقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام)).

الجواب مباشرٌ، وسريعٌ، وله لا؟ وقد كان في دنياه لا يمل الخداء:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم

السؤال الثالث: ((يقولان له: رأيته هذا الرجل الذي كان [بُعِثَ] فيكم ما تقول فيه؟

وماذا تشهد عليه؟

قال: فيقول: أمُجَّد؟

فيقولان: نعم!!).

ها هو ذا السؤال عنك يا خيرَ الناس يصل إلى لحظته الحاسمة، ليثبت للعالم أنك نورٌ من ربك
مبين..أُرْسِلْتَ بالهدى والحق واليقين..لتشرق بسناك على الكون الحزين..فمن صدقك
أجاب..وإلا خسى وخاب..

صلى عليك الله يا علم الهدى واستبشرت بقدمك الأيام

تذكر مفتاح الغز ((فيقول ما كان يقول)):

أكمل مشاهد الحق وانظر ثبات الإجابة..الحظ الإصرار عليها..واليقين في قولها..وتأمل ماذا
يمكنه أن يقول.. هذا الذي سُئِلَ لسانه في ذلك الوقت.. في ذلك الوقت الذي لا معين
فيه إلا توفيق الغفور الرحيم:

يصف النبي ﷺ هذه اللحظة العظيمة الخطيرة بعبارة جليظة كبيرة.. يقول ﷺ واصفاً حال هذا العبد المخبت المنيب: ((فيقول ما كان يقول)).. يا الله! إنه يقول ما كان معتاداً على قوله في الدنيا.. فإن اعتاد أن يقول كلام الإيمان فذلك قوله في قبره.. وإن اعتاد الكفران.. فذلك جوابه.. فليس الأمر بفهلوة يظهرها في تلك الساعة.. نعم إنه يقول ما كان يقول.. فيقول - أي هذا العبد- كما يقول ﷺ:

- ((أشهد أنه رسول الله [وعبده]، وأنه جاء بالحق من عند الله)).. ويتابع:

- ((هو محمد رسول الله)).. إنه الحُبُّ لرسول الله أنطقه، والحُبُّ لرسول الله ثبته،

والحُبُّ لرسول الله رفعه.. أو ما كان يهتفُ في دنياه: يا رسول الله:

لمست أمانينا فصارت جداولاً وأمطرتنا حباً ولا زلت تُمَطِّرُ
تعاودني ذكراك كل عشيةً ويورقُ فِكْرِي حين فيك أُفَكِّرُ
وتأبى جراحي أن تضم شفاهها كأنَّ جراحِ الحَبِّ لا تتخثرُ
أحبك.. لا تفسر عندي لصبوتي أُفَسِّرُ ماذا والهوى لا يُفَسِّرُ

عدَّ إليه في امتحانه لتجده يتابع بحبٍ وهفة:

- ((جاءنا بالبينات من عند الله فأمانا وصدقناه)).. ولا يتوقف:

- هو رسول الله.. هو رسول الله.. هو رسول الله.

ثم يعلن لهم شارة التوحيد، وشهادة الحق التي كان يرفعها في دنيا العبيد:

- ((أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ مُحَمَّدًا عبده ورسوله))..

((فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا)).

السؤال الرابع: ((يقولان له: وما علمك؟)) الآن استبان الحق المبين.. ذاك كلامك فكيف

عملك.. سألوا عن العلم وأرادوا العمل.. لأن العلم ليس مجرد معلومات تُتناقل..

فيقول: ((قرأت كتاب الله، فأمنت به، وصدقت)).

وهكذا {يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: ٢٧].. وما له ألا يُجيب وقد كان يُعَلِّمُ البعيد والقريب.. عن جواب السؤال القادم بقلبٍ منيب.. وما مثله هاهنا إلا كما قال سهل بن عمار: رأيت يزيد بن هرون في المنام بعد موته فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: أتاني في قبري ملكان فظان غليظان فقالا: ما دينك؟ ومن ربك؟ ومن نبيك؟ فأخذت بلحيتي البيضاء، فقلت: ألمثلي يقال هذا وقد علمت الناس جوابكما ثمانين سنة^(١).. يا غزارة الدمع التي تنطلق تذكراً للعمل الصالح في الدنيا.. كيف أغاث الله به أحوج ما يكون العبد إليه.

أيستوي ذا ومن مصيره أن يقول: ((سمعت الناس يقولون شيئاً فقلت مثله لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك)).

نتيجة مرضية، وعيشة هنية.. وفتح مبين.. لعبدٍ من المتقين:

عند ذلك تعلن نتيجة السرور والحبور، وشهادة الفوز الأبدي: ((فينادي منادٍ في السماء: أن صدق عبدي))، وانظر كيف أعلنت النتيجة بأجمل حلل التكريم من الله رب الخلق أجمعين.. ويعطيه الله جائزته المؤقتة إلى حين يبعثون.. فيقول: ((فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة)).

يا نتيجة الفوز العظيم:

أموتُ إذا ذكرتِكِ ثم أحيا فكم أحيا عليكِ وكم أموت

عند ذلك تهتف لجنة الامتحان العصيب تحيي العبد الأواه: ((على ذلك حبيت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله)).

(١) تفسير القرطبي ٩/ ٣٦٤.

ترقب الفوز الكبير، وتنعم بروية الأفراح المستقبلية:

انظر إلى مشهد الفتح المبين لهذا العبد من المتقين.. يبدأ جنود ربك الذين لا يعرفهم البشر.. يبدأون سراعاً بتنفيذ الأمر الإلهي، وصرف جائزته نقداً لا نسيئةً فـ((يفتح له بابٌ من أبواب الجنة [فيأتيه من روحها وطيبها] فيقال له: هذا مقعدك منها، وما أعد الله لك فيها))..

ويتم تصوير مشاهد الفرح التي تعترى ذا القلب المنيب: إذ ((يزداد غبطةً وسروراً))، ويهيم شوقاً وحبوراً..

ولا تكتمل النعمة إلا بمشهدٍ آخر يُعْرَفُ نعمة الله عليه.. إذ ((يفتح له بابٌ من أبواب النار فيقال له: [هذا بيتك كان لك في النار] هذا مقعدك منها، وما أعد الله لك فيها لو عصيته [ولكن الله عصمك ورحمك فأبدلك به بيتاً في الجنة] ^(١) فيزداد غبطةً وسروراً))..

وهكذا فتحت له نافذةً إلى مقعديه:

مقعده في الجنة دار الكرامة ليرى ما أعد الله له،

ومقعده في النار لو عصى الله واستكبر.. قال ﷺ: ((فيراها جميعاً))..

ثم يكمل جنود ربك عملهم الغيبي عن عالم البشر المادي، فـ((يفسح له في قبره سبعون ذراعاً [مد بصره]، وينور له فيه [ويملاً عليه خضراً إلى يوم يبعثون] ^(٢)..

وعندما يُعْرَضُ عليه يسمع نداءً حبيبٍ من أحبابه الملائكة الناضرة، ووليٍّ من أوليائه في الدنيا والآخرة.. إذ لا بد مع الصورة من صوتٍ عذبٍ رخيمٍ.. تسمعه يعلق على ذلك المنظر البهيج

(١) الزيادة عند أبي داود ٤/ ٢٣٨.

(٢) البخاري ١/ ٤٤٨، مسلم ٤/ ٢٢٠٠، أحمد ٣/ ٣٤٦.

الكريم.. يقول له: ((هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة))^(١). أيا حبيباه: تصور ذلك.. بشرى بعد بشرى.. فلتستفق أنفُسُ طالما كانت بهذه الدنيا سكرى. يا صاحب القلب المنيب.. كأنك تود الإعلان لكل غافلٍ: { هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ } [الحاقة: ١٩]..

هذا مراد كل سائل.. هنا غاية المنى لكل عامل.. ألا هل من مُشْتَمِرٍ.. أو في معارك الفوز به.. هل من مبارزٍ أو منازلٍ؟.. إنه أوابٌ حفيظ.. خشى الرحمن بالغيب.. وجاء ربه بقلبٍ منيب.. انظر إليه الآن في قبره.. انظر إليه ببصيرة القرآن، فإن:

مجالسه مثلُ الرياضِ أنيقةٌ لقد طاب منها الريحُ واللونُ والطعمُ

خاتمة بشائر القبر: لقاء حميمٍ مع رفيقٍ ازدهر حبه.. ولكنه لقاءً غير متوقع:

وبعد هذا الروح والريحان، والبشر والرضوان.. يفاجأ بزيارةٍ زادت سعادةً وسروراً على الرغم من أنها كانت غير منتظرةٍ لشخصٍ حبيبٍ.. إذ ((يأتيه رجلٌ حسن الوجه.. حسن الثياب.. طيب الريح))^(٢) فهذه هيئته.. ويبادر هذا الرجل الممتلئ حسناً وجمالاً.. يبادر إلى مؤانسة صاحبه المنيب.. ((فيقول: أبشر بالذي يسُرُّك.. هذا يومك الذي كنت توعده)) عندها يزداد غبطةً وسروراً بصاحبه.. فيتمنى أن يتعرف عليه وقد بدأه هذه البداية الطيبة المبشرة، ويمتلئ قلبه بالشوق لمعرفة ((فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجى بالخير)).. أمسك دموع عينك.. وأنت تسمع الجواب، لتعرف من المقصود بالخطاب.. ((فيقول: أنا عمك الصالح)).. أجل إنه عمله الصالح.. وتسمع عمله الصالح لا يتركه بل يمضي في الثناء عليه

(١) البخاري / ١ / ٤٦٤.

(٢) الحاكم / ١ / ٩٤، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد / ٣ / ٥٠: "رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح".

ليزداد سروراً وحبوراً فيقول له: ((أنا عمك الصالح، فوالله ما علمتكم إلا كنت سريعاً في إطاعة الله، بطيئاً في معصية الله، فجزاك الله خيراً)). ما أعذب الدعاء.. ما أحلى الشاء.. إنه عمله الصالح: كم أعده ونمّاه، وشكّله ورباه، وجمّله وأعلاه.. كل ذلك في دنياه.. حتى جاءه في آخره بأهمل صورة يرجوها، وخير هيئة يطلبها.. ابك الآن على ساعاتك الماضية.. واسمح لعينيك أن تضرم للخدين نيرانهما بحزن حار، ودمع مدرار.. وانظر أيا حبيباه كيف ستبني عمك الصالح.. ليأتيك في قبرك ويوم نشرك مجسداً مشخفاً..

كيف سيقضي الحياة الناعمة في البرزخ؟:

وحتى تضمن له أنعم حياة في هذه الفترة الانتقالية المؤقتة.. فترة البرزخ في القبر فإنه ((يقال له: نم)). لكنه يود لو عاد إلى أهله ليشهرهم ويخبرهم بأي كرامة رأى، وأي نعيم عاين ((فيقول المؤمن: دعوني أبشر أهلي {بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ} [يس: ٢٧].. لكن سنن الله لا تبغي لها حولاً.. إذ يكون الجواب بالأذ خطاب، وألطف أسلوب: ((اسكن)) حتى يبلغ الكتاب أجله.. ولفرحته ولهفته، ورؤيته لما أعد له من الكرامة من خلال باب الجنة الذي فُتح له.. يطلب طلباً آخر ((فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي [فأخبرهم]..)). ولكن كل شيء عند ربي بمقدار.. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.. لذا يقول له الملكان.. وقد استحالاً إلى صديقين حميمين له ((نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه))^(١)..

وهكذا ينام نومة غيبية يعلم ربي المتعال كنهها.. ينام ((حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك)).

نفسى فداؤك من ميت ومن بدنٍ ما أطيّب الذكر والأخلاق والجسدا

ولكن ما مصير الروح والجسد.. ما مصيرهما؟..

(١) الترمذي ٣/ ٣٨٣، وقال: حسن غريب، وحسنه الألباني.

مصير الروح..مصير الجسد:

لا تغمض طَرْفَكَ وانظر له وهو ينام نومةً مختلفةً عن نومتنا.. إذ ((يُعاد الجسد لما بدأ منه))
 فرمما ذهب مع التراب.. أو بقي على حاله كرامةً للمقربين من أولي الألباب.. وأما روحه
 ((فتجعل نسمةً في النَّسَم الطيب وهي طيرٌ يعلق في شجر الجنة))^(١)..
 ويستمر كذلك في نومه حتى ((يُبعث في القبر على ما مات عليه المؤمن على إيمانه..))^(٢)
 كما قال الحبيب المصطفى ﷺ .

وهكذا كانت رحلة صاحب القلب المنيب في قبره.. أفيعلم من يمشي فوق التراب.. كيف
 تَضوع صاحبهم شذاً وقرنفاً.. أم هل تعلم السماء الشاكية.. والأرض التي كانت على فراقه
 باكية، وكانت لسجوده عليها مفتخرةً مزدهيةً متعاليةً.. أفتعلم ما وارت.. ومن وارت؟..

ودت بقاع بلاد الله لو جُعِلتُ قبراً له لحباها جسمه طيباً
 كانت حياتك للدنيا وساكنها نوراً فأصبح عنها النور محبوباً
 لو تعلم الأرض من وارت لقد خشعت أقطارها لك إجلالاً وترحيباً

أيتها الروح الطاهرة.. انظري هناك: منازل خاصة.. لمن هي؟:

ورأت الروح الطاهرة في مجتمع الأرواح أرواحاً لها مزيته الخاصة، ومنازلها المعظمة؛ إذ رأتها
 تنطلق مرتفعةً إلى حيث لا يصل أحدٌ من الأرواح التي معها.. هناك حيث عرش الرحمن،
 وتساءلت الروح الطاهرة عن هذه الأرواح التي حازت هذه الميزة الخاصة، والرعاية
 الفريدة.. فأجيب بأنها أرواح الشهداء.. فالشهداء لعظيم منزلتهم عند ربهم ((في حواصل طيرٍ
 خضرٍ.. لها قناديلٌ [من ذهبٍ].. معلقةٌ بالعرش تسرح في الجنة حيث شاءت [ترد أنهار

(١) ابن حبان ٧/ ٣٨١.

(٢) أحمد ٣/ ٣٤٦، وأصله في مسلم ٤/ ٢٢٠٦.

الجنة.. تأكل من ثمارها]، ثم ترجع إلى قناديلها))^(١)، ورأى من نعيمهم العظيم في الفترة البرزخية أنهم ((على بارق نهرٍ بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرةً وعشيةً))^(٢).. ولعظيم منزلتهم عند ربهم، وصدقهم في دنياهم ((يشرف عليهم ربهم فيقول: ألكم حاجة؟.. تريدون شيئاً؟ فيقولون: لا.. إلا أن نرجع إلى الدنيا فنقتل مرةً أخرى))، ورأت روح صاحبنا الطاهرة.. في هذه الأرواح المكرمة أرواح شهداء أحدٍ التي تميزت بشدة الحب لأخوانهم المسلمين من أهل الدنيا، ورغبتهم المحبة المشفقة ليعلموا بما كرمهم الله به.. حتى أنهم ((لما وجدوا طيب ما كلهم ومشرهم ومقبلهم [وحسن منقلبهم] قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون بما صنع الله لنا).. من يبلغ إخواننا عنا: أنا أحياءٌ في الجنة نرزق.. لئلا يزهوا في الجهاد، ولا يتولوا عند الحرب.. فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم قال فأنزل الله {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: ١٦٩] ^(٣).. وعلى المائدة القرآنية تربي هذا الشاب المخبت.. لظالما هفت روحه في الدنيا أن يشاهد ما كرم الله به المؤمنين في البرزخ.. يا صاحب القلب المنيب: قرَّ عيناً.. ها أنت ذا ترى ذلك عياناً.. ذهب وذهبوا.. وبقيت أنا وأنت:

لهفي على نفسي تبقت خلفهم تتناجى الأهواء والأخطار
لهفي على نفسي يتوق لها الرجا لمنازلٍ تحفو لها الأبرار

زيارة صغيرة من حبيب من أهل الدنيا لحبيبه من أهل البرزخ:

ولا تنقطع علاقة الأرواح بقبورها بل تبقى لها علاقة ما بها؛ إذ ترى روح صاحبنا المنيب كسائر أرواح المؤمنين تزور قبرها فتكون على أفنية القبور وقتاً فلها "إشراف" على قبورها،

(١) أبو داود ٣/١٥، الترمذي ٤/١٧٦، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني.

(٢) ابن حبان ١٠/٥١٥، وأحمد ١/٢٦٦.

(٣) أبو داود ٣/١٥، والترمذي ٤/١٧٦، وأحمد ١/٢٦٥، والحاكم ٢/٩٧، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

وهي في مقرها" (١)، وللروح شأنٌ آخر غير شأن الجسد المعهود.. إذ تكون في الرفيق الأعلى في أعلى عليين، ولها اتصالٌ بالبدن بحيث إذا سلّم المسلم على الميت رد الله عليه روحه، فيرد -عليه السلام- مع أن روحه تكون في الملاء الأعلى.. (٢).

أشرف على قبره وتُربيه.. لترى من أهل الدنيا بعضَ صحبه.. قد جاءه زائراً يدعو له ويستغفر له، ويعتبر بمصيره.. لما وقف على قبره.. فثارت الأشواق، وهاجت الأحزان.. سلم عليه ودعا.. وترقرقت الدموع.. وأهاجت الذكريات القلب الولوع.. فقام صاحبه بعد الدعاء.. يناجي صاحبه المدفون، ويؤء بذنبه أمام رب السماء.. يقول:

أمشي لقبرك والخطى مدعورةً والقلب من فرط الأسى يتقطع

قد كنتُ أنطقُ بالوداع وأسمع واليوم أسقى من لظاه وأفجع

أي حبيباه: هل بقيتُ بعدك ثابتاً على ما تعاهدنا عليه في حياتك؟ فارقتني طيباً مطيباً..

فهل بقي في عمالي.. في تفكيري.. في يقيني ذلك الطيب، وذاك الصدق؟..

كم لَعِبْتُ بي الدنيا بعدك فهل إلى عفو ربي من سبيلٍ؟..

لقد أراي -لو بقيت لي حياً- لكنت لي أعظم معينٍ على ديني ودنياي.. لقد أصبحتُ بعدك هائماً..

أين عزمك الذي ينير لك ولي الليل فيجعلك عزمك أمامي في ظلمات الليل قائماً..

(١) الروح ص ١٠٠.

(٢) وقد يُسأل كيف هذا؟ والجواب: أن الروح غير الجسد، وإنما يغلط أكثر الناس في هذا الموضوع حيث يعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التي إذا شغلت مكاناً لم يمكن أن تكون في غيره وهذا غلط محض بل الروح تكون فوق السموات في أعلى عليين وترد إلى القبر فتد السلام وتعلم بالمسلم وهي في مكانها هناك وروح رسول الله في الرفيق الأعلى دائماً ويردها الله سبحانه إلى القبر فتد السلام على من سلم عليه وتسمع كلامه وقد رأى رسول الله موسى قائماً يصلى في قبر ورآه في السماء السادسة والسابعة فإما أن تكون سريعة الحركة والانتقال كلمح البصر وإما أن يكون المتصل منها بالقبر وفنائه بمنزلة شعاع الشمس وجرمها في السماء.. انظر الروح

أين يقينك لينير لي درباً أظلمتُ علي فيه خطايا الأعمال.. فأصبحت فيه متألماً نادماً.
 أين صفاؤك وهلعك من إغضاب الجبار ليُبعدَ عني شبحاً من الغفلة جاثماً..
 أين حزنك من القرآن، وأورادك من الذكر.. تبعث بها هم أولاءتي بعد أن كنتُ بعدك نائماً.
 أي حبيباه: لقد أفسدت ذنوبي بعدك أركان دنياي.. فصار نهارني من بعدك ليلاً قائماً:
 وكل بساط عيشٍ سوف يُطوى وإن طال الزمان بها وطابا
 ولا ينيبك عن خلق الليالي كمن فقد الأحبة والصحابا
 وترقرق الدمع الحزين.. ثم أفاق فقال:

أي حبيباه: أرجو أن يكون لي بك معتبرٌ، وبخلقك مؤتسى.. ولقد تذكرتُ يوم اجتمعنا
 فتذاكرنا قصة أبي قلابة حين أقبل من الشام إلى البصرة فنزل منزلاً فيه قبورٌ فتطهر، وصلى
 ركعتين بليلٍ، قال: ثم وضعتُ رأسي على قبرٍ -وما شعر- فتمت.. ثم انتبهت فإذا صاحب
 القبر يشكيني يقول: قد آذيتني منذ الليلة ثم قال: إنكم تعملون ولا تعلمون، ونحن نعلم ولا
 نقدر على العمل.. ثم قال: الركعتان اللتان ركعتهما خيرٌ من الدنيا وما فيها. ثم قال: جزى
 الله أهل الدنيا خيراً.. أقرئهم منا السلام.. فإنه يدخل علينا من دعائهم نورٌ أمثال الجبال^(١)..
 أيا حبيباه: قد والله اشتقنا رؤية ذلك الحيا.. هل وجدت ما وعدك ربك حقاً.. إني لأرجو أن
 يكون الله قد أكرمك باللحاق بالصالحين، وإني لأرجو أن أكون على ذلك الدرب الذي
 تعاهدنا عليه.. ثم التفت إلى بقية القبور.. وكرر الالتفات إلى قبر صاحبه والدموع تزين
 مقلتيه، وتجري على خدوده جريان اللجين الصافي، والعذب النмир.. وألقى تحية الحياء،
 والوفاء المشرق المنير:

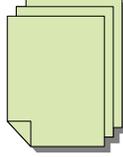
يا أهل القبور:

(١) الروح / ١ / ٨.

السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين [وأناكم ما توعدون غداً مؤجلون]، يرحم الله
المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون.. أنتم لنا فرطٌ، ونحن لكم
تبعٌ.. أسأل الله العافية لنا ولكم.

ثم تنهد وقال: اللهم اغفر لأهل هذه المقبرة، اللهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتننا بعدهم^(١).
وبكى وأن شوقاً لصاحبه، وتعظيماً لهذا المصير، ثم قال: آنس الله وحشتكم، ورحم غربتكم،
وتجاوز عن سيئاتكم، وقبل حسناتكم.

يا راحلاً عن ناظرين وحيه في ساجات قلوبنا متربع
أبشر! ولا تحزن! فرحمة ربنا تسع العباد وفضله لا يوسع



(١) مسلم ٢/٦٦٩، ابن ماجة ١/٤٩٣.

الفصل الثاني

إنها الساعة...
يا أصحاب الأفراح:
تتلقاكم الملائكة
تهنئكم وتعانقكم.. تقول لكم:
(هذا يومكم
الذي كنتم توعدون))

المشهد الأول
استفق! إنه يوم الفرع الأكبر..
أيا صاحب القلب المنيب:
((هذا يومكم الذي كنتم توعدون))

أمطارٌ لا تثبت البذور والأشجار بل تثبت الأجساد:

مضت الأيام، وانقضت الآجال وفق ما قَدَّرَ اللهُ للدينيا أن تدوم وتمضي.. وفي لحظةٍ من لحظات المستقبل، وأجلٍ مسمى في علم الله من الزمن القادم.. لو أطللت على واقع المدفونين في قبورهم، ونظرت إلى المقبورين في أجداتهم.. هناك رأيت أكثر البشر قد بلي، وصارت عظامه نخرة.. فَنَيْتَ عظامه كُلُّها، واستحالت تراباً.. ف((ليس من الإنسان شيءٌ إلا ييلي إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب))^(١)، و((كل بن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب))^(٢).. فهذه العظمة الوحيدة الصغيرة التي تكون في أقصى عموده الفقري هي التي تبقى في التراب.. كالبذرة.. وفي لحظةٍ من اللحظات التي يعلمها الله.. حيث يكون جسد الإنسان قد انتهى إلا هذه البذرة الصغيرة التي لا ترى بالعين المجردة بسهولة.. في لحظةٍ مسمّاة ((ينزل الله من السماء ماءً))^(٣) ((مطراً كأنه الطل أو الظل))^(٤).. وهو ((ماءٌ غليظٌ كمني الرجال))^(٥)..

الآن اشهد الوعد الحق في تركيب وبناء الخلق: إذ ينزله الله على هذه البذرة الصغيرة في التراب.. عظمة عجب الذنب ((تثبت منه أجساد الناس [لحماتهم وجنماتهم]).. تابع

(١) مسلم / ٤ / ٢٢٧٠.

(٢) ابن حبان / ٧ / ٤٠٧.

(٣) مسلم / ٤ / ٢٢٧٠.

(٤) مسلم / ٤ / ٢٢٥٨.

(٥) الحاكم / ٤ / ٥٤١، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

الجسد وهو ينمو شيئاً فشيئاً حتى يتم نموه ويتكامل.. انظر إليه ينبت نباتاً كما تنبت أشجار الأرض.. ((فينبتون كما ينبت البقل)).. انظر إلى أجسادهم وجثمانهم قد نمت.. فمن تلك البذرة الصغيرة، ومن ذلك المطر ((يركب الخلق يوم القيامة)).. ومنادي الحق ينادي: { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ } [الأنبياء: ١٠٤].. لما ذكر عبد الله ابن مسعود إعادة تركيب الجسد من ذلك الماء وتلك البذرة قرأ: { وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ } [فاطر: ٩] أجل.. كما تنبت الأرض من المطر والبذور.. كذلك النشور.

هذا كان شأن الجسد.. قد عاد الجسد كما كان.. وبقيت الروح.. لم تعد إليهم.. فتابع مسيرتها..

نفخة واحدة.. لتعود الأرواح، وتخرج صاعدة:

في تسارعٍ شديدٍ للأحداث انتقل إلى عالم الحقائق لترى إسرافيل-عليه السلام- صاحب القرن يضع الصور على فيه شاخصاً ((بصره إلى العرش.. ينتظر متى يؤمر أن ينفخ في الصور فينفخ))^(١).. بل ((إن طرف صاحب الصور مذ وُكِّلَ به مستعدٌ ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يترد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان))^(٢)..

إنها ساعة النفخ في الصور وهي ساعة ينتظرها الجميع رغباً ورهباً.. ولكنها أشد رهبةً على القلوب الحساسة المؤمنة حتى وصفها سيد المختبتين، وإمام الخاشعين عليه السلام بقوله: ((كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر أن ينفخ)).. تلهف الصحابة من الوصف فدعاهم هذا إلى سؤال المختبتين فقالوا: يا رسول الله!

(١) الترمذي ٥/ ٣٧٢ ، وحسنه..

(٢) الحاكم ٤/ ٦٠٣ ، وصححه ووافقه الذهبي.

فما نقول؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل.. على الله ربنا توكلنا)) (١).. أجل يا رسول الله! شغلنا الدنيا عن كلمة النجاة: حسبنا الله ونعم الوكيل.. على الله ربنا توكلنا. وعندما يقوم ((ملك الصور بين السماء والأرض)) بالنفخ فيه تنطلق ((كل نفسٍ إلى جسدها حتى تدخل فيه، ثم يقومون فيحيون حياة رجلٍ واحدٍ قياماً لله رب العالمين)) (٢).. في لحظةٍ محددةٍ، وميقاتٍ معلومٍ أمره الله بالنفخ في الصور.. فنفخ.. فعادت كل روحٍ إلى جسدها..

أجل لقد {نُقِرَ فِي النَّافُورِ} {المدثر: ٨}.. نعم نفخ في الصور النفخة الأخيرة.. وهكذا تكامل الخلق في الجسد والروح.. {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} {الأنبياء: ١٠٤}.. ولكنهم ما زالوا داخل الأرض في أجداثهم وقبورهم.. فكيف سيُخْرَجُونَ؟ بل كيف سيُخْرَجُونَ؟..

انظر إليهم يخرجون من الأجداث.. أخرجت الأرض أثقالها:

مع نفخة الصور العظيمة تبدأ الأرض بالتزلزل.. فتتهتز، وتميد وتضطرب.. وترتج {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا} {الزلزلة: ١}، ثم تُمَدُّ {وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ} {الانشقاق: ٣} انظر إليها.. وهي تمد وتضطرب وتهتز.. ثم ما تلبث أن تُخْرِجُ أَثْقَالَهَا {وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} {الزلزلة: ٢}.. لقد رمت كل ما فيها من بشرٍ وجوهر.. أخرجت أثقالها {وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَلَّتْ} {الانشقاق: ٤} لقد ألقتهم خارجاً، وتخلت عنهم فلم تقبل بقاءهم في جوفها.. وهكذا نبتوا من الأرض نباتاً، وأخرجوا منها إخراجاً.

(١) الترمذي ٣٧٢ / ٥ ، وحسنه..

(٢) الحاكم ٥٤١ / ٤ ، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

فليخس قلبك، ولتحن رأسك خضوعاً وخشوعاً.. ثم اتل بتصديقٍ كاملٍ قول الملك الجليل: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} [نوح: ١٧]، [١٨] خرجوا جميعاً، وخلال لحظاتٍ يسيرة رأيتهم بعد أن قذفتهم الأرض {فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} [الزمر: ٦٨] فإذا جميع الخلق قيامٌ ينظرون إلى هول المشهد أمامهم.. أحياءٌ بعدما كانوا عظاماً ورفاتاً.. صاروا أحياءً ينظرون إلى أنفسهم وقد خرجوا حفاةً عراةً عُزْلاً بُهْمًا.. كما كانت خِلْقَتُهُمْ أول مرة.. {فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} [الزمر: ٦٨] إلى أهوال يوم القيامة.. فاشهد هناك معهم "هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة" ..

وهكذا.. مجرد صيحةٍ واحدةٍ من الصور بقدرة الجبار -عزَّ جاره- {فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ} [يس: ٥١].. صيحةٌ واحدةٍ زجرتهم وأزعجتهم من قبورهم لتراهم قد (خرجوا {فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [النازعات: ١٤] ..

أفق أيها الحبيب: لقد دعاهم الله للقيام فاستجابوا {بِحَمْدِهِ} [الإسراء: ٥٢] وعندها ظنوا إن لبثوا {إِلَّا قَلِيلًا} [المؤمنون: ١١٤] .. نعم إنها مجرد دعوةٍ من الحي القيوم العلي العظيم... مجرد دعوةٍ لهم ليخرجوا {مِنَ الْأَرْضِ} [الروم: ٢٥]، وتعبير عنها صيحة الفزع فإذا هم مخرجون.. إذا هم قيام لله رب العالمين..

إنه اليوم الذي تشقق الأرض عنهم فيخرجون منها سراعاً، وأول من تشقق الأرض عنه نبينا مُحَمَّدٌ ﷺ ..

صيحات الفزع من الخارجين.. ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ حنانيك يا يومَ الخائفين:
انظر إليهم.. وأكمل مشاهد الحق:

وهكذا جاء يوم التلاقي، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة.. نقر في الناقور، ونفخ إسرافيل في الصور.. نفخةً قام فيها الناس لله رب العالمين.. قام الناس فرعين مرعوبين بعد أن قذفتهم الأرض خارجها.. ولما خرجوا وعابنوا أنهم قد أعيدوا نشأة أخرى {فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ} [يس: ٥١].. عندها صاح الظالمون منهم فرعين وجلين: { يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا } [يس: ٥٢].. ومنادي الحق ينادي { هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ } [يس: ٥٢]..

..ورأيت هناك كثيراً من الخارجين من أجداثهم.. رأيت كثيراً من الخارجين خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث.. كأنهم من كثرتهم جرادٌ منتشر.. انظر إليهم.. إنهم أمامك: { مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ } [القمر: ٨].. مسرعين إلى الداعي الذي دعاهم للقيام لرب العالمين من أجداثهم.. وهم يعلمون إلى أين يتوجهون.. { كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ } [المعارج: ٤٣].. كأنهم إلى شيءٍ منصوبٍ معلوم يوفضون.. يسرعون إليه.. فهل يبقى منهم أحدٌ يتخلف عن موعد الحشر ومكانه.. حينها نادى الذين لم يكونوا يؤمنون بالساعة ﴿أين المفر﴾ { أَيْنَ الْمَفْرُ } [القيامة: ١٠].. هل يمكن أن يكون هناك من يمكنه أن يهرب من الحشر؟.. كلا! { كَلَّا لَا وَزَرَ } [القيامة: ١١] لا ملجأ يمكن أن يلجأوا إليه، ولا مهرب يمكن التخفي فيه أو بين يديه! ومنادي الحق ينادي: { وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا } [الكهف: ٤٧].. حشروا! لم يترك واحد منهم.. حشروا من أرجاء الأرض المعمورة.. بل من كل مكان في الكون فلا مهرب في صحراء أو سماء أو بحر أو مقصورة.. إن الله العظيم الكبير حشروهم جميعاً.. يقول لهم: { أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [البقرة: ١٤٨]..

عندها سمعت الخلائق الأمر الإلهي العظيم { وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتُؤَلُونَ } [الصفافات: ٢٤]..

حينها قال الكافرون جملة الخوف الخالد، والرعب المقيم: { هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ } [القمر: ٨].. ها هنا يكون العز لمن أذل نفسه لربه.. ها هنا يكون السناء.. لمن لهج وألح في دنياه بالدعاء.. أيها الحبيب: اطرح منظر المفرطين في الدنيا جانبا.. وناد:

أتيتُ إليك يا رب العبادِ بإفلاسي وذلي وانفراد
وها أنا واقفٌ بالباب أبكي زماناً ما بلغتُ به مرادي
عسى عفوّ يبلغني الأماني فقد بُعدَ الطريقُ وقلَّ زادي
ولكن ما حال ذي القلب المنيب، وكيف يكون بعثه السهل الرحيب؟.

لكن كيف حال العروس بين الفزعين؟:

أما صاحب القلب المنيب فقد تركناه وهو نائمٌ كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه.. ونحن نراه الآن أمامنا.. إذ لم يَطُلْ نومه؛ فقد بعثه الله من مضجعه ذلك.. فأكمل مشاهد الحق، واصطحب معالم الصدق، وتابع خطواته في الدار الآخرة:

بعد أن أُعيد إليه خلقه كما كان أول مرة كبقية العباد، وخرج إلى ظاهر الأرض من باطنها جاءه نداء الحق الصдах الهادئ الذي طيب نفسه وأنفاسه، ورعى قلبه وإحساسه: { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي } [الفجر: ٢٧ - ٢٩].. أيتها النفس ارجعي إلى ربك أي إلى صاحبك وجسدك.. فيأمر الله تعالى الأرواح أن ترجع إلى الأجساد^(١).. وبعد أن ترجعي إلى الأرض حيث الأجساد.. فارجعي أيتها النفس المطمئنة.. ارجعي إلى ربك الجليل ليوصلك إلى محل كرامتك.. وارجعي

(١) هذا أحد التفاسير الواردة.. وقد قاله ابن عباس وعكرمة وعطاء واختاره الطبري، ودليله قراءة ابن عباس فادخلي في عبدي على التوحيد. انظر: تفسير القرطبي ٢٠ / ٥٧.

إلى ثواب ربك وكرامته^(١) فالآن.. الآن موعدك الحق.. فانظر للرجوع الهانئ.. وقارن حاله مع الآخرين.. هل يستويان مثلاً؟.

يا صاحب القلب المنيب: انظر حوالبك.. إنه الفرع الأكبر:

لما قام نظر من حوالبه.. فرأى هولاً عظيماً: ماذا حدث للكون بسبب هذا الرعب الهائل: النجوم طمست فذهب ضوءها، ثم كُدرت فتساقطت، واشتد الموقف فتناثرت منه الكواكب كأنها ترابٌ انتشر في الكون، والبحار سُجِرَتْ فاستحالت المياه ناراً موقدة.. المياه صارت ناراً موقدة فكيف يكون -هنالك- الحال، وبماذا يعبر عن ذلك المقال.. والسماوات انفطرت وانشقت ففرجت، وتدللت أرجاؤها، ووهت أطرافها، ثم كشطت كشطاً.. والجبال نسفت.. فذهبت فلم يبق لها عينٌ ولا أثر، وتطايرت ذراتها فصارت كالعهن المنفوش.. وكان {يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا} [الإنسان: ١٠].. حتى صار -كما يقول مقاتل- شره فاشياً في السموات فانشقت، وتناثرت الكواكب.. وفزعت الملائكة.. وفي الأرض نسفت الجبال، وسجرت البحار^(٢).. وزاد من رهبة ذلك اليوم ورعبه أنه استطال أمده، وكبر زمانه فكان مساوياً لخمسين ألف سنة، وكان المنظر العام للحال في ذلك اليوم.. يوم الأحوال، واضطراب الأحوال.. -كما يقول قتادة-: استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملاً السموات والأرض.. نعم كم فزع الصالحون من ذلك اليوم، وأشفقوا منه وهم يعلمون أنها الحق.. لقد كان المخبتون يطبعون الله مشفقين وجلين، ويستجيرون به {وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَتْ شُرُهُ مُسْتَطِيرًا} [الإنسان: ٧]..

(١) هذا أحد التفاسير الواردة... انظر: تفسير القرطبي ٢٠ / ٥٧.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١٩ / ١٢٨.

من جديد: من القادم؟ اللقاء بأطهر المخلوقات.. لقاء الأحبة مجدداً:

تصور المشهد: يخرج الناس من القبور فزعين وجلين يصيحون يصيحون: { يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا } [يس: ٥٢]، وآخرون ينادون: { يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا... } [الأنبياء: ٩٧]، وآخرون ينادون فزعين: { رَبَّنَا أَخْرِزْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ } [إبراهيم: ٤٤].. ويزداد الفزع والرعب حتى يهرب الناس بعضهم من بعض فيفر المرء يومئذ من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه.. بل يود المجرم منهم أن يقذف أعز أحبائه ليكون فداءً له.. { يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ } [المعارج: ١١ - ١٣].. بل يود المجرم أن يرمي كل أهل الأرض فداءً لنفسه من هول ذلك الموقف.. وكان لكل امرئ من الناس يومئذ شأن يغنيه.. يأتون رهم فرادى كما خلقهم أول مرة.. كل الناس أتوا رهم في يوم التغابن فرداً.. إلا أن ربي الغفور التواب الودود الوهاب قد جعل للمخبت المنيب وداً.. فتلقته أحبائه الأطهار في مقعد صدق يوم القيامة..

لما خرج من قبره.. إلى حشره ونشره.. قام من قبره بعد أن أعاده الله -جل جلاله- كما بدأه كأن أحب الناس إليه قد أيقظه غير فزع ولا وجل.. وهناك في موقف الوجل الشديد اقتربت منه مخلوقات طاهرة نقية.. إنهم أوليائه من الملائكة.. ما أسعده بهذه الصحبة.. وتأمل لقاءه بالملائكة الأطهار.. إذ يتلقونه فور خروجه.. إنهم أعز الأحاب، وأجل الأصحاب.. إنهم ملائكة الرحمة يتلقونه^(١) كما وعدوه قبل الموت.. هاهم يقبلون عليه بالتهنئة والبشرى والتحية، والعناق.. مع أجل رفاق.. تهدي من روعه، وتزيد من سكينته.. وتقول له كلمة التبشير العظيمة { هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } [الأنبياء: ١٠٣]، ويهتفون له: أبشروا وأمّلوا ما يسركم.. وهناك تعود الملائكة مجدداً إلى تبشيره فيقولون له: لا تخافوا ولا تحزنوا

(١) تفسير القرطبي ١١/٣٤٦، تفسير ابن كثير ٣/٢٠٠.

وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون... وهكذا تعود الطمأنينة والأمان إليه مجدداً. فيؤمن الله تعالى خوفه، ويقر عينه، فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرة عين لما هداه الله تبارك وتعالى، ولما كان يعمل له في الدنيا.

وفي موقف الطامة الكبرى، والقارعة المخيفة وفي عرصات القيامة رأيت هناك ممن { لَا يَحْزَنُهُمُ الْقَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ } [الأنبياء: ١٠٣] يملأ قلوبهم بشراً ورضاً وطمأنينة أن يسمعوا الحق يناديهم ومن معهم من المخيبين: { يَا عِبَادِ لَا حَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ } [الزخرف: ٦٨] ..

انظر إلى غيرك لترى نعيمك ما بلغ:

وأما بقية الخلق { قَلِيلًا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ } [المؤمنون: ١٠١] لا يتزاورون فيتساءلون عن أحوالهم وأنسابهم.. أما المخبت صاحب القلب المنيب فهو في حفاوته، تأتي الملائكة لتكون معه، ويلتقي بمحببه في جلال الله تحت ظل العرش..

أما المجرمون فإنهم { يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا } [الفرقان: ٢٢] ..

عندما يخرجون من أحداثهم مجدداً ويرون الملائكة نازلةً في موقف الصاخة لا بشرى لهم.. وهكذا رأيت أن "الملائكة في هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين.. فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران فلا بشرى يومئذٍ للمجرمين وتقول الملائكة للكافرين: حرامٌ محرّمٌ عليكم الفلاح اليوم" (١)، حجراً محجوراً: الفلاح لا يأتيكم فهو ممنوعٌ عليكم وأنتم ممنوعون منه.

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ٣١٤.

ومنادي الحق ينادي على موقف صاحب القلب المنيب: { هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنَ مَآبٍ } [ص: ٤٩] فهاهم يصيرون إلى أحسن مآب،، وخير مرجعٍ ومثاب.
 ألا فأبشر يا صاحب لا إله إلا الله.. أبشر: فليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم^(١)..

يا صاحب لا إله إلا الله لكأنك بك وبأهل لا إله إلا الله يفضون التراب عن رءوسهم ويقولون: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ } [فاطر: ٣٤]^(٢).

أيا صاحب القلب المنيب: هل ستبكي.. هل ستبكي هناك فرحاً وأنت تذكر أنك كنت تردد { إِنَّا نَحْأفُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا } [الإنسان: ١٠].. فإذا أصحابك الأطهار ينادونك في مقابل ذلك { هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } [الأنبياء: ١٠٣].. وهناك رأيت نفسك وأصحابك وقد وقاكم الله { شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ } [الإنسان: ١١] وقاكم شر ذلك اليوم الرهيب.. فدفع عنكم بأسه، وشدته، وعذابه حتى رأيت أنك لا تملك نفسك وقلبك.. بل ووجهك من شدة الفرح والسرور فقد لقاكم الرب الودود { نَضْرَةً وَسُرُورًا } [الإنسان: ١١].. نضرة في وجوهكم.. وسروراً في قلوبكم.. تكرماً منه عليكم أيها المخبتين من بين سائر العالمين..

الشمس تدنو من العباد فتصهرهم.. فأين المفر للخلائق يرهم وفاجرهم؟:

ولكن أهوال القيامة تتابع؛ فقد حدث للخلائق ضمن تلك العرصات العظيمة، والأهوال الضخمة كربٌ عظيم؛ إذ ((أدريت الشمس من العباد، حتى تكون قيد ميلٍ أو اثنين..))^(١)،

(١) الطبراني في الأوسط ٩ / ١٨١، وانظر: تفسير ابن كثير ٣ / ٤٦.. وإنما ذكرته بغير قوسي الحديث لما عُجز به سنده من ضعف.. أما معناه فكل الآيات والأحاديث تدل عليه، وما هو إلا شرح لها.

(٢) شعب الإيمان ١ / ١١١.

بل لا يتوقف الأمر على مجرد دنوها؛ إذ ((يزاد في حرها كذا وكذا)) حتى أنه ((يغلى منها الهوام كما يغلى القدور)) أما الناس في المحشر.. أما الناس ((فتصهرهم الشمس، فيعرق الناس [على قدر خطاياهم])). تأملهم انظر إليهم: ((فيكونون في العرق بقدر أعمالهم، فمن الناس من يبلغ عرقه إلى كعبيه، ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ العجز، ومنهم من يبلغ الخاصرة، ومنهم من يبلغ منكبيه، ومنهم من يبلغ عنقه، ومنهم من يبلغ وسط فيه، ومنهم من يلجمه إلجاما..))^(١).. يا للخزي والهوان.. يا للحسرة التي تعترى الإنسان.. يا للضنك الذي يصاحب الحسران.. ترى من الناس في ذلك المقام من يلجمه العرق إلى فيه إلجاما.

وجمع الله الخلائق ((كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة، ثم لا ينظر إليهم))^(٢).. فأى وحشة تعتريك من هول ذلك اليوم، وأي خوف يسري في عروقك؛ فعلى الرغم من شدة الكرب، وطول المدة ((لا ينظر)) إليهم فذلك -أيا صاحب القرآن- {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: ٦].. يقفون موقفاً واحداً خمسين ألف سنة لا ينظر الله إليهم، ولا يقضي بينهم، فهل ترى أكثر باكياً من يومئذ.. تراهم عند ذاك يدمعون دماً، والعرق يتوالى ويزداد ويعرقون حتى يبلغ من بعضهم أن يلجمهم أو يبلغ الأذقان فما أكثر ضجتهم حينها...

(١) قال أحد الرواة: "لا أدري أي المليون عنى أمسافة الأرض أم الميل الذي تكتحل به العين" وينبغي أن نذكر هنا أنه تُزاد أيضاً في خلقة الإنسان حتى يذوق العذاب دون أن يفنى.

(٢) البخاري ٢/٥٣٦، مسلم ٤/٢١٩٦.

(٣) الحاكم ٤/٦١٦، وصححه، ووافقه الذهبي، ابن حبان ٦/٣٢٦ وصححه الأرناؤوط على شرط الشيخين.

في ذلك الجو اللاهب: أبشر..أتحت ظل عرش الرحمن؟:

وفي هذه الأثناء كان للأواب الحفيظ.. كان لصاحب القلب المنيب شأنٌ آخر؛ فقد نادى الحق ﷻ ((أين المتحابون بجلالي اليوم [لهم مناير من نور]، أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي))^(١).. الخلاق في لهيبهم وخوفهم وفزعهم وهو أين.. أين؟ في الظل؟ وأي ظلٍ أيها العاشق المشتاق.. أي ظلٍ يا صاحب القلب الخفاق؟ إنه ظل عرش الرحمن.. وهكذا اجتمعوا تحت ظل عرش الله، وعلى الرغم من أنهم ليسوا بأنبياء ولا شهداء إلا أنه ((يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى))، وما لهم ألا يكون لهم ذلك، وهم ((قومٌ تحابوا بروح الله على غير أرحامٍ بينهم، ولا أموالٍ يتعاطونها)).. انظر إليهم، ومتّع نظرك.. ((فوالله إن وجوههم لنورٌ، وإنهم على نورٍ^(٢)))^(٣)، وبينما الناس في حزنهم، بينما الناس في رعبهم، بينما الناس في خوفهم.. رأيتهم هناك ((لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس))..

ومنادي الحق ينادي عليهم: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس: ٦٢]..

وهناك.. هناك التقى صاحب القلب المنيب مع أعزّ أحبائه الذين تحاب معهم في جلال الله تعالى، يا لأنس اللقاء في عرصات ذلك اليوم العبوس القمطير.. نعم لقد كان يخاف من ربه هذا اليوم وكان يعلنها مع صحبه {إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا} [الإنسان: ١٠].. وها قد جاءهم ذلك اليوم.. {فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ} [الإنسان: ١١] وليس ذلك فقط فهاهم تحت ظل عرش الرحمن قد {وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا} [الإنسان: ١١]..

(١) مسلم ٤ / ١٩٨٨، والزيادة عند الترمذي ٤ / ٥٩٧.

(٢) الخالف هو النبي ﷺ.. الخالف هو النبي ﷺ.

(٣) أبو داود ٣ / ٢٨٨.

تحت ظل عرش الرحمن: أي نعيم وأي مزية:

ولشدة ما هم فيه من نعيم يسير الإنسان فيه ويطمئن ويحتال.. في ذلك اليوم العظيم الأحوال لربما تساءل بعض الناس من حواليه: لم كل هذا الاحتفاء به بينما الناس في عرقهم؟.. فنظرت في ذلك وقلبت النظر فعرفت أنه قد اجتمعت فيه عدة صفات جعلته ينعم بظل عرش الله - جلّ جلاله - (١)، فقد كان شاباً ((نشأ في عبادة الله))، وكان ((قلبه معلقاً بالمساجد))، وكان مع خليلٍ من أعز أخلائه ممن تحابا ((في الله فاجتمعا عليه وتفرقا عليه))، وكان.. يا لهفتاه حريصاً على أن يتصدق ((بصدقةٍ ويخفيها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه))، وكم مرت عليه أوقاتٍ ((ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)) خوفاً وطمعاً..

وقد التقى تحت ظل عرش الرحمن بثلةٍ من المختبين الذين كانت فيهم صفةٌ من هذه الصفات العزيزة أو أكثر، ومنهم الكُمَّل الأختيار الذي اجتمعت فيهم هذه الصفات وأكثر منها، فهذا إمامٌ عادل، وذا شابٌ نشأ في عبادة الله، وهذا رجلٌ قلبه معلقٌ في المساجد، وهذان رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، وهذا رجلٌ دعت امرأته ذات منصبٍ وجمال فقال: إني أخاف الله، وهذا رجلٌ تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وهذا رجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه.. وهذا شاب اجتمعت فيه كل هذه الصفات.. لله درهم.. واحر قلباه ألا يكون لنا فيهم نصيب.. وإنا لنرجو الله أن يدخلنا في زمرةم.

إنهم:

فتيةٌ في رياض الذكر مرتعهم لله ما جمعوا، لله ما وهبوا

إذا نظرت إليهم خلت أتهم جاءوا من الخلد أو للخلد قد ركبوا

أيا جليس المساجد: فقد رأيت صاحبنا أمامك.. آواه الله -جلّ جلاله- إلى ظل عرشه.. ظلٍ ظليل، وهدوءٍ بالٍ، وسعادةٍ قلبٍ، ونسيمٍ عليل.. والخلائق في كربٍ عظيم لا يُفتَرُّ

(١) حديث السبعة المشهور عند البخاري / ١ / ٢٣٤، مسلم / ٢ / ٧١٥.

عنهم هول يوم القيامة وهم فيه مبلسون.. انظر من حواليه: {قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ} [النازعات: ٨، ٩]... بل صاح منادي الحق: هذا يوم الآفة الذي تكون فيه {الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ} [غافر: ١٨]..

شابت الولدان، وذابت الأجفان: إنه قادم الهلاك.. كيف الفكك منه.. كيف الفكك؟

ثم رأيت شيئاً عظيماً يؤتى به.. لما فيه من الهول والفرع والرعب رأيت أنه كأنه سرابٌ يحطم بعضه بعضاً... فتساءل الخلق ما هذا؟.. ومنادي الحق يصعق أفئدة الخلق يخبرهم عن هذا الشيء العظيم {وُبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ} [الشعراء: ٩١].. ويشتد الكرب والهول فد- (يفزع الناس ثلاث فزعاتٍ)) (١) "إذا جيء بجهنم فإذا زفرت فزع الناس حينئذ وجثوا على ركبهم" (٢).. وازداد الرعب حين سمع الخلائق أجمعون قولاً ينادي آدم أبا البشر -عليه السلام-: ((أُخْرِجُوا بَعث النار)) فأسقط في نفوس الخلائق، واستطار الخوف.. ((فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألفٍ: تسع مئة وتسعة وتسعين)) عندها لا تسل عن الرعب الذي حل بهم.. ((فيومئذ تبعث الولدان شيياً)) (٣)..

ولربما اعترى صاحب القلب المنيب من الحزن العظيم، والخوف الشديد ما يعتريه وهو يسمع ذلك كما سمعه الخلائق.. لكن الله يبذل حزنه سروراً.. ويملاً قلبه بشراً ورضاً وطمانينةً وحبوراً.. إذ يسمع الحق يناديه ومن معه من المختبين: {يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} [الزخرف: ٦٨]..

ولم تحزن؟ لم تحزن.. وهناك تجد أصدقاء وأولياءك في الحياة الدنيا والآخرة من الملائكة يبشرونك بأن الله قد جعل مكانك في النار فرداً من أعدائه، وذلك أنه ((إذا كان يوم القيامة

(١) الترمذي ٥ / ٣٠٨، وقال: حسن صحيح.

(٢) هذا كلام تفسير القرطبي..

(٣) مسلم ٤ / ٢٢٥٨.

بعث الله إلى كل مؤمنٍ ملكاً معه كافراً فيقول الملك للمؤمن: يا مؤمن هاك هذا الكافر فهذا فداؤك من النار))^(١) فتفتدي نفسك من النار بمن يستحقها.. ويقر بالك، ويهدأ قلبك إذ إن مجرد معاينة أهوال القيامة، والنظر إلى تغيظ النار، وسماع زفيرها.. يُلقِي في القلب أنه غير ناجٍ.. مع كثرة أنعم الله عليه في الدنيا، وقلة شكره.. ولكن الله يذهب حزنه، ويبعد همه وغمه..

ولم تحزن أيها القانت البار يا صاحب القلب المنيب؟ لم تحزن؟ والله تعالى قد خفف عنك يوم القيامة وأنت تحت ظل عرش الله فصار عندك ((كقدر ما بين الظهر والعصر))^(٢) وهذه من أعظم البشرى للمؤمنين.. فإن معاينة أهوال القيامة يوماً واحداً هو العذاب ذاته فكيف بمعاينة الأهوال خمسين ألف سنة.

أُبَشِّرُ.. هاهي الجنة تقترب.. مَتَّعْ نَظْرَكَ.. إنها أمامك:

وفجأة بعد ترقبِ قَلْبِ، ونفسٍ ملتاعةٍ جاء النداء الإلهي يحجز بين أهل المحشر.. نادى المنادي في ذلك اليوم العظيم: {وَأَمْتَارُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ} [يس: ٥٩]: "اعتزلوا عن أهل الجنة، وكونوا فرقةً على حدة"^(٣).. وهكذا بعد أن نادى منادي الحق فأصدر أمراً إلهياً بفك الاختلاط بين المفلحين وبين المجرمين.. وعند ذلك رأيت الناس {يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ} [الروم: ١٤]..

ترقب الأمر الإلهي: فقد صدر الأمر الإلهي بقسمتكم إلى قسمين: السعداء والأشقياء.. وهنا اضطربت النفوس ووجلَّت القلوب.. ووجل الخلق.. كلٌّ يخاف على نفسه أن يُصنَّفَ في الصنف المذموم المدحور.. ثم ظهر السعداء.. وكان صاحب القلب المنيب منهم.. ووفق الله

(١) ابن ماجه ٢/١٤٣٤، وصححه الألباني.

(٢) الحاكم ١/١٥٨ وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(٣) التبيان في تفسير غريب القرآن ص ٣٥٠.

صاحب القلب المنيب برحمة ربنا الودود فاصطفاه وحلَّصه.. فيا للفرحة الخانقة، والعبرات العالقة.. كان من السعداء بعد أن اجتاز أخطر محطات القيامة: توزيع كتب الحساب، والميزان، والصراف.. وابتهج مع أحبابه من المبتهجين.. وبعد القسمة الإلهية بين أهل المحشر أيجرؤ أحد أن يعترض حكم الملك العدل الحق المبين.. أيجرؤ؟ كيف وهم يأتون ﴿لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد﴾..

يا عاشق الجنة: ألا فأعلن الفرح، وأظهر الابتهاج؛ إذ صُنِّت ضمن فرقة الناجين المفلحين.. عند ذلك رأيت المؤمنين وقد خَفَّ خوفهم أو زال.. ثم هاهو فرحهم بأنفسهم يزداد.. و﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] إنه حدث لا يمكن إخفاء فرحه.. أزلفت الجنة.. أدنيت وقربت منكم أيها المتقون.. وكانت غير بعيدٍ منكم يوم القيامة.. فأنتم واصلون إليها لا محالة، وكل ما هو آتٍ قريب.. وهم في فرحهم يسمعون منادي الحق ينادي: ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ (٣٢) مَنْ حَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿ق: ٣٢، ٣٣﴾.. عندها ربما راجع كلُّ منهم نفسه لينظر أله من هذه الصفات نصيبٌ.. وله بربه سببٌ من عملٍ أوامٍ منيب.

أيها المتقون: ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٣٢] هذا ما توعدون لكل رجَّاعٍ تائبٍ مقلعٍ حفيظٍ.. حفظ العهد الذي بينه وبين ربه فلم ينكته، وامتلاً صدره باليقين.. أيها المتقون: هذا ما توعدون لكل من حفظ عهد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

أيها المتقون: هذا ما توعدون لكل أوابٍ حفيظٍ يكثر الاستغفار، في مجلسه من ليلٍ أو نهار، سمَّته سمَّ الصالحين..

أيها المتقون! أ بشروا: فإن هذه الجنة جزاء لـ ﴿مَنْ حَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣] جزاء لمن خاف الله في سره حيث لا يراه أحدٌ إلا الله عز وجل.. ممن كان يعاتب نفسه في الدنيا:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوتُ ولكن قلّ عليّ رقيبُ
 ولا تحسبنّ الله يغفلُ ساعةً ولا أن ما يخفى عليه يغيبُ
 لهونا لعمر الله حتى تتابعنّ ذنوبُ على آثارهن ذنوبُ
 فيا ليت أن الله يغفر ما مضى ويصفح عن زلاتنا فنتوبُ

أيها المتقون: أهبشروا! فهذا ما توعدون لمن خشى الرحمن بالغيب.. ذكر الله تعالى خاليا
 ففاضت عيناه.. وامتلاً بالموعظة قلبه وأذناه..

أيها المتقون: هذا ما توعدون لمن {جاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ} [ق: ٣٣] لمن أتى اليوم فلقي الله -جلّ
 جلاله- بقلبٍ منيبٍ سليمٍ.. خاضعٍ لديه.

فماذا يملك القلب إلا أن يقول: يا من لم يزل عليمًا عظيمًا عليا،
 يا من لم يزل جبارا قهارا قادرا قويا،

يا من رفع سقف السماء بصنعتة فاستوى مبنيا،

يا من سطح الأرض بقدرته وسقاها كلما عطشت ريا،

يا من أخرج صنوف النبات فكسى كل نبت زيا،

يا من قسم الخلائق سعيداً وشقياً،

يا من ذكر برحمته عبده زكريا،

يا من يسمع دعاء العبد إذ نادى ربه نداء خفياً: اجعلني عندك رضيعاً، كن بي حفيماً، ولا

تجعلني بدعائك شقياً، ارفعني مكاناً علياً، اجعلني عندك مرضياً.

الكسوة والستر.. يوم يُحصَلُ ما في الصدور.. يوم تبلى السرائر:

وعلى الرغم من هذا التكريم للمفلحين من الخلق إلا أنك ترى الخلق في ذلك الوقت ما يزالون كما وصفهم النبي ﷺ: ((يجاء بهم حفاة عراة غرلاً، فيكون أول من يكسى إبراهيم يقول الله تعالى: اكسوا خليلي.. فيؤتى بريطتين بيضاوين من رباط الجنة)).. يتابع النبي ﷺ وصفه لهذه اللحظات الحاسمة فيقول: ((ثم أكسى على أثره، ثم أقوم عن يمين الله مقاماً يغبطني الأولون والآخرون))^(١).

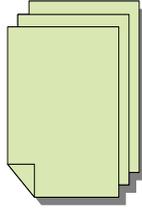
أي حبيب الجنة ومحبتها: تصور! النبي ﷺ قلقٌ عليك.. وانظر كيف بلغ حبه لك:

ومع شدة ذلك الموقف فإن النبي ﷺ قلقٌ ولهان يجب أن يرى المفلحين من أمته.. إنه باختصارٍ يريد أن يرى صاحب القلب المنيب فيا شوقاه لذلك اللقاء.. وترى النبي ﷺ وهو يبحث عن المفلحين في عرصات القيامة في أوساط الأمم.. هناك ((عُرِضَتْ عليه الأمم)) وهو يتفقد أمته بينهم.. ((فجعل يمر النبي ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، والنبي والنبهان يمشون معهم الرهط، والنبي ليس معه أحد)).. وسيدنا المصطفى ﷺ يبحث عن أمته ((حتى رفع له سوادٌ عظيم [سَدَّ الأفق]))، فيسأل متلهفاً راجياً أن يكون هذا السواد أمته وذلك لكثرتهم.. فيقول: ((ما هذا؟ أمتي هذه؟ قيل: هذا موسى وقومه)) وقد كان النبي ﷺ يود أن تكون أكثر الناس لبياهي بنا وباستجابتنا له الأمم.. عندها يقال له: ((انظر إلى الأفق.. فإذا سوادٌ عظيم يملأ الأفق ثم قيل له: انظر ها هنا وها هنا في آفاق السماء، فإذا سوادٌ قد ملأ الأفق.. قيل: هذه أمتك)) فأمة مُحَمَّدٍ ﷺ يومئذٍ يملأون الآفاق حتى يباهي النبي ﷺ بأمة الأمم ولا فخر.. ومن كثرتهم -حمداً لك رب- من كثرتهم يراهم النبي ﷺ يملأون ((السهل والجبل))

(١) الدارمي ٢/ ٤١٩، والرَّيْطَةُ كلُّ ثوبٍ رقيقٍ لَيِّنٍ.

حتى يعجب السيد المصطفى ﷺ كثرتهم وهيتهم، حتى يقال له: ((أرضيت يا مُحَمَّد؟ قلت: نعم أي رب))^(١)..

يا سعادة المحبين للمصطفى الأمين: أجل يتحقق الآن الوعد الإلهي للنبي المصطفى، والخليل المجتبي، والشفيع المرتضى ﷺ.. الآن يتحقق له وعد ربه.. فقد وعده ربي -عزَّ جاره- في الدنيا وعداً عظيماً.. إذ قال له: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} [الضحى: ٥].. وأما الآن فيقال له: هل رضيت؟.. وهل سيرضى لنا الموصوف بأنه عزيزٌ عليه ما عنتت أمته، حريصٌ عليها، {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨].. هل سيرضى لنا بغير الجنة بدلاً؟..
 قرأنا في الضحى ولسوف يرضى فسرَّ قلوبنا ذاك العطاء
 وحاشا يا رسول الله ترضى وفينا من يُعذبُ أو يُساءُ
 وهنا تسمع النبي ﷺ.. فُتَشَنَّفُ له آذانك حيث يفتخر في موقفٍ تصاغر فيه الناس أجمعهم:
 ((أنا أكثر الناس تبعاً يوم القيامة))^(٢)..



(١) البخاري ٥/ ٢١٥٧، الزيادة عند ابن حبان ١٣/ ٤٤٧.

(٢) أحمد ١/ ٤٠٣، ابن حبان ١/ ٤٥٤، أبو يعلى ٧/ ٥٣، وجملة ((بملاؤن السهل والجبل)) في الحديث في المرجعين الأولين، ولا يوجد سهلٌ ولا جبلٌ آتيا بحسب الأدلة الأخرى، فيكون المعنى أنه لو كان ثمَّ سهلٌ أو جبلٌ لملأنا منهم لكثرتهم.. فهو تقريبٌ للمخاطبين لبيان شدة الكثرة وأنها كالتى شملت الأرض جميعاً سهلها وجبلها.

المشهد الثاني
يا رب أرحني..
فلتشرق الأرض بنور ربها

هل سمعتَ قائلاً يقول: يا رب أرحني ولو إلى النار^(١):

أيها الحبيب! يا صاحب القلب المنيب!: يجري حولك الآن أحداثٌ عظامٌ.. إن أهوال القيامة لا حدَّ لها في إرعاب العباد وإخافة أهل الفساد.. إذ تعود لتطل على الناس هناك حيث ((يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس من رؤوسهم)). فإذا دنت الشمس فعند ذلك ((يبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون))، ويزداد الكرب إذ ((تعطى الشمس يوم القيامة حر عشر سنين ثم)) تظل ((تدنو من جماجم الناس، فيعرقون حتى يرشح العرق في الأرض قامَةً، ثم يرتفع الرجل حتى يغرغر يقول: غر.. غر))، و((يشتد عليهم حرها، ويشق عليهم دنوها، فينطلقون من الضجر والجزع مما هم فيه)) [يفظع الناس لذلك، والعرق كاد يلجمهم] و[يلبثون ما شاء الله من الحبس]] ((لغم ما هم فيه، والخلق ملجمون بالعرق، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة، وأما الكافر فيغشاه الموت))، ويشتد الأمر اشتداداً عظيماً حتى ((إن الرجل ليلجمه العرق يوم القيامة حتى يقول: يا رب أرحني ولو إلى النار)) لا حول ولا قوة إلا بالله، وحسي الله ونعم الوكيل، وهل في النار راحة؟.. ارفع يديك وناج الإله القريب المجيب: اللهم اجعلني عند الفرع الأكبر من الآمنين..

((فإذا رأوا ما هم فيه))، أعطاهم الله -عزَّ جاره- بقية قوة فيقومون يتصايحون بينهم على هيئة المشاورة التي أصاب أصحابها كل تعبٍ ولغبٍ.. عندها يقول: ((بعضهم لبعضٍ: اتتوا

(١) انظر: البخاري ٤/ ١٧٤٥، والزيادات عند أحمد ٣/ ١٧٨، ابن أبي شيبة في مصنفه ٦/ ٣٠٨، الطبراني في الكبير ٦/ ٢٤٧.

أباكم آدم حتى يريحنا من مكاننا هذا).. وتتكرر الطلبات بقوة مع شدة الأمر.. لا إله إلا الله، وحسبي الله ونعم الوكيل.. ((فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم))، ثم يستقرون على أن يطلبوا الشفاعة من أبي البشر آدم-عليه السلام- ((فيقول بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى آدم أبي البشر، فليشفع لنا إلى ربنا فليقض بيننا))... وهكذا يلهث سائر الناس يطلبون الشفاعة ليفصل بينهم مجرد الفصل.. وليريحهم من مكانهم.. ولو إلى النار.. نعوذ بالله من غضب الجبار-جل جلاله-.

ويشتد الأمر على المؤمنين أيضاً.. وكلمة تصدع الحليم تخرج من الكريم آدم أبي البشر-عليه السلام-: لست هناكم:

إلا أن الأمر يطول على المؤمنين أيضاً حيث ((يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهملوا بذلك))^(١) يهتم بعضهم ويعتم من ذلك الحبس يوم القيامة.. وعندما يشتد الأمر، ويطول ((يجتمع المؤمنون فيقولون: لو استشفعنا حتى يريحنا))، ((فيهتمون بذلك))، ولكنهم لا يعلمون كيف يناجون الجبار-جل جلاله-، وهم خائفون أن تكون قد أطاحت بهم الأوزار.. ثم ((يقوم المؤمنون حتى تنزل لهم الجنة)) فيطلب المؤمنون الشفاعة ((فيلهمون ذلك)) ((فيأتون آدم)) طلباً للشفاعة.. وهكذا يبدأون بآدم.. فتابع مسيرتهم المتعبة.. وأجر دموع الحشبة لله وأنت خال.. عسى أن تجد ثمن ذلك مضاعفاً يوم الأهل..

يصلون إلى آدم-عليه السلام- ((فيقولون: أنت آدم أبو الناس خلقك الله بيده، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، لتشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من

(١) حديث الشفاعة مشهور، انظر مثلاً: البخاري/٦/٢٧٠٨، مسلم/١/١٨٠، وستأتي بعض التفصيلات خارج الصحيحين يُشار إليها، ولا نجهد الكتاب بالإشارة إلى من صححها.

مكاننا هذا))، ويقرون ذلك بما يُلهبُ الصدرَ مما أصابهم من الغمِّ والكرب فيقولون: ((ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟))..

((فيقول: لست هناك)) لستُ في المحل الذي تظنوني فيه.. لستُ في الدرجة التي تسمح لي أن أشفع لكم.. لست هناك.. يا لها من كلمة تصدعُ الحليم.. أتصدر من نبي الله آدم.. وهو.. وهو.. كيف وهو الذي أسجد الله له ملائكته المقربين لما له من كرامةٍ ومكانةٍ، ومنزلةٍ عليّةٍ رفيعةٍ.. ولكنه هول القيامة العظيم.. ثم يُخبرهم بشدة ذلك الهول الذي يمنعه من أن يجترأ على الشفاعة عند ربه -جلّ جلاله- فيقول:

((إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه تخاني عن الشجرة فعصيته)).. ثم يئن بعبارَةٍ عظيمةٍ تدلك على شدة الفرع، وعظم الكرب فيقول:

((نفسى.. نفسى))..

أيا ربه لئن كان آدم يخاف على نفسه في ذلك اليوم العظيم، و لا يرجو إلا نجاتها.. فماذا يقول العباد، وكيف يبلغ الكرب والضيق في الأكباد؟ اللهم سلم.. اللهم سلم. ولكن آدم-عليه السلام- يقدم لهم شيئاً واحداً؛ إذ ينصحهم بشخصٍ آخر فيقول: ((ولكن اتتوا نوحاً أول نبي بعثه الله إلى أهل الأرض))..

الأنبياء الذين بعثوا لإنقاذ غيرهم يقولون: ((نفسى.. نفسى)):

وينطلق الجمع الخائف المتعب (فيأتون نوحاً) فيرجونه.. ويتوسلون إليه، ويعددون له مناقبه، ويطلبونه ((فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً..)) ثم يطالبونه بعبارات التوسل الشديد: ((اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟)).. وينتظرون الجواب بلهفةٍ.. ولكن الرد كان مخيباً لآمالهم.. محطماً لرجائهم.. يزيد الغمِّ والكرب: ((فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده

مثله، وإنه قد كانت لي دعوةٌ دعوتُ بها على قومي)) ثم يقول: ((لستُ هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب: سؤاله ربه بغير علم)) ثم يعيد لهم عبارةً تزيد في فزعهم فيقول: ((نفسى..نفسى))..

هذا العبد الشكور يخاف على نفسه أيا عبد الله.. فماذا يكون حالى وحالك.. ولكن نوحاً-عليه السلام- ينصحهم بنبي آخر عسى أن يشفع لهم عند ربه فيقول: ((ولكن اتوا إبراهيم خليل الرحمن)) فينطلقون والكرب يزداد عليهم في يومٍ عظيم.. وخطبٍ جسيم.. ((فيأتون إبراهيم)) فيكلمونه ويطلبون منه الشفاعة، ويقولون له: ((أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض.. اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟)) ((فيقول لهم إبراهيم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله)) ويعتذر لهم بأنه لا يستطيع أن يشفع عند ربه ((فيقول: إني لستُ هناكم. ويذكر ثلاث كلماتٍ كذبت)) ثم يقول ((نفسى..نفسى.. اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى [عبداً آتاه الله التوراة، وكلمه وقربه نجياً] فيأتون موسى ﷺ يقولون: ((يا موسى! أنت رسول الله. فضلك الله برسالاته، وتكليمه على الناس. اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى ﷺ: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله [إني لستُ هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب]) فيقول: ((وإني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها)) ثم يقول لهم: ((نفسى..نفسى.. اذهبوا إلى عيسى ﷺ عبد الله ورسوله، وروح الله وكلمته))..

تابع الجمع الخائف المرعوب.. وهو ينطلق إلى عيسى-عليه السلام-.. ((فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمت الناس في المهدي، وكلمةٌ منه ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه فاشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى ﷺ: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله. ولم يذكر له ذنباً))..

ولكن على الرغم من أنه لم يذكر ذنباً إلا أنه شعر أن ذلك لا يؤهله لأن يقوم بمهمة الشفاعة.. لذا يقول لهم: ((لستُ هناكم.. نفسي.. نفسي. اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى مُحَمَّدٍ ﷺ عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)).. وهكذا ((يستنصرون الأنبياء نبياً نبياً كلما جاؤوا نبياً أبي عليهم))^(١) ولا من معينٍ ولا ناصرٍ.. وكل نبي يخاف على نفسه..

يا صاحب القلب المنيب: مقام السيد النبي المصطفى ﷺ في الدرجات العلى:

وفي هذه الأثناء يكون النبي ﷺ وأمته العظيمة ((على تلٍ فيكسوه ربه حلة خضراء))^(٢).. قال ﷺ: ((فيأتوني فيقولون: يا مُحَمَّدُ أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر. اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟))..

ولا يأتي المؤمنون وحدهم بل تأتي الأنبياء أيضاً إلى النبي ﷺ لتعزز الموقف، وتؤكد الطلب.. حتى ينهد النبي ﷺ للشفاعة للخلق أجمعين.. تأتي جموع الأنبياء وجموع المؤمنين طالبةً منه ﷺ أن يشفع إلى الله حتى يفصل بين العباد، ويصفون له ما قد وصل إليه العباد من الغم كما قال ﷺ: ((إني لقائمٌ أنتظر أمتي تعبر الصراط إذ جاءني عيسى -عليه السلام- فقال: هذه الأنبياء قد جاءتك يا مُحَمَّدُ يسألونك -أو قال- يجتمعون إليك، ويدعون الله أن يفرق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء الله لغم ما هم فيه، فالخلق ملجمون بالعرق، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة، وأما الكافر فيغشاه الموت))^(٣) عندها يقول النبي ﷺ لعيسى -عليه السلام-: ((انتظر حتى أرجع إليك)).

(١) مسند إسحاق بن راهويه ١ / ٨٩.

(٢) ابن حبان ١٤ / ٣٩٩.

(٣) الضياء في المختارة ٧ / ٢٤٩.

بنفسي يا رسول الله! ما زلت تعطي الخلق نفسك وراحتك في الدنيا، وتهددهم سواء السبيل.. جعل الله كرامتك أمام العالمين ظاهرة، إذ أبقي حاجتهم إليك في الدنيا والأخرى. نعم! وصاحب القلب المنيب يحضر ذلك، ويرى كيف رغب الخلق لسيد البشر في ذلك الموقف العصيب ((حتى إبراهيم -عليه السلام-)) خليل الرحمن.. الكل ينتظر الفرج بشفاعته.. وبذلك صار النبي ﷺ في هذا الموقف العظيم بحق ((سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر)).. وبات حقاً بيده ((لواء الحمد، ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائه))^(١).

وقام النبي ﷺ بما طلب منه الخلق أفضل قيام.. إذ ينطلق نبي الله ﷺ فيقوم تحت العرش فيلقى هناك ما لم يلق ملكٌ مصطفى، ولا نبي مرسل ((فيشفع ليقضى بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمد به أهل الجمع كلهم)).. ويصف النبي ﷺ للمؤمنين تلك اللحظات الحاسمة فيقول: ((فأنطلق فآتي تحت العرش)، فأستأذن على ربي في داره، فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجداً، [ثم يفتح الله عليّ، ويلهمني من محامده، وحسن الثناء عليه شيئاً] لم يفتحه لأحد قبلي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني فيقول: يا مُحَمَّد ارفع رأسك.. سل تعطه.. وقل يسمع، واشفع تشفع)).. وهكذا ((يؤذن للنبي ﷺ عندها فيقول ما شاء الله أن يقول، فذلك المقام المحمود)) الذي يُعطاه ولا يعطى لأحدٍ سواه. قال ﷺ: ((أرفع رأسي، فأثني على ربي بثناءٍ وتحميدٍ يعلمنيه))، وتسمع النبي ﷺ يقول فيما يقول في الثناء على ربه -فيا حسن ذلك الثناء- قيل له: يا مُحَمَّد فقال: ((لبيك

(١) ابن حبان ١٤ / ٣٩٨.

وسعديك، والخير في يديك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك، وبك وإليك، تباركت وتعاليت، سبحانك لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك. سبحانك رب البيت))^(١).

يا صاحب القلب المنيب: من النعيم العظيم في موقف الخطب الجسيم: الانتماء إلى أمة محمد ﷺ :

وبعد هذا يا صاحب القلب المنيب:

ألا ترى أن منبع رضاك وطمأنينتك بل فخرك وعزك وسؤددك أنك تنتمي إلى أمة قائدها هو ذا المصطفى المجتبي ﷺ.. تنتمي إلى أمة تكون أسبق الأمم خروجاً من أرض المحشر، وأسبقهم إلى أعلى مكانٍ في الموقف، وأسبقهم إلى ظل العرش، وأسبقهم إلى الفصل والقضاء بينهم، وأسبقهم إلى الجواز على الصراط، وأسبقهم إلى دخول الجنة.. فالجنة محرمة على الأنبياء حتى يدخلها محمد ﷺ، ومحرمة على الأمم حتى تدخلها أمته.

وهناك زاد تفاؤلك بنجاتك وفوزك بالانتماء إلى أمة محمد ﷺ.. إذ رأيت نبيك وهو يرجو ((أن تكونوا - معاشر أمة محمد ﷺ - شطر أهل الجنة))^(٢)..

هذا الحبيب المصطفى، والخليل المجتبي، والشفيع المرتضى ﷺ كانت له دعوة مستجابةً يمكنه أن يدعو بها في الدنيا بما أحب.. ولكنه لم يفعل.. ادخرها وصبر على كل أذى ولأواء قاساها في الدنيا.. كل ذلك لأجل أمته ﷺ.. استمع إليه يبشرك بذلك ويخبرك عن حبه لأمته، وصبره عليها: ((لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني خبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً))^(٣)..

(١) عبد الرزاق في مصنفه ٢/ ٧٩، وابن أبي شيبة ٦/ ٣١٩، وقال في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٧٧: رواه البزار موقوفاً ورجاله رجال الصحيح.

(٢) البخاري ٤/ ١٧٦٧، مسلم ١/ ٢٠٠.

(٣) الحديث عند البخاري ٥/ ٢٣٢٣، واللفظ لمسلم ١/ ١٨٩.

ويبشر النبي ﷺ عندئذٍ أمته ببشرى فيقول: ((يدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفاً بغير حساب))^(١).. أي قلبٍ عظيم بين جنبيك يا رسول الله! حتى في ذلك الموقف العظيم تسأل عنا وتخاف علينا، وتشتاق لنا.. ترى ما أعددنا شوقاً لك يا رسول الله؟.. ولكن النبي ﷺ في ذلك الموقف يعرف أمته بصورةٍ مجملة لبعدهم لا يدرك منها إلا الكثرة ولا يمكنه تمييز لأعيانهم.. نفسي له الفداء ﷺ.. يتحرق شوقاً ليشاهدك وسائر أمته عن قرب.. فإذا ما قربتم منه أمكنه أن يميز أشخاصكم.. وها أنتم قد قربتم.. ها أنتم قد اقتربتم.. يا ساعة اللقاء بأحب الخلق إلى الله كيف تكون.. كيف تكون؟..

فما لعينيك إن قلت أكففا همتا؟ وما لقلبك إن قلت استنقق بهم؟
أحسب الصب أن الحب منكم ما بين منسجم منه ومضطرم

يا صاحب القلب المنيب: النبي ﷺ يبحث عنك،، إنها أمة محمدٍ المكرمة لمن آمن منها وعمل صالحاً:

وعندها يأتي الناس والمؤمنون والأنبياء إلى النبي ﷺ ليشفع لهم حتى يفصل بينهم يقوم النبي ﷺ في ذلك المقام العصيب فيكون ((أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة، وأول من يؤذن له برفع رأسه)) ثم يشفع.. فيملاً قلبه الشوق مجدداً برؤية أمته، ويتعرف عليها.. في وقتٍ يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه.. في وقتٍ ينادي فيه منادي الحق: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: ٣٧].. في وقتٍ يصيح الأنبياء فيه ((نفسى.. نفسى)).. وعلى الرغم من ذلك كله يقوم النبي ﷺ يبحث عن أمته حتى يعرفها.. أيا صاحب القلب المنيب: أبشراً! أبشراً! فالنبي ﷺ يعرفك وسائر أمته الآن بين هذه الجموع المتعاطمة!

(١) البخاري ٥/ ٢١٥.

أيها الساجدون! أيها المتطهرون! أبشروا: أنتم المعروفون عند النبي ﷺ المقدمون بين يديه:

أجل هناك يلتمس المحبب الأواب أن يعرفه النبي ﷺ، وقد أعدَّ للأمر عدته.. نعم! فقد كان يُكثِرُ من الطهارة.. حتى أنه لا يبيت إلا على وضوءٍ، ويكثر من السجود فقد نصح المصطفى ﷺ أحد أحبابه المتيمين به الراغبين في موافاته يوم القيامة وفي الجنة.. نصحه بكثرة السجود.. تأمل الآن صاحب القلب المنيب في ذلك الموقف العصيب: موقف القيامة.. بدأت تظهر عليه علامات رائعة في جبهته وساقيه.. الله ما أجملها! وأنقاها! وأصفاها.. هو فقط وثلة من الناس في ذلك الموقف العصيب.. ظهرت عليه هذه العلامات.. والناس يغبطونهم عليها.. يودون أن لو كانت فيهم.. فما هي يا ترى؟.

إنها الغرة والتحجيل.. أجل سيما أمة محمد ﷺ بين الأمم.. والنبي ﷺ ينظر بين يديه ليميز أمة عن غيرهم.. عندها يا صاحب القلب المنيب يخصك النبي ﷺ بنظرة.. يا لها من نظرة.. ويتبسم ﷺ من فرحه برؤية أمة أهل الغرة والتحجيل.. وذلك مما يُتَبَّثُ الصالحين من أمتة في ذلك الموقف العصيب.. أيا رسول الله:

يومٍ أراك به فلست أصومه فالعيدُ عندي ثابتٌ تحريمُهُ

ودجى أُمِيطَ لنا لثامُ ظلامه بصباح وصلٍ منك لست أقومُهُ

فيراكم ﷺ بين الأمم فهنيئاً لكم.. ثم ينظر عن يمينه ليميزكم عن غيركم فيراكم بين الأمم فهنيئاً لكم، ثم ينظر عن شماله ليميزكم عن غيركم فيراكم بين الأمم فهنيئاً.. هنيئاً لكم! أيا حبيباه: هل قتلك الشوق لذلك المقام؟.. النبي ﷺ يعلن شارتكم بين الأمم: ((أمّتي يوم القيامة غرٌّ

من السجود، محجلون [بلق] من الوضوء))^(١)..إنها ((سيماء أمته ﷺ ليس لأحدٍ غيرها))^(٢)..

والنبي ﷺ له شفاعَةٌ خاصةٌ لأمته غير شفاعته لسائر الناس هي من أعظم الشفاعات عند ربه.. ويصف ذلك ﷺ فيقول: ((فشفعت في أمتي..فما زلت أتردد إلى ربي -عز وجل- فلا أقوم منه مقاماً إلا شفعت حتى أعطاني الله -عز وجل- من ذلك أن قال: يا مُجَّد أدخل من أمتك من خلق الله -عز وجل- من شهد أن لا إله إلا الله يوماً واحداً مخلصاً، ومات على ذلك))^(٣)..

يا صاحب القلب المنيب: فلنشرق أنوارك الوضوءة.. فقد أشرقت الأرض بنور ربها لفصل القضاء..ولكن:

استجاب الله-عزَّ جاره- لشفاعة نبيه ﷺ..وأمر بالاستعداد لفصل القضاء بين العباد..عندها بدأت أفواج الملائكة تنزل، والبيان القرآني يصف بدقةٍ مثيرةٍ تلك اللحظات، إذ يقول ربي - عزَّ جاره-: { وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَتُنزِلُ الْمَلَائِكَةُ نَنْزِيلًا } [الفرقان: ٢٥] فتنزل الملائكة وتأخذ مصافحاً..ثم حدث أمرٌ عظيمٌ؛ إذ انشقت {وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ} [الحاقة: ١٦]..

السماء..لم انشقت ووهت أركانها؟..لم انفطرت وتداعت؟.. ووضح الأمر إذ رأيت السماء انشقت {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة: ١٧]...انظر هناك: انشقت السماء ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾ {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا

(١) لفظ الترمذي ٢/ ٥٠٥، والحديث عند البخاري ١/ ٦٣، ومسلم ١/ ٢١٨.

(٢) ابن ماجه ٢/ ١٤٣١.

(٣) المختارة ٧/ ٢٤٩ بإسناد صحيح، ورواه أحمد ٣/ ١٧٨، وقال الهيثمي ١٠/ ٣٧٤: "ورجاله رجال الصحيح".

صَقًّا} [الفجر: ٢٢] {فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ} [البقرة: ٢١٠] فيحمل عرشه يومئذ ثمانية...

وعندها تمَّ النور الحق، وجاء الفصل {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} [الزمر: ٦٩] .. أشرقَتْ! نعم أشرقَتْ.. الأرض بنور ربها يوم القيامة.. {وَوُضِعَ الْكِتَابُ} [الكهف: ٤٩] .. وَضِعَ كتابُ الأعمال، {وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ} [الزمر: ٦٩].. جِيءَ بالنبيين يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم.. كما جِيءَ بالشهداء من الملائكة الحَفَظَةَ على أعمال العباد من خيرٍ وشرٍّ، {وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ} [الزمر: ٦٩] بالعدل {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [الزمر: ٦٩]..
أيا طالب النجاة: فأبصِرْ العباد عندها وهو يحثون أشد الحنين إلى الرحمة والفضل.. لا إلى القسط والعدل.. إذ سبحان ربي فما عبده العابدون حق عبادته.. فكيف ترى المفرطين؟.

شيءٌ عظيمٌ.. وخطبٌ جسيمٌ.. تعرضون لا تخفى منكم خافية:

عندها نادى منادي الحق ﷻ: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ} [الحاقة: ١٨].. إنه يومٌ عظيمٌ.. يدعو الله الناس فيه لفصل القضاء.. ولكن الرزية كل الرزية.. والمصيبة كل المصيبة أن الأمر: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ} [الحاقة: ١٨].. "فالكل مكشوف.. مكشوف الجسد، مكشوف النفس، مكشوف الضمير، مكشوف العمل، مكشوف المصير.. وتسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار، وتتعرى النفوس تعري الأجساد، وتبرز الغيوب بروز الشهود.. ويتجرد الإنسان من حيطته، ومن مكره، ومن تدييره، ومن شعوره، ويفتضح منه ما كان حريصاً على أن يستره حتى عن نفسه! وما أفسى الفضيحة على الملائة.. وما أخزاهما على عيون الجموع! أما عين الله فكل خافية مكشوفة لها في كل آن. ولكن لعل الإنسان لا يشعر بهذا حق الشعور، وهو مخدوع بستور الأرض. فهذا هو ذا يشعر به كاملاً وهو مجرد في يوم القيامة. وكل شيء بارز في الكون كله. الأرض مدكوكة مسواة لا تحجب

شيئاً وراء نتوء ولا بروز. والسماء متشققة واهية لا تحجب وراءها شيئاً، والأجسام معرأة لا يسترها شيء، والنفوس كذلك مكشوفة ليس من دونها ستر وليس فيها سر! ألا إنه لأمر عصيب. أعصب من دك الأرض والجبال، وأشد من تشقق السماء! وقوف الإنسان عريان الجسد، عريان النفس، عريان المشاعر، عريان التاريخ، عريان العمل ما ظهر منه وما استتر. أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله، من الإنس والجن والملائكة، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع.

وإن طبيعة الإنسان لمعقدة شديدة التعقيد؛ ففي نفسه منحنيات شتى ودروب، تتخفى فيها نفسه وتتدسس بمشاعرها، ونزواتها، وهفواتها، وخواطرها، وأسرارها، وخصوصياتها. وإن الإنسان ليصنع أشد مما تصنعه القوقعة الرخوة الهلامية حين تتعرض لوخزة إبرة، فتنطوي سريعاً، وتنكمش داخل القوقعة، وتغلق على نفسها تماماً. إن الإنسان ليصنع أشد من هذا حين يحس أن عيناً تدسست عليه فكشفت منه شيئاً مما يخفيه، وأن لمحة أصابت منه درياً خفياً أو منحى سرياً! ويشعر بقدر عنيف من الألم الواخز حين يطلع عليه أحد في خلوة من خلواته الشعورية..

فكيف بهذا المخلوق وهو عريان. عريان حقاً. عريان الجسد والقلب والشعور والنية والضمير. عريان من كل ساتر. عريان! كيف به وهو كذلك تحت عرش الجبار، وأمام الحشد الزاخر بلا ستار؟! ألا إنه لأمر، أمرٌ من كل أمر!!!^(١).

يصف ربي -عز جاره- ذلك الموقف فيقول: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِمْ} [الإسراء: ٧١] بنبيهم.. يدعو ربنا القهار كل أمة وحدها.. تتقدم مع نبيها ليتم فصل القضاء.. وجاء إمام كل أمة من الأمم، وذلك ليشهد عليهم، ومنادي الحق ينادي: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ

(١) في ظلال القرآن ٧/٣١٤.

رَسُوهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [يونس: ٤٧] ورأيت عند ذاك هلعاً شديداً.. فبالرغم من أن الناس أرادوا فصل القضاء، والتخلص من مواقف الهول والبلاء في يوم الطامة الكبرى.. إلا أنهم بدأوا يرتجفون من عرض أعمالهم، وبدء حسابهم.. عندها رأيت الرعب يعمهم حتى لا يعرف إنسان إنساناً ولو كانت أمّ مع ابنها، أو أخّ مع أخيه، أو زوج مع صاحبه وبنيه.. ارتجفوا وخافوا ثم أسقط في أيديهم لتري قلوبهم واجفةً، وأبصارهم خاشعةً ذليلةً.. ثم لم تحملهم أقدامهم فرأيت {كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ} [الجاثية: ٢٨].. جائيةً على ركبها.. لا يحملها جسدها، ولا يطبقها بدنها.. أجل ف {كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا} [الجاثية: ٢٨]، ومنادي الحق ينادي عليهم: {الْيَوْمَ بُحْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجاثية: ٢٨].. ولربما ظلوا خرساً.. يتساءلون خائفين قلقين.. فتسمع التساؤلات همساً: كيف يحصى كل صغيرة وكبيرة مما كنا نعمل؟..

فيكون قاطع الجواب.. مخيفاً لمن ارتاب: {هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجاثية: ٢٩].. وهناك رأيت من كان في غفلةٍ عن البعث والحساب.. يرى الكتاب.. {لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [الكهف: ٤٩].. حتى أصغر الصغائر.. مكتوبة.. نعم ترى أصغر الصغائر {لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق: ٢٢].. ومنادي الحق ينادي {لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ} [غافر: ١٧].. وهنا أسقط في يدي الجميع حتى صاحب القلب المنيب.. اعتراه خوفٌ شديداً.. فالقضاء بالقسط.. قضاء الله لا بد أن يكون بالعدل.. ولربما يكون معنى العدل هنا الهلاك.. كم يخشى المرء معه من الهلاك.. إذ من ذا الذي وثى ما أمر الله به، أو أدّى شكر أنعمه.. مَنْ.. عدا المعصوم ﷺ؟..

ولربما تساءل صاحب القلب المنيب في نفسه متلهفًا:

كم من نعمة أنعم الله بها عليّ.. قلّ له عندها شكري..

كم من بلية ابتلاني الله بها.. قلّ له عندها صبري..

كم من تقصير صدر مني.. فسترتني..

كم من زلة بقيت حسرتها في قلبي لكنها عن أخواتها لم تردعني..

كم من معصية قارفتها وربي يُسبِلُ عليّ ستره فلم يفضحني..

..يومئذٍ أيها البار القانت مرّ شريط الحياة سريعاً أمامك.. تتنابك فيه الذكريات المتتالية..

{يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} [الفجر: ٢٣] وتتساءل عندها:

كم من صلاةٍ غَفَلْتُ عنها في الليل بلهو دنيا..

كم من يومٍ غفلت عن صيامه بتعبٍ لا يساوي من عظام هذا اليوم عشر معشارٍ..

كم من مظلومٍ لم أنصره.. كم من جائعٍ لم أطعمه.. كم من كلمةٍ خيرٍ سكت عنها.. كم من

كلمةٍ سوءٍ اجترأت عليها..

وشريط الذكريات يمر سراعاً.. فهذه كلمةٌ لا ترضي الله، وهذا غضبٌ لم يكظم، وهذا حبٌ

لغير الله، وهذه نظرة حرام، وتلك فعلة سوءٍ واقتراف آثام... آه..

..واحر قلباه من ذكريات الآلام.. وقد سَطَّرَتْ كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ الأفلام..

أيا صاحب القلب المنيب: لعل هناك تتساءل: هل هناك عملٌ أستحق به الجنة؟ أهنالك

عملٌ أجزم فيه بالإتقان والإخلاص؟.. {يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ} [الفجر: ٢٣].. ومنادي الحق

ينادي: {وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} [الفجر: ٢٣]، ولربما تمنيت بلهفةٍ فقلت: {يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ

لِحَيَاتِي} [الفجر: ٢٤]..

أيا عيناه: أسعديني بدمعك الرقراق رهبة الخذلان يوم الفراق

أيا عيناه: أسعديني بدمعك الرقراق رهبة الخذلان يوم الفراق

ومجيء جهنم تفر يزيد من رعب العباد.. ولكن الجنة التي أزلت للمتقين غير بعيد تجعل الشوق يحرق الأكباد.. وتخفف عن الإنسان فيتشوف نحوها راجياً أن تشمله المغفرة فلعله ينجو أو يكاد.. ولكن الذكريات ما زالت تنهال.. نشطت الذاكرة نشاطاً عظيماً فتذكر الإنسان كل زلة كان يعملها في الخفاء.. في الليلة الظلماء في القاعة الصماء.. نشطت لتعبث بنفسه وفكره.. يا للهول فإن النبي ﷺ قد ذكر أنه لو أن هناك ((رجلاً يُجرُّ على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرماً في مرضاة الله تعالى لحقره يوم القيامة))^(١).. لو أنه يجر على وجهه من أول لحظة خرج إلى الخلق إلى يوم يموت.. كل ذلك يجر على وجهه في طاعة الله دون أن يكون له معصية واحدة.. لما عدَّ ذلك عملاً عظيماً بل سيحتقره يوم الحساب عندما يقيسه في جنب نعم الله وآلائه.. فكيف بالمقصرين المفرطين.. اللهم رحمتك نرجو.. مغفرتك نبغي.. يا أرحم الراحمين..

يا رحمة ربي.. قرّة عيني.. ومبعث رجائي وحيي:

إلا أن صاحب القلب المنيب بقي متعلقاً بأمل رحمة الله، وفضله السابغين عسى أن يشملاه.. لعله رجع يبتهل ويدعو الرحيم الغفور:

قُرّة عيني: لا بدّ لي منك وإن أوحش بيني وبينك الزلُّ
قُرّة عيني: أنا الغريق فخذ كفّ غريق عليك يتكلم

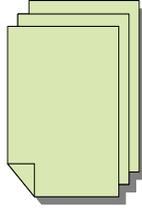
وعرضت الأمم واصطفت ونادى المنادي: { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا } [النساء: ٤١]، ورأيت الذين كفروا يومئذ كما قال ربي - عزّ جاره - : { يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا } [النساء: ٤٢] ..

(١) أحمد ٤ / ١٨٥ .

نعم! هذا وقت شهادة الرسل على أممهم.. {وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} [المرسلات: ١١ - ١٥].

..ولربما تذكرت أيا صاحب القلب المنيب.. حينها وأنت ممن شُرِّفَتْ بأن تكون من أمة محمد ﷺ.. تذكرت ما نرف دموع عينك خشيةً وقلقاً.. تذكرت أن النبي ﷺ بكى عندما تلا عليه ابن مسعود هذه الآية؟! أجل بكى وهو الشاهد فكيف سيفعل المشهود عليه.. يا له من موقفٍ تسيل له الأدمع الحرى.. ولكن هل ادخرت لهذا الموقف مركب النجاة، وطوق السلامة.. كما قال الأبرار السابقون:

إني ادخرت ليوم ورد منيتي عند الإله من الأمور خطيراً
وهو اليقين بأنه الأحد الذي ما زلت فيه بفضله مغموراً
وشهادتي أن النبي محمداً كان الرسول مبشراً ونذيراً
ومحبي آل النبي وصحبه كلاً أراه بالجميل جديراً
وجميل ظني بالإله لما جنت نفسي، وإن حرمت عليَّ سروراً



المشهد الثالث وَضْعُ الْكِتَابِ.. وَبَدَأُ الْحِسَابَ

بداية الحساب.. واحر قلباه: من يكون صاحب الزلفى من ربه.. من له حسن مآب؟: في موقف الحساب ينادي منادي الحق {وَوَضِعَ الْكِتَابَ} [الكهف: ٤٩] فبدأ معه الحساب.. ورأيت هناك المجرمين مشفقين مما فيه.. ينظرون إليه بعينٍ ثابتة.. ويرون ما فيه بكل سهولة، ويؤمنون بالنظر فيه.. أفيتعامى أحدهم عن رؤية صغائره وكبائره؟ كلا! فمنادي الحق يناديهم: {فَبَصَّرْكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق: ٢٢].. ينظرون إليه ويبتنون ويقولون: {مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [الكهف: ٤٩].. فمنهم من يؤتى كتابه بشماله، ومنهم من ثلوى يده خلف ظهره ثم يُعطى كتابه، وربما رأيت تنزع يده من صدره إلى خلف ظهره ثم يعطاه، أو يحاول إخفاء يده الشمال خلف ظهره، ولكن الكتاب يصله^(١).. نعم.. ولم تُمَيِّز بين الفريقين، وربما خشيت أن المسلم العاصي المصر يعطى كتابه بشماله، والكافر من وراء ظهره^(٢).. لعلك يا خاطب الجنة! أشفقت من هذا أشد الإشفاق.. انظر لقلبك المرتعد المرتجف وسل الله العافية.. ومنادي الحق ينادي بما يدفعك لاهتبال وقتك في ركعتين: {إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى} [طه: ٧٤ ، ٧٥].

وفي ذلك الموقف العصيب المخرج.. مع القلق والترقب، والخوف الرهيب.. تبدأ حركة الحساب العظيمة..

(١) على اختلاف تفسير «وراء ظهره».

(٢) انظر: فيض القدير ٢ / ١٧١.

أيها الخلق: الوزن يومئذ الحق..الوزن يا أيها الناس..ألا هل من يدرك نفسه من الأذكياء الأكياس؟

تبدأ حركة الحساب بوزن الأعمال..فانظر إلى ذلك ببصيرة وقلبٍ خاشعٍ ودع عنك الأثقال..

التفت إلى من يشك..ويذيع السؤال: كيف يتم القضاء؟ وكيف يكون حقاً كاملاً، وعدلاً تاماً خالصاً ذا صفاء؟..الآن أمام عينيك يتم ذلك..فارقب الوضع وسل الله منازل السعداء.. إذ بهيئة عظيمة قد نُصِبَتْ أمام الناس، فقد صدر الأمر الإلهي فوضع الله {المَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} {الأنبياء: ٤٧}.. إنها الموازين؟

لربما رجفت الأفئدة وتساءلت قلقةً مدعورةً: موازين..ماذا تزن؟

ويأتي الجواب يخطف من العَقَلَةِ الألباب..ويوِّدُ المجرم يومئذٍ أن لو رجع إلى تراب..يأتي الجواب: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} {الزلزلة: ٧}، {وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} {الزلزلة: ٨}..

أجل أيها الخلائق من البررة والفجرة: بهذا الوزن الدقيق يتم العدل الحق {فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا} {الأنبياء: ٤٧} مهما صغر أو كبر..لا تظلم نفس شيئاً حتى {إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ} {لقمان: ١٦} حتى حبة الخردل يأتي بها الله..

ولربما كابر الجهلة خائفين فقالوا: وكيف يوزن صغير الأعمال وكبيرها؟ كيف يمكن أن يتأتى لأحدٍ أن يحيط بكل شيءٍ علماً، وهل الملائكة الحفظة الكتبة إلا مخلوقاتٌ من المخلوقين فأنى لها أن تحيط بالصغير والجليل من أفعال العالمين..عند ذاك يعلن الحق تبارك وتعالى أن ذلك الحساب على الله، والله قد أحاط بكل شيءٍ علماً، وأحصى كل شيءٍ عدداً..منادي الحق ينادي {وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ} {الأنبياء: ٤٧}..

نعم فـ{ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ } [النساء: ٤٠].. إلا أن رحمته وفضله لمن بادر بالصالحات.. إن هذه الذرة لو كانت { حَسَنَةً يُضَاعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا } [النساء: ٤٠] فضلاً ورحمة.. منة وتكرماً.. اللهم إنا نسألك من فضلك ورحمتك.

وأسدل الستار بنداء الحق بياناً للحكم العدل الحق المبين، والوزن الدقيق: { وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ } [الزمر: ٧٠] من خيرٍ أو شرٍ.. وهو -ربي سبحانه- { وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ } [الزمر: ٧٠] فكيف تكون أعمالنا؟ كيف تكون؟.. أيا حبيب الجنة: فهل من مبادرة إلى ركعتين في عتمة الليل.. عسى تدفع عنك في ذلك اليوم الحرون.. ألا من دمعَةٍ تُزَجِّي رغباً ورهباً.. تنقل الموازين { يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ } [الشعراء: ٨٨].. أيتها السابق بعين بكاءة.. وهمة متوقدة.. مالك سبقتنا.. حتى تركتنا خلفك حسرى:

أمن حدثان الدهر أنت مُرَوِّعٌ وعينك من فرط الصباية تدمع
لئن هملت عينك من لوعة الأسى لَمِثْلُ الذي أذرى دموعك يَفْجَعُ
نفيت الكرى حتى تبيت مسهداً تراعى نجوم الليل.. مالك مهجع
أفض عبراتٍ من شؤونك وانتحب لخطبٍ جليل.. إن قلبك مُوجَعُ^(١)

صورة إجمالية للحساب: نفس قلقة.. ونبض فزع.. أو روح متشوفة:

هناك يا راجي النجاة.. اليوم العظيم الأهوال.. الشديد المغارم والأثقال: { يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ } [الإسراء: ٧١].. ندعوهم بنبيهم فهو إمامهم.. وندعوهم بكتاب أعمالهم.. فهو الإمام الذي فيه كل صغيرة وكبيرة من الأعمال.. أو ليس قد أخبر ربنا الجليل ذو القوة المتين.. في دنيا الاختبار المبين: { وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ } [يس: ١٢].. فهذا هو ذا الإمام المبين.. فيا فوز المستغفرين.. الركع الساجدين.

(١) لسليمان بن معبد.. انظر: الجرح والتعديل / ١ / ٣١٧.

فاذكر عياناً {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ} [الإسراء: ٧١].. هناك انطلق جمع أمة محمد ﷺ يؤمهم النبي ﷺ.. فإن كل قوم بمن يأتون به من أنبيائهم وقادتهم.. فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم من الكفرة والطواغيت.. إنهم الذين قال فيهم الحق -جل جلاله-: {وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} [القصص: ٤١]..

ولما وقف الجمع في موقف الحساب العظيم بمكانه، العظيم بزمانه، العظيم بعدد المحاسبين فيه.. العظيم بشهوده.. وهو ري -عز جاره- العظيم.. العظيم بجهوته.. العظيم بقهره.. العظيم بعدله.. العظيم بفضله.. العظيم بملكه.. إنه {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: ٤].. لما وقفوا وبدأ الحساب ((تطايرت الكتب)) كتب أعمالهم.. فتحيرت أولوا الأبواب.. وفقد الناس الصواب.. وخافوا الهلكة والعذاب.. فمن الناس من أُعطي كتابه بيمينه فيا لسعادته.. يا لعظيم حبه ووفادته.. ومنهم من أُعطي كتابه بشماله.. يا لهول التعاسة.. يا للبؤس، ويا خزي الانتكاسة.. اهتف رافعاً يديك يا راجي النجاة: اللهم عافني، اللهم أجرني، اهتف معي بحق أيا أخاه: ربنا.. ربنا {وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [آل عمران: ١٩٤]، ومنهم من أوتي كتابه وراء ظهره.. يا فظاعة المصير.. فمن يجيرهم من ذلك المستقر.. من المجير؟.. أيها المشفق من عذاب ربه.. أجر همومك الآن في الدنيا حول هذا المشهد.. عسى يحركك ذاك للطاعة فتفوز وتسعد.. عندها بحق.. أنشد:

باتت همومي تسري طوارقها أكف عيني.. والدمع سايقها

هناك ((عند تطاير الكتب فيما أن يعطى بيمينه أو يعطى بشماله)).. لا ((يذكر الحبيب حبيبه)).. ومثل هذا ينبغي أن يطرق البكاء أعيننا الجافة، وقلوبنا القاسية.. كما طرق عين الصديقة عائشة وقلبها وهي ما زالت في الدنيا فقالت: ((ذكرت النار فبكيت.. فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: ((أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحداً: عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل، وعند الكتاب حين يقال {هاؤم أقرؤوا

كِتَابِيَّةٌ { [الحاقة: ١٩] حتى يعلم أين يقع كتابه أي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم)) (١).. وعندها ترى فريق الخاسرين.. {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُفُهُمْ ذِلَّةٌ} [المعارج: ٤٤].. كانوا في الدنيا يختالون ويتكبرون.. فرأيتهم في هذا اليوم الذي {تَشَخَّصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} [إبراهيم: ٤٢].. رأيتهم {مُتَهَطِّعِينَ مُفْنِعِي رُءُوسِهِمْ} [إبراهيم: ٤٣] يعلوها الذل والانكسار.. رأيتهم {لَا يَزْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدْتُهُمْ هَوَاءٌ} [إبراهيم: ٤٣] فرعاً من المهيمن الجبار.. رأيتهم {وَأَفْنِدْتُهُمْ هَوَاءٌ} [إبراهيم: ٤٣] فارغَةً خَوْفًا وَرِعْبًا مِنْ عَذَابِ الْمَلِكِ الْقَهَّارِ.. وهم ينتظرون أن تغشى وجوههم النار..

تابع صورة من صور الحساب: وزناً، وحساباً، وإعطاءً للكتاب يوم القيامة (٢):

وفي ذلك الموقف العظيم، والخلق يترقبون، والقلوب وجلَّة، والنفوس مشفقة قلقة من نتيجة الاختبار الحق.. اختبار بقائها في الدنيا.. في ذلك الموقف: يرى الناس مؤمناً دُعي "((للحساب يوم القيامة [فَيُعْطَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ].. نعم..)) (يعطى كتابه بيمينه في سترٍ من الله)) دون أن يطلع أحدٌ على ذلك.. إذ ((يستره منها، فما على الأرض خليقة ترى من تلك الذنوب شيئاً، وتبدو حسناته فودَّ أن الناس كلهم يرونها)).. وقد نُصبت الموازين.. بدأ يرى أعماله في صحيفته وسجلاته المنشورة كما يراها مجسدةً أمامه.. عندها يقال له: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: ١٤].. ويبدأ بالقراءة.. فينظر في كتابه.. فإذا حسناته بادياتٌ للناس.. ولأنه مؤمنٌ فإن رحمة الله تدركه.. فلا يرى الناس إلا حسناته.. وأما سيئاته فيراها هو ذا.. ويسترها الله من الناس فلا يرونها، فلا تدري أفرحته بستره بين الخلق أعظم.. أم فرحته بإظهار حسناته.. (فيقرأ سيئاته.. فكلما قرأ سيئةً تغير لونه)) وظن أنها

(١) أحمد ٦/١١٠، أبو داود ٤/٢٤٠، ولفظ تطاير عند أحمد، وأصل الحديث مشهورٌ ثابت.

(٢) انظر: البخاري ٢/٨٦٢، مسلم ٤/٢١٢٠، مجمع الزوائد ١٠/٣٥٠.

المهلكة.. يا له من حسابٍ دونه كلُّ حسابٍ.. ويا لها من لحظاتٍ لا يعرف الإنسان فيه أحداً إلا ما يرى من أعماله، أو ما يستذكر من أفعاله.. ((حتى يمر بحسناته فيقرأها، فيرجع إليه لونه)).. ثم ينهال عليه من الفرح ما لا يمكن إخفاؤه.. إذ يرى هناك الكرم الإلهي يتحدر عليه.. بأهمار سيول الحسنات ومضاعفتها.. بعد أن كاد يوقن بالهلاك؛ فقد ضاعف الله له الحسنة فصارت بعشر حسناتٍ إلى أكثر من ذلك.. لكيلا ((يقول: كانت لي حسناتٍ فلم تُذكر.. فأحبَّ الله أن يُريه عمله كله)).. ويقرأ سيئاته فيعرض عليه ربه عمله كله فيما بينه وبينه.. فيعترف بسيئاته لا ينكر منها شيئاً وقلبه يكاد يطير وجلاً.. وهناك.. انظر إليه.. وهو ((يدنو من ربه، فيضع عليه كنفه، فيقرره فيقول- له ربه-: عملتَ كذا؟.. وعملتَ كذا؟.. يقول: نعم يا رب)) ويتابع وهو قلقٌ مشفقٌ، أو باكٍ وجلٌّ: ((فيقول: نعم! أي رب عملتُ.. عملتُ.. عملتُ))..

إنها الرحمة، والكرم الإلهي: فيا شوق لا تبعد، ويا دمع فض وزد:

كيف يكون قلبه وهو يعترف؟ كيف فؤاده وهو يُقرُّ بما عمله؟ يا له من موقفٍ تشيب له النواصي.. ولكنَّ شيئاً يبقى في القلب: إنها رحمة الرب جلَّ وعزَّ.. إنه ربي عزَّ جاره:

الولي المتينُ ما خاب ظنُّ
لنفوسٍ في فضله طامعاتٍ
يا إلهي إني مُقرُّ بذنبي
وخطايا جوارحٍ مسرفاتٍ
ما جهلتُ المقامَ أو كان قلبي
مُشرَّباً إلى دروب العصاةِ
ضعف نفسي وحسن ظني بري
جرني لانتهاك المظلماتِ

وهكذا لا يجحد.. بل يعترف وينتظر فرج الرحمة، ويشفق من الفضيحة والخزي.. عند ذلك تنزل الرحمة.. فيقول الله له: ((فإني قد سترتُ عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم.. فيُعْطَى صحيفة حسناته)).. وهكذا ((يجد في آخر ذلك كله أنه مغفورٌ لك، وإنك من أهل الجنة))

فأي فرحة يجدها، وأي ابتهاج يسيطر عليه، وأي إشراق يظهر على أسارير وجهه.. {كَوْلَا أَنْ تَدَارِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنْبِدَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ} [القلم: ٤٩].. يا لسعادته فقد غفر الله له ذنوبه..

ولكن على الرغم من ذلك كله.. رَجَعَ مُكَدَّرًا.. يُكَدِّرُ عليه ما رأى من سيئاتٍ.. يخاف أن تنشر على الملام.. عندها يرجع ((ينظر: فإذا سيئاته قد بُدِلَتْ حسناتٍ)) فيملاً الفرح أركانه.. وتأمله وهو ينبسط وجهه، ولا يعرف كيف يصنع بنفسه من السعادة.. وينظر إلى ميزانه.. وتعود رعشات القلق، ورجفات الإشفاق إلى مساورته ((عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل)).. فتكون نتيجة الفرح فقد ثقل ميزانه بالحسنات، ورجح على ما اقترفه من سيئات.. هناك رأيت أعلام الفرح ترفرف حوله، وسمعت هتافاتها: {فَمَنْ ثُقِلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: ٨].. يا الله! لقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً {فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ} [القارعة: ٧].

دورك الآن.. هل تعلن راية الفرح: تعالوا.. تعالوا.. فاقروا كتابيه:

وانتظر صاحب القلب المنيب دوره قلقاً مشفقاً، وهو يوّد أن يكون الأمر كما كان لسابقه من المصطفين الأخيار: عرض للأعمال وليس حساباً.. بل يرجو ويتهل أن يكون {حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: ٨]، فيعرض عليه الكتاب عرضاً يُظهر حسناته ويستر سيئاته.. فإن الحساب اليسير أن ((ينظر في كتابه ويتجاوز عنه)) والنبي ﷺ يعلق على المشهد قائلاً: ((ذاك العرض.. ولكن من نوقش الحساب يومئذ يا عائشة هلك))^(١).. وحدث له ما حدث لسعيد قبله.. فلم يملك نفسه من الفرحة.. وأوتي كتابه بيمينه {فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ} [الإسراء: ٧١].. فمن فرحته وسروره واستبشاره بما دُونَ في كتابه من الصالحات يقرأه

(١) البخاري ١/ ٥١، مسلم ٤/ ٢٢٠٤، والبيان لكيفية العرض ورد عند الحاكم ١/ ١٢٥.

ويجب قراءته وتكرار قراءته.. كرر قراءته.. وما له ألا يفعل فهو كتاب النجاح الأبدي، والفوز الخالد، والفلاح الدائم..

وانطلق يزهو بنتيجته.. ومنادي الحق ينادي: {فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: ٨]، وانطلق إلى أهله.. وأقبل على أصحابه فرحاً مغتبطاً يُنادي: {فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً} [الحاقة: ١٩].. انطلق وهو يحب من الناس أن يقرءوا كتابه، وينظروا فيه، ويقبلوه فيطلب ذلك من صحبه وأهله ومعارفه وكل من لقيه، ويقول: {فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً} [الحاقة: ١٩] تعالوا فاقراءوا كتابيه،، وماله ألا يطلب منهم ذلك وهو كتاب سروره الخالد؟..

لا تبعد عن المشهد: استمع إليه وهو يملأ فمه بالكلام، ويردد بنشوة وفرح بعد أن شعر بنجاة الأبد: {إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةً} [الحاقة: ٢٠].. يقول لأهله ولأصحابه: إني ظننت.. أيقنت وعلمت أن هناك يوماً آخر للحساب والثواب والعقاب.. فعملت له، وهما الغافلون وسهوا.. تيقنت باليوم الآخر.. أيها الصحب: ولم أنكر البعث وما نجوت إلا بخوفي من يوم الحساب إذ أعددت له.. نعم.. قد كنت موقناً في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة، وكنت ممن قال الله فيهم: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ} [البقرة: ٤٦].. ولعلك تشاهد صاحب القلب المنيب وهو يتابع كلامه: ومع ذلك فقد ظننت أن يؤخذني الله بسيئاتي فيعذبني.. ولكنه الرحيم ربي فقد تفضل عليّ بعفوه ولم يؤخذني بها.. إنه المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن له العمل..

وصاحبته هتافات انبعثت تزيده جبوراً، وترفع لواءه بين الخلق وتملأه بشراً وسروراً: {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ} [الحاقة: ٢١] في عيشٍ يرضاه لا مكروه فيه {فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} [الحاقة: ٢٢] عظيمة في النفوس.. رفيعة قصورها.. حسان حوزها.. نعيمة دورها.. دائم حبورها {فَطُوفُهَا ذَاتِيَّةً} [الحاقة: ٢٣].. يقال لهم فيها: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا} [الحاقة: ٢٤] لا تكدير فيه ولا تنغيص {بِمَا أَسْلَفْتُمْ} [الحاقة: ٢٤] قدمتم من الأعمال الصالحة {فِي الْأَيَّامِ الْحَالِيَةِ} [الحاقة: ٢٤] في الدنيا.

وصدع نداء الرحمة والفوز المقيم معلناً في الناس يوم العرض الأكبر: {وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِغَارَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الزمر: ٦١]..

عندها لا يملك نفسه من الفرح فينطلق {وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا} [الانشقاق: ٩].. وهو يقول منادياً فرحاً مبتهجاً معلناً: {فَيَقُولُ هَذَا مَا لَمْ أَعْمَلُ} [الحاقة: ١٩] إنه كرم الله.. إنه حب الله.. إنه وُدُّ الله لمن أقبل عليه.. في دنياه:

فيا شوق لا تبعد، ويا دمع فض وزد ويا حب راوح بين جنبٍ إلى جنبٍ^(١)
انظر إلى المشهد.. تمتع به وأنت تذرف عينين دامتين ثم اهتف معي: اللهم فاجعل كتابي باليمين.

ويتنظر كل إنسانٍ دوره في الحساب مشفقاً قلقاً.. ويرى الناس هناك النداء لحساب شخصٍ آخر ف((يدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه عمله فيجحد، ويقول: أي رب وعزتك لقد كتب عليّ هذا الملك ما لم أعمل. فيقول له الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا! وعزتك أي رب ما عملته. فإذا فعل ذلك ختم الله تعالى على فيه فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [يس: ٦٥] ^(٢).. وعندها {يَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود: ١٨].

لكأن الجبار جل وعز يقول والعباد يحاسبون: يا معشر الجن والإنس إني قد أنصتُ لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع قولكم، وأبصر أعمالكم.. وصحفكم تُقرأ عليكم.. فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

(١) لأحمد بن أمية بن أبي أمية.. انظر: تاريخ بغداد ٤/ ٤٣.

(٢) انظر تصوير هذا الموقف عند ابن كثير ٣/ ٥٧٨ في تفسيره.

يا لإشراق وجهك.. إذ الناس خاشعة أبصارهم، ترهقهم القترة والذلة:

واستدرت في ذلك الموقف العصيب فرأيت الناس ففتين:

فئة: مسودة وجوههم، مُزْرَقَةٌ عيونهم، خاشعة أبصارهم.. على وجوههم غبرة، ترهقها قترة.. على وجوههم غبرة.. ترهقها قترة.. يلحقها قَتَامٌ وسواد.. إنهم هم.. {أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجْرَةُ} [عبس: ٤٢].

وفئة تشفي الصدور، وتضيء الحضور، وتمتلئ بالحبور.. إنهم قد {أَبْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ} [آل عمران: ١٠٧]، {وَلَا يَرَهُنَّ وَجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذَلَّةٌ} [يونس: ٢٦].. بل {وَجُوهُهُ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ} (٣٨) ضاحكة مُسْتَبَشِرَةٌ} [عبس: ٣٨، ٣٩]..

فابحث هناك عن صاحب القلب المنيب.. ها هو ذا! إشراقه يدلك عليه.. انظر إلى وجهه.. ووجوه المختبين من الذين اصطفاهم الله بالإيمان.. لتري ما حباه الله به من إشراقٍ وجمال وعظمة.. والناس في ظلمة مدهمة..

هناك رأيت ما أنعم الله عليه به من بياضٍ والناس في سواد..

ورأيت ما أعطاه من العزة، والناس في ذلةٍ وهوانٍ وصغار..

ورأيت ما حباه الله به من صباحة الوجه.. فوجهه من الوجوه المسفرة.. ونفسه ضاحكة مستبشرة، وهتاف الصدق، ونداء السرور يطوف عليهم مسمعا آذانهم، مائلا بالبشر والسرور أنفسهم: {فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا} [الإنسان: ١١].. فلترج شيئا مماثلاً في ذلك اليوم.. وكن بإيمانك وطاعتك فرحاً مزهواً محبوراً.

أيها الناس: انظروا إلى هؤلاء لتعرفوا في وجوههم نضرة النعيم:

ويبيض الله وجه صاحب القلب المنيب مع أنسه بالملائكة، وتصنيفه ضمن فريق الفائزين، وراحته في ظلال القوي المتين.. ثم يزداد وجهه إشراقاً بما يجري عليه من النعيم.. فما هو إلا أن يكتمل حسابه (عرض كتابه عليه)، ويأخذ الكتاب باليمين حتى يدخل في المشرفين بفئة

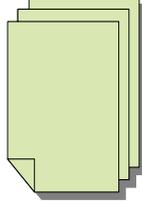
الوجوه الناعمة.. {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ} [الغاشية: ٨] ناعمة ذات نعمة، ويرى فيها الطيب، ونعومة العيش..

النعيم يظهر عليه حسيماً.. فهو يذوقه وهو في عرصات القيامة..
ويظهر عليه نفسياً لأنه نَعِمَ بما عاين من عاقبة أمره وعمله الصالح..
لا تظنن أن جماله ينقص مع مرور الوقت بل يزداد؛ إذ يرى نفسه بعد قليل وقد صار من أصحاب الوجوه الناضرة.. ثم يبلغ الجمال غايةً عظيمةً في وجهه.. وتلفتت لترى وجوه المختبين من صحبه ف {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ} [المطففين: ٢٤].

يا أبيض الوجه: حسنٌ بعد حسن.. وجمال بعد جمال.. إنها إشراقة فائق الإصباح يظهرها الله عليك:

وحتى يزيد الله في حبور هذا الولي الصالح.. فإنه ينتقل من حسنٍ إلى حسنٍ، ليزداد انشراحاً ونوراً.. في وسط الظلمات التي تغطي الموقف:
حين يبعث من قبره يكون وجهه أبيض مسفراً.. والكافر يخرج مسود الوجه.. فارغ الفؤاد ترهقه ذلة.. أما صاحب القلب المنيب في هذا الموقف فانظر إلى بهجته لتراه مزهراً.
وعند قراءته لكتاب أعماله يتناوله باليمين فيزداد نوراً وحبوراً.. فإذا رأى في كتابه حسناته استبشر وابتسج وجهه.. وامتلأ سروراً.
وعند الميزان إذا رجحت حسناته زاد وجهه بياضاً، وأما الخاسر فيرى سيئاته قد رجحت فيزداد وجهه زرقاً وسواداً.
وعندما يأمر الله عز جاره بالتفريق بين المسلمين والمجرمين، وينادي المنادي {وَأَمْتَأَزُوا الْيَوْمَ أَئْيُهَا الْمُجْرِمُونَ} [يس: ٥٩] فينحاز صاحب القلب المنيب ضمن فريق المتقين يزداد وجهه بياضاً، وإسفاراً.. ويزداد المجرم سواداً وخساراً.

وعندما يدعى الناس إلى السجود فيسجد صاحب القلب المنيب ضمن فريق المتقين، ويذهب الخاسر ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً، فينقلب ولا يستطيع أن يفعل فعل الساجدين.. فيزداد وجهه بياضاً وبشراً وإشراقاً، ويزداد الخاسر سواداً، وظلمة (١).



(١) انظر: تفسير القرطبي ٤ / ١٦٦.

المشهد الرابع
أسبل الدمع الهطل وأنت تشاهد
صور الحساب في يومٍ شديد الأثقال

عند الوزن يطيش العقل: ابحث عن رحمة الله مُخْبِتاً قانتاً تائباً:

وسمع صاحب القلب المنيب كما سمع الخلائق في موقف الحساب منادياً ينادي على رجل.. ونظروا بقلوبٍ فزعَةٍ وجلة.. فقد صاح صائحٌ ((برجلٍ - كما يقول النبي ﷺ - من أمتي يوم القيامة))^(١).. صيح به ((على رؤوس الخلائق)) ليتابعوا حسابه.. فنظروا إليه ليروا أنه ((يُنشَرُ عليه تسعةٌ وتسعون سجلاً.. كل سجلٍ مد البصر)) من سيئاته، وخطاياها وذنوبه.. فلما نشرت السجلات، وظهرت الخطيئات، واستبان للناس السيئات الظاهرات والمخبات.. ((يقول الله تبارك وتعالى: هل تنكر من هذا شيئاً؟)).. ولكن الرجل رقيقٌ على الرغم من كل ما فعله.. لم يفعل ذلك عناداً.. ولا اقتزفه يحاد الله ورسوله.. ولكنه ضعف النفس الذي ما زال يُقَيِّدُ العباد، ويُظهِرُ الشيطان به الفساد..

.. ((يقول الله تبارك وتعالى: هل تنكر من هذا شيئاً؟))..

((فيقول: لا يا رب))..

((فيقول: أظلمتكم كتبتي الحافظون))..

((فيقول: لا يا رب)).. وهكذا لم يكذب على ربه.. لأنه قد عرف ربه في دنياه.. فماله لا

يخافه في آخره؟.. عندها:

((يقول - له ربه - : أفلك عذر؟))

(١) حديث البطاقة مشهور خرجه الترمذي ٥ / ٢٤، وابن ماجه ٢ / ١٤٣٧.

فيقول: لا يا رب)..

فيقول له ربه: ((ألك حسنة؟))..

((فيهاب الرجل)) أن يدعي أن له حسنة وهو لا يذكر شيئاً من عملٍ صالحٍ قدمه.. يهاب لأنه وإن لم يعمل الحسنات، ولم يترك المعاصي والسيئات.. ولكنه يخاف رب الأرض والسموات.. ويعظم قاهر العباد والمخلوقات.. ((فيقول: لا)).

((فيقول -الله-: بلى إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم))..

فيتفكر في نفسه: ما هي الحسنة التي عملتها.. وقد كاد عقله يزيع خوفاً وإشفاقاً..
فيأمر الله بحسنته أن تظهر..

((فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله)) كلمة التوحيد.. به تغفر الذنوب، وتطهر القلوب، ويمجد العبد ربه علام الغيوب..
((فيقول -الله له-: أحضر وزنك))..

ولكن الرجل يراها وحدها مكتوبةً في بطاقة.. فيستنكر، ويستغرب.. وقد أكله الخوف..

((فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟))..

((فيقول -الله له-: إنك لا تظلم))..

فيأمر الله عز جاره ((فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة))..

فتكون النتيجة مذهلة.. إذ يستفيق الرجل من سكر خوفه وقد ((طاشت السجلات، وثقلت البطاقة)) فهنيئاً.. نعم! ((فلا يتقل مع اسم الله شيء))..

وهكذا فاز بشهادة التوحيد.. زحزح عن النار وأدخل الجنة ففاز.. فنعم أجر الفائزين..

أيا حافظ القرآن: خذ هذه الهدية.. وئله هذا التميز:

في موقف الرجل العظيم ترى مشهداً يتمناه كثيرٌ من الخلق، ويغبطون صاحبه عليه في ظل هذه المعامع، فقد جاء لصاحب القلب المنيب رجل حسن الوجه.. فإذا به القرآن جسده الله كما يجسد بقية الأعمال الصالحة.. وكانت مفاجأة: أهو القرآن؟ نعم القرآن! : ((إن القرآن يأتي أهله [كالرجل الشاحب] يوم القيامة أحوج ما كانوا إليه، فيقول للمسلم: أتعرفني؟ فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا الذي كنت تحب، وتكره أن يفارقك.. الذي كان يصحبك ويدنيك [أنا الذي أظمتك في المهواجر، وأسهرت ليلك، وان كل تاجرٍ من وراء تجارتك، وإنك اليوم من وراء كل تجارة]. فيقول: لعلك القرآن. فيقدم به إلى ربه عز وجل، [فيقول: يا رب حله. فيلبس تاج الكرامة ثم يقول: يا رب زده. فيلبس حلة الكرامة ثم يقول: يا رب ارض عنه.. فيرضى عنه] فيعطى الملك يمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، وينشر على أبويه حلتان لا يقوم لهما الدنيا أضعافاً فيقولان: لأي شيء كسينا هذه ولم يبلغه أعمالنا. فيقول: هذا بأخذ ولدكما القرآن ثم يقال له: اقرأ، واصعد في درج الجنة وغرفها فهو في صعودٍ ما دام يقرأ هذا كان أو ترتيلاً))^(١).

إيه يا صاحب القلب المنيب.. ذلك جزاء حفظك للقرآن ومحافظةك عليه.. ثم رأيتك بحفظه للقرآن يسير بين الناس أجمعين بعلامةٍ مميزة.. يا لها من علامة.. إن عليه ما يشبه السحابتين العظيمتين يسير تحتها وفي ظلها أئني تحرك أو توجه.. لا تتساءل عن سر هذا الشرف الذي حازه.. فإن ذلك صار معروفاً فيه.. أليس يحفظ القرآن.. لقد تعلم مما تعلم في القرآن الزهراوين.. إنهما ((سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان، وإنهما تظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف))^(٢)، بل رأيتهما وقد جسدهما

(١) أحمد/٥/٣٤٨، وابن ماجه/٢/١٢٤٢، وقال في مصباح الزجاجه/٤/١٢٦: "هذا إسنادٌ رجاله ثقات".

(٢) مسلم/١/٥٥٤.

الله تعالى فهما تحاججان عن صاحبهما.. تحاجان، وتجادلان عنك لئلا ينالك همٌّ أو حزن، أو يصيبك أذى في موقف الأهوال.. فأى سعادةٍ وأي أنسٍ..
وهنا يتردد على مسامع المغتربين والنادمين من الناس وعد الله العظيم: {هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ
أَوَّابٍ حَفِيظٍ} [ق: ٣٢].

أنتستطيع التصور: أيفرح الحبيب بأخذ حسنات حبيبه.. يا له من يوم:

وفي موقف الحساب.. حدث أمرٌ تطير لهوله الألباب.. إذ رأيتم عبداً أتى به في الموقف.. نعم:
(فينادى على رؤوس الأولين والآخرين هذا فلان ابن فلان))^(١)..
فتلنتفت الخلائق.. لم أعلن عن اسمه؟ ما الخطب؟ فيكمل المنادي نداءه: ((من كان له حقٌ
فليأت إلى حقه))..

يا الله.. اللهم سلم.. اللهم إنا نعوذ بك من الخزي.. من يفرح بذلك ومن يحزن عليه؟.. استمع
إلى الموقف الرهيب يصوره لك ابن مسعود فعندما يُنادى بقضاء الحقوق ((تفرح المرأة أن
يكون لها الحق على أبيها أو أمها أو أخيها أو زوجها)) - ثم قرأ ابن مسعود- {فَلَا أُنْسَابَ
بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ} [المؤمنون: ١٠١].. ويُجاسِبُ العبد.. والناس يتشوفون لمصيره
خائفين.. ومن رحمة الله به.. أن الله ((يغفر من حقه ما يشاء، ولا يغفر من حقوق الناس
شيئاً)) بل ((ينصب للناس فيقول: ائتوا للناس حقوقهم))..

فيصعق العبد ((فيقول: يا رب فنيت الدنيا من أين أوتيتهم حقوقهم؟))..
ويستمع الخلائق للقصاص الرهيب، وكيف ترد المظالم في ذلك اليوم العصيب ((فيقول: خذوا
من أعماله الصالحة، فأعطوا كل ذي حقٍ بقدر مظلمته)) هناك يكون الناس.. أحوج ما

(١) ذكر هذا الحديث ابن كثير في تفسيره ١/ ٤٩٨ عن ابن مسعود موقوفاً وعزاه لابن أبي حاتم.

يكونون إلى مثقال الذرة من الحسنة.. فكيف يكون حالهم وهم يرون حسناتهم تُقسّم على الناس وهم يشاهدون؟..

ولكن المؤمن تدرّكه رحمة الله.. إذ يقول ابن مسعود وهو يحكي تنمة ذلك الحدث: ((فإن كان ولياً لله ففضل له مثقال ذرة ضاعفها الله حتى يدخله بها الجنة))، ثم قرأ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].. رحمة من الله وفضل لعباده المؤمنين.. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَقُضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].. والحمد لله رب العالمين..

قال ابن مسعود: ((وإن كان عبداً شقيماً قال الملك: فنيت حسناته وبقي له طالبون كثيرٌ. فيقول -الله-: خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته، ثم صكوا له صكاً إلى النار)).

انظر هناك: يا لعظمة التكريم على المملأ - ما أسهل سببه لو كانوا يعقلون -:

ورأى صاحب القلب المنيب هناك رجالاً.. كانت الطمأنينة تملأ قلوبهم.. تملأ قلوبهم بصورة متميزة: الطمأنينة تملأ قلوبهم والناس في رعبهم..

الرجاء يملأ أفئدتهم والناس في خوفهم..

عندها وددت -أيا صاحب القلب المنيب أن تكون مثلهم-، فطمأنيتهم ليست كطمأنينة الآخرين.. وتساءلت عنهم فعلمت أنهم من ((من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه)) فكان جزاؤهم أن الله ملأ قلوبهم رجاءً يوم القيامة.. فقد رأيت الواحد منهم يكرم تكريماً خاصاً.. يا له من تكريم! يا بؤس المحرومين.. يا ندامة المفرطين! لقد ((دعاه الله)) -في هذا اليوم العظيم المخيف.. أجل تسمع نداء الحق على الأَشْهَاد.. يملأ القلوب المؤمنة، ويجيي الأَكْبَاد.. تسمعه وهو يدعو هذا المكرم المصطفى المختار ((يوم القيامة على رعوس الخلائق حتى يخيره في أي

الخور شاء)) (١) مجرد كظم غيظٍ غفل عن أهميته الغافلون.. ترى عاقبته أن يخير صاحبه من الخور العين في موقفٍ يغطه فيه الأولون والآخرون.. ومنادي الحق ينادي: {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} [الكهف: ٣٠].

تكريمٌ عظيم: أنت تشهد على سائر الأمم:

ولأنك-أيا صاحب القلب المنيب- كنتَ من المصدقين باليوم الآخر فإنه يحدث لك تكريمٌ عظيم على رؤوس الملأ.. واشهد هذه الصورة لك وللمؤمنين المصدقين باليوم الآخر: يؤتى بكم جميعاً على رؤوس الملأ لتشهدوا.. ها أنت ذا مع الأشهاد الذين يشهدون على الذين كذبوا على ربهم، وأنكروا اليوم الآخر.. انظر إليهم يا لكثرتهم: وقبل أن تبدأوا بالشهادة توصفون بأجمل وصفٍ، ويثنى عليكم بأرقى ثناء.. لكأنه يقال: اسمعوا إلى شهادة هؤلاء عليكم.. هؤلاء هم الذين أوتوا العلم والإيمان.. وتأتي شهادتكم بعد شهادة الأنبياء والملائكة.. يا للنعيم الذي تحظى به إذ أنت منهم.. تنعم وتمتع بهذا التكريم.. ثم يؤذن لكم فتتكلمون بما لديكم من كلين بكلامكم هؤلاء.. فتنتطقون زاجرين لهم شاهدين عليهم بالحق:

يا أيها المنكرون ليوم البعث {لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [الروم: ٥٦] لقد لبثتم في قبوركم إلى يوم البعث.. فإن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه.. ولكنكم كنتم لا توقنون بالعلم الحقيقي الذي كان ينبغي أن تهتموا به..

فيحاولون أن يعتذروا فلا تقبل أعتذارهم.. وهكذا يُعزز المؤمنون ويكرمون بوضعهم في مكان الشهادة على المبطلين من العالمين.. في يوم الأهوال والشدائد والخزي الميين.

(١) أبو داود ٤/ ٢٤٨، الترمذي ٤/ ٦٥٦ وقال: حسن غريب، وحسنه الألباني.

انظر موقف الدلال: عملت ذنوباً لم تعرضوها علي:

وبعد أن نجوت وقد نجت فئات عظيمة من المؤمنين معك.. رأيتهم رجلاً ممن يلحق بكم على درب النجاة، وسبيل الحياة الحقّة، والنعيم المقيم.. ولكنه يتأخر عنكم تأخراً كثيراً فهو ((آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها))^(١).. تقدم ليتم حسابه قبل أن يسبل الله عليه ستر نعمته ورحمته.. انظر إليه متمتعاً بنجاتك ناظراً لرحمة ربك فيه..

انظر إليه وهو ((يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها)) لحكمة بالغّة، ورحمة عظيمة يحاسب أولاً على الصغائر، ((فتعرض عليه صغار ذنوبه)) ويستغرق في النظر إليها وقراءتها.. ويكون الحساب علياً، وبالكلام كما هو مكتوب تحريماً ((فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا وكذا)) يا الله! بالدقيقة والساعة واليوم.. بالزمان والمكان.. أجل إنه {الْكِتَابِ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [الكهف: ٤٩].. كل شيء مدونٌ مكتوبٌ مُسَطَّرٌ {وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسَطَّرٌ} [القمر: ٥٣].. ومنادي الحق ينادي: {وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء: ٤٧]..

ولأنه يستحق دخول الجنة، فإنه لا يتعمد الكذب، ولا يحاول الفرار من الإقرار بما اقترفت يده ((فيقول: نعم! لا يستطيع أن ينكر)) وهذه هي الصغائر فقط.. وقد أظلمت عليه الدنيا فكيف سيفعل مع الكبائر.. انظر إليه ((وهو مشفقٌ من كبار ذنوبه أن تعرض عليه))، ولكن لأنه تاب وأتاب قبل حلول الأجل، يفاجأ بنتيجة الفرح وحسن مآب ((فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة)) يا لها من نتيجة عجيبة:

فما زلت ذا عفوٍ عن الذنب لم تنزل تجود وتعفو منه وتكرما

تعاضمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما

(١) حديثه عند مسلم ١/١٧٧.

عندها - يظهر طمع ابن آدم المعتاد فيود أن لو عرضت عليه كبار ذنوبه حتى تبدل حسناتٍ، والنبي ﷺ يُصَوِّرُ هذا الطمع في رحمة الله من هذا العبد، ((يقول: رب قد عملت أشياء لا أراها ههنا)) اعرض عليّ بقية الحساب يارب! ولا شك أنه موقفٌ يثير ضحكك الذي فيه نوع سعادةً بفضل الله الواسع.. ضحك سعادةً غامرة لا يعبر عنها إلا بالضحك.. ولقد ضحك رسول الله ﷺ وهو يُري الناس هذا المشهد حاكياً.. ضحكك ﷺ حتى بدت نواجذه.

ليتبع كلُّ قومٍ ما كانوا يعبدون.. فمن تعبد أياً صاحب القلب المنيب؟ (١):

وبعد اجتياز صاحب القلب المنيب للأهوال السابقة بهذه الكرامات الظاهرة: ((يُنَادِي منادٍ ليذهب كل قومٍ إلى ما كانوا يعبدون)).. إنه موقفٌ فصلٌ، وفيه مكرٌ بَعْدَ الأوثان.. إذ يود كل واحدٍ أن يخلص من هول يوم القيامة، وقد نالهم من الخوف والرعب والنصب والعذاب.. ولسان الذكرى يصيح في الغافلين {أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ} [المطففين: ٤].. لذا يناديهم المنادي بذلك.. ويبين لهم حيثيات ذلك فيقول:

((يا أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم وصوركم ورزقكم أن يوالي كلُّ إنسانٍ ما كان يعبد في الدنيا ويتولى..؟)) فماذا سيتبعون؟ هو ما كانوا يعبدون في الدنيا.. ويصدر لهم الأمر الصارم ليعلموا أنه العدل المحض، والإجراء اللازم:

((من كان يعبد شيئاً فليتبعه)) ويتبعه بالسؤال: ((أليس ذلك عدلاً من ربكم؟)) فماذا يملكون أن يقولوا:

(١) هذا الحديث العظيم وفيه حديث الجسر في المشاهد التالية عند البخاري ٦/ ٢٧٠٦، وفي مواضع متفرقة، وعند مسلم ١/ ١٦٧، وجملة ((أليس ذلك عدل من ربكم)) عند الحاكم ٤/ ٦٣٢ على الرفع لكلمة عدل.

((قالوا: بلى)).. عندها ترى المواكب الخاسرة تمضي.. تراهم يتبعون ما كانوا يعبدون.. تُرى بأي شعورٍ حينها يشعرون؟..

((فينطلق كل إنسانٍ منكم إلى ما كان يتولى في الدنيا، ومُثَّلٌ لهم ما كانوا يعبدون في الدنيا.. يُثَّلُ لمن كان يعبد عيسى شيطاناً عيسى، ويمثل لمن كان يعبد عزيزاً شيطاناً عزيزاً.. حتى يمثل لهم الشجر والعود والحجر)) ومن كان يعبد هواه فبؤسه فليتبعه.. ها هي ذي معبوداتكم فاتبعوها من قريب.. عساها تنجيكم من هذا الموقف العصيب.. ((فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت)).. وينطلقون.. يا حسرة الخاسرين.. لقد حق عليهم القول المبين: {تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ١١٥].. ((فيذهب أصحاب الصليب مع صليبيهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم)).. إلى أين يسرون؟ إلى أين..؟ مع أئمتهم ومعبودتهم.. ترى كل إلهٍ كاذبٍ من آلهتهم {يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ} [هود: ٩٨].. وهناك بقي صاحب القلب المنيب مكانه لأنه يعبد رب العالمين.. ذهب المحاسبون أجمعون وبقي ((من كان يعبد الله من برٍّ أو فاجر، وغبراتٍ من أهل الكتاب))..

انظر واسمع: اشربوا. فيتساقطون في جهنم:

بقي المؤمنون والفجار وأهل الكتاب.. لم ينطلقوا مع أحدٍ؛ إذ دعواهم جميعاً أنهم يعبدون الله -جلَّ جلاله-.. يتقربون في خوفٍ ووجلٍ.. عند ذاك يحدث هولٌ عظيمٌ للباقيين؛ إذ تقرب جهنم من الجميع أكثر.. ها هم أولاء يرونها عياناً.. ووقفوا عليها.. نعم ((يؤتى بجهنم تُعْرَضُ كأنها سراب)).. ثم يؤخذون فئةً.. فئةً أمام الأسئلة العسيرة..

فأول فئةٍ تسأل في موقف الهول المبين هم اليهود:

يقال لهم: ((ما كنتم تعبدون؟..))

قالوا: كنا نعبد عزير بن الله)).

فيقال: كذبتهم. لم يكن لله صاحبةٌ ولا ولدٌ. فما تريدون؟)).. الهول والعطش والرعب يأكلهم.. فما يريدون؟ أهم ما يطلبونه ماءٌ يروي عطشهم الطويل في يوم الخطب الجليل.. لذا يقولون: ((نريد أن تسقينا)).. ويئنون ((فيقولون: عطشنا ربنا فاسقنا.. عطشنا ربنا فاسقنا))

آلآن عرفتم ربكم، وطلبتم منه السقيا؟.

((فيقال -استهزاءً وسخريةً وزجراً وردعاً-: اشربوا.

فيتساقطون في جهنم))..

اشربوا من جهنم؟.. اللهم سلِّم.. سلِّم.. يا لفاجعة الذين افتروا على الله الكذب.. يا لحسرة الذين حادوا الله ورسوله وبغوا في الأرض فساداً وعيشاً نكداً مضطرباً.. والفئات الأخرى باقيةً على حالها تشهد المنظر الرهيب.. والخوف يحيط بمن استهزأ باليوم الآخر..

فيؤتى للفئة الثانية وهم النصارى:

فيقال لهم: ((ما كنتم تعبدون؟.

فيقولون: كنا نعبد المسيح بن الله.

فيقال: كذبتهم. لم يكن لله صاحبةٌ ولا ولد. فما تريدون؟.

فيقولون: نريد أن تسقينا)) ويئنون بشدة.. يئنون ((فيقولون: عطشنا ربنا فاسقنا.. عطشنا ربنا فاسقنا)).

((فيقال -استهزاءً وسخريةً وزجراً وردعاً-: اشربوا. فيتساقطون))..

هنيئاً لك بتذوق لذة السجود لله في هذا اليوم:

ثم بقيت الفئة الثالثة: المؤمنون والفجار.. ((يبقى من كان يعبد الله من برٍّ أو فاجرٍ)) هم يدعون أنهم يعبدون الله -جلّ جلاله- وفيهم صاحب القلب المنيب.. سنرى من بكى ممن تباكى.. سيتضح اليوم صدق الدعوى من زيفها.. إذ {ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ} [النبأ: ٣٩] نعم! ذلك اليوم الحق.. ليتهم كانوا يعلمون.. ومنادي الحق ينادي على أهل الدنيا.. علينا-أبناء الدنيا- {فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءَ} [النبأ: ٣٩].. ليجد ذلك المآب حقاً يوم القيامة. ((يقال لهم: ما يجسكم وقد ذهب الناس؟)).

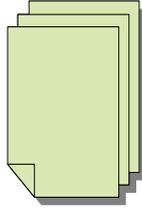
فيقولون: فارقنا الناس في الدنيا على أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم.. ونحن ننتظر ربنا الذي كنا نعبد، وإنا سمعنا منادياً ينادي: ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون، وإنما ننتظر ربنا -فيأتيهم الجبار-.. وعندها يؤمرون بالسجود له في هذا اليوم الشديد.. {وَيُذْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ} [القلم: ٤٢] فيتذوق العبد المنيب الأبواب البار.. لذة السجود، ولذة نجاحه في الاختبار.. ((فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعةً فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً [ويبقى قومٌ ظهورهم كصياصي البقر يريدون السجود فلا يستطيعون])).. ظهورهم طبقة واحدة فكيف يستطيعون السجود..؟

يا لشدة الموقف.. يا لفضيحة الموقف.. اللهم فأتم سترك ونعمتك وعافيتك في الدنيا والآخرة.. يريد المرائي السجود فيعود ظهره طبقاً واحداً.. يريد المنافق السجود فلا يتمكن إذ قد صار ظهره طبقة واحدة.. يذهب كيما يسجد بأي شكلٍ ولكنه ينقلب على ظهره.. اللهم فاغفر واعف واجعلنا من المصطفين الأخيار في ذلك اليوم.. وسجد صاحب القلب المنيب.. فيا لذة تلك السجدة.. ذاق لذة سجوده.. وما له ألا يفعل؟ وقد كان يتذوق لذة السجود في دنياه.. ما له ألا يفعل وقد كان يفر من فتن الدنيا وأكدارها ومصائبها إلى لذة السجود، ونعيمه، وصفائه...

وعندها ((يؤمرون فيرفعون رؤوسهم.. فيُعْطُونَ نورهم على قدر أعمالهم.. فمنهم من يُعْطَى
نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يُعْطَى نوره دون ذلك، ومنهم من يُعْطَى نوره مثل
النخلة يمينه، ومنهم من يُعْطَى دون ذلك.. حتى يكون آخر ذلك مَنْ يُعْطَى نوره على
إهام قدمه.. يضىء مرةً، ويطفىء مرةً.. فإذا أضاء قدم قدمه، وإذا طفئ قام)).. أيها المتقي
البار:

توزيع الأنوار على قدر برّ الأبرار.. على قدر مناجاة الأسحار.. بحسب الإنفاق على وجوه
الخير والحق في الليل والنهار.. يا طالب الأنوار يوم الظلمات: اشتر نورك الآن.. وابذل
الثمن.. فالثمن غالٍ.. فيا فوز الأبرار.. فماذا أنت قائل، واحذر من زيف الرياء، فإنه كوكبٌ
قصير الأجل كقصر وقت السحر المحبب إلى الله -عزّ جاره-:

ثوب الرياء يشف عما تحته وإذا التحفت به فإنك عاري
يا كوكباً ما كان أقصر عمره وكذا تكون كواكب الأسحار



المشهد الخامس
إنه العبور الخطير على جسر جهنم..
هل أعددت مركبتك القوية لتتمكن من الانتقال عليها؟

إنها عقبة الفرع الأكبر: جسر جهنم.. أي شيء أفزع من جسر جهنم وأشد هولاً:
وقام صاحب القلب المنيب من سجوده والبشر ما زال يملأ على فؤاده.. تُشْرِقُ أسارير وجهه،
ويظهر في منظره ومخبره.. قام وقد شعر باجتياز الاختبار.. اختبار السجود الذي طالما أعد له
عدته.. فأكثر السجود في الدنيا، وراود نفسه على الإخلاص، واجتناب النفاق
والرياء.. وانتقل إلى امتحانٍ آخر عسير.. إذ أُوقِفَ الجميعُ على جهنم ومنادي الحق ينادي:
{ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا } [مريم: ٧١].. عندها جأر الناس
بالبكاء، وامتألت قلوبهم بالخوف.. كيف سَنَرُدُّها..؟ وكيف يمكن الخروج منها وهي تكاد
تميز من الغيظ.. كيف تُطاق والقلوب تنخلع لمجرد رؤيتها من بعيد.. فإنها إذا رأت المجرمين
{ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا } [الفرقان: ١٢].. فكيف وهي الآن في مكان قريبٍ؟ بل
كلهم سيردها.. هكذا عرصات القيامة وأهوالها.. محطاتٌ مختلفة.. كل محطة أهوال مستقلة
بذاتها.. ها هو ذا جسر جهنم.. وها هي ذي جهنم بذاتها:

لكأننا نرى صاحب القلب المنيب قد جثا وقلبه يرجف، وعيناه تذرفان من أهوال القيامة التي
تصيبه.. لكأنه يئن قائلاً: اللهم سلمني.. اللهم سلمني.. اللهم قد عرفتُ ذنبي فاغفر لي.. اللهم
قد سترته عليّ في الدنيا فأتمم عليّ سترك في هذا الموقف.. إلهي.. مولاي أنت:

الوليُّ المتينُ ما خاب ظنُّ لنفوسٍ في فضله طامعاتٍ

يا إلهي إني مقرٌّ بذنبي وخطايا جوارحٍ مسرفاتٍ

يا إلهي: ما جهلتُ المقامَ أو كان ذنبي مشرباً إلى دروب العصاة
 مولاي: ضعف نفسي وحسن ظني برني جرتي لانتهاك المظلماتِ
 إلهي: يا حليماً بعبده يا عفواً يا وليَّ الإنعام والمكرماتِ

أسل دموعك خشيةً وتعظيماً واستعد له من الآن:

إنه أدق من الشعر وأحد من السيف.. مدحضة مزلةً عليه خطاطيف وكلايب:

ورأوا بأعينهم كيف سيردون جهنم، ويا له من هول.. إنه الجسر المنصوب على ظهر جهنم؟
 ولكن أي جسر.. نعم ((يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم)) يا له من جسر؟ لك أن
 تتساءل بخوفٍ ورعبٍ عظيمين: أي شيء هو جسر جهنم؟..
 فإنه ((أدق من الشعر وأحد من السيف)).. ولكن أتدري أيا راجي النجاة ما هو الجسر؟ إنه
 ((مدحضة مزلةً عليه خطاطيف وكلايب، وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيمة تكون بنجد
 يقال لها السعدان))..

أدق من الشعر.. فكيف يعبر عليه؟ ربِّ سلِّم..

أحد من السيف.. فكيف يعبر عليه؟ رب سلم..

في ظلماتٍ حالكة تحيط بكم وبه.. لا تتنازها في طريقٍ واسعٍ.. فما بالك بطريقٍ هو أدق من
 الشعر وأحد من السيف؟ ربِّ سلم..

وآلات جهنم القوية الغاضبة، وزفيرها، وفحيحها المؤلم.. تعمل في جذب الناس وإسقاطهم إلى
 قعرها.. رب سلم..

وانظر الكلايب فإذا هي عبارة عن حديدةٍ معوجة الرأس، أو عودٍ في رأسه اعوجاج كثير
 مثل ((شوك السعدان غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله)).. وتأملت هناك عمل هذه
 الكلايب، وتلك الأشواك فإذا هي تؤدي عملاً تضيف إلى رعب الصراط ورهبته رعباً ورهبة؛

إذ "يجبس الله بها من يشاء من خلقه.. [يعوق من يشاء].. ويصرعه بكلايب الصراط، حتى يهوي إلى النار.. حتى لا يعلم أينجو أم لا" (١)، وبعض هذه الكلايب تنهش أجساد الناس ((فتخطف الناس بأعمالهم.. منهم الموبق بعمله، ومنهم المخردل ثم ينجو)) تخردل جسده وتنهشه وتأكل منه.. وبعد المعاناة قد ينجو.

يا أهل الموقف: إنه جسر جهنم.. وكيف تنام العين وهي قريرة:

يا لدقته وحدته فمن يقدر على العبور عليه في هذا المسافة الهائلة العظيمة..
يا لوحشة كلالبيه وخطاطيفه فمن ذا يصمد؟..

يا للرعب الذي ينتاب الواقفين عليه وهم يرون بذهول ورعبٍ وخوفٍ جهنم اللاتحة بعضُ أهواها للخلق من تحت الجسر.. فمن ذا يجرؤ على المرور؟.. والنبي ﷺ يعلق على المشهد قائلاً: ((الزلازل والزلازل يومئذ كثير)).. فأسل -أيا حبيباه- دمع العين إشفافاً أن تكون منهم قبل أن يأتي يومٌ لا ينفع فيه أن تكون الدموع دماً:

وكيف تنام العين وهي قريرة ولم تدر في أي المكانين تنزلُ

ولكن إذا كان هذا هو الجسر.. أفليس من المستحيل المشي عليه؟ بلى.. ولكن شيئاً واحداً يُمكنُ المرء من أن يعبره: إنه العمل الصالح.. ألا أيها الخلق: من أعدَّ العمل في دنياه كان تجهيز مركبة سيره في أخراه بحسب عمله.. ويرى الخلق من ذلك أن "يسر المشي على الصراط وعسره إنما يكون على قدر الطاعات والمعاصي.."(٢)..

لربما بدأ عندها صاحب القلب المنيب يحسب كم هي الحسنات التي جمعها في الدنيا لتكون وسيلة نقله عبر هذا الطريق المخوف الرهيب.. وعندها نسي -كبقية الخلق- كل حبيبٍ

(١) انظر: فيض القدير ٢/ ١٧١.

(٢) انظر: فيض القدير ٢/ ١٧١، وفي الكتاب إشارة إلى أن معنى أدق من الشعر، وأحد من السيف ليس على ظاهره.

له..نسي كل قريبٍ إلى قلبه..هناك ذهل الخليل عن خليله..وتذكر الإنسان يومئذٍ مجدداً {وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} [الفجر: ٢٣]..تذكر أنه كان يمكن أن يجمع ما يكفيه لتكون وسيلة نقله عبر الصراط مذلةً مهينةً..ثم لربما أعاد الذكرى وهو يعاين ذلك..
 آه ما للإنسان لا يعتبر.. ويأتيه كتاب ربه يخبره بطريق المستقبل حيث أهوال الساعة فلا يزدجر..لقد كان سماع ذلك في كتاب الله-جلَّ جلاله- كافياً في حياته الدنيا لإلهابه وتهيجه وتذكيره بما أمامه من القدوم على أهوالٍ لا يخلص منها إلا بلطف الرحمن بسبب ما تقدم من أعمال^(١).

يا من وصلتكم الرحم وأديتم الأمانة أبشروا:

الأعمال الصالحة هي وسائط الصالحين..للتقرب من رب العالمين..والنجاة من جسر جهنم يوم الدين..ومن أعظم العبادات التي يراها العباد تسائلهم على الجسر لتزيد في رعب الخاسرين..وتبشر المتقين: أداء الأمانة، وصلة الرحم..إذ ((ترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبي الصراط يميناً وشمالاً))^(٢) يحاسب العباد عليهما..فهنيئاً لمن وصل رحمه، وأدى أمانته..وهما من أسباب وصوله إلى الجهة الأخرى ونجاته في موقف الخزي العظيم..فتمسك بهما أي راجي الفوز توفق على الصراط المستقيم..

أيها القانتون: صلوا الرحم.. لتصلوا على جسر جهنم..وأدوا الأمانة لتفوزوا.. فالنجاة هنا أكبر مغنم..

أيها القانتون: هَيِّئْتْ لَكُمْ الدنْيا فهل من مشمر..وبقي في أجلكم فسحةً..ألا من عاملٍ لآخرته يُعَمِّرُ..فاسلكوا الصراط المستقيم في الدنيا..ليستقيم لكم في الأخرى..

(١) انظر: فيض القدير ٢/ ١٧١.

(٢) مسلم ١/ ١٨٧.

هذا هو الصراط، وهذه هي شدته:

والنبي ﷺ على الصراط ينادي متضرعاً: اللهم سلم..سلم..
والأنبياء على الصراط ينادون متضرعين: اللهم سلم..سلم..
والملائكة على الصراط ينادون مشفقين: اللهم سلم..سلم..

الظلمات الحالكة.. إنه نور الله يُرسلُ إلى من تاب وعمل صالحاً:

وأول عقبة على الصراط زلزلت الأفئدة: الظلمات الكالحة.. كيف يمكن العبور في هذه الظلمات..؟..

يا أنين الفؤاد من التفريط في الحياة الدنيا.. يا غرق الخدين من دموع الندم على ضياع الأوقات في زمن العمل..

وسرى التفكير المخيف بحق: كيف يمكن أن تجتاز شيئاً هذه حدته ودقته وظلمته وكلالبيه وخطايفه؟ كيف..؟

وأصداء الجواب تتردد في الأسماع وفي الأفئدة: ((على قدر أعمالهم)).. فأقواهم وأوفرهم حظاً من ازدلف إلى ربه بعملٍ صالحٍ وصدقٍ متاب.. ولكن الملائكة تطمئن المؤمن، وتبشره بالجنة {بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...} [الحديد: ١٢] يبشرونهم ليزداد اطمئنانهم.. كأهم يقولون: لا تخافوا ولا تحزنوا.. إن هي إلا هذه العقبة وستجتازونها حتى تصلوا مستقركم في الجنان.. ستصلون.. وذلك ليخففوا من الرعب المحيط بهم.. مع شدة الخوف من الصراط حتى الأنبياء.. الأنبياء لشدة الخوف يرددون: رب سلم..رب سلم..ولا يوجد أحد من الخلق يستطيع الكلام..إلا الرسل..وهم عندما يتكلمون..إنما يكون كلامهم دعاء.. اسمع لقول نبيك ﷺ يصف لك خطورة الوضع: ((ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذٍ: اللهم سلم..سلم)).

وفي هذه الأثناء رأيت الكرامة لحقت {مَنْ حَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ} [ق: ٣٣]..

أبشر يا من خشيت الرحمن بالغيـب.. أبشر.. فإن الله يـخصك بنور يسعـى بين يديـك
ويـمينك..

ولكن من ذا يبشره؟..

إنهم أولياءه في الحياة الدنيا وفي الآخرة.. الملائكة..

إنهم أصدقاء الصدق.. وإخوة البشائر الدائمة.. أرسلهم الوليُّ الودودُ.. الرحمن الرحيمُ.. فأسرجوا
له نوراً يسعـى بين يديه ومن خلفه.. أسرجوا له النور.. فيـا راحة القلب وسكـينته.. أتستطيع أن
تصف الفرحة؟ إنه النور يُشرق له ولكل مؤمنٍ عاملٍ.. أشرق بين أيديهم وبإيمانهم..

فما أجمل المنظر.. انظر إليهم ذلك اليوم {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ} [الحديد: ١٢]..

أضيئت لك أيها المؤمن أنوارٌ ترشدك إلى الجانب المقابل عبر الصراط فوق هوة جهنم
للنـجاة.. وهذا من أعظم البشـرى التي تُقذف في قلوب من اهتدى.. ممن تاب وآمن وعمل
صالحاً.. فأحبه الله واصطفاه..

أيا حبيباه: لا يلهينك خوفك وأملك.. وارفع يديك هاتفاً: اللهم اجعلني من المصطفين
الأخيار.. أيها البار.. نادِ في الأسحار:

أتيتك راجياً يا ذا الجلالِ ففرج ما ترى من سوء حالي

عصيتك سيدي.. ويلي.. بجهلي وعيبك الذنب لم يخطر ببالي

إلى من يشتكي المملوك إلا إلى مولاه يا مولى الموالى

أي طالب التوفيق، وخاطب الجنان: النور يضاء لك قبل مرور الصراط حناناً وزكاة: أيها القانت الأواب.. يا صاحب القلب المنيب: انظر - إن استطعت النظر - إلى المنافقين والمنافقات لترى شدة الظلمات بين أيديهم.. وغلظ الظلمات حواليتهم.. إنها تساوي ظلمة قلوبهم في الدنيا.. جزاءً وفاقاً..

أما أنتم أيها البررة القانتون: فكان لكل واحدٍ منكم نوره الخاص به.. وهو الضياء الذي تمرون تحت إضاءته بين أيديكم.. أمامكم وبأيمانكم.. فيضاء النور لكم في أيمانكم.. كما أن قلوبكم أشرقت بنور الله في الدنيا.. فالجزء من جنس العمل في الآخرة.. وانظروا: فقد غدت أيمانكم مصدراً للنور.. كما استلتم كتابكم باليمين انتشر نوركم باليمين.. {جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا} [النبأ: ٣٦].

يا طالب التوفيق.. وفي جسر الرهبة العظيم، وبين أرتال الظلمة المحيطة ترى أنواركم متفاوتة، ومداهها متباين.. فإنهم ((يؤتون نورهم على قدر أعمالهم من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن)).. ومن المؤمنين من يكون نوره أقل من ذلك.. ((حتى إن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه، [وأدناهم نوراً من نوره على إهمام رجله فيطفأ مرة ويوقد أخرى]) ((١))..

يا أيها العاملون: هنا ظهر المجد ولاح..

هنا تميز القول الكاذب من الأقوال الصراح.. أشرعوا سفن العزم إن كنتم ترجون الفلاح.. ترى كيف ستكون أنوارنا في يوم الظلمة.. وما مداها في يوم المراح..
.. يا للمجد لمن واصل المسير إلى ربه بالإدلاج والغدو والرواح..
ليجد لنفسه في آخرته أعظم سراج وأرقى وسيلة للنجاح..

(١) أخرجه الطبري ١/ ٥٦، والزيادة عند الحاكم ٢/ ٥٢٠، وصححه، ووافقه الذهبي، وانظر: تفسير ابن كثير ١/ ٥٦.

تراهم (يؤتون نورهم على قدر أعمالهم)) وترى هناك -يا لوعتاه- أدناهم نورا من أوتي نوره على إبهامه يطفأ مرة ويقدم مرة (١).

تصور ذلك وكرّر الصورة في ذهنك، ثم اهتف معي بقلبٍ خاشعٍ ونفسٍ متضرعة: اللهم لا تخزني يوم القيامة.. إلهي بك أستجير.. فلا تخزني يوم البعث والنشور.

نورك يسعى معك.. هل أعددتَه في الدنيا كما ينبغي:

ومن صفات هذا النور الذي ينبعث من ذاتك: أنه {يَسْعَى} [التحریم: ٨] كلما مشيت مشى معك ومضى يضيء لك.. وليس كالنور الثابت الذي كلما ابتعدت عنه زاد خفوته.. فهو {يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ} [التحریم: ٨].

أيها البار القانت: فماذا تريد أكثر؟ إذ ينطلق نورك الناتج عن الأعمال الصالحة في الدنيا لتستضيء به على الصراط، وليكون دليلاً لك إلى الجنة.. أفلا تعده كما ينبغي (٢).

يا صاحب القلب المنيب: من جديد: لا تخف ولا تحزن: إنها الصحبة الدائمة، والود الصادق:

ولرهبه الصراط -يا صاحب القلب المنيب- وخوف الورود على جهنم تأتي الملائكة من جديد لتطمئنك وتبشرك، ونورك يسعى بين يديك وبيمينك فتقول لك قبل أن تبدأ ساعة الانطلاق: {بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الحديد: ١٢]..

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٥٦.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١٧/ ٢٤٤.

أيها المفلحون: خلودكم في الجنات هو النجاح العظيم الذي كنتم تطلبونه بعد النجاة من عقاب الله.. وتصور معي مشهد الأفراس الغامرات التي تنتاب المؤمنين حينها، ومشهد الحشرات القاتلة التي تعترى المنافقين والكافرين عندما يسمع الجميع تلك البشائر.

بعد تكامل الطمأنات تبدأ ساعة الانطلاق: بسم الله مجراها ومرساها

وهنا انطلق المؤمنون تحملهم أعمالهم، وتذلل لهم طريق العبور الخطير.. حيث ترى النار بفجائعها، وهولها، وظلمتها، وكلايتها.. في أمرٍ عظيم يسقط القلب منه بمجرد الرؤية.. فهنيئاً لأصحاب الأعمال الصالحة.. هنيئاً.. اللهم فاجعل لي لسان صدق في الآخرين..

انطلق المفلحون في مشهدٍ يملأ القلب بشراً وفرحاً.. إذ رأيت ((المؤمن عليها كالطرف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب)) ((تجري بهم أعمالهم))..

((فيقال: انجوا على قدر نوركم فمنهم من يمر كاتقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الرحل، ويرمل رملاً.. فيمرون على قدر أعمالهم [حتى تعجز أعمال العباد.. وحتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زاحفاً]، حتى يمر الذي نوره على إهام قدمه يجر يداً، ويعلق يداً، ويجر رجلاً، ويعلق رجلاً فتصيب جوانبه النار))^(١).. لا إله إلا الله.. قل معي بخشوع: اللهم إني أسألك أن تجعلني من السابقين ذلك اليوم يا أرحم الراحمين..

والكلاليب تعمل عملها فيمن أمرت بهم ف((في حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت بأخذه)) تأخذ من هذا شيئاً.. وتنهش هذا فيوشك على الهلكة.. وتجر ذاك فيرمى من على الجسر إلى قعر جهنم..

(١) مسلم ١/١٨٧، الحاكم ٤/٦٣١.

واشهد هناك المجد والسبق كله قد صارا خالصين للنبي ﷺ إذ هو ((أول من يجيز)) على الصراط.. ثم يقف يدعو مع الرسل يومئذٍ: اللهم سلم.. سلم.. أجل! النبي ﷺ ما زال يدعو لأمته إذ هو ((قائم على الصراط يقول: رب سلم.. سلم))^(١)..

أبشُر! فأنت من أوائل من يجيز الصراط. ولكن ما هي نتائج المشهد الحق:

وكما أن النبي ﷺ كان أول من جاوز الصراط كذلك كانت أمته ((أول من يجيز..)).. وكان صاحب القلب المنيب ممن كرمهم الله بالانتماء لهذه الأمة الخاتمة.. فقد مرَّ مع الأوائل في يوم الأهوال.. مر والخلق ينظرون إليه باغتباط.. وما له ألا يمر وقد اجتاز عقبة الدنيا.. فكان جزاؤه أن تحمله أعماله، ويسير به نوره ليجتاز عقبة الآخرة..

اقتحم عقبة الدنيا: فأطعم وصلى وصام وكان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة.. وكان ممن حافظوا على القيام.. وبرحمة الله اقتحم عقبة الآخرة.. وإن كان قد رأى أفضل منه ممن سبقه بأسرع منه.. لكنه اجتاز.. وإنا لنرجو أنه اجتازها بأسرع من طرف الأنام.. ذلك بما كان يعمل في الدنيا.. ويتقي الآثام..

أيا حبيباه: فهل من مبادر بالأعمال والطاعات.. ليجد نوره في ذلك اليوم.. يصلُّ به عبر الصراط إلى الجنات.. هل من مبادر؟.

وانتهى المشهد العظيم.. وترتبت عليه النتائج التالية: لم يخرج من عبْرته عن ثلاث

حالات:

إما أنه ((ناجٍ مُسَلَّم)) لله فرحته! ألا تهتفُ معي: اللهم إني أسالك من فضلك ورحمتك.

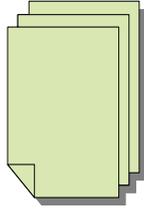
أو ((ناجٍ مخلدوش)).. ألا تهتفُ معي: اللهم إني أعوذ بنور وجهك..

وإما أنه يا لوعتاه: ((مكدوسٌ في نار جهنم)).. اهتف أيا حبيباه: أعوذ بنور وجهك.

(١) البخاري ٥/ ٢٤٠٣.

بعضهم سلم فيا فوز الغائمين، يا غنيمة المفلحين..ويا فرح المخلصين المخلصين..
 وبعضهم اجتاز ولكن بعد أن خدشته كالليب جهنم، ولسعته حسكها، وامتدت إليه
 أشواكها.. ((حتى يمر آخرهم يسحب سحباً)) ولكنه نجا آخر المطاف..وحمداً لله على أن
 جعله بذلك أفضل العالمين..إي وربي.. فمن نجا من جهنم هل يظن أن أحداً أفضل منه؟
 وقول الجليل.. الذي طالما سمعه الأنام..يسبل عليهم الأمان..يسمعونه بجمالٍ وترتيلٍ ﴿فَمَنْ
 زُحِرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].
 وبعضهم كُردس فسقط في نار جهنم..فيا ضيعة الأعمار..ويا ثقل الأوزار..ويا حسرةً تبقى
 مدى الأدهار..ولا حول ولا قوة إلا بالله..وحسبي الله ونعم الوكيل..على الله ربنا توكلنا..يا
 طالب رحمة الرحمن: دع الغافلين في غفلاتهم، واهتف:

إلهي! لئن أبعدتني أو طردتني	فمن ذا الذي أرجو ومن ذا أشقُّع؟
إلهي! لئن جلَّت وجمَّت خطيئتي	فعفوك عن ذنبي أجلّ وأوسع
إلهي! فلا تقطع رجائي ولا تُزغ	فؤادي؛ فإني خائف متضرِّع
إلهي! أذقني برد عفوك يوم لا	بنون ولا مال هنالك ينفع



المشهد السادس
نورك البهي يسعى..
والحصاد المر لمن نكت وأكدي

انظر الحصاد المر: منافق لا نور له، ومنافق أُعطي النور فمضى ثم خُذع فانطفأ نوره فهوى:

في هذا الموقف العصيب والأهوال المتلاحقة ترى الناس قد غشيتهم يوم القيامة الظلمات.. كلٌ بحسب ظلمة قلبه في الدنيا.. ثم أعطاهم الله نوراً يمشون فيه.. بحسب أنوار قلوبهم في الدنيا.. فيعطي الله المؤمنين نوراً يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، وأما الكافر وبعض المنافقين فيُتركون بلا نور، بل يحاولون أن يستضيئوا بنور المؤمنين ولا يعطون شيئاً من نور.. فقد كانوا لا نور لهم في الدنيا.. إنهم هم خالص المنافقين..

وَيُعْطَى بعض المنافقين أيضاً نوراً خديعةً لهم.. ولكن الله {خَادِعُهُمْ} [النساء: ١٤٢]...

ها هم أولاء يمشون ببصيصٍ من نورٍ معهم.. فبينما هم يمشون إذ بعث الله فيهم ريحاً وظلمةً فأطفأ بذلك نور المنافقين، ويسلب المنافق نوره لنفاقه عندها يصيحون.. ويصرخون.. ويستغيثون.. وهل ينفع شيئاً صياحهم.. وهم لم يُعدوا شيئاً في دنياهم.. إلا الخداع.. فها هم أولاء يخادعون.. وتكون نتيجة خداعهم في الدنيا:

منهم من يُكْرَدَسُ في النار من فوره،

ومنهم من تخطفه الكلايب والخطاطيف فتھوي به،

وترى بعضهم وقد طمس الله على أعينهم فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه..

بل هم في هويهم إلى حفرة النار منكسون..

ومنادي الحق ينادي:

{وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ} [يس: ٦٦]..
 ومنهم من مسخه الله على مكانته فتراه متحيراً متردداً.. قد أكله عذاب الخوف والإشفاق
 من الوقوع.. والدموع السوافح لا تغني شيئاً عن القلب الجزوع.. فبينما هو كذلك إذ خرَّ
 على وجهه من علي.. ومنادي الحق ينادي: {وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا
 اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ} [يس: ٦٧].. أقعدناهم فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا
 يرجعوا وراءهم.. حتى وقعوا ولا وقعة أسوأ منها.. لكأن الهاتف يكتبهم قائلاً: ﴿ذوقوا فنتنكم..
 {ذُوقُوا فَنَتَنُكُمْ} [الذاريات: ١٤].

يا صاحب النور يوم القيامة.. أتمَّ الله لك نورك.. وأدام سرورك:

إنه ضوء الحق أعطي لهم ابتداءً كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا.. كما كانوا
 يفعلون مع نور الإيمان، وقوة البرهان في الدنيا.. فهكذا هم اليوم -يوم الحاقة-..

**يهتف صاحب القلب المنيب مع بقية المؤمنين وهم يشهدون ما حدث
 للمنافقين.. يهتفون:**

ترى المفلحين يهتفون وهم يسيرون على الصراط: {رَبَّنَا أَتَمَّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التحريم: ٨] {رَبَّنَا أَتَمَّمْ لَنَا نُورَنَا} [التحريم: ٨] يقولون ذلك خشية أن يسلبوا
 نورهم كما سلبه المنافقون.. فهم في طلب فضل ربهم راغبون.. ويواصلون
 الدعاء.. فينادون {وَاعْفِرْ لَنَا} [التحريم: ٨].. يكررون ذلك وهم يرون حال المنافقين الذين
 أطفئت أنوارهم.. فهم يتذكرون بعض ما وقعوا فيه من ضعفٍ وتقصيرٍ وخطيئةٍ في حياتهم
 فيخشون أن يؤاخذوا بذلك.. فيعيدون الهاتف {وَاعْفِرْ لَنَا} [التحريم: ٨].. وأخيراً تتم لهم
 البشرية.. ويتم الله لهم نوره فيصلون إلى بر الأمان، ومكمن الإحسان.. بفضل الرحمن -عزَّ
 جاره-.

هذا يوم له ما بعده ف{لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ} [التحریم: ٨] فيه.. اهتف أيا حبيباه: اللهم لا تخزني يا أرحم الراحمين.

إنه النور في الآخرة.. طلبته -أيا راجي التوفيق- في الدنيا بالتوبة النصوح التي كان لك فيها دمع مسفوح، وقلبت عن المعاصي جموح..

إنه التوفيق في الآخرة وعدم الخزي يأتيك أحوج ما تكون إليه.. يأتيك بسبب التوبة النصوح التي يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الخلان.. هل يعي المنافقون هذا أم يعدونه محض هذيان؟.

أيا طالب التوفيق: اشهد مشهد الخيبة والأحزان الذي وقع فيه المنافقون:

وأطلَّ صاحب القلب المنيب بعد أن اطمأن قلبه المرتجف.. واستبشر بفوزه واجتيازه على الصراط.. أطلَّ على مشهد الخيبة والخسران.. مشهد المنافقين عندما يهتفون بالمؤمنين المنطلقين {انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ} [الحديد: ١٣]..

يقول المنافقون الذين أعطوا نوراً ثم أطفئ: انتظرونا نستضاء من نوركم.. ويقول الذين لم يعطوا نوراً بالأصل: لا تذهبوا وانتظرونا.. أمهلونا وأخرونا حتى نعطي نوراً أو نقتبس من نوركم.

يا لمشهد الخيبة والخسران، والذل والهوان.. بقي المنافقون في الظلمة لا يبصرون مواقع أقدامهم.. وبدلاً من أن يلتمسوا نورهم من الله -جلَّ جلاله- قاموا يطلبونه من المؤمنين فقالوا: {انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ} [الحديد: ١٣] فيكون الجواب قاطعاً للخطاب.. محيراً لمن اتبع هواه وترك سبيل من أناب.. {قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ} [الحديد: ١٣].

تصيح بهم الملائكة: {قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ} [الحديد: ١٣]..

ويصيح بهم المؤمنون: {قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ} [الحديد: ١٣] ارجعوا إلى الموضع الذي أخذنا منه النور فاطلبوا هنالك لأنفسكم نوراً، أما أنوارنا.. فهي أعمالنا.. بيناها في دنيانا.. وطلبنا رحمة الرحمن الرحيم قبلها وبعدها لأنفسنا.. أيها المنافقون: ارجعوا وراءكم.

كبت ذلك الجواب ألسن الخطاب.. وعاد بالأحزان على كل من بالمعاد استهزأ أو ارتاب..
قال لهم المؤمنون والملائكة: "هلا طلبتم النور من الدنيا بأن تؤمنوا" وتطيعوا، وتتبعوا سبيلنا.. هلا وفرتم لأنفسكم نوراً في وقت دنياكم لتجدوه هاهنا..
أما المؤمنون فوفروا لأنفسهم ذلك النور..

كم خرجوا لصلاة الفجر في ظلمة الليل ينتظرون ماثوبة رهم التي وعدهم بها النبي ﷺ في قوله: ((بشروا المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة))^(١).. الله! الله! لطالما لهجت ألسنتهم.. تُرِدُّ ذَكَرَ رَهِمٍ.. يخرج النور من شفاههم: ((اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَمَنْ فَوْقِي نُورًا، وَمَنْ تَحْتِي نُورًا، وَمَنْ أَمَامِي نُورًا، وَمَنْ خَلْفِي نُورًا، وَفِي عَصِي نُورًا، وَفِي حَمِي نُورًا، وَفِي دَمِي نُورًا، وَفِي شَعْرِي نُورًا، وَفِي بَشْرِي نُورًا، وَعَظْمِي لِي نُورًا))^(٢).

فها هو ذا نورهم تائم لهم في هذا اليوم.. يوم القيامة.. الله! الله!
 لا تقف وأنت تقرأ هذا عاجزاً.. وارفع يديك طالباً خيراً ناجزاً: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك حتى يتم علينا نورك يا أرحم الراحمين.
 صاح المؤمنون والملائكة بالمنافقين: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً.. فيا لها من وقفة الهلاك إن وقفوا.. ورجعة الهلاك إن رجعوا..

(١) أبو داود / ١٥٤ / ١٥٤.

(٢) البخاري / ٥ / ٢٣٢٧، مسلم / ٢ / ١٧٨.

{فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ} [الحديد: ١٣] مما يلي المؤمنين حيث نور المؤمنين والجنة، {وَوَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [الحديد: ١٣] حيث ظلمة المنافقين وجهنم.. اللهم إني نعوذ بك من موقف الخزي المبين..

تابع المشهد، وانظر الفوز الأحمد: عوامل الهلاك في الدنيا هي عوامل الهلاك في الآخرة:

عند ذلك ينادي المنافقون المؤمنين.. يستجدونهم آخر استجداء: {أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ} [الحديد: ١٤] في الدنيا نصلي مثل ما تصلون، ونغزوا مثل ما تغزون، وتتصدق كما تتصدقون.. ألم نكن معكم ونفعل مثل ما تفعلون؟ فلم بقينا وأنتم تعبرون.. انتظرونا واشفعوا لنا أيها الفائزون..
اشهد الموقف المؤلم المخزي للمنافقين، والمؤمنون يكتونهم على ما حدث منهم في الدنيا.. فقد أجاب المؤمنون على المنافقين:

{بَلَى} [الحديد: ١٤] كنتم معنا.. بلى قد كان ذلك منكم في الظاهر، كنتم معنا.. ولكن أحقاً كنتم معنا أم هو الخداع الذي تظنون أنكم به صرتم عباقرة؟.
بلى كنتم معنا. {وَلَكِنَّكُمْ} [الحديد: ١٤] حزتم بنصيبٍ وافر على عوامل الهلاك في الدنيا فأهلكتكم في الآخرة:

{فَفْتَنَتْكُمْ أَنْفُسُكُمْ} [الحديد: ١٤] استعملتموها في الفتنة، وأهلكتموها بالنفاق، وبالمعاصي، وبالشهوات، واللذات {وَوَتَرَبَّصْتُكُمْ} [الحديد: ١٤] بالنبي ﷺ الموت، {وَوَتَرَبَّصْتُكُمْ} [الحديد: ١٤] بالمؤمنين الدوائر، {وَوَتَرَبَّصْتُكُمْ} [الحديد: ١٤] بالتوبة تظنون أنكم يمكن أن تنالوها في أي وقتٍ.. حتى مضى عمركم بغيكم ولعبكم..

أيها المنافقون: لقد تربصتم {وَأَرْتَبْتُمْ} [الحديد: ١٤] فشككتكم في التوحيد والنبوة والبعث والجزاء، {وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِي} [الحديد: ١٤] غرتكم الأباطيل وطول الأمل..

أيها البار القانت: كم هو موقف ممتع لك وإخوانك المؤمنين أن تبكت المنافقين الذين كانوا يضحكون منكم، وتقول لهم:

أيها المنافقون: لقد غرکم ما كنتم تتمنونه من ضعف المؤمنين ونزول الدوائر بهم..

أيها المنافقون: {وَعَزَّكُم بِاللَّهِ الْعَزُّورُ} [الحديد: ١٤] خدعكم الشيطان بهذه الأمانى الكاذبات والخيالات والفارغات.. وغررتكم الدنيا بما كان لكم فيها من قوّة ونعمة وتمكينٍ ونعمٍ سابغاتٍ.. فظننتم أن ذلك يغني عنكم يوم القيامة، أو يبعد عنكم شبح العاديات.. وغرکم إتيانكم محارم الله ثم قولكم: {سَيُعْزِّرُنَا} [الأعراف: ١٦٩].. فهل هي إلا أمانٍ كاذباتٍ..

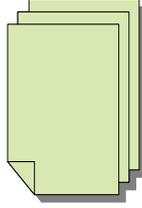
هل تتذكر هنا أيها البار القانت: قول بلال بن سعد عن الغرور: "ذكرك حسناتك ونسيانك سيئاتك غرة"؟ كانوا يذكرون حسناتهم وينسون سيئاتهم.. وذاك هو الغرور.

ولعلك حينها أيها البار القانت تقول لهم: كم كنا نقول لكم: "إن للباقي بالماضي معتبراً، وللآخر بالأول مزدجرأً، والسعيد من لا يغتر بالطمع، ولا يركن إلى الخدع، ومن ذكر المنية نسي الأمنية، ومن أطال الأمل، نسي العمل، وغفل عن الأجل" .. أيها المنافقون: كنا نقول لكم ذلك.. ولكنكم قابلتم ذلك بالضحكات الظاهرة والمستترة..

عندها ختمتم خطابكم لهؤلاء الهلكى: {فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ} [الحديد: ١٥] أيها المنافقون {وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [الحديد: ١٥].. لا يقبل منكم بدلٌ ولا عوضٌ ولا نفسٌ أخرى.. ينبغي أن تياسوا من النجاة.. فإن {مَأْوَاكُمُ النَّارُ} [الحديد: ١٥] هي مقامكم ومنزلكم، و {هِيَ مَوْلَاكُمْ} [الحديد: ١٥] أولى بكم من كل شيءٍ.. تتولى مصالحكم، وتملك أمركم، وتدبر شأنكم.. بأيديكم طلبتموها.. فيا خسارة من تملك النار أمره {وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الحديد: ١٥]..

وهكذا نجوت من مزلة الصراط، وظلمة الطريق.. ورأيت مصير المتمردين على الله، الساخرين من المؤمنين في الدنيا.. بل تمتعت بنجاتك وتبكيتهم كما كانوا يستمتعون ويضحكون وهم

يكتونك في الدنيا.. كنت تقول لهم حينها {فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَيَبْكُوا كَثِيرًا} [التوبة: ٨٢]..
فقد مضى وقت ضحكهم القليل.. وأن وقت بكائهم الكثير.. فماذا تفعل إلا أن تحرك
لسانك متعجلاً بذكر الله وحمده وتسبيحه: الحمد لله الذي هداني لهذا فضلاني على كثيرٍ من
خلقه.



الفصل الثالث

على مشارف الجنة
واهاً.. لريح الجنة

المشهد الأول
إني أرى ما ليس عليه صبر..
يا قوم رَوْحُوا بنا إلى الجنة

الوصول إلى الجهة الأخرى: ألا تهنئون بعضكم بعضاً على النجاة:

خلص عباد الله الصالحون من النار، ووصلوا إلى الضفة الأخرى عبر جسرها المخيف وكان ممن نجا صاحب القلب المنيب.. نجا وهو مندهشٌ فزعٌ مما تحته ومما أمامه.. نجا وهو يرى الخلائق عن يمينه وشماله.. فقومٌ يئنون.. وآخرون يزلون.. انظر هناك لترى مشهد الرعب: ترى قوماً يخطفون بالخطاطيف والكالليب.. وآخريّن ينتكسون على رؤوسهم.. وآخريّن على وجوههم فتعلوا الأرجل.. العويل والبكاء من حواليك تسمع له تتابعاً ودويّاً.. الشهقات واللهثات.. الرجاء والاستغااثات.. ولكن لا يجيب {الْيَوْمَ بُحْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجنّة: ٢٨]..

ولما وصل الفائزون إلى الجهة الأخرى رأيت- بقول الله الصدق - كل واحدٍ منهم يقول فرحاً جذلاً.. غير مصدقٍ لنجاته، شاعراً برحمته ربه: ((الحمد لله الذي نجانا منك بعد إذ رأيناك..)) إي والله الحمد لله.. ثم يقولون عبارة السعداء الذين لم يكن أمامهم أهمٌ من النجاة مما رأوا.. يقولون: ((فقد أعطانا الله ما لم يعط أحداً)).. إي وربّي لقد أعطاهم عطيةً عظيمةً {فَمَنْ زُحْرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [آل عمران: ١٨٥].

وهكذا مضى الشاب الحبيب صاحب القلب المنيب ناجياً من أخطار النار.. ناجياً من عذاب النار.. ناجياً من جحيم النار.. وأن الأوان للاستعداد للانطلاق إلى الجنة.. ولم لا؟ والجنة قد أزلفت لكم أيها المتقون غير بعيد..

الرائحة الغربية الزكية..والنفحة العطرية البهية:

ومن مكان غير بعيد شممت رائحة تتضوع مسكاً وتفوح...حتى تكاد القلوب من فرط الشوق لها ترتج وتنوح: إنها رائحة الجنة..ولم لا يجد المنيب رائحتها وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((.. وَإِنَّ رِيحَ الْجَنَّةِ لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ مِائَةِ عَامٍ))، وهذا ربما يكون لنوع من الجنان، وإلا فنوع آخر يقول عنه صلى الله عليه وآله وسلم: ((مَنْ قَتَلَ مُعَاهِداً فِي عَهْدِهِ لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ)).

الجنة: رؤيتها عبر القرآن أسهرت الخُطاب.. فكيف وها هي ذي قد تزينت أمامكم بغير حجاب..وانبعثت روائحها الزكية العاطرة تسلب الألباب..عندها أيها المنيب انطلقتم نحوها ولسان حال أحدكم: (إني لأرى أمراً ما لي عليه صبر..يا قوم روّحوا بنا إلى الجنة)(^١). وفي انطلاقتكم الحثيث نحو الجنة وهبتم جواز الدخول..وتأشيرة الوصول كأن الجواز مكتوبٌ عليه: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: هذا كتاب من الله لفلان بن فلان أدخلوه جنّةً عاليةً.. قطفوها دانية..

أيها المؤمن الأواب الحفيظ: هنيئاً.. هنيئاً.. تُعطى جوازاً على الصراط كأن أحرف الذهب والنور قد كُتِبَ بها: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لفلان أدخلوه جنة عالية.. قطفوها دانية(^٢)..

لقد استلتم جواز الدخول، وجزتم صراط الأهوال..وآن وقت الوصال.. لمحبوّب طالما أضنى محبيه ذل السؤال..

(^١) قالها عبد الله بن غالب التابعي الجليل. انظر: حلية الأولياء ٢/٢٥٧.

(^٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٤١٦، وانظر: العلل المتناهية ٢/٩٢٨، وقد رواه الطبراني مرفوعاً في الأوسط ٣/٢٢٤..أورده ابن القيم في نونيته وفي حادي الأرواح..كما أورده غير ما واحد من أهل العلم، وتفصيل تخريجه في زوائد تاريخ بغداد رقم ٦٤٩.. وإنما أوردناه على منهجية الكتاب إذ لم نعد حديثاً فألحقنا به لفظة (كأن) طلباً لمعناه إذ المعنى صحيح، كما لم نقوسه بقوسي الحديث..والجواز المذكور حاليٌّ إن لم يكن مقالياً..وراجع منهجية كتابة هذه السلسلة المباركة في آخر الكتاب.

السابقون إلى الجنة.. في ذلك - لا في غيره- فليتنافس المتنافسون:

على مرأى من الخلق أجمعين.. يتم توزيع الجوائز على الملائم، ويظهر نوعٌ من التكريم العظيم لمن يسبق إلى الجنة.. إذ يحدد أسماء الأوائل السابقين إليها.. ونزل إعلانٌ عام بهم.. إنهم وبكل فخرٍ: أوائل الثلث التي تدخل الجنة:

وهكذا يتقدم الفائزون.. يتقدم المفلحون أمام أبصار الناس وأسماعهم، فيا لذة فوزهم!.. ويتشوف صاحب القلب المنيب أن يكون منهم..

أُغَلِّقُ قلبي في الغرام وأكتُمُ ولكن حالي عن هواي يُتَرَجِّمُ
وكنت خلياً لست أعرف ما الهوى فأصبحت صبباً والفؤاد مُتَّيِّمُ
وسطرتها من دمع عيني لعلها بما حلَّ بي منكم إليكم تُتَرَجِّمُ
فاستمع نماذج لنداء المنادي على أولئك الطاهرين في مشهد من الخلائق أجمعين:

فئة الحمادين:

تبدأ التهيئة المشوقة للفائزين ليستلموا جوائزهم، ويكرموا على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ((فينادي مناد سيعلم أهل الجمع لمن الكرم اليوم)) ويكرر النداء ثلاث مرات.. فيتشوف الذين أعدوا لهذا اليوم عدته.. ويأملون، ويأملون.. عندها يقول: ((أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع)).. استمع للشرف كله، والمجد كله، وقل معي: اللهم اجعلني منهم برحمتك وفضلك وبرك وجودك.. ويعد تكريمهم تنادى التلة الأخرى:

((أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار)).. ويتم التكريم.. يا للنعيم.. أغرق خديك بالدموع وقل: اللهم اجعلني منهم..

ثم يجيء نداء مميز آخر ف((ينادي مناد: سيعلم الجمع لمن الكرم اليوم ثم يقول: أين الحمادون الذين كانوا يحمدون ربهم))^(١)..

ف((أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله في السراء والضراء))^(٢)..
إنه المغنم الرابع.. إنه المغنم الرابع أيها المبتلى في بدنه.. إنه الفوز المحقق يا أيها المبتلى في جسده.. يا أيها المبتلى بكثرة ماله وهو لذلك شاكر.. يا أيها المبتلى بقله ذات يده وهو مع ذلك صابر: أي خير تحوزونه إن شكرتم الله وحمدتموه.. أي تكريم عظيم يرفعكم أمام الخلائق في يوم الحزى والفضيحة إن رضيتم عن ربكم في قضائه وقدره.. ولهجتكم بحمده على كل حال..

أنتم أول الناس دخولاً الجنة فزيدوا في حمد ربكم حمداً، واشكروا نعمة الله عليكم.. رضيتم عن الله في قضائه فهاهو يرضيكم بنعمائه..

يا من آتاكم الله الأموال والأجساد والأولاد.. اشكروا نعمة ربكم وزيدوا في حمده.. فإذا تغيرت الأحوال حيث لا تستقر الدنيا على حال فزيدوا في حمده..

أيها الحمادون: أليس حسبكم أن يجعلكم الله أول من يستلم الجائزة الكبرى، والسلعة الغالية.. فهنيئاً.. هنيئاً..

وما زال صاحب القلب المنيب يشهد كل ذلك ونفسه تهفو أن يكون ضمن فئة من فئات السباقين إلى الجنة..

(١) أول الحديث عند مسلم ١/ ٢٠٩، وهذا اللفظ عند الحاكم ٢/ ٤٣٣، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) الطبراني في الصغير ١/ ٦٨١، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: "رواه الطبراني في الثلاثة بأسانيد وفي أحدها قيس ابن الربيع وثقه شعبة والثوري وغيرهما وضعفه يحيى القطان وغيره وبقيته رجاله رجال الصحيح ورواه البزار بنحوه وإسناده حسن".

أيها الفقراء المستضعفون الحامدون الباذلون أبشروا فقد نجحتم في الابتلاء: أنتم
المُقَدَّمون السابقون^(١):

ونودي في الجمع العظيم بدخول فئة الجنة قبل أن يبدأ الحساب.. ونظر الخلق أجمعون.. من هؤلاء المكرمون؟.. من هؤلاء المشرفون بدخول الجنة أمام الخلق أجمعين؟.. من هؤلاء الذين يسعدون بالخلاص من موقف الأهوال الشديد.. والحر العتيد؟..

إنهم أول ثلثة يدخلون الجنة.. إنهم ((الفقراء المهاجرون الذين تتقى بهم المكاره)) لكثرة عبادتهم، وإخبات أنفسهم، وبذلهم أنفسهم، وزهدهم بما في أيدي الناس.. والفقر ليس لأنهم أرادوه بل بذلوا أسباب الرزق.. لكن لم يُكتب لهم كما كتب لغيرهم..

هؤلاء السابقون كانوا ((إذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإذا كانت للرجل منهم حاجة إلى السلطان لم تقض له حتى يموت وهي في صدره)) الله! الله! إنهم المدفوعون بالأبواب، الذين لا يؤبه لهم لأنه لا جاه لهم ولا مال.. لا وساطة ولا رجال.. لكنهم يصبرون ويحمدون الله، ويقومون بأمره..

فالآن.. الآن جاء دورهم ليسبقوا الناس، وقد كانوا يُسبَقون،

الآن جاء دورهم ليؤخِّروا الناس بتقدمهم عليهم، وقد كانوا هم المؤخِّرون،

الآن يومهم.. وشتان بين يوم أُخِّروا فيه في الدنيا، وبين يوم يتأخر الناس عنهم فيه في الآخرة..

(١) حديث فقراء المهاجرين رواه أحمد ٢/١٦٨، والحاكم ٢/٨١، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وانظر مجمع الزوائد ١٠/٢٥٩، وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٢/٢١٠: رواه الأصبهاني بإسناد حسن لكن متنه غريب.

احتفال خاصّ بهم:

وعندما يُنادى عليهم أمام الملائكة يهتف الله لهم احتفالاً خاصاً يشهده الجميع ف((إن الله عز وجل يدعو الجنة يوم القيامة فتأتي بزخرفها وزينتها))، وعند ذلك يميزهم عن غيرهم بنداءٍ من جديد.. ولكنه نداءً بالأوصاف.. ليعرف قيمتها أهل الجمع يوم القيامة..

((فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وقوتلوا وأوذوا في سبيلي، وجاهدوا في سبيلي..)) فيتقدمون، فيقول الجبار لهم: ((ادخلوا الجنة))..

لا تدري أيهما ألد: البشري بدخول الجنة أم مناداة الله لهم على الملائكة أجمعين، أم نسبة عبوديتهم إلى الخالق ((عبادي)) نسبة تشریفٍ وتقديرٍ وتكريمٍ؟
عندها ((يدخلونها بغير حساب))..

ونشهد الآن مشهداً عجبياً إذ تتقدم فئةٌ أخرى من الخلق تغار منهم.. فمن ذا الذي يغار؟.. انظر الآن من يحسدكم من يغبطهم على تقدمهم.. من؟.. إنهم الملائكة..

((وتأتي الملائكة فيسجدون فيقولون: ربنا نحن ملائكتك، وخزنتك، وسكان سمواتك لا تدخلهم الجنة قبلنا)).

تصور المشهد: تقول الملائكة الأطهار، الكرام الأبرار: نحن أكبر المخلوقات تأهيلاً أن ندخل الجنة قبل كل الخلق.. ربنا! لا تدخل الجنة قبلنا أحداً.

لكن الله الجليل يبين لملائكته سبب جدارة هؤلاء، واستحقاقهم لدخول الجنة.. ((فيقول: عبادي لا يشركون بي شيئاً.. تُتقى بهم المكاره.. يموت أحدهم وحاجته في صدره لم يستطع لها قضاء))..

عندها تتساءل الملائكة عنهم بصورةٍ أكبر.. وهم متلهفون..

فتقول: ((ربنا نحن نسبح بحمدك، ونقدس لك، من هؤلاء الذين آثرهم علينا؟)) ولكن الله يقول القول الفصل ويحكم بالحق.. في مشهدٍ عظيمٍ كم يود من حضر أن يدخل ضمن هذه

الفئة التي يتكلم الملك الجليل الأعلى عنها مع ملائكته..تابع المشهد..تابع وعين بقلبك
فإن العين غافلة عن الحقيقة..

((فيقول الرب عز وجل: هؤلاء عبادي الذين قوتلوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي))..وهكذا
سبقوا الناس..ويا لهفتاه..أكان صاحبنا منهم..هاهنا المنافسة الحق..ومنادي الحق ينادي
{الْيَوْمَ يُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} {الجاثية: ٢٨}..

اندهاش خزنة الجنة من هذا الفوج السابق^(١):

تابع رحلتهم..تابع رحلتهم إلى الجنة لترى العجب:

((يأتون إلى باب الجنة ويستفتحون)) يستفتحون ليدخلوا الجنة..

((فتقول لهم الخزنة: أو قد حوسبتم؟))..

خزنة الجنة من الملائكة تندهش..كيف جاءوا بهذه السرعة؟ كيف غادروا موقف العرض
والناس في أهواله؟ وهل حوسبوا وتم حسابهم..فيجيئون بهذه العبارة الرصينة العجيبة:
((قالوا: بأي شيء نحاسب؟ وإنما كانت أسيفنا على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا على
ذلك؟))..

نعم بأي شيء نحاسب..يا لله! بأي شيء نحاسب..اللهم اغفر لنا خطأنا وشططنا وإسرافنا
في أمرنا..فتكون النتيجة أن تبادر الملائكة بفتح أبواب الجنان لهم:
((يفتح لهم فيقولون فيها أربعين عاماً قبل أن يدخلها الناس)) عند ذلك ترى الملائكة تفتح
لهم وتدخل عليهم! إي وربّي تدخل عليهم من كل باب محيية..مسلمة..مرحبة..مهنتة
{يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ} {الرعد: ٢٣}..يحيوهم بالتحية الخالدة العطرة: {سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} {الرعد: ٢٤}.

(١) هذا الجزء من القصة رواه الحاكم ٢/ ٨٠، و صححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

ورأيت في أوائلهم وأرفعهم رجلاً فقيراً جمع بين الفقر والنية الحسنة؛ إذ كان يود لو أن له كنوز الأرض ينفقها في سبيل الله فأخذ أجر الفقير الصابر بفعله، والغني الشاكر بنيته.. يا رفعة الفائزين.. طوبى.. طوبى.. ويا ندامة المستأخرين الخاسرين.

حبيبٌ من أهل الجنة سبق.. يخاطب حبيبه: أي أخي ما حبسك؟^(١)

أيا محب الجنة وحبيبتها: وفيما بعد علمتم معاشر السعداء بوقوع قصةٍ عجيبةٍ لاثنتين من المؤمنين على مشارف أبواب الجنة.. إذ ((التقى مؤمنان على باب الجنة: مؤمنٌ غنيٌّ، ومؤمنٌ فقيرٌ كانا في الدنيا)) فأسرعت يد الصبر بالمؤمن الفقير.. حتى أدخلته الجنة، وأخرت موازين الحساب صاحبه فـ((حبس الغني ما شاء الله أن يحبس)) للحساب.. فإن كلاً بحسبه.. ومنادي الحق ينادي: {لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ} [المائدة: ٤٨].. ولما انفض الحساب عن الغني بنجاته ((أَدْخَلَ الْجَنَّةَ)).. ثم التقى الخليلان الصاحبان في الجنة الغني والفقير، فسأل الفقير صاحبه بلهفةٍ وحبٍ وشوقٍ وقلقٍ:

((أي أخي ماذا حبسك؟)) ما الذي أخر دخولك؟ ((والله لقد احتبست حتى خفت عليك)) قلقت عليك وأنت صاحبي على درب الإيمان..

رد عليه صاحبه الغني بحبٍ وفرحٍ:

((أي أخي إني حُيسْتُ بعدك محبساً فظيماً كريهاً.. ما وصلت إليك حتى سال مني العرق ما لو ورده ألف بغيرٍ كلها آكلة حمضٍ لصدرت عنه رواء))^(٢) فقد حوسبت على مثقال الذر من مالي: كيف اكتسبته وفيما أنفقته.. حتى أغاثني الله برحمته.

(١) القصة رواها أحمد / ٣٠٤، وانظر مجمع الزوائد ١٠ / ٢٦٣، وقال في الترغيب والترهيب ٤ / ٦٥: رواه أحمد بإسناد جيد قوي.

(٢) الحمض ما كان مرّاً من النبات.

الثلة الأولى: لا حساب عليهم أصلاً فماذا ينتظرون؟ ها هو ذا طريق أبواب الجنة قد لاح.. هلموا فخذوا منها واحداً:

ولو ترى هناك الثلة الأولى وهي تنطلق إلى أبواب الجنة قبل الناس كلهم.. ينطلقون؛ إذ لماذا ينتظرون.. بل ماذا ينتظرون.. وهم لا حساب عليهم.. لا حساب عليهم.. فهل للنفس المتلهفة التي شرفها الله أن تتأخر عن الجنة.. ترى الناس ينثالون على النبي ﷺ ليشفع لهم فيحاسبوا ويقضى بينهم، وليس لهم بدخول الجنة.. وبعد رحلة العناء لوساطة الأنبياء.. يأتون سيد الأصفياء مُحَمَّدًا ﷺ ((يأتون مُحَمَّدًا ﷺ فيقولون: يا مُحَمَّد! أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه.. فأنتقل فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي عز وجل، ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا مُحَمَّد! ارفع رأسك سل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي: فأقول أمي يا رب.. أمي يا رب فيقال: يا مُحَمَّد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب))^(١) فيدخل الذين لا حساب عليهم ((وهم زمرة من أمة مُحَمَّد ﷺ.. هم سبعون ألفاً بغير حساب))، ورأيت فيهم الصحابي الجليل ذا الهمة العالية: عكاشة بن محصن (رضي الله عنه).

وتنطلق فئة المقدمين ممن لا حساب عليهم.. تنطلق قبل الناس كلهم.. يقولون للخزنة: على أي شيء نحاسب؟..

يا هلفة عبدٍ وهو يراهم مكرمين.. يراهم قبل الناس منعمين.. يا هلفة ابن عبدٍ وهو يراهم مقدمين.. كانوا للطاعات سابقين، وفي فعل الخيرات متنافسين.. فحازوا ما قصر فيه كل العالمين.

(١) البخاري ٤/ ١٧٤٦.

ولكن لعلك -أيا طالب الجنة- تتعجل الأمر كيف صورهم؟ ما هي هيئاتهم؟ ألا تصفهم لنا فتروي الظمان، وتملأ العطشان؟ فانظر إليهم: إنهم ((أول زمرة تلج الجنة.. صورهم في صورة القمر ليلة البدر)) و((تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر)).. زد فأمعن النظر فيهم: (([أخلاقهم على خلق رجل واحد.. على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء] لا يبصقون فيها، ولا يتمخطون فيها، ولا يتغوطون فيها: آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحدٍ منهم زوجتان: يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن.. لا اختلاف بينهم، ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد.. يسبحون الله تعالى بكرة وعشيا))^(١)..

هذا الخبر فكيف العيان.. وهذا الوصف فكيف المشاهدة والبيان.. ألا تسرح مشعل العزيمة أيها التائه المقصر في دنيا الوهن.. المستلذ بما يعتريك من نوم ووسن..

نداء الحب، وهتافات التهاني.. ترف للسابقين.. أنت أي صاحب القلب المنيب منهم؟

ونادي منادي الحق مبيناً التقسيم التام للسعداء وللأشقياء.. يا لتعاسة الأشقياء:

{فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} [الواقعة: ٨ - ١٠].

يا رفعة التوفيق للإنسان.. لقد انقسم السعداء إلى فريقين: أصحاب يمين، وسابقون.. ولأن نفسك تحفو إلى الملاء الأعلى، والقسم الأرفع، والمكان الأسمى.. فقد نظرت إلى الثناء على السابقين راجياً أن تكون منهم فسمعت الثناء الفوري عليهم، ورأيت بعضاً منهم.. يا أطيايف الذكرى.. املائي قلبي بنور الحق.. وتراءت لك منازل السابقين.. ونداء الحق يهتف ثناء عليهم: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ} [الواقعة: ١٠، ١١]..

(١) البخاري ٣/ ١١٨٥، والزيادة عند مسلم ٤/ ٢١٧٩.

لكأنك تسمع الهتافات احتفاءً بهم:

أيها السابقون: لقد بلغ حالكم منتهى الفضل والرفعة المبينة.. حتى لا يوجد وصفٌ يصفكم.. فألسنة الواصفين عن بيان عظيم فوركم مستكينة..

أيها السابقون: لقد بلغت أقصى ما يطلبه الطالبون، وبذلتم أعظم ما يبذله المحبون، وارتفعتم إلى أوج الدرجات التي يتنافس فيها المتنافسون.. فماذا تريدون.. ماذا تريدون.. وأنتم اليوم.. أنتم السابقون.

أيها السابقون: أنتم السابقون في الدنيا إلى الإيمان.. أنتم السابقون في الدنيا إلى مقاومة الهوى وفعل الإحسان.. فأنتم السابقون اليوم إلى الجنان.

لربما تسأل الجمع: من هم السابقون؟ فجاء جواب الرفع: {أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ} [الواقعة: ١١] أيها السابقون: ألم تكونوا في الدنيا تبدلون المهج لتكونوا من المقربين.. كم حرك مهجكم قول ربكم ((وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه)) فالיום يوم الجزاء فأنتم اليوم.. أنتم المقربون.. ألم يعدكم ربكم: ((ولئن سألتني لأعطينه)) فسلوا ما بدا لكم.. فهل لكم عندنا إلا الوفاء جزاءً بما كنتم تعملون.. وها هنا تسكب عبرات المشتاقين:

ففاضت دموعي عند ذاك وربما تشهر بالدمع السرار المكتم

نداء الكبير المتعال: أذهب الحزن، وأزاح الوهن، وأراح الفؤاد :

ومع الأهوال المتتابعة التي نجا منها صاحب القلب المنيب مرةً بعد مرة: سمع مع سائر الأبرار نداءً لا مثيل له ولا شبيهه ملاً القلب بالغبطة والسرور، وأزاح ما اعترى النفس من الخوف والحزن والثبور.. سمعه يناديه وصحبه المحبتين {يَا عِبَادِ لَا حَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} [الزخرف: ٦٨].

لربما تشوف بعض عباده -عزّ جاره- من المعاندين.. في دار ابتلاء العالمين.. تشوفوا لما سمعوا كلمة ((يا عبادي)) فظنوا أنهم يمكن أن يدخلوا فيها.. فالكل عباد الله.. وانظر إليهم.. انظر إلى الناس وهم يُنادون هذا النداء في ذلك اليوم العظيم.. يوم الأهوال المتلاحقة.. {يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} [الزخرف: ٦٨].. فيطمع فيها من ليس من أهلها.. ويرجوها الناس كلهم.. وربما تساءلوا: من العباد المقصودون بذلك يا رب؟ من العباد الفائزون؟ فالمؤمن يبغي أن يتأكد من أنه المقصود، والكافر يرجو ويتمنى.. وأمام الأسئلة المتلهفة يتتابع النداء الرباني الذي يشرح الصدور، ويملأ القلوب بالغبطة والسرور.. حتى يسمعو نداء المنادي {الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ} [الزخرف: ٦٩].. هم {الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ} [الزخرف: ٦٩].. إنهم الذين صدقوا بكتاب الله ورسله وكانوا قانتين.. وعملوا بما جاءهم به رسلهم وكانوا مسلمين.. كانوا أهل خضوع لله بقلوبهم وقبول منهم لما جاءهم به رسلهم عن ربهم.. فنعم سعي الفائزين^(١).

فبيأس منها عند ذلك من ألهتهم الحياة الدنيا وكانوا من الغافلين^(٢).. وهتافات الحقيقة تكشف عوج الطريقة.. وتعلق التعليق الحزن الصارم: {إِنَّ الْحَاسِرِينَ الَّذِينَ هَضَبُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [الزمر: ١٥].

..نعم.. فمنادي الحق قَطَعَ آمالهم، كما أُحْبِطت أعمالهم.. عندما نادى {الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ} [الزخرف: ٦٩] ف وقعت حسرة المتحسرين، وزادت خيبة النادمين.. وارتفعت أعلام الموقنين، وظهرت كرامة المفلحين.. فبها شوقاً لذلك المقام.. تصور الحدث.. واهتف معي غير متردد: اللهم فاجعلني في ذلك اليوم من أفضل عبادك الفائزين.

(١) انظر: الطبري ٢٥ / ٩٥.

(٢) انظر: الطبري ٢٥ / ٩٥.

ولقد صار نداء الحق { يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ } [الزخرف: ٦٨، ٦٩] لحناً شجياً يطرب له المسلمون، ونداء أمانٍ يفرح به المفلحون.. ويتنعم بسماعه، وتكراره، وبظهوره، وبارتفاعه المخلصون..

في طريق الشوق إلى الجنة.. تحيةً وتثبيتاً من أهل الأعراف:

ومضى صاحب القلب المنيب مع موكب النور والفلاح.. مضى مع موكب المفلحين نحو الجنة- دار النجاح-.. وفي الطريق بين الجنة والنار رأى حجاباً حاجزاً بين دار المتقين ودار الفجار.. رأى السور العظيم الفاصل بين الجنة والنار.. { بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ } [الحديد: ١٣] حيث يوجد صاحب القلب المنيب وصحبه الطاهرين أولو النعمة، { وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ } [الحديد: ١٣] حيث أهل النار من كل كافرٍ ومنافقٍ دعيٍّ كذابٍ... ونظر إلى السور فكان كثيفاً عظيماً يمنع وصول أثر إحدى الفتنتين إلى الأخرى.. كما رأيت أعرافه وهي شرفه المشرقة التي تطل على الجهتين من الجنة والنار.. لترى نعيم المتقين وثبور أهل دار البوار..

وهناك رأى رجالاً ماكثين في الأعراف.. لا هم في الجنة ولا هم في النار.. ينتظرون أن ينتهي حشر الناس من خاسرين ومفلحين أبرار..

تتبع أخبارهم ليسأل عن حالهم.. وعرف شأنهم.. فعلم أنهم "رجالاً من أهل الجنة يتأخر دخولهم الجنة.. هم قومٌ تجاوزت بهم حسناتهم النار، وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة.. فهم مؤخرون ينظرون إلى كلا الفريقين.. وهم يدخلون منازلهم.. والمشهد يوحي بتدفق الدموع.. وهيجان قلبٍ ولوع.. متى يناهم الأمر الإلهي، وتشملهم الرحمة الربانية بالدخول إلى دار السلام.. فبينما هم كذلك في ترقبهم وخفقان قلوبهم إذ اطلع عليهم الرحمن الرحيم.. فأمرهم بألذ أمرٍ مرَّ عليهم فقال: قوموا ادخلوا الجنة فإنني قد غفرت لكم.

ولأنهم في الأعراف يُطَّلَبون على كلا الفريقين.. فهم {يَعْرِفُونَ كُلًّا} [الأعراف: ٤٦] من المؤمنين والكفار {بِسَيِّمَاتِهِمْ} [الأعراف: ٤٦].. فيعرفون المؤمنين بعلاماتهم من بياض الوجوه وحسنها.. ويعرفون الكفار بعلاماتهم من سواد الوجوه وقبحها..

عندها يقبلون على المؤمنين أملين فيبشروهم بالجنة قبل دخولها.. فيطمعون فيها، وإذا رأوا أهل النار دعوا لأنفسهم بالسلامة من العذاب.. ومن مجانية أهل الشقاق والارتياب.. ونظر صاحب القلب المنيب فرأى أهل الأعراف يلتفتون إلى جهتين مختلفتين، ويُكَلِّمون فريقين متضادين:

فيلتفتون إلى أصحاب الجنة: وينادونهم من محبتهم لهم حباً ووهماً وتبشيراً وزيادة في التنعيم، فيقولون لهم: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} [الأعراف: ٤٦].. وأهل الجنة لم يدخلوا الجنة بعد.. وهم يطمعون في دخولها..

ومن تلهف أصحاب الأعراف على الدخول مع الداخلين إلى الجنة.. يسلمون على المؤمنين عند دخولهم الجنة.. أما هم ف{لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ} [الأعراف: ٤٦].. هم يطمعون في دخولها مع الداخلين.

ومن حسن أهل الجنة لا تكاد أبصار أصحاب الأعراف تنصرف عنهم، ولكن يخافون من مصير أهل النار {وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ} [الأعراف: ٤٧] يدعون ربه بصوتٍ يسمعه أهل النار تقريراً وتبكيئاً وزيادة في العذاب: {قَالُوا: رَبَّنَا لَا تُجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ٤٧] فسألوا الله ألا يجعلهم مع أهل النار الذين ظلموا أنفسهم، وذلك على سبيل الدعاء والتلذذ في مناجاة الله.. أيا صاحب القلب المنيب: اسمعهم وتنعم بما آل إليه حالك وأنت تتجه نحو جنة ربك..

من النعيم.. تبكيت الخلق للمستكبرين، والثناء على الفائزين:

ثم التفت إلى مشهدٍ مثيرٍ لك.. حدث لأهل الأعراف مع فرقةٍ عرفتها بسيماها.. إذ زاد عذاب الفجار بتفريع الخلق لهم.. {وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ} [الأعراف: ٤٨] فبكتوهم، وعَنَّفوهم جزاءً وفاقاً كما كان هؤلاء الظالمون يُعَنَّفون المؤمنين من قبل.. اسمع ما قاله لهم أصحاب الأعراف:

{قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأعراف: ٤٨].. ما أغنى عنكم جمعكم للدينا، واستكباركم عن الإيمان.. أغنت عنكم حشودكم.. حاشيتكم.. تغطرسكم عن سماع نداء الحق، وأوامر القرآن.. لا.. لا.. لا {مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأعراف: ٤٨]..

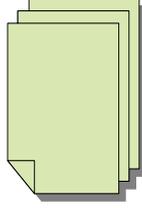
قال لهم أصحاب الأعراف: {أَهْلُؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ} [الأعراف: ٤٩].. والتفت صاحب القلب المنيب ليرى إلى من يشير أصحاب الأعراف.. فرأهم يشيرون إلى المستضعفين والفقراء من المؤمنين الذين سبقوا الخلق بالتنعم في الجنان.. أه! كم كان المستكبرون يزعمون أن الله لو أرسل خيراً.. لو كان الدين خيراً.. لو كان الإيمان خيراً لما تسابق إليه الضعفاء.. تذكر ذلك فالدينا أمامك: كم أقسم المستكبرون في الدنيا أن الله لا ينال هؤلاء الفقراء المستضعفين برحمة.. ويقولون: لو كانت هناك رحمة من الله لكنا أحق بها لأننا أعطينا وفضلنا وأوتينا.. {وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ٧٥]..

يا للتوبيخ: أهل الأعراف يُذَكِّرون هؤلاء المستكبرين باستكبارهم وضحكهم وقهقهاتهم على الفقراء.. أفأغنى عنهم ذلك من الحق شيئاً؟ أنفعهم ذلك في يوم الحقيقة؟ ورأيت أهل النار يوبخون فيزدادون غماً وحسرة..

ثم يلتفت أصحاب الأعراف إلى أولئك الفقراء المستضعفين في الدنيا - أكان صاحب القلب المنيب معهم ليزداد فخراً وحبوراً - فيقولون لهم مباركةً وتهنئةً: { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزُنُونَ } [الأعراف: ٤٩].. وهنا - وبعد مدةٍ يعلمها الله - يقال لأهل الأعراف الطامعين في دخول الجنة أيضاً: { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزُنُونَ } [الأعراف: ٤٩] (١) ..

أيها المخبت الأواب: إني أراك تنظر إلى هذا المشهد، وترى ما رزقك الله من الشرف والكرامة.. فلا تملك إلا الحمد ابتهاجاً وشكراً وامتناناً..

أخي الحبيب: انظر ذلك بعين البصيرة ثم اهتف معي رغياً ورغياً: اللهم اعطني من الخير فوق ما أرجو، واصرف عني من سوء فوق ما أحذر.. اللهم علق قلبي برجائك، واقطع رجائي عن سواك. إلهي ومولاي: اللهم إنك تعلم عيوبنا فاسترها، وتعلم حاجاتنا فاقضها.. كفى بك ولياً وكفى بك نصيراً يا رب العالمين.



(١) جمعاً بين التفسيرين.

المشهد الثاني
على مشارف الجنة
التهيئة للدخول

التهيئة النفسية لدخول الجنة: على صراطٍ ثانٍ.. جسراً آخر.. لكن اطمئن:

ها هي ذي أعلام الجنة لاحت.. فلتهياً الأجساد والأرواح لها.. فبعد أن يتجاوزوا الصراط.. انطلق صاحب القلب المنيب يُيَمِّمُ وجهه قبل الجنة.. وفرحة الخلاص بتجاوز الصراط.. والفوز في اختبار الدنيا.. لا تكاد توصف.. وهو الآن يجتاز طريق النجاح بسعادةٍ وفخرٍ وشوقٍ وهفوةٍ.. فإذا به مع صحبه من أهل الجنة يفاجأون بقنطرةٍ جديدة.. إنه صراطٌ جديد.. ولكن ماذا يعني ذلك.. هل يعني هذا أنه مطلوبون لحسابٍ جديد؟ ولربما بدأ يستعرض شريط حياته الدنيا من جديد لينظر في غدراته، وفجراته، وتقصيراته.. لينظر في كل غدواته وروحاته.. عسى أن ألا يجد فيها ما يجعله معرضاً للزلل في هذا الصراط الجديد.. ولكن مهلاً فهذا الصراط يختلف في شكله وهيئته عن الأول.. فإن الأول أكثر إخافةً في دقته.. أكثر رعباً في حدته.. واجتمع المؤمنون بعد أن خلصوا من النار عند هذا الصراط الجديد وحبسوا فيه.. ((حبسوا بقنطرةٍ بين الجنة والنار))^(١).. فلماذا؟

وأتاهم القول الحق.. والنبأ اليقين، وبدأ الخوف يدب في أوصال بعضهم.. إذ هذا صراط القصاص من المظالم البينية ((مظالم المؤمنين بينهم)).. ربما بكى بعضهم يا لهفتاه.. كم ظلمنا بعضنا؟ كم تكلمنا غيبةً في بعضنا؟ كم اغتبننا وجرحنا وجرحنا واجترحنا؟ فهل معنى ذلك أننا سنهوي في هذه العقبة بعد إذ نجانا الله من أكبر منها؟..

(١) حديث هذه القنطرة عند البخاري ٢ / ٨٦١ وغيره.

لربما لاحت لهم صورةٌ مخيفةٌ شاهدوها عن بعض الناس في موقف الحشر، وتردى أصحابها في النار عند صراط جهنم: إذ جيء برجل عُرف بالفلس، وقد جاء هذا الرجل بعملٍ صالحٍ كثيرٍ بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، وكان من أمةٍ مُجدِّةٍ... وبينما هو يرى عمله الصالح مستبشراً تبددت حسناته فجأةً.. لماذا؟ لأنه ((يأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا)) وهكذا كان جرمه في حق الناس.. وكانت النتيجة الرهيبة أن هذا ((يعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار))^(١)..

لربما ارتعد صاحب القلب المنيب: فهل الأمر في هذه العقبة كذلك القرار؟..

تابع المشهد وانظر حالتك في الدنيا، وسل الله الغفران:

يبدأون في هذه القنطرة ((فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا)).. ولكن الله -جلّ جلاله- يصلح بين المسلمين الذين قد اجتازوا المراحل السابقة الخطرة كرامةً لهم..

ومن نماذج الإصلاح لنفوسهم نموذجٌ صوره النبي ﷺ كأننا نحضره:

فلنحضرها الآن أمامنا عياناً فقد جاء ((رجلان من أمة النبي ﷺ فجتيا بين يدي رب العزة فقال: أحدهما يا رب خذ لي مظلمتي من أخي. فقال الله تبارك وتعالى للطالب: فكيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء؟ قال: يا رب فليحمل من أوزاري)) لقد فاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء حين حكى مثل هذا الموقف لما رأى إلى حاجة الناس لمن يحمل عنهم أوزارهم ثم قال: ((إن ذاك اليوم عظيمٌ يحتاج الناس أن يُحْمَلُ عنهم من أوزارهم)) فقال الله تعالى للطالب: ((ارفع بصرك فانظر في الجنان)) فرفع رأسه فقال: يا رب أرى مدائن من ذهب، وقصوراً من ذهبٍ مكللةٍ باللؤلؤ)) ثم تلهف وتعجب ونادى متشوقاً: لأي نبي هذا؟

(١) مسلم ٤/١٩٩٧.

لأبي صديقٍ هذا؟ لأبي شهيدٍ هذا؟ فقال له ربه: ((هذا لمن أعطى الثمن)) قال: ((يا رب ومن يملك ذلك؟)) قال: أنت تملكه. قال: بماذا؟ قال: ((بعفوك عن أخيك)) قال: ((يا رب فيأني قد عفوت عنه)) قال الله عز وجل: ((فخذ بيد أخيك فأدخله الجنة))^(١).. وهكذا أصلح الله بين المسلمين، ونقّاهم مما حدث بينهم من شوائب وأوزار.. فليحذر الذين يتتبعون عورات المسلمين.. ويغنون إخوانهم ظلماً وعلواً وعدواناً..

ويظل القصاص بينهم حتى يدخلوا الجنة خالين من كل غلٍ.. مُنَزَّهين من كل مظلمة.. مطهرين من كل وزرٍ.. طابت أنفسهم وطُيِّبت.. وعندها ينزع الله ما في قلوبهم من غلٍ.. من حسدٍ وبغضٍ.. ومنادي الحق ينادي: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾ [الحجر: ٤٧].. أجل: إخواناً كم يهفو المرء ليومٍ يسمع فيه هذه الكلمة صادقةً نقيّةً.. وبذلك تأهلوا لدخول الجنة نفسياً وروحياً..

يا خاطب الجنة: نعمة نزع الغل من أعظم النعم التي تُهدى لك في آخرتك:

إذ لكم طال عناؤك في معالجة نفسك في الدنيا عسى أن ينزع الله عنها الجانب المظلم الذي رُكِّبَ كغريزةٍ فيها للابتلاء..

لكم دعوت لنفسك حينها: ((اللهم آت نفسي تقواها، رزقها أنت خير من رزاقها، أنت وليها ومولاها))^(٢)..

لكم كنت تدعو ((اللهم اسلل سخيمة قلبي))^(٣).. ولكن النوازع تظل لاصقةً بالإنسان في الدنيا ابتلاءً واختباراً لا تنفك عنه ليعلم الله أيتمكن الإنسان من ضبط نفسه أم لا..

(١) لما خرجه ابن كثير في التفسير ٢/ ٢٨٦ قال عنه: "ولنذكرها هنا حديثاً أورده الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي رحمه الله في مسنده" ونحن ذكرناه تبعاً لذلك.

(٢) مسلم ٤/ ٢٠٨٨.

(٣) الترمذي ٥/ ٥٥٤، وقال: حسن صحيح.

أما الآن.. أما الآن فمن أعظم النعم التي تتقلب فيها أن الله يسلم سخيمة صدرك كاملة.. وانظر إلى أهل الجنة وقد رُسمت هذه الصورة لهم.. حينما تطل عليهم لتراهم وقد نزع الله {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ} [الأعراف: ٤٣] فإن مما "ينعم الله به على أهل الجنة نزع الغل من صدورهم، والنزع الاستخراج، والغل الحقد الكامن في الصدر.. فقد- أذهبنا في الجنة ما كان في قلوبهم من الغل في الدنيا"^(١)..

((حتى إذا نقوا وهُدِّبُوا أُذُنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ)).. وعندها تناديهم الملائكة {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ} [الزمر: ٧٣].. طابوا.. أجل.. طابوا.. فإثم ((إذا قطعوا جسر جهنم حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار.. فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا.. حتى إذا هذبوا وطيبوا قال لهم رضوان وأصحابه: سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين)) وهكذا تطيبوا وطُيِّبُوا من أرجاس المظالم في الدنيا.. وهم في الطريق إلى جنة ربهم يطيبون طيباً بعد طيب.. فها هنا طُيِّبَتْ أرواحهم.. وبعد قليل ستطيب أجسادهم فنادهم في مكائهم:

إليكم الأشواق أشرعت.. لمجلسكم الدموع تتابعت.. لموكبكم النفوس تشوفت.. لنوركم أنوار القلوب أشرجت.. لحياتكم الأرواح هفت وتشوقت.. أيا أهل الجنة.. فمتى لقاء الصدق؟ متى؟

هاهي الجنة قد أزلت غير بعيد.. أتستطيع أن تُفصح عن مشاعرك؟

أيها الأبرار.. أيها المتقون: لقد وقاكم الله شر يوم التلاقي.. جاء يوم الصدق الذي تعبس فيه الوجوه حتى يسيل منها عرق كالقطران^(٢).. يومئذ ليس لأحدٍ من الله من واقٍ.. زادكم في ذلك اليوم فلقاكم {وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورًا} [الإنسان: ١١].. فانظر لإشراق بعد إشراق.

(١) تفسير القرطبي ٧/ ٢٠٨.

(٢) كما يقول ابن عباس. انظر: تفسير القرطبي ٩/ ١٣٥.

وهناك أيا عاشق الجنة: هل تستطيع أن تملك زمام الفرح في صدرك وعلى وجهك.. لئلاكم
الله نضرة وسروراً.. ألا تنظرون.. ألا تنظرون إلى أنفسكم حين لقيتم ريكم فقد آتاكم
وأعطاكم نضرةً وحسناً وسروراً وبشراً وحبوراً..
ولكن أهو مجرد بهاءٍ ونضرةٍ في الوجه لا يعكس ما داخل الصدر؟ كلا! بل أعطاك سروراً
حقيقياً في قلبك، وحبوراً طيباً في صدرك^(١)..
ها هي ذي أبواب الجنة لكأنك تنظر إليها وقد كُتِبَ عليها {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً
وَحَرِيرًا} [الإنسان: ١٢]..

انطلقت نحوها لكأنك تَهْتَفُ بهتاف جعفر الطيار:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبةً وباردٌ شرايها
كأنك انطلقت نحو أبوابها.. تهتف دامعاً.. ولكن دمة الفرح:
خذني إلى بيتي.. أرخ خدي على عتباته
وأقبل مقبض بابيه
خذني إلى وطنٍ أموتُ مشرداً
إن لم أكحل ناظري بترايه^(٢)

هناك انبعثت الذكريات، واغرورقت الوجنت، بالدموع السافحات..

أيها المنيب: كم صبرت على المصائب.. حتى أحببت لعظيم الأجر الشدائد والنوائب.. فأليك
الجزاء العظيم على تلك المناقب.. فجزاك بما صبرت جنة وحريراً.. وحماية لك من الآلام وأجرراً
كبيراً.

(١) قاله الحسن ومجاهد، وابن زيد وغيرهم على تفصيل. انظر: تفسير القرطبي ١٩ / ١٣٦.

(٢) انظر: صلاح الأمة ٥ / ٦٨٣.

أيها المنيب: كم حبست نفسك عن لبس الحرير.. استجابةً لأمر العلي الكبير.. كم صيرت على سخرية أهل الدنيا منك رغبةً فيما عند العزيز الغفور.. فجزاك على ذلك جنة وحريراً.. وحفظاً لك في يوم الأهوال وحباً كبيراً.

وفد الرحمن المظفر ينطلق نحو الجنة لا حائل إلا مسافة الطريق فكيف اللقاء:

وسار الموكب المبارك يُيَمِّم وجهه تلقاء الجنة، وصاحب القلب المنيب يسير معهم مُكْرَمًا مرفوع الهامة استبشاراً بالفوز والفلاح، مطاطئ الرأس تواضعاً لله، وشكراً على نعمه.. نعم ساروا..

فيا أيها الكون أخبت في محراب مجد المتقين فقد ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]..

انظر إليهم يتحركون معاً.. يساق الذين اتقوا ربهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.. وممن اتقى الله تعالى وعمل بطاعته.. فيا فوز الطائعين...

يساقون وقد اكتسبوا صفة السعداء المؤمنين.. يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة جماعةً بعد جماعة: جماعات المقربين السابقين ثم جماعات الأبرار من أصحاب اليمين.. كل طائفةٍ مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنفٍ مع صنفه.. كل زمرةٍ تناسب بعضها بعضاً.. فانظر إليهم بعين الابتهاج والسرور؛ إذ أنت ترجو أن تشاركهم في مسيرة السلام المتجهة إلى دار السلام، وموكب الفوز المتجه إلى دار الرضوان^(١)..

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤ / ٦٦.

وفرق بين سَوَّقٍ وسَوَّقٍ في ذلك اليوم العظيم: فإن سَوَّقَ أهل النار يتم بطردهم إليها بالخزي والهوان، واللوم والتقريع والتبكيك والخذلان.. كما يفعل بالأسارى.. إذا سيقوا إلى حبسٍ أو قتلٍ، أو تبكيكٍ فيه كل الهوان..

أما سوق أهل الجنان فهو سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان.. لا يذهب بهم إلا راكبين كما يفعل بمن يُشَرَّفُ ويُكْرَمُ من الوافدين على بعض الملوك فستان ما بين السوقين.. نعم يحشر الله المتقين إليه وهو الرحمن.. يحشرهم إليه وفداً مكرمين.. حتى قال علي -عليه السلام- في قوله تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا} [مریم: ٨٥]: (أما والله ما يحشر الوفد على أرجلهم.. ولا يساقون سوقاً.. ولكن يؤتون بنوقٍ لم تر الخلائق مثلها.. عليها رحال الذهب، وأزمتها الزبرجد.. فيركبون عليها حتى يضربوا (يقرعوا) أبواب الجنة(١).. إنها المراكب الفخمة.. وإنما قال نوق تقريباً للمعنى.. وفرق بين نوقٍ ونوقٍ.

فانظر إليهم: وركائبهم تسرع بهم إسرعاً إلى دار الكرامة كما يفعل في العادة بمن يشرف ويكرم من الوافدين على الملوك.

تصور صاحب القلب المنيب.. المخبت السابق القريب: وقد استوى على مركبته المزهرة.. وهي تنقله إلى دار النعيم.. ثم تأمل ذلك والملائكة تحيط به من كل جانبٍ تكريماً وتشريفاً وصيانةً وعزاً.. بتواضعه في الدنيا زُفِعَ في الآخرة، ومن رام الاستكبار والعلو في الدنيا وُضِعَ في الآخرة.. لا يجتمعان في قلبٍ محبٍ للرحمن.

(١) الطبري في تفسيره ١٦ / ١٢٧.

على مشارف أبواب الجنة:

والموكب يقترب من الجنة.. اتضحَت فإذا لها أبوابٌ متعددة تبلغ ثمانية أبواب^(١).. ولربما تساءلت: من أي باب سيدخل المقدمون؟ وسمعتَ نداء التكريم: أين أنتم أيها السابقون.. ويُنَادِي أصحاب العبادات.. كل عبادةٍ من بابها المخصص.. فأين المحبون.. أين المتيمون.. ألا يبادرون إلى الأعمال.. عساهم يحاولون الوصل فيصلون..

ويُدْعَى المرء من الباب الذي يكون فيه أكثر اجتهاداً في عبادته: ف((من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله تعالى دُعِيَ من أبواب الجنة)).. ((وللجنة أبوابٌ: فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان))^(٢)..

وقد يدعى المتنافسون في الخيرات من هذه الأبواب جميعاً، وأبو بكرٍ منهم وأنعم.. وقد يدعى الإنسان ليدخل من أي بابٍ منها شاء.. ومن هذا الصنف ((من أسبغ الوضوء.. وقال عند فراغه من وضوئه: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن مُحمّداً عبده ورسوله. اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين))^(٣)، ولأجل ذلك فتحت له الأبواب الثمانية.. والمنادي ينادي: ادخل من أيها شئت..

ها هنا السباق.. فهل يترك الفرصة أي راغبٍ هائمٍ مشتاقٍ؟

وترى سعة بابٍ من أبوابها.. فترى شيئاً عظيماً.. عندها احلف كما حلف النبي ﷺ.. قل وأنت ترى المشهد العظيم للباب.. احلف وقل: ((والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير أو كما بين مكة وبصرى))^(٤) وهذا بابٌ صغير من

(١) وقيل أكثر من ذلك. انظر تفسير القرطبي ١٥ / ٢٨٦.

(٢) البخاري ٢ / ٦٧١، ابن خزيمة ٤ / ١١٤.

(٣) الترمذي ١ / ٧٧، النسائي ١ / ٩٢، وصححه الألباني.

(٤) البخاري ٤ / ١٧٤٦، مسلم ١ / ١٨٥.

أبوابها.. وكما أن الجنان درجاتٌ بعضها فوق بعضٍ فأبوابها كذلك.. فباب الجنة العالية فوق باب الجنة التي تحتها.. وكلما علت الجنة اتسعت فبابها أوسع مما دونه، وسعة الباب بحسب وسع الجنة^(١)..

نعم.. ما بين مكة وبصرى الشام.. مجرد بابٍ صغيرٍ.. يا شوقاه! مجرد بابٍ من أبواب الجنة.. انظر إليه بعين البصيرة قبل عين البصر ثم اهتف.. كم هي الدنيا غرارة؟..

أما إذا أردت أن تعرف سعة الباب الرئيس.. أيا حبيباه.. تعرف سعة الباب الرئيس.. مجرد معرفة لأن بصرك لا يمكن له أن يستوعبه فقد ((ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة.. وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام))^(٢) فهذا أوسع الأبواب، وهو الباب الأعظم، وهو الباب الرئيس المتوسط لسائر الأبواب، وهو الذي ترى فيه نبيك ﷺ يوم القيامة يمسك بحلقته فيقعقعها حتى يفتح لأمته والأمم من بعدها.. وإذا كان ما بين عضادتيه أربعين عاماً.. أفتراه يمكن الإحاطة به.. أو إدراك سعته على الحقيقة..؟ تنعم بالنظر.. وانتظر الفوز الأعظم.

وهناك ترى من سعة باب من أبواب الجنة سبعين ألفاً أو سبعمائة ألف.. تراهم جميعاً متماسكين.. متماسكين أخذ بعضهم ببعض حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة.. ووجوههم على ضوء القمر ليلة البدر^(٣).

هذا هو الباب الأعظم.. فماذا ستقول إلا أن تدمع العين، ويحن الفؤاد، ويخفق القلب، وتهتف بلسانك بلهجة مضطربة آملية: اللهم إنا نسألك الجنة.. رب أسألك الجنة.. رب فبرحمتك وبكل اسم هو لك أسألك الفردوس الأعلى..

(١) انظر: فيض القدير ٥/ ٤٣٤.

(٢) مسلم ٤/ ٢٢٧٨.

(٣) البخاري ٥/ ٢٣٩٦.

يا صاحب القلب المنيب وأنت تقف على مشارف الأبواب: إنها دار السلام:

على مشارف الأبواب لربما تراءى له هناك على الباب الذي يتجه موكبه نحوه.. لربما تراءى له شارة على الباب قد كتب عليها: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [يونس: ٢٥] وتتابع على صاحب القلب المنيب الذكريات تترى.. تجيء سراعاً متتابعةً.. وتلبث في الذهن ملياً متنازعة متصارعةً.. كل موقفٍ منها يفرض نفسه من عظم البشر والبشرى والبشائر..

أيا حبيباه.. في دنياك: كم دعوت ربك العظيم: اهدنا الصراط المستقيم.. فهذا هو ذا جزاؤك.. جزاء كريم.. تُهدى به بإيمانك إلى جنات النعيم.

أيا حبيباه: كم رجوت العليّ العلام.. ليوصلك إلى دار السلام.. حباً وشوقاً بصلاةٍ وصيام.. هاهي دار السلام.. تفتح أبوابها للبررة الكرام، وكنت أيها الهمام.. كنت.. يا لدموع الفرح المسفوحة.. من الذين سيقوا إليها تزفهم الملائكة بسلام.

أيا حبيباه: هاهي دار السلام.. وأنتم إليها تنظرون.. دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه.. هذه هي التي كنتم إيها تنشدون.. إنها دار الله واسمه سبحانه وتعالى السلام.. سلمها وسلم أهلها من كل ما يحذرون.. تحيتم فيها سلام أيها المتقون.. الملائكة.. يدخلون عليكم فيها من كل باب سلام عليكم بما صيرتم.. يا من بالجنة كنتم متيمون..

العلي العظيم يهديكم من لدنة سلاماً.. إنه {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ} [يس: ٥٨].. يرتفع هنالك الفائزون.. {هُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١٢٧]..

إنها الجنة: "فواعجباً لها كيف نام طالبها؟ وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها؟ وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها؟ وكيف قرّر للمشتاق القرار دون معانقة أبكارها

وحورها؟ وكيف قرت دونها أعين المشتاقين؟ وكيف صبرت عنها أنفس الموقنين؟ وكيف صدف عنها قلوب أكثر العالمين؟ وبأي شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين" (١) ..

أيها الخاطب المؤمل فانظر وصفَ عُرسٍ إلى النعيم المقيم
لكأن القلوب تصغي ببشرٍ لسلامٍ من قول ربِّ رحيم (٢)

اشفع لنا يا رسول الله لندخل الجنة.. كم جعل الله لك من كرامةٍ على البشر في الدنيا والأخرى يا سيدي يا رسول الله:

وعند أبواب الجنة ترى الله - عزَّ جاره - يُكْرِمُ نبيه ﷺ تكريماً بعد تكريم.. فقد جعلهم يحتاجونه لفصل القضاء.. هاهم يحتاجونه ليدخلهم الجنة.. ويستفتحها لهم.. كأنهم يقون خارجها لم يؤذن لهم بدخولها.. ورؤي الحبيب المخبت صاحب القلب المنيب ضمن أمة النبي ﷺ العظيمة يوم القيامة في عرصاتها، فكانت أعظم الأمم، ونبينا أعظم الأنبياء أتباعاً مصداقاً لقول رسوله: ((أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً، [وأنا أول من يقرع باب الجنة]) (٣).

ثم يشفع لهم النبي ﷺ في دخول الجنة فينسب المصطفون الأخيار من عباد الله الموحدين إلى طريق جنة ربهم.. يتقدمهم في المشهد البهيج النبي ﷺ حيث يأخذ بحلقة باب الجنة فيقعقعها.. عندها تنادي الخزنة: من هذا؟.. فيجيب:

- مُجَدِّدٌ.. بتواضعٍ يقول ذلك نفسي له الفداء ﷺ.

فيهللون له مرحبين، ويقومون له مكرمين، ويبينون كرامته على الملأ أجمعين فيقولون:

- مرحباً بمحمد.. بك أمرت.. ألا أفتح لأحدٍ قبلك، [ولا أقوم لأحدٍ بعدك]..

(١) حادي الأرواح ص ٥.

(٢) لشاعرنا المبدع: عبد الرحمن العديني.

(٣) مسلم ١/ ١٨٨.

((يفتخون للنبي ﷺ ويرحبون فيقولون: مرحباً))^(١).

وهكذا فُتِّحَتْ أبوابها.. ولكننا سنترك تفاصيل هذا العرض الرائع الذي صار حلم الأخيار، ورؤيا الأبرار.. لنسأب مع صاحبنا في كراماته ونعيمه.

يا حبيب الجنة: الجنة تطالب بك.. وتشتاق إليك:

كم مرة كنت تطلب الجنة في يومك فتفهفو الجنة إليك وتشتاق.. وتقول: رب إن عبدك فلانا يسألك إياي.. اللهم فأدخله إياي.. وتقول ملحةً في الطلب: اللهم أدخله الجنة.. اللهم أسكنه إياي^(٢).. إنها الجنة لكأنها تناديك مشتاقاً، وترغب فيك محبةً ميممةً فقالت: يا رب قد طابت ثماري، واطردت أنهارى، واشتقت إلى أوليائي.. فعجل إلى بأهلي.. تطلبك وتطالب بك.. تجذبك إليها جذباً وترجوك حباً، وتذكرك شوقاً وهياماً وتيمماً.. فقط حَقِّقِ الشرط لتكون لها ولياً محباً..

إنها الجنة:

تسأل ربها أهلها وتطلبهم وتحبهم.. وأنتم أيا أهلها تسألونه إياها.. وترغبون فيها.. والملائكة تسأها للمصطفين الأخيار من عباده.. تسأها لكم.. والرسل يسألون الجليل المتعال إياها لهم ولأتباعهم.. إنها الجنة اجتمعت خير الخليقة على طلبها.. أكرم بها وأنعم.

انظر هناك: إنها أبواب الجنة المفتوحة:

.. انطلق الموكب المبارك { حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُهَا } [الزمر: ٧٣] سعدوا.. وطابوا وسُرُّوا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيها من النعيم.. وإذا كان النعيم لا يوصف.. فسروهم لا يمكن أن يُقَدَّرَ.. قد كانوا يرونها وهم في موقف العرض.. والبيان القرآني يصف حالهم

(١) الترمذي ٥ / ٣٠٨.

(٢) انظر: الترمذي ٤ / ٦٩٩، ابن حبان ٣ / ٢٩٣.

وحالها وصفاً دقيقاً حينها فيقول ربي -عزَّ جاره- { وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ } [ق: ٣١].. فالآن قد جاءوها فماذا سيعتريهم من البشرِ والسرورِ والسعادة.. الجواب معروفٌ، ولذا حُذِفَ الجواب من الآية.. أي فلا تسل عن مقدار سعادتهم وأنسهم وبشرهم.. لا تسل عن غبطتهم.. لا تسل عن سرورهم..

هناك جاءوا والأبواب قد فتحت لهم استقبلاً وحفاوةً.. فتحت قبل أن يصلوا لكرامتهم على الله تعالى.. فتحت أبوابها لهم كما تفتح الخدم باب المنزل للضيف عند قدميه، وتقف له منتظرة حضوره.. فرحاً واستبشاراً لقدمه..

أيها القوم المشتاقون: ها هنا.. ها هنا تصلون { جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ } [ص: ٥٠] وعندها تسمعون منادي الحق ينادي في زمركم وجمعكم: { تِلْكَ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [الأعراف: ٤٣] يقال لكم ذلك قبل الدخول حيث عاينتموها عن بعد^(١).. فيزيدكم هذا النداء سروراً وابتهاجاً.

أيُّ بشرٍ وقد أتوها فقامتُ
باشتياقٍ تُفتِّحُ الأبوابا
"بين جنبيّ للوصول حينئذٍ
فهلُمُّوا فقد أطلتُ ارتقاباً"^(٢)

أيها المفلحون: أن أوان تكملة التهيئة الجسدية لدخول الجنة:

وقف موكب المتقين عند بابٍ من أبواب الجنة.. هناك رأوا منظرًا لا يقوم له بصرٌ في حسنه ورونقه.. وصاحب القلب المنيب يترقبه الآن وينظر إليه..
لقد رأى ((عنده شجرةٌ تخرج من تحت ساقها عينان تجريان))^(١).. إن صفاء الماء وعذوبته يجذب الناظر إليه جذباً.. أُلْقِيَ في فؤاد صاحب القلب المنيب مع أصحابه أن يشرب من

(١) تفسير القرطبي ٧/ ٢٠٨.

(٢) لشاعرنا المبدع: عبد الرحمن العديني.

العين الأولى.. هده الله لذلك دون أن يؤمر بأمرٍ مباشرٍ.. صفاء الماء وعدوبته وشدة نقائه يدعو بنفسه إلى الشرب منه دون حاجةٍ إلى ترجمان.. عندها انطلق الركب المظفر نحو العين الأولى.. واشهد المنظر الآن معي:

((فشربوا منها فأذهبت ما في بطونهم من أذىً وقذىً وبأسٍ)).. وهكذا طهروا أجسادهم من داخلها.. من الأوضار المادية والمعنوية.. فها هنا تنعموا إذ شربوا.. {وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا} [الإنسان: ٢١] طهوراً "طهرهم من الأوضار التي في صدورهم" (٢)، وسل بها سخيمة قلوبهم.. فعادت بيضاء نقيّة لا حسد فيها ولا تباغض.

تالله! ما أشد شوق المحبين لذلك.. قبل قليل.. لربما كنت تعاني الخوف من النار وسمومها، والصراط وتغيظ جهنم تحته.. وعطشاً طويلاً.. فها أنت ذا تجد لذة الماء بين جوانحك وفي جسدك.. تذكر ذلك واهتف خاشعاً منيباً: اللهم فاجعني في الأسبقين.. يا أرحم الراحمين.. ثم هُدُوا إلى أن يغتسلوا من العين الثانية.. وهكذا ((عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها.. فجرت عليهم نضرة النعيم.. فلن تغير أبشارهم أبداً، ولن تشعث رؤوسهم أبداً، كأنما دهنوا بالدهان))..

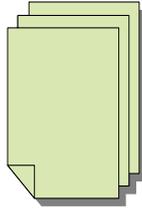
أي نعيمٍ عظيمٍ يحدث لك يا صاحب القلب المنيب وأنت لم تدخل الجنة بعد: عند القنطرة تُنقى روحك، تُطَهَّرُ نَفْسُكَ.. فلا يعود الغل يداخلها.. وهنا تُطَهَّرُ أعضاء جسدك الداخلية، ثم يُطَهَّرُ جسدك من الخارج.. فتجري عليك نضرة النعيم.. ها هم أولاء البرة الآن {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ} [المطففين: ٢٤]

(١) حديث الشجرة وتلقي الولدان إلى آخره خرجه الضياء في الأحاديث المختارة ٢/ ١٦١، كما أخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٣٤، وابن الجعد في مسنده ص ٣٧٤، وجود ابن حجر إسناده في المطالب العالية ٤/ ٤٠٠، وهو مبثوثٌ هنا في عدة مقاطع.
(٢) تفسير القرطبي ٧/ ٢٠٨.

والآن قد تهيأوا لأن يدخلوا الجنة.. فأجسادهم وأرواحهم قد وصلت إلى المستوى الذي يمكنهم من التمتع بنعيمها..

يا شجرة الجنة! طالما سببت قلوب المحبين..ها قد اجتمع الشمل بعد عناء الفراق..ها قد أغدقت علينا مغتسلاً بارداً وشراباً طهوراً..يا دوحة الجنة الباسقة: قصة الحب لست عنها بمنأى..كيف يسلو عن الغرام الحبيب..

ورأوا منظرًا من الحُسنِ أبهى	ملاً العينَ والقلوبَ حبوراً
دوحةٌ تحت ساقها فاض ماءً	في نقاءٍ يَشعُّ طهراً ونوراً
جذب الماءَ خطوهم وسباهم	فانشنوا يشربون عذباً نَميراً
أذهب الماءُ كلَّ وضرٍ وبأسٍ	وأذَى كان في الحشا مستوراً
فاستقاموا وللصدور بهاءً	وسُقُوا عندها شراباً طهوراً
ثم راحوا إلى النزول بعينٍ	غمسوا جسمهم فعادوا بدوراً
وجرث نضرة النعيم عليهم	ليس للشعث أن يحل الدهورا
ومنادي السماء نادى بلطفٍ	"أبشروا كان سعيكم مشكوراً" ^(١)



(١) لشاعرنا المبدع عبد الرحمن العديني.

المشهد الثالث
عند أبواب دار السعادة:
الاستقبال الحافل والمفاجآت الممتعة

تحية خزنة الجنة عند الدخول: لقد طبتم ظاهراً وباطناً.. الآن تستطيعون الدخول:
ثم يواصل الموكب المهيب تقدمه إلى هذا الباب من أبواب الجنة ف ((تلقتهم الملائكة على أبواب الجنة)).. إنه التلقي هل تفهم منه شيئاً غير السلام والعناق.. كقادمٍ من السفر البعيد المضني لا بد من العناق حتى يكون التلاق.. حبٌ فاق، هذا لقاء الأشواق.. وتأملهم وقد تلقتهم الملائكة مهنيين حتى ((انتهوا إلى خزنة الجنة)) فأعاد عليهم خزنة الجنة التحية السابقة التي قدموها لهم عند قنطرة المظالم البينية.. أعادوها عليهم حباً وإجلالاً وإشادةً ووداً.. فقالوا: { سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ } [الزمر: ٧٣].

وبمجرد أنهم وصلوا عتبة باب الجنة ترفع لهم خزنة الجنة شعارات الاستقبال الفخمة المطمئنة، وتسمعهم ما هو أجمل من الأهازيج المطربة، فتقول لهم: { سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ } [الزمر: ٧٣]..

أيها المتقون: سلامٌ عليكم "أمنةٌ من الله لكم أن ينالكم بعد مكروهه أو أذى" (١).. فاطمنوا لن تروا كرباً بعد الآن.. قَرُّوا عيناً بذلك.. ذهبت أهوال القيامة، وعرضاتها.. سلامٌ عليكم الآن.. مستقرٌّ لكم، ثابتٌ في حياتكم المستقبلية.. فاطمنوا فلن تؤاخذوا بشيءٍ من تفريطٍ أو تقصيرٍ أو عصيانٍ.. ولو حدث منكم في سالف الزمان...

(١) تفسير الطبري ٢٤ / ٣٥.

يا أهل الجنة: طبتم في الدنيا بطاعة الله.. وتأهلتم بطيبكم لتدخلوا جنة الله.. فهي طيبة لا يدخلها إلا الطيبون، وإن ربحا طيب لا يقبل إلا طيباً.

يا أهل الجنة: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم فطاب الآن جزاؤكم ومثواكم^(١).
تكمل الملائكة تحيتها فتقول: {فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} [الزمر: ٧٣] تنعموا فيها، واطمئنوا،
فإنكم ماكنون فيها أبداً لا تبغون عنها حولا، ولا ينبغي لكم أن تتحولوا عنها.

ونشيد الملاك فيها سلاماً طبتمو فادخلوا وطابت مآبا

وكأنك يا صاحب القلب المنيب تنادي:

"يا هناء الدخول أسعدت روجي راق عيشي بقرب ربي وطابا"^(٢)

ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون:

ثم تتابعت مبشرات نداء الحق تصطفي العبد المنيب وأصحابه بأجمل بشارَةٍ يسمعها مذ
عرف الوجود، ودان للمعبود: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ} [الزخرف: ٧٠]..

أيها القانت: ادخل الجنة.. ولأنها بشرى فقد رأيت على نفسك تغير لون بشرتك بما
داخلك من السرور والحبور^(٣)، واضطراب جسدك حتى يكاد يرقص طرباً وفرحاً.

وربما تساءلت بلهفةٍ وقد أفقت من فرحة البشرية تساؤل الوفاء:.. فزوجي.. أين هي؟ وماذا
بشأنها؟ إنها قرينتي في الدنيا فما حالها؟ فيسعفك الجواب، وتتلذذ وأنت ترى الله قد أجابك
على الفور: {أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ} [الزخرف: ٧٠].. لست وحدك بل مع زوجك
المسلمة البتول الودود التي كانت لك نعم العون على دينك ودنياك.. أنت وهي تكرمون في
جنات النعيم..

(١) تفسير الطبري ٢٤ / ٣٥.

(٢) لشاعرنا المبدع عبد الرحمن العديني.

(٣) انظر: تفسير القرطبي ١ / ٢٣٨.

وربما تساءلت عندها بلهفةٍ ووفاءٍ: فقريبي من المؤمنين، وحيبي من الصحب المختبين، وصديقي من الملائة القانتين؟ أين هو؟ وكيف التلذذ بالعيش دونه؟ فسمعت ما أثلج صدر الحب: {أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ} [الزخرف: ٧٠] تكرمون أنتم وأزواجكم من نساءكم وأصدقائكم من المؤمنين^(١).

أنتم وأزواجكم وقرناؤكم في جنةٍ عرضها السموات والأرضين تحبرون.. تحبرون فتكرمون في المنزلة، والمنزلة هي الجاه، وتحبرون فتفرحون وتغتبطون.. والفرح في القلب، وتحبرون فتتعممون.. والنعيم في البدن، وتحبرون فتسرون.. والسرور في العين، وتحبرون فتعجبون.. عندما ترون ما يستطرف.. مما لبديع صنعه لا يوصف، وتحبرون فتتلذذون بسماع أصوات كالهديل.. وعذب الكلام والغناء الجميل^(٢). ومنادي الحق ينادي عليكم معاشر المتنعمين، يرف إليكم بشرى الديمومة في ديار الخالدين: {وَتُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ٤٣]. فماذا تريد بعد اجتماع النعيم من بين يديك ومن خلفك.. فعجباً للجنة كيف ينام طالها.. كيف يهيم بغيرها صاحبها.. لمثل هذا يهيم القلب ويشتاق.. وبه تتفتح للمؤمن في الطاعة الآفاق.

أول زمرةٍ وثاني زمرةٍ يدخلون الجنة منكم.. كيف هؤلاء الأمراء المحظوظون؟:
تأملهم الآن.. عاينهم بقلبك وفؤادك، وارقبهم بطرفك للتعرف عليهم.. عسى أن تظفر بالدخول معهم.. فإن ((أول زمرةٍ يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر.. والذين يلونهم

(١) أزواجكم فيها تفسيران: نساؤكم، وقرناؤكم فجمعنا بين التفسيرين.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١٦ / ١١١.

على ضوء أشد كوكبٍ دريٍّ في السماء إضاءةً.. لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يتمخطون))^(١).

هذا كان وصف أجسادهم، وقوة جمالهم، وغناهم عن اللجوء إلى أوضاع الدنيا.. لقد أغراك هذا وجذبك.. فاسمع إلى النبي ﷺ وهو يصف أدوات جمالهم يقول: ((أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة)).. أما شدك هذا وجذبك.. فاسمع إليه وهو يصف أزواجهم.. يقول: ((وأزواجهم الحور العين)).. وقد بلغ هذا منك مبلغاً في الشوق.. فاسمع إليه وهو يصف أخلاقهم فيقول: ((أخلاقهم على خلق رجلٍ واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء))، وقد رأيت ثلثاً من السابقين.. وأنت ترى المشهد مجدداً لتقارن بينهم وبين الثلة التي تليهم.. وعلى الرغم من نعيم كلٍ إلا أنك ستتهتف معي حقاً: اللهم برحمتك فاجعلني من السابقين، اللهم برحمتك فاجعلني من المقربين، اللهم برحمتك فاجعلني من الأولين.

أمام أبواب الجنة نداء رخيٍّ لك أيها صاحب القلب المنيب:

وهناك يتكرر لك -أي صاحب القلب المنيب- النداء الرخي مجدداً لكن بلذته الغامرة، وصوته العذب الجميل الذي لا يمكن فيه التشبيه ولا التمثيل: { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّاتِي } [الفجر: ٢٧ - ٣٠]..

في عطفٍ وقربٍ: يا أيُّها النفس المطمئنة..

في روحانيةٍ وتكريمٍ: يا أيُّها النفس المطمئنة..

في ثناءٍ وتطمينٍ: يا أيُّها النفس المطمئنة..

(١) البخاري ٣/ ١١٨٥، والزيادة عند مسلم ٤/ ٢١٧٩.

يا صاحب القلب المنيب! يا صاحب النفس المطمئنة! المطمئنة إلى رها.. المطمئنة إلى طريقها.. المطمئنة إلى قدر الله.. المطمئنة في السراء والضراء، وفي البسط والقبض، وفي المنع والعطاء.. المطمئنة فلا ترتاب.. والمطمئنة فلا تنحرف.. والمطمئنة فلا تتلجلج في الطريق.. والمطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول الرعب..

{ اَرْجِعِي إِلَى رَبِّكَ } [الفجر: ٢٨] ارجعي إلى مصدرك بعد غربة الأرض وفرقة المهدي..
 { اَرْجِعِي إِلَى رَبِّكَ } [الفجر: ٢٨] بما بينك وبينه من صلةٍ ومعرفةٍ ونسبةٍ.. { رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً } [الفجر: ٢٨].. بهذه النداءة التي تفيض على الجو كله بالتعاطف والرضا.. { فَادْخُلِي فِي عِبَادِي } [الفجر: ٢٩] المقربين المختارين لينالوا هذه القرى.. { وَادْخُلِي جَنَّتِي } [الفجر: ٣٠].. في كنفِي ورحمتي..

أيتها لنفس المطمئنة: انظري.. ألا إنها الجنة بأنفاسها الرضية الندية^(١).

مفاجأة ممتعة: استقبال حافل من الولدان المخلدن:

أيها المخبت المتقي: وعند أبواب الجنة كان ينتظرك ولدان صغار { إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ } [الإنسان: ١٩] من جاهم، وحسنهم، وبهائمهم، ونظافتهم، وحسن ملابسهم { لَوْلُؤًا مَثُورًا } [الإنسان: ١٩].. أو كأنهم لرقتهم، وصفائهم، وحسن أجسادهم، ونضارة وجوههم { لَوْلُؤًا مَكْنُونٌ } [الطور: ٢٤] مستور من الشمس فيزداد حلاوةً وجمالاً..

وإذا كان الخادم كاللؤلؤ فكيف المخدم؟ انظر في ذلك ثم قل معي: اللهم إني أسالك الفردوس الأعلى.

كان هؤلاء اللآلئ المتناثرة ينتظرونك.. وما إن رأوك حتى انطلقوا إليك.. هاهم يتسابقون.. يتلقونك والمخبطين الأبرار.. نعم ((تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما يطيف ولدان

(١) انظر: الضلال ص ٣٩٠٧.

أهل الدنيا بالحميم يقدم من غيبته)) للهفتهم بكم، وتشوقهم إليكم.. يطوفون بك يسلمون عليك.. يقبلونك.. يدورون حواليك.. يهتفون بعبارات الترحاب.. كما يفعل الولدان الصغار بأعز أصحابهم من الرجال الذين يحملون معهم الهدايا لهم في كل مرة يعودون من أسفارهم.. أجاج شوقك أكثر، وتأمل في مشهد الفرحه العجيب الذي أنت نجمه.. وهم يطوفون بك، وتتكلم أفواههم بكل عبارة خير، وتحيه بشر.. يبادرونك بالتبشير ف ((يقولون: أبشر! بما أعد الله من الكرامة لك.. [أبشّر! قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا.. قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا]) يا حبيب: يعددون لك.. يفتحون شهيتك بأفواههم العذبة الصغيرة.. وانظر إلى البشرى كيف تترى.. أي حبيباه خذ ذلك هنيئاً مريئاً..

حركة مفاجئة: ولد ذكي من الولدان يسبقك ليخبر أهلك:

وفي غمرة الفرحه ينطلق غلامٌ ذكيٌ منهم.. ينسل من بينهم إلى ملكك الكبير ليبشر أهل مملكتك، ويفوز ببشارة وصولك من أهلك الذين ينتظرونك.. ويخص نساءك بالإخبار.. نعم تأمل المشهد وادع لنفسك بكل خير: ((ينطلق غلامٌ من أهل أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين)) يدخل عليها وهو يتحاذق، والبشرُ يظهر على محياه.. فيقول - بلهجتنا: "بيدو والله أعلم أنه عندي خبرٌ سار لكم معاشر أهل البيت"، ويتحاذق ويُسَرِّبُ الخبر بأسلوبه الفرح، وابتسامته العذبة.. تصور جوهرةً أمامك تبتسم ثم تقول: ((قد جاء فلانٌ. باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا)) لكأنك تراه وهو يهمهم متحاذقاً.. كأنه يقول: احم.. احم.. هل تعرفن من جاء.. فتأخذ منهن البشرى كل مأخذٍ قبل أن ينطق.. فهن ينتظرن مذ خلقن شخصاً واحداً.. ولا تكون البشرى إلا به.. فهل تتأمل عيني الغلام عندها وحركته متحاذقاً، وعيني أهلك وهن لا يدرين ماذا يقلن فرحاً واستبشاراً.. وباسمك الذي كنت تسمى به في الدنيا يكشف عن مفاجأته لزوجك من الحور العين.. عندها - ومن شدة

فرحها- تقول له - كأن قولها جاء دون وعي لشدة الفرح-: ((أنت رأيته؟)) أمعقول؟.. بعد كل هذا الانتظار للراحة الأبدية.. جاء.. بم تتغنى زوجك من الحور العين عندها.. بم تترنم.. كم انتظرتك وأنت في الدنيا حتى أنها كانت تدافع عنك إذا آذتك زوجك من نساء الدنيا: ((فتقول: لم تؤذينه؟ قاتلك الله! يوشك أن يفارقك ويأتي إلينا)).. تدعو على زوجك من نساء الدنيا حباً لك، وغيره عليك أن تُغضب أو تُؤذى.. وهي الآن تسمع بشرى وصولك.. ومن تلهفها عليك.. تسأل سؤال فرح وتعليل للنفس لا سؤال تأكيد واستيقان.. فإن ولدان أهل الجنة لا يكذبون.. تسأله متلهفة: ((أنت رأيته؟ فيقول: أنا رأيته هو ذا بأثري)).. والسؤال للتعليل فقط:

نحن أدرى وقد وصلنا لنجدٍ أقصيرُ طريقنا أم طويلُ

وكثيرُ من السؤال اشتياقٌ وكثيرُ من رده تعليلُ

إنه سؤال اشتياق القلب، سؤال فرح للفؤاد.. لسماع جوابٍ يعلل النفس، ويُطرب الروح.. وقد كان.. فقد اهتزت روحها، وخفق قلبها.. لدرجة أنه ((يستخف إحداهن الفرح حتى تقوم على أسكفة بابها)) تخرج فرحةً.. مرحةً.. طريةً.. ولعةً.. حتى تقف على أسكفة الباب.. وهنا المفارقة المفرحة.. لا تستطيع الخروج أكثر لأنها وصاحباتها {حُورٌ مقصُوراتٌ في الخيامِ} [الرحمن: ٧٢].. مقصورات ليس عندهن حبٌ لأن يطلعن أبعد من بيوتهن.. فمن فرحها خرجت، ومن نقائها وقفت.. لم تتعد عتبة الباب بانتظارك.. أيها الضيف القادم من أعماق الدنيا وكدحها إلى روحٍ وريحان، وجنات ورضوان..

انظر الآن إلى هينتك وأنت تدخل الجنة:

وبعد الاستقبال الحافل من الخزنة.. ثم من الولدان المخلدين لموكبك الرحيب.. تبدأ وصحبك الأخياري كل في موكبه.. فتدخلون.. ولكن شاهد هينتك.. منظرِك.. مقدار حسنك ربما على

المرايا المبتوثة هنا أو هناك.. أو على صفحة وجوه أصحابك.. انظروا إلى بعضكم بعد أن جرت عليكم نضرة النعيم فإنكم تدخلون ((الجنة جرداً مرداً بيضاً جعاداً مكحلين.. أبناء ثلاثٍ وثلاثين.. وهم على خلق آدم: ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع))^(١).. جرداً من شعر الجسد.. مُرداً من شعر الوجه.. بيضاً في غير برص.. جعاداً في شعور رأسكم فتكون بين الاسترسال الشديد والعودة الشديدة.. مكحلين.. تظهر من عيونكم نور السواد الشديد الذي يكسبها لوناً طالما تمناه المتمنون..

وإذا نظر كلٌّ منكم لصاحبه.. أو نظر لنفسه في صفحة صاحبه.. فكم سيبقى نظره يستطيل في النظر لصاحبه.. كم؟ هل يعجب من الحسن الذي لا يمكن أن يوصف.. أم من شدة الصفاء الذي يُذهل العقل.. أم من التناسب بين الطول والعرض.. اللهم بلغنا تلك المنازل على خير طاعةٍ تحب، واجعل ختامنا خير ختامٍ يا أرحم الراحمين..

نداء الله الجليل المتعال لك وللركب المفلحين وأنتم تدخلون الجنة:

وهناك بعيد الدخول أو قبيله يحييكم الكبير المتعال جلّ عن الشبيه والمثال: { ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ } [الحجر: ٤٦]..

يا أيها المفلحون.. وقد ساروا نحو مراتع الرضوان: ادخلوا جنتي بسلامةٍ من كل داءٍ وآفةٍ، مسلّمٌ عليكم مني ومن ملائكتي بخير تحيةٍ لا سأم ولا مخافة.. ادخلوها آمنين من الموت والعذاب والعزل والزوال.. آمنين من كل خوف وفزعٍ أو أدنى اختلال... ويكرّرُ النداء: كتكرير أهازيج الأفراح، وزغاريد الأعراس، وتباشير الجنود.. يكرر وأنتم تساقون إلى الرحمن وإلى جنته وفدأ.. { ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ } [ق: ٣٤]. تابع مسير الموكب.. إنه موكب الزفاف الحق.. موكب زفافك حيث كعبة الحسن ومهجة الروح:

(١) الضياء في المختارة ٧/ ٢٦٦، الترمذي ٤/ ٦٨٢، وقال: حسن غريب.

يا من يطوف بكعبة الحسن التي خفت بذاك الحجر والأركان
فيظل بالجمرات يرمي قلبه هذي مناسكه بكل زمان

لا تحتاج إلى من يدلك على مملكتك فأنت تعرف طريقك إليها:

ها نحن نتابع موكب زمرة من زمرة أهل الجنة وقد اجتازت عتبات الباب.. تنفصل مواكب أهل الجنة الداخلين في هذه الزمرة بعضها عن بعض.. إذ يتقدم كل واحد مع موكبه الخاص من الملائكة والخدم نحو مملكته من قصور وبساتين وأحجار.. وعندما يتقدمون داخلين {يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ} [يونس: ٩]؛ إذ يقذف الله في قلوبهم مكان مملكة كل واحد في الجنة بالتحديد.. نعم! يهديهم الله إلى مساكنهم بإيمانهم.. فالله -عزَّ جاره- كما يقول أبو عبيدة: بينما لهم حتى عرفوها من غير استدلالٍ... فانظر إليهم ينطلق كل واحد في هذه الجنان الرحبية نحو مملكته في موكبه المهيب..

أيها المخبت المنيب: انظر انطلاق كل واحد منهم.. واحلف عند ذلك بما حلف به النبي ﷺ: ((فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا)).. أجل أوليس ربي يقول عن المؤمنين: {سَيَهْدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَهْلِهِمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} [محمد: ٥، ٦]..

عَرَفَ لهم مواضعها وأماكنها حتى قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا لا يستدلون عليها أحداً.. ووقفت أخيراً على باب مملكتك الرحبية.. فرأيتَ بابها البهي العظيم يفتح.. وكانت المفاجأة:

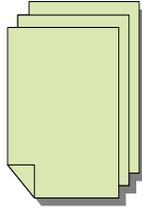
أبواب الجنة التي تغلق وتفتح تلقائياً:

والآن وقد أصبحت في دار المقامة، في جنات عدن.. وأردت أن تدلف إلى قصورك سترها لأهلها {مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ} [ص: ٥٠].. تصور هذا إنما قال: مفتحة.. ولم يقل مفتوحة

لأنها تفتح لهم بالأمر أو بمجرد التقدم لا بالمس.. حتى قال الحسن: تُكَلِّم: انفتحي فتنفتح،
انغلقي فتنغلق.. فأبوابها تفتح لهم بغير فتح سكانها إياها بمعاناةٍ بيدي ولا جارحةٍ.. ولكن
بمجرد الأمر أو نحوه..^(١) هكذا كانت مسألة الفتح الآلي للأبواب معلناً عنها في القرآن
الكريم قبل أن تصل إليها البشرية.. ولكن مع الفارق العظيم.. إذ ما نراه من الفتح الآلي اليوم
مجرد إشارةٍ ولا يمثل كامل الحقيقة إلى ما سيكون عليه الحال في ذلك اليوم القادم.

ورأيت من النعيم الذي تتلذذون به أنكم إذا دخلتم الجنة فإنها لا تغلق أبوابها عليكم بل تبقى
مفتحةً إشارةً إلى تصرفكم وذهابكم وإيابكم، ودخول الملائكة عليكم من كل بابٍ بالتحف
والألطاف والتحايا من رهم.. وهي دار الأمن والسلام فلا تحتاجون فيها إلى غلق الأبواب
كما كنتم في الدنيا إلا إن الفتح والإغلاق للتلذذ والتنعم.

أيا خاطب الجنة: ها هنا راحة الأجساد تجنيها بلذة العبادة.. ها هنا تجد سعادة السيادة..
هتف بك الحكماء: لا تكفّ دمعك حتى ترى في المعاد ربعك.. ناداك العقلاء: لا تُكجّل
عينك بنوم.. حتى ترى حالك بعد اليوم.. قرر لك الخبراء: لا تبت وأنت مسرور.. حتى
تعلم عاقبة الأمور.



(١) انظر: تفسير الطبري ٢٣ / ١٧٣.

المشهد الرابع أخيراً.. اتكأة الراحة الأبدية

أول نظرةٍ على قصرٍ من قصور مملكتك الرحبية:

وأخيراً وصلت إلى مملكتك.. دخلتها فبادرت إلى الاطمئنان على أساسات قصور هذه المملكة، وكيف بُيِّتت.. أول نظرةٍ منك كانت إلى القصور.. الله! كما كان يفعل أهل الدنيا في الدنيا.. يطمئنون أول ما يطمئنون على أساس البناء.. ويصف النبي ﷺ هذه اللحظات المثيرة فيقول: ((فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنائه فإذا جنبل اللؤلؤ.. فوقه صرح أخضر، وأصفر، وأحمر، ومن كل لون)).. الأساس مكون من الحجارة الصلدة القوية (الجنادل)، ولكنها حجارةٌ لا ككل الحجارة فهي حجارةٌ من جنبل اللؤلؤ مع زخرفةٍ بديعةٍ متناسقةٍ منتظمةٍ من الألوان الخضراء، والصفراء، والحمراء ومن كل الألوان.. أقرب ما كان يقرب إليك هذا الجمال البديع الذي لا يوصف منظر طيف الألوان وقد كسا السماء في تداخل بين السحب بعد يومٍ ماطر.. مجرد تقريب، وإلا فالجمال الذي اجتمع مع القوة في أساس البناء لا يوصف في الدنيا حتى تراه بعينك في الآخرة.. وهكذا اطمأن على أساس بناءٍ من بناءاته..

وبعد الاطمئنان على الأساس يرتفع نظره ليطمئن إلى السقف فهو واجهة القصر ومنبع زينته، ومكمن جماله.. ((ثم رفع رأسه فنظر إلى سقفه فإذا مثل البرق)) يتميز بلونٍ شديد اللمعان.. من جمال السقف وبريق لونه، وشدة صفائه كأنه البرق.. وبلغ من لمعانه وشدة بريقه وجماله أن الله يحفظ عين الإنسان منه ((فلولا أن الله قدره له لألم أن يذهب ببصره)).. وهو ما تحاول أن تصل إليه الأبراج في الدنيا..

في قصور الخلد طابت نظرةً في أساسٍ للبناء الأرفع
جندل اللؤلؤ شيدت فوقه أصرح من كل لونٍ أروع
رُفِعَ الطرفُ إلى سقْفِ علا فإذا السقف كبرقِ ألمع^(١)

نظرةً إلى بعض قصورك، وترتيب الغرف بداخلها:

وفي قصرٍ من قصورك البديعة رأيت عدة خيام.. قف لا تظننها خيمةً كخيام الدنيا، فإنها تختلف عنها شكلاً ومضموناً فإن ((الخيمة درةٌ مجوفةٌ طولها في السماء ستون ميلاً)).. وتطوف عليها لتجد ((في كل زاويةٍ منها.. أهلٌ لا يراهم الآخرون))^(٢).. فهي خيمةٌ "عظيمةٌ مجوفةٌ.. واسعة الجوف.. عرضها وطولها كل واحدٍ منهما ستون ميلاً.. في كل زاويةٍ من الزوايا الأربع من تلك الخيمة أهلٌ يطوف عليهم"^(٣). والغرف مبنية بناء حقيقاً على أجمل نسق.. فإن ربي عزَّ جاره يقول: {لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ} [الزمر: ٢٠] فأخبر أنها غرفٌ فوق غرفٍ.. وأنها مبنيةٌ بناءً حقيقياً لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل.. وأنه ليس هناك بناءً.. بل تتصور النفوس غرفاً مبنيةً كالعلالي بعضها فوق بعض حتى كأنها يُنظر إليها عياناً.. وتظهر الغرف كأنها مستقلة وليست بناءً لأدوار يرى مجموعها ولا ترى أفرادها.. وكان لهم منازل مرتفعة.. وفوقها منازل أرفع منها.. وفي هذا إشعارٌ بسعةٍ عظيمةٍ من المساحة التي للقصور...

(١) لحادينا على طريق الجنة: العديني.

(٢) انظر: البخاري ٣/ ١١٨.

(٣) انظر: تحفة الأحوذى ٧/ ١٩٨.

أيها المشتاق الوهّان: إنّها غرف الجنان: ((يرى ظهورها من بطونها)) ويرى ((بطونها من ظهورها)). وارقب نموذجاً مصغراً لها في البيوت الزجاجية التي يتنافس عليها أهل الدنيا. ذاك في الدنيا فكيف بما هيا الله لعباده المصطفين في العقبى؟.

التفت صاحب القلب المنيب لينظر في الجنة وأرضها مما هي، والبناء وحجارته كيف تكون. فراعته الأمر إعجاباً؛ إذ الجنة وقصورها: ((لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك الأذفر-ملاطها: طينها الذي بين لبناتها المسك الذي اشتدت رائحته-، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت-حصاها الصغير اللؤلؤ والياقوت-، وتراهما الزعفران))^(١). .. وإنما كان تراهما من زعفران باعتبار اللون، وهو من مسكٍ باعتبار الرائحة.. وأرضها تشبه الدرّك وهو الخبز الصافي الذي يضرب لونه إلى صفرة مع لينها ونعومتها.. وهذا من أحسن شيء في التناسق.. فالبهجة والإشراق لون الزعفران.. والرائحة رائحة المسك^(٢).

ولنتابعه إلى الداخل.. فما إن متّع نظره بالخارج حتى دلف إلى الداخل.. ليشهد الأثاث الجاهز وليتمتع برؤية أهل الدار، وليستلذ بالنظر إلى أزواجه.. فلما دخل ((طأطأ رأسه فنظر إلى أزواجه)) يا قرة العين، ويا لذة النفس.. ولشوق النفوس بهنّ، وأنس الأرواح بدلهنّ وجمالهنّ، وهيجان القلوب بالسكنى معهنّ دوره في الوصف... فلنتركه الآن.. فذاك حديث لا يمرّ عليه مرّاً..

لقد بسملت ليلي غداة لقيتها فيا حبذا ذاك الحبيب المبسمل

ثم نظر إلى أثاث الدار فرأى الجمال والدلال.. والأثاث البديع المثال { وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَمَمَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَرَزَائِي مَبْنُوتَةٌ } [الغاشية: ١٤ - ١٦] اشهد المنظر البديع:

(١) الترمذي ٤/ ٦٧٢، ابن حبان ١٦/ ٣٩٦، وصححه الألباني والأرنؤوط، والميلاط: الطّين الذي يُجعل بين ساقَي البناء يُملطُ به الحائطُ أي يُخلط.

(٢) انظر: حادي الأرواح ص ٩٤.

نمارق هي وسائل مصفوفة في أمكنتها اللائقة..وعلى الأرض توجد الزرابي وهي البسط
المبثوثة المنتشرة في أرجاء البيت بجمالها، ونعومتها، وقوتها، ورقة ملمسها..
وفي أمكنتها اللائقة توجد الأكواب الموضوعة..
راقك ذلك، وشذك..وجذبك أيما جذبٍ..هناك انهالت عليك الذكريات..انهالت
الذكريات..

**يا صاحب القلب المنيب: للجنة تسكب العبرات.. وعند الاطمئنان بدخولها تنهال
الذكريات..ذكريات المسارعة إلى الخيرات:**

وأنت أمام الجنة المفتحة الأبواب..أو وأنت داخلها قد تخطيت الحجاب.. لربما انثالت هناك
الذكريات، وانسكبت العبرات..لكنها عبرات الفرح..وتذكرت النداء العلوي: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى
مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]
وسارعوا..بادروا وسابقوا إلى مغفرةٍ من ربكم تستر عليكم ذنوبكم من رحمته، وتغطي عليكم
سيئاتكم من عفوه..وتؤهلكم إلى جنةٍ عرضها السموات والأرضين..بجوار رب العالمين..والملا
الأعلى والذين أنعم الله عليهم من النبيين..لعلك هناك يا صاحب القلب المنيب: تذكرت
ذلك النداء..والآن:

هاهي الجنة تفتح لك أبوابها، وتحتضنك بجانها وجمالها، وتغمسك في نعيمها..
هاهي الجنة التي كنت تبادر لها في الدنيا مسارعاً.. إلى مغفرةٍ تؤدي إليها مبادراً وراتعاً..
كم سارعت وسابقت من أجل تأدية صلاةٍ في جماعةٍ ابتغاء المغفرة والجنة..وركعت مستكثرأ
من النافلة والسنة..تسألها ربَّ المنة.. فالآن قد أُعطيَت المغفرة ورتعت في الجنة..
كم سارعت وسابقت إلى تكبيرة الإحرام، والخشوع في القيام، ومكابدة الهواجر
بالصيام..ابتغاء المغفرة وجنة المقام.

كم سارعتَ وسابقتَ لأجل إكمال وردك القرآني.. الذي لا يتخلف يوماً واتجهت إليه بقلبٍ ربابي.. وأمام ناظريك المغفرة والجنة وجزاءً من خيراتٍ وعطايا دواني.

كم سارعتَ وسابقتَ لأجل حماية الثغور، والعمو عن زلِّ صدر من الناس في حَقِّك أو عما تراه من بعضهم من تقصير، وإعطاء الكثير في سبيل مغفرة العفو الغفور، وجنة الودود الشكور.

كم سارعتَ وسابقتَ خلف قُبلةٍ حبِّ في جباه الآباء، أو خلف مبادرةٍ تفرحهما.. تجعلهما بها من السعداء.. أو خفضت لهما جناح الذل من الرحمة فقبَّلت ركبهما السماء.. ونلت بذلك تاج الدعاء: ((رضي الله عنك يا ولدي وجعلك من الأصفياء)).. كل ذلك ابتغاء مغفرة رب السماء، وجنة الخلد ذات البهاء.

كم سارعتَ وسابقتَ إلى الصفح عن الآخرين، واحتمال الأذى من المؤمنين، والصلح بين المتباغضين، وكظم غيظ عن المخطئين.. ابتغاء مغفرة القوي المتين، وجنة عرضها السموات والأرضين.

كم سارعتَ وسابقتَ إلى العفو عن ظلمك، وسارعتَ إلى إعطاء من حرمك، وسارعتَ إلى صلة من قطعك.. ابتغاء مغفرةٍ تضع عنك وزرك، وجنةٍ ترفع لك ذكرك.

أيها المخبت المنيب: ما شأن الحب المنسكب الرحيب.. الذي صببته على هذا المكان من الجنة.. حتى سعت.. سعت إلى أن تضع قدمك فيه بعمل بلالي بركعتين تركعهما بعد كل وضوءٍ تتابع فيه بلال بن رباح الذي سمع النبي ﷺ خشخشة نعليه في الجنة.. فسأله عن سبب هذا التقدم الذي أحرزه في الجنة فقال بلال: يا رسول الله ما أذنت قط إلا وصليت

ركعتين وما أصابني حدث قط إلا توضأت عندها ورأيت أن الله عليّ ركعتين.. فصارت ركعتنا بلال وظهره ديدنك حباً لله ورغبةً في إحراز التقدم في جنته^(١).

لقد سارعت.. وسارعت.. وسارعت حتى وصلت.. فيها هي ذي الجنة وها أنت ذا، ومناذي الحق ينادي عليك وعلى الأبرار المتقين: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦] للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنى، ولا حسنى أعظم من الجنة وهي الآن لهم ينغمسون فيها..
فيا حبذا ذلك المقام.

أخيراً: إتكاءة الراحة الأبدية في جنة المأوى:

وبعد أن اطمأن على بساتينه ومملكته، وأثاث بيته، ولمس عياناً حوره ودوره وقصوره.. ورأى أن قد خلص من عذاب الله ومقته إلى رحمته وفضله، وقد كتبت له الجنة حقاً لا أمنيّةً ووهماً.. قلب نظره في تلك النعم، وأعاد النظر إلى تلك المنن ((ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين)) مراتٍ ومراتٍ لما يرى من حسنٍ فائق، ودررٍ مصونةٍ ((فنظر إلى تلك النعمة)).. ((عندها يتكى على أريكةٍ من أرائكه)) يتكى {عَلَىٰ سُورٍ مَّصْفُوفَةٍ} [الطور: ٢٠].. يتكى.. يا لذة تلك الاتكاءة.. يتكى وهو يقول: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَعَفُورٌ شَكُورٌ} [فاطر: ٣٤]..

ولما اكتملت اتكاءته وأخذ النفس العميق، والتنهد الطويل بالوصول إلى ما وصل إليه من نعمةٍ... شعر بأن مأواه قد تمّ بعد طول عناءٍ وضئٍ صبراً على دين الله وثباتاً على الحق المستقيم، وعملاً للصالحات في دار الابتلاء والتقويم.. ومناذي الحق ينادي: {أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٩].

(١) مسلم ٤/١٩٠٨.

أخيراً كانت جلسة الراحة.. أخيراً.. أخيراً يا جلسة السعادة.. أخيراً جلسة الفرح الدائم
والبشر.. والتفت يستذكر دنياه، وكيف نجاه الله وعافاه..

ثم أعلن ترتيله العذب الخالد: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا
اللَّهُ } [الأعراف: ٤٣].

اذكروا أيها المتقون: أعمالكم هي رحمة من الله لكم، وتفضل منه عليكم..
ألم يعدكم ربكم بذلك في الدنيا فقال لكم: { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ
فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا } [النساء: ١٧٥].. فيها هو ذا سبحانه قد
أدخلهم في رحمته، وزادهم من فضله.. وهداهم إليه صراطاً مستقيماً.. نعم! { ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ
اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا } [النساء: ٧٠].. اقرأ ذلك ثم اهتف أي أنيس الفؤاد: اللهم إني
أسألك من فضلك ورحمتك.

وعندما تزداد تأملاً في رحمة الرؤوف الرحيم تزداد حباً له: خلقتك ثم رزقتك، ثم هداك ثم
وقفك للعمل الصالح، ثم كافأك بالجنة.. كم يزداد حب الله في نفسك وأنت تفكر في
ذلك.. ارفع رأسك وكرر: اللهم اجعل حبك أحب إلي من الماء البارد على الظمأ.

كرر عليّ الذكر من أسمائه	واجلّ القلوب بنوره وضيائه
اسم به الكون استفاد ضيائه	في أرضه وفضائه وسمائه
لا يحصر الوصاف بعض صفاته	كلا ولا يدرون كنه ثنائه

ضيافة الرحمن الفورية:

فور أن يدخل الجنة جمع الفائزين يكرمهم الرحمن بألذ أكلٍ يُشتهى في الدنيا هو ((زيادة كبد النون))، وهو الحوت.. ثم يكون ((غداؤهم على أثرها.. أن ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها))، وأما ((شرايهم عليه فمن عين فيها تسمى سلسبيلا))^(١)..
وعندها ((ينادي منادٍ: تحيون فلا تموتون أبداً، وتقيمون فلا تطعون أبداً، وتصحون فلا تمرضون أبداً)).

لكم منازلكم وترثون منازل الكفار.. وتنادونهم: هل وجدتم ما أخبرناكم؟:

فإذا دخلتم الجنة رفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها فقبل لهم: هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله.. يا خيبة المتحسرين.. ثم يقال لكم معاشر أهل الجنة: فلترثوهم بما كنتم تعملون، فتقسم بين أهل الجنة منازلهم، ويهتف النداء الحق في أرجاء الجنة طمأنئةً وزيادةً في التنعيم: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الزخرف: ٧٢] هذه الجنة التي ورثتم منازلها بعملكم الذي استحققتم به فضل الله ورحمته..

أيها الفائز المتقي: هَبْنِي نفسك فقد دخلت في رحمة الله وفضله.. وتنعم فقد نلت الشرف الأسمى والمجد الأعلى..

لكم -أهل الجنة الفائزين- ميراثٌ آخر.. فإنه ((لا يموت رجلٌ مسلمٌ إلا أدخل الله مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً))^(٢).. سبحانه ربي وتعالى: نَعَمَ بفضله من شاء، وعذب بعدله من شاء.

(١) مسلم ١/٢٥٢.

(٢) مسلم ٤/٢١١٩.

وعندها رأيت أصحاب الجنة ينادي كل واحدٍ منهم من كان يعرف من أصحاب النار ممن سخروا منهم، واستهزأوا بهم، أو حاربوهم ونكلوا بهم محادةً لله ولرسوله.. ورأيت نفسك وأنت تنادي بعضاً من الطعام المعادين لحقائق الإسلام.. تناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم:
يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان.. ها أنت ذا بندائك تملأ قلوبهم توبيخاً وتصغيراً ونقمةً وحسرةً وندماً.. ثم تسألهم سؤال توبيخٍ وتقريعٍ وتعييرٍ: ((أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فيأنا {قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا} [الأعراف: ٤٤]))^(١).
عند ذاك أعلن المخبت المنيب: أعلن ترتيبه الصادق بصوته الندي، وقلبه الشجي: {لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رُبَّنَا بِالْحَقِّ} [الأعراف: ٤٣].

الملائكة يدخلون من كل بابٍ دخول الخدمة والمحبة:

ولما استقر به المقام، وطاب له المشوى، وعالج ما جرى له من لذةٍ ونشوة.. رأى الملائكة تدخل عليه من كل بابٍ بالتحية الخالدة: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: ٢٤]..

ولما رأى ما أعد الله له في الجنة وما أعطاه قال مبتهجاً: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الصفافات: ٦٠].. وقد يسمع من حواليه من خدمه، أو من ضيوفه، وهم يرون ما أصبحوا فيه من نعيم.. يسمعهم يهتفون فرحين خاشعين: {لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ} [الصفافات: ٦١].

عندها كم يجدون من اللذة حين يذكرون الله الذي منَّ عليهم.. بل كم يستلذون أن يقولوا: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْثَقَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوُّهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ} [الزمر: ٧٤].

(١) البخاري ٤/ ١٤٦١.

خدمك من الولدان.. من أعظم النعيم في الجنان:

ولا تدري بأي نعيمٍ تلتذ، وأي صورٍ من صورهِ يصرف نظرك: أهي الكؤوس، أم ما فيها من شرابٍ يُمْتَعُ النفوس، أم من يقدمها من الخدم.. فإن الذي يطوف عليكم بها هم أولاء {وَلِدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلُؤًا مَّنْثُورًا} [الإنسان: ١٩].. ولدانٌ مخلدون باقون على ما هم عليه من الشباب، والغضاضة، والحسن.. لا يهرمون، ولا يتغيرون ويكونون على سنٍّ واحدةٍ على مر الأزمنة.. على حالةٍ واحدةٍ مخلدون عليها لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن.. وتتأمل في لباسهم فتراهم مُسَوَّرِينَ مُقَرَّطِينَ، ثم ترفع طرفك إلى وجوههم.. فتحسبهم لأول وهلة {لَوْلُؤًا مَّنْثُورًا} [الإنسان: ١٩] من حسنهم وكثرتهم وصفاء ألوانهم.. وتتبعهم بصرك فتراهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة، وكثرتهم، وصباحة وجوههم، وحسن ألوانهم، وثيابهم، وحليهم.. تحسبهم لؤلؤاً منشوراً.. تظنهم لؤلؤاً مفرقاً في ساحات المجلس، واللؤلؤ إذا نثر على بساطٍ كان أحسن منه منظوماً، كما {إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلُؤًا مَّنْثُورًا} [الإنسان: ١٩].. إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة، وكثرتهم، وصباحة وجوههم، وحسن ألوانهم، وثيابهم وحليهم حسبتهم لؤلؤاً منشوراً.. ولا يكون التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن^(١).

في جلسة خلوية مع النفس: تفكر ماذا ستطلب في الجنة؟

وفي جلسةٍ على الأرائك بين النمارق المصفوفة والأكواب الموضوعة.. وأحياناً وأنت تنتزه في بساتينك بين الرياض النظرة.. وأحياناً وأنت مع أصحابك.. تفكر بنعيمٍ جديدٍ تشتهيهِ وتطلبه ومع توالي المشتبهات.. وتوفر سائر الملذات.. فكرتَ فماذا يوجد في الجنة غير ذلك؟.. يأتيك الجواب يطرحه خاطرك.. أو يذكره لك خدمك: {هَلْهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا} [ق:

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤ / ٤٥٧.

[٣٥] فمهما اخترتم وجدتم.. من أي أصناف الملاذ طلبتم نلتهم.. وأُخْضِرَ لكم.. حتى إن "من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ماذا تريدون فأمطره لكم فلا يدعون بشيءٍ إلا أمطرتهم".. تمتع بعض رواة هذا الحديث بذلك واستلذ حتى قال: لئن أشهدني الله تعالى ذلك لأقولن أمطرينا جوارى مُزِينات..^(١).

أيا حبيباه: وأنت ماذا تشتهي؟ أعدِّ لذلك.. وعدد مذ الآن.. وسأخبرك فلا تمسح معي

دمعة فرح تسيل..

أتتمنى لحم طير؟ إنك لتشتهي الطير في الجنة فيخر بين يديك مشوياً إذا اشتهيته كذلك^(٢)..

ماذا تتمنى؟ تتمنى الولد بدون آلام الحمل، وتعب الولادة، والإرضاع؟ فاسمع ((إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان حملة، ووضعها، وسنه، في ساعة واحدة كما يشتهي))^(٣).. وفي هذه الأثناء ربما رأيت آخر من أهل الجنة ((استأذن ربه في الزرع، فقال له: ألسنت فيما شئت؟ قال: بلى، ولكن أحب أن أزرع فأبذر)) كان هذا من الشهوات المشتهايات التي أحب أن يتمتع بها.. فكان له ما أراد.. ((فبذر، فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده فكان كأمثال الجبال)) بادر الطرف.. سبق العين ظهور نبات البذر، واستواؤه واستحصاده.. ((فيقول الله: دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء))^(٤).

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢٩.

(٢) المعتمد في هذا عموم قوله تعالى ((ولهم فيها ما تشتهي الأنفس..)) ونحوها من الآيات.. ليس الحديث الخاص بذلك الذي فيه ذلك بخصوصه والذي رواه البزار ٥/ ٤٠١، وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٤ أن فيه ضعيفاً، ولذا لم نضعه بين قوسي حديث.

(٣) ابن حبان ١٦٦/ ٤١٧، الترمذي ٤/ ٦٩٥، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني.

(٤) البخاري ٢/ ٨٢٦.

كل ما تشتهييه يتحقق لك.. ولم لا؟ إنه وعد الله خالق البشر لا وعد البشر.. فاستمع لنداء الحق: {وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ} (٣١) نُزُلًا مِنْ عَقُورِ رَحِيمٍ { [فصلت: ٣١-٣٢] ..

إنه النعيم.. وها أنت ذا أيها البار بنفسك ودينك وأهلك.. ها أنت ذا من الأبرار.. أما سمعت وصف الرحيم الغفار: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [الانفطار: ١٣]

فما أشرف من أكرمه المولى العظيم، وما أسعد من خصه بالتشريف والتعظيم، وما أقرب من أهله للفوز والتقديم، وما أجل من أثنى عليه العزيز الرحيم! {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [الانفطار: ١٣] ..

تعموا في الدنيا بالإخلاص في الطاعة، وفازوا يوم القيامة بالريح في البضاعة، وتنزهوا عن التقصير والغفلة والإضاعة، ولبسوا ثياب التقى وارتدوا بالقناعة، وداموا في الدنيا على السهر والمجاعة، فيا فخرهم إذا قامت الساعة، وقد قربت إليهم مطايا التكريم! {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [الانفطار: ١٣] ..

طال ما تعبت أجسامهم من الجوع والسهر، وكفت جوارحهم عن اللهو والأشهر، وحبسوا أعراضهم عن الكلام والنظر، وانتهوا عما نهاهم وامتلوا ما أمر، وتقبلوا مفروضاته بالسمع والبصر، وتغنوا بكلامه والقلب قد حضر، واستعدوا من الزاد ما يصلح للسفر، فالخوف يقلقهم فيمنعهم قضاء الوطر، والعبرة تجري والقلب قد اعتبر، فيا حسنهم في جوف الليل ووقت السحر، السر صافٍ والحال مستقيم {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [الانفطار: ١٣] ..

جنّ الظلام فرمت مطاياهم، وجاء السحر فتوفرت عطاياهم، وكثر الاستغفار فحطت خطاياهم، وكلما طلبوا من فضل سيدهم أعطاهم، فسبحان من اختارهم من الكل واصطفاهم، وخلصهم بالإخلاص من شوائب الكدر وصفاهم، فليس المقصود من الخلق

بالمحبة سواهم، أزعجتهم عواصف المخافة فتداركهم من الرجاء نسيم! {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [الانفطار: ١٣] (١).

مهلاً! أيا خاطب الجنة: ماذا نسيت مما تشتهي.. هل تتذكر أو تريد من يذكرك؟:

وفي الجنة.. هناك رأيت رجلاً يطلب خيلاً فإذا الخيول قد ملأت عليه جناحه تزين الجنات والجنات تزينها.. فاشتيت الخيل فإذا هي أمامك تطلب حنان يدك.. لربما دمعت عينك فرحاً وأنت تذكر أن رجلاً قال للمصطفى المختار ﷺ: يا رسول الله! إني أحب الخيل فهل في الجنة خيل؟ فقال: ((إن يدخلك الجنة إن شاء فلا تشاء أن تترك فرساً من ياقوتة حمراء تطير بك في أي الجنة شئت إلا فعلت)) فقال أعرابي: يا رسول الله إني أحب الإبل! فهل في الجنة إبل؟ فقال: ((يا أعرابي إن يدخلك الله الجنة إن شاء الله ففيها ما اشتيت نفسك ولدت عيناك)) (٢).. أتشك في صدق الحديث أو صحته؟ فحسبك أن تعلم أن لكم في الجنة ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون.. حسبك أيها المشتاق أن تذكر نداء الحق: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهُهُ الْأَنْفُسُ وَتَلْتَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [الزخرف: ٧١].

والآن أيا عاشق الجنة: مهلاً! أيا خاطب الجنة: ماذا نسيت مما تشتهي.. تذكر.. أو تريد من يذكرك؟..

نعم! أنهم أهل الجنة {مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ} [الأنبياء: ١٠٢].. مهما اشتيت لبي لك حتى إنك لتشتهي "الطائر وهو يطير فيقع لك ولأولياك نضيجاً في كفك، فتأكل منه حتى تنتهي نفسه ثم يطير.. فهو وأنت من الخالدين.. لكن شتان هو لك أما أنت فمُسَبِّحٌ

(١) التبصرة ص ٢٢٧.

(٢) الترمذي ٤ / ٦٨١، أحمد ٥ / ٣٥٢، أبو داود الطيالسي ص ١٠٨.

مُتَنَعِّمٍ، وإنك لتشتهي الشراب فيقع الإبريق في يدك، وتشرب منه ما تريد ثم يرجع إلى مكانه^(١)..

..إنها الجنة..أَجْرٍ دَمْعاً مَغْزَاراً فِي طَلِبِهَا، وَاسْتَعْنِ عَلَيَّ ذَلِكَ يَا طَالِبَ الْفَلَاحِ..استعن على ذلك بشيءٍ من الدلجة والغدو والرواح..وأكثر من سؤال ربنا الكريم فائق الإصباح:
أشكو إليك أموراً أنت تعلمها فتور عزمي وما فرطت في عمري
وفرط ميلي إلى الدنيا وقد حسرت عن ساعد الغدر في الآصال والبكر

فرحةٌ جديدةٌ..ها هم أولاء أخلاؤك وأقرباؤك..إنه اجتماع الشمل:

أيا صاحب القلب المنيب! ثم تحدث لك فرحةٌ كبرى..إذ إنك تدخل جنات عدن ويُشار لك بالأصابع من الملائكة والمقربين ويقال عنك {أَوْلَيْكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا} [الرعد: ٢٢، ٢٣]..ولكنك لا تدخلها وحدك بل يدخلها معك الصالحون من أقاربك وأحبائك..آه لكم أخافتك أهوال يوم القيامة، وعظائمها..كم زلزل قلبك الميزان..ووزنه..وتطايُر الكتب عن الأيمان والشمائل..كم أربعك الصراط وهو له..كم أخافك ذلك الهول فانشغلت وطار قلبك عن كل خليلٍ لك من أبٍ وأمٍ وبنين وأقرباء..
فالآن..الآن أيا أيها البار قد منَّ الله عليك فوصلت دار السلام..الآن قد ارتحت واتكأت اتكأة السعادة الدائمة..وقررت عينك وأنت ترى كل لذّة تشتهيها..وفوقها أضعافاً..فتساءلت عن أخلائك وأحبّ الناس إليك..
تساءلت: أين أمي الحبيبة الغالية..ما أحلى صلاحها في الدنيا، وقيامها بين يدي رها خاشعاً..ما أجمل دمعها من خشية الله، وحبها للطواف حول البيت، وقضاء المناسك خاضعة..كم كانت تشتاق لبيت الله الحرام بقلبٍ متلهفٍ، وعينٍ دامعة..

(١) انظر: تفسير الطبري ٢٥ / ٩٧.

تساءلت: أين أبي الحبيب.. لكم أسرني تخلقه بأروع أخلاق الصالحين.. لكم شديني تواضعه وظهوره بمظهر المحبتين.. لكم رفع عزيمتي سهوه.. سهره ولكن مصلياً قانتاً مع القائمين..
تساءلت: رباه أين زوجتي فلانة.. يا لحسن إخبارها حين كنا نمتف باسم الله في صباحنا ومساءنا.. ورضانا وغضبنا..

تساءلت: أين بني.. أين أبنائي: ثمرة قلبي، ومهجة فؤادي، ومهجة روحي.. كم حاولت تربيتهم على ذكر الله.. وحب الله.. وولاية الله..

تساءلت: أين إخواني.. كم كنا نتذاكر اليوم الآخر فيقرون بذنوبهم للرحيم الغفور.. وتجري أعينهم لهفى يبعون التوفيق في صراط الدنيا.. والوصول إلى الفوز في الأخرى.. يرفعون أيديهم يطلبون المغفرة على التقصير..

لربما تساءلت: أين أخي فلان.. لكم أعانني على النوائب.. وثبتني على صراط الله العظيم على الرغم من تنالي المصائب..

عندها جاءتك فرحة ليس لها مثيل.. لقد أدخلك الله جنات عدن.. نعم.. أدخلكم جنات عدن {وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ} [الرعد: ٢٣].. يصف ربي -عزَّ جاره- ذلك تبشيراً للمفلحين من عباده فيقول: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الطور: ٢١] فساوينا بين الكل في المنزلة لتقر أعينهم، وما نقصنا العالي حتى يساوي الداني بل رفعنا ناقص العمل فساويناه بكثير العمل تفضلاً منا ومنة.. اسمع لوصف ذلك من سعيد بن جبير: (إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه أين هم فيقال: إنهم لم يبلغوا طبقتك في العمل.. فيقول: إني إنما عملت لي ولهم فيلحقون به في الدرجة)^(١).

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٧٣.

في هذه الجنات ائتلف شملكم مع الصالحين من آبائكم وأزواجكم وذرياتكم.. دخلوا الجنة بصلاحتهم واستحقاقهم.. ولكنهم يكرمون بتجمع شتاتهم، وتلاقي أحبابهم، وهي لذة أخرى تضاعف لذة الشعور بالجنان.

لحظة للمقارنة:

وتفكرت أيا حبيباه فيما تراه من نعيم الجنة وبهجتها.. ولكن أتقارن ما يوجد في الدنيا من لذة بها؟ لا! فقد وعيت الآن معنى القاعدة العامة: ((ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا (الأسماء))^(١).. فارجع طرفك للدنيا وقل لصاحبها ممن اغتر بها:

لا يُلهيَنَّكَ منزلٌ لعبتَ به أيدي البِلا من سالف الأزمان
فلقد ترحلَ عنه كل مسرةٍ وتبدلتُ بالهمِّ والأحزان
سجنٌ يضيق بصاحب الإيمان لكن جنة المأوى لذي الكفران
سُكَّانُها أهل البطالة والسفاهة والجهالة أنجسُ السكان
والذهم عيشاً فأجهلهم بحقِّ الله ثم حقائق القرآن
عَمَّرتْ بهم هذي الديار وأقفرت منهم ربوع العلم والإيمان
قد آثروا الدنيا ولذة عيشها الفاني على الجنات والرضوان

يا أهل الجنة تلذذوا.. تمناوا.. تنعموا.. ولكم بعد ذلك ما هو أكثر فاسمعوا معه نداء الحق الدائم حواليكم: {وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [ق: ٣٥] مما لا يخطر لكم على بال.. ولا تستطيعون تصوره لتتمنوه، أو تشتبهوه.. نعم لكم الجنة وزيادة.. ووضَع كل ما يخطر على بالك من معاني الزيادة هنا؟ إن لكم ذلك أيها المتقون.. أو لم تكونوا من المحسنين في عملكم وإنفاقكم وحبكم

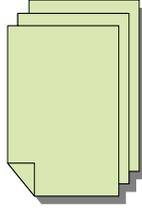
(١) الضياء في المختارة ١٠ / ١٦ موقوفاً على ابن عباس، وقال في الترغيب والترهيب ٤ / ٣١٦: رواه البيهقي موقوفاً بإسناد جيد، وصححه الألباني في الصحيحة ٢١٨٨، وصحيح الجامع الصغير ٥٤١٠.

لأنفسكم وللآخرين.. فالآن خذوا شارة السعادة: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} [يونس:
٢٦].

..ولربما لهجت عندها مجدداً {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَعَفُورٌ
شَكُورٌ} [فاطر: ٣٤]..

سبحانك ربي: غفرت لنا الكثير من السيئات وشكرت لنا اليسير من الحسنات.. فلك
الحمد.. فقل لمتعجبٍ يرى شدة حبك لتلك الربوع.. يرى تساقط الذهب يبرق في الدموع:

أنكرت ذلي فأبي شيءٍ أحسن من ذلة المحب
أليس شوقي وفيض دمعي وضعف جسمي شهود حي^(١)



(١) أنشدتها إبراهيم بن إسحاق الحرابي.. وشهوده المذكورة في هذا الوطن شهوداً ثقات. انظر: تاريخ بغداد ٦/ ٢٧.

الفصل الرابع

إنها.... الجنة تقلب هناك.. لتري نعيماً وملكاً كبيراً

فله ما في حشوها من مسرةٍ وأصنافٍ لذاتٍ بها يُتَنَعَمُ
ولله برد العيش بين خيامها وروضاتها، والثغر في الروض يَبْسُمُ
بذيالك الوادي يهيمُ صبايةً محتٌ، يرى أن الصباية مَعْنُمُ

المشهد الأول
 {وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا} [الإنسان: ٢٠]

نظرة عامة عليهم وهم في ملكهم.. أظننت أنك تستطيع التعبير عما ترى؟:
 أنعم صاحب القلب المنيب النظر في عيشه الذي اشتاق له العاشقون، وهام به المحبون،
 ورجاه المتيمون.. ونظر في مملكته ثم نظر.. وكرر النظر فكان أبلغ وصف قول الله -عزَّ جاره:
 {وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا} [الإنسان: ٢٠].. ملكاً كبيراً..

أيا عاشق الجنة: ملكك الكبير في الجنة.. هل يبلغ كنهه ومداه إدراك؟ هل يقدر فكر التصور
 أن ينصب لتصويره الشباك؟.. والجنة هي الجنة.. ليست كأى جنة بل هي {جَنَّةٍ عَالِيَةٍ}
 [الحاقة: ٢٢] عظيمة في النفوس..

يا صاحب القلب المنيب: إنها الجنة:

رفيعة قصورها.. حسان حورها.. نعيمة دورها.. دائم حبورها.. وهي عالية.. تراها.. فإذا هي
 عبارة عن ((مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض))^(١)..

يا مقيم الصلاة: إنها الجنة:

ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمسكن الطيبات، والأوانس الناعمات...
 وانظر إلى نفسك وأنت تُقَلِّبُ الطرف في الجنة: أتجد كلماتٍ يمكنها أن تعبر عنها حق
 التعبير، أو تصفها حق الوصف.. وحتى ترى مقدار عجزك عن تصوير ما في الجنة من
 نعيم.. يكفي أن تردد قول الله {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا

(١) البخاري/٦/٢٧٠٠، مسلم/٣/١٥٠١.

يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٧].. لا تستطيع أي نفس أن تتصور، أو تدرك ما أخفاه الله لها من النعيم الذي تَقَرُّ به عينها، وتلذ به نفسها..

أي حبيباه: أنى لنفسٍ مهما أوتيت من ذكاءٍ وتصوّرٍ وإدراكٍ.. أن تعلم بما أخفاه الله لها من قرة أعين.. وأنت تنظر في الجنة فتري أن ((قاب قوسٍ في الجنة خيرٌ مما تطلع عليه الشمس وتغرب))^(١).. قدر موضع القوس في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها مما طلعت عليه الشمس وغربت.. بأشجارها وأثمارها ونسائها وخيراتها وأموالها.. فأنى لنفسٍ أن تعلم بما أخفاه الله لها من قرة أعين...؟

أي أنسَ النفس: أنى لنفسٍ مهما أوتيت من ذكاء أن تعلم بما أخفاه الله لها من قرة أعين.. وأنت تنظر فتري أن ((موضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها))^(٢).. فأنى لنفسٍ أن تعلم بما أخفاه الله لها من قرة أعين...؟

أي نبضَ الفؤاد: أنى لنفسٍ مهما أوتيت من ذكاء وتصوّر وإدراك.. أن تعلم بما أخفاه الله لها من قرة أعين.. وأنت ترى ((أن ما يُقَلُّ الظفرُ مما في الجنة)) لو أنه ((بدا لتزخرفت له ما بين خوافق السموات والأرض))، ((ولو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدا أساوره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم))^(٣).. فأنى لنفسٍ أن تعلم بما أخفاه الله لها من قرة أعين...؟

ولا خيال... فأنت الآن تعين حقيقة الحال، وإن عجزت عن تصوير ذلك بالمقال.. اقرأ - أيا رفيق الروح - اقرأ الآن قول ربك محبتاً خاشعاً خاضعاً باكياً ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].. اقرأها مرتلاً خاشعاً متلهفاً عازماً على

(١) البخاري ٣/ ١٠٢٩.

(٢) البخاري ٣/ ١٠٥٩.

(٣) الترمذي ٤/ ٦٧٨، وصححه الألباني.

تقديم المهر، ثم ادع بإخبارات: اللهم إني أسألك الفردوس.. برحمتك.. برحمتك يا أرحم
الراحمين.

رَأَيْتَ نَعِيمًا..رَأَيْتَ مَلَكًا كَبِيرًا:

ارم ببصرك حيث شئت من مملكتك..فإنك إذا {رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا} [الإنسان: ٢٠] إذا رأيت ببصرك في أرجاء مملكتك أو في أرجاء الجنة رأيت نعيمًا وملاكاً عريضاً كبيراً عظيماً حتى إنك -أيها المخبت المنيب- ترى الرسول يأتي من عند الله بكرامةٍ من الكسوة والطعام والشراب والتحف إليك وأنت في منزلك، فيستأذن عليك وأنت فيما أنت من اللذة والسرور..فتجده قد أرسله رب العالمين بكتابٍ وهديةٍ وتحفةٍ منه لم ترها من قبل في الجنة قط..(١).

إنه المقام الطيب الأمين: وتنقلت في أرجاء ملكك، ومكان إقامتك الجديدة..فوجدته حقاً المكان الطيب الأمين..وإنما يكون المقام طيباً بأمرين:

الأول: أن يكون الساكن فيه آمناً من جميع ما يخافه ويحذر منه..وهو هنا كذلك؛ إذ {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ} [الدخان: ٥١] هنا..

والثاني: أن يكون فيه أسباب النزهة والسعة من الجنات والعيون..وأنتم أيها الفائزون هنا {فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} [الدخان: ٥٢]..

ويكفي أن تعلم سعة مملكتك بعلمك أن أدنى ((أهل الجنة منزلةً لينظر في ملكه ألفي سنة.. يرى أقصاه كما يرى أدناه..ينظر في أزواجه وخدمه)) (٢) نعم! نعم! فمتع نفسك وعينك يا ذا السعي المشكور: {وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا} [الإنسان: ٢٠]. إنها اختصاراً

(١) تفسير القرطبي ١٩ / ١٤٤.

(٢) أحمد ٢ / ١٣.

لوصف الأشواق، وإجمال لمن أراد السباق: {وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا} [الإنسان: ٢٠].

وهذه مجرد مناعِمَ يمكن أن نتصورها ونذكرها؛ ووراءنا مناعِمُ أخرى نعرفها هنالك يوم نتهيأ لإدراكها مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ!.
عند ذلك لربما تذكرت لماذا نهى النبي ﷺ أن يُسأل بوجه الله إلا الجنة.. إن الله هو العظيم وهو الخالق.. ولا يسأل بوجهه إلا عظيمٌ من مخلوقاته وهو الجنة..

أنت بشرٌ! بدأت تحاول إحصاء ملكك وسعة مملكتك.. أتستطيع؟:

وتساءلت باندهاشٍ وفضولٍ وتطلعٍ وطموحٍ: إذا كانت هذه مساحة مملكةٍ لواحدٍ من أهل الجنة فكم هي مساحة الجنة..؟ كم سعتها؟ والذكرى تأتيك بالجواب.. إذ تذكر دون ارتياب قول الله -جل وعز- {عَرَضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ} [آل عمران: ١٣٣].. الآن ترى ذلك عياناً.. وتجد ما قال ربك حقاً فإذا قُرُنْتَ السموات والأرض وجمعت بعضها إلى بعض ثم بسطتها كما تبسط الثياب.. ووصلت بعضها ببعضٍ فكم سيبلغ مدى طولها يا ترى؟ لا يحتمل ذلك عقل الإنسان.. ولكن مهما بلغ مداها فذلك سيكون عرض الجنة.. هذا العرض فقط فكيف الطول حتى نعلم المساحة..؟ إذا كان ذلك العرض فإنه لا يستطاع وصف طولها؛ إذ لا يعلم طولها إلا الله^(١).. فكيف ستكون الجنة اتساعاً وانفساحاً.. بل وأنت تسمع هذا الكلام الإلهي في تحديد عرضها فإنما يدلك ربك على أوسع شيءٍ رأيت طرفاً منه.. فالأمر أعظم إذن.. وعندها تمنيت الطيران لترى ما يظهر لك من سقف الجنة فأعطيت ذلك.. وما إن وصلت إلى مكانٍ يمكنك من رؤية سقفيها نظرت فلم تستطع الإحاطة بكنهه

(١) انظر: تفسير القرطبي ٤/ ٢٠٤.

اتساعاً، وعلواً، وجمالاً.. وأُخبرَت هناك أنه عرش الرحمن^(١).. وإذا كانت المخلوقات كلها بالنسبة إليه كالحلقة فمن ذا الذي يقدر قدره، ويعلم طوله وعرضه ويدرك أمره إلا الله خالقه الذي لا نهاية لقدرته.. ولا غاية لسعة مملكته -جلَّ جلاله-^(٢).

بعد أن تستقر في نعيمك في الجنة، وتطمئن على أن الله قد أحلَّ عليك رضوانه.. وبعد أن تشفعوا لأصحابكم ممن دخل النار.. وبعد أن تطمئنوا بمقام الحق، ونعيم الصدق تسمعون هواتف الحق تنادي: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ} [القمر: ٥٤، ٥٥].. ولربما عادت الذكريات تنثال:

أهذا هو مقام الصدق.. ما أشد ما أضيننا من أجله النفوس.. وأتعبنا في فكره الرؤوس.. فإذا هو فوق ما تشوفنا.. وأعظم مما طلبنا.. لولا رحمة من ربنا لما كانت أعمالنا تساوي ذرة مما به نتمتع..

أتريد أن تعرف التفاوت بين المؤمنين في الدرجات؟ قم بجولة لتري معه وجهك الصافي الذاهل:

لعل فضولك المعرفي ولذتك لإدراك ما حوالبك حَدَّتْ بك إلى إرادة التعرف على تفاوت درجات المؤمنين في الجنة، وطاب لك أن تأخذ معلوماتٍ كافيةً عن درجات الجنة مع اطمئنانك بأن الذي أوتيته لم يؤته أحدٌ من العالمين، فلا غل ولا حسد ولا تباغض.. وهنا تحركت لتقوم بجولة.. فرأيت.. وما أدري القلب الوهان المشتاق للجنان بما سيرى؟ رأيت ما تنسكب عنده الدموع.. رأيت وسمعت ما يثير القلب الولوع؛ فإنك ترى فقط درجاتٍ لأحد أصناف المؤمنين، وبهولك الفارق العظيم بين هذه الدرجات ف: ((في الجنة مائة درجة أعدها

(١) انظر: البخاري ١٠٢٨.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ٤ / ٢٠٥.

الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض))^(١).. فقط إن ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض.. مجرد ما بين السماء والأرض.. أتراها مسافة قصيرة؟ انظر.. وأعلن للملأ من أهل النار خلفك: يا ليتكم كنتم تعقلون.. ليتكم كنتم توقنون. لعلك تذكر هنا مقالة قيس بن هبيرة وهو يصيح بالناس مشتاقاً.. يذكرهم هذا النعيم الباسق حين أحجم بعضهم عن المبادرة إلى الطاعات مفراقاً: ((وتزعمون أن قتلنا يدخل الجنة، ويصيب نعيماً لا يشاكلة نعيم! فأين تدعون الجنة وتهربون منها وتزهدون فيها، وتأتون قرحاً والحجر! لا صحب الله من سار إليها ولا حفظه)) فأين إلى أين تدعون الجنة... فالآن الآن يا قوم ظهر الصباح، واستبان زيف المصباح.. فهل من مشتاقٍ يستعين بالدجلة والغدو والرواح..؟.

درجات رفيعة، بعضها فوق بعض.. هل تطمح لها؟:

ثم اتضح لك أقسام الجنة فإذا هي منازل ودرجات عالية عظيمة بعضها فوق بعض.. فأهل الغرف أعلى من سائر أهل الجنة.. إذ طرق سمعك منادي الحق وهو يردد وعد الصدق: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [العنكبوت: ٥٨].. وتأملت في حالهم.. فرأيت أن الله قد بواهم مباحاً صدق فأنزلهم غرفاً.. نعم أصدق وصف {غُرَفًا} [العنكبوت: ٥٨] والغرفة هي العلية المشرفة، وغرفهم عالية مشرفة على أهل الجنة.. فهي القصور الشاهقة {لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ} [الزمر: ٢٠] فهي طباق فوق طباق مبنيات.. محكمات.. مزخرفات.. عاليات.. ويكتمل المشهد الرائع بجنات تجري من تحتها الأنهار..

(١) البخاري ٣/ ١٠٢٨.

وترى علوها الباسق الذي لا يطيقه إدراك بشري.. حتى ((إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم))^(١)..

والغرف يا للغرف! أبشِرْ.. أبشِرْ؛ فإنها ليست خاصة بالأنبياء.. بل رأيت هناك المجد والسناء قد لحق بقوم سكنوها.. يا طيب المسكن، وهم يعيشون فيها يا لذة العيش.. إنهم {رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} [الأحزاب : ٢٣].. لقد آمنوا بالله وصدقوا المرسلين.. أكرمهم وأنعمهم.. إنها الأعمال الصالحات.. كم رفعت برحمة الله أناساً إلى أعلى الدرجات.. وجعلتهم ينعمون بالغرف وهي أنعم الجنات.. اهتف راجياً محسناً الظن بالغفور الرؤوف الرحيم {هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ} [آل عمران : ١٦٣]..
كرر مشهد التفاضل في الدرجات فيما بين أهل الجنات العاليات.. ثم اهتف بلسان الرجاء:

يا من امتدت لمسألته أكف السائلين..

يا من خرث لعبادته وجوه الساجدين..

يا من عَجَّتْ بالرغبة إليه أصوات المحتاجين..

يا من طَمَحَتْ لعظيم رحمته أعين الآملين.. إن كان صَعُرَ في جنب عطائك عملي.. فقد كبر في حسن رجائك أُملي.. وأنت أرحم الراحمين.

ولربما سألت بعض سكانها: أي شيء أوصلكم إلى هذه المرتبة العلية، والمكانة السامقة السنية؟ فأجابك والصفاء يملأ وجهه، والهناء يحيط نفسه.. أجابك بنفسٍ متلهفة متحمسة:
 لقد أطبْتُ الكلام.. أي أخاه: لقد أطعمتُ الطعام.. -وتابع-: لقد أدمتُ الصيام..

(١) انظر: البخاري ٣/ ١١٨٨.

أي خيلاه: لقد صليتُ لله بالليل والناس نيام^(١)..

فيا حسرتاه من متكأ غفلةٍ يحيا فيه غفلةُ الأنام..

والآن أيا حبيباه: أتبكي على التفريط في الأيام الخاليات؟..

فسر في الطريق المستقيم إلى العلا على الصدق والإخلاص والبر والتقوى

وإياك والدنيا الغرور فإنها متاعٌ قليلٌ ماها أبدأ بقا

وتلهيك عن جناتٍ خلدٍ.. نعيمها يدوم ويصفو.. حبذا لك ملتقى

فئة المحبة الصادقة.. ارتقت مكاناً علياً بنفسٍ واثقة.. وصارت مناراً للأَنْفَسِ الوامقة:

ورأيتَ هناك من الدرجات المتميزة التي كنتَ -أنت يا للشرف- في إحداها.. رأيتَ غرفاً ضمت فئة الحب الحقيقي في الله بغير ادعاءٍ.. فما أكثر المدعين.. وهُيئتُ لمن آخى في الله حق الإخاء.. فيا ضبيعة المنافقين..

انظر إلى نفسك وإيهم: إنكم فئة المتحابين في الله.. لكم المنزل الكريم.. والجاء العظيم.. ارتقيتم مكاناً علياً بنفسٍ واثقة برحمة ربكم بكم.. فإن ((المتحابين ترى غرفهم في الجنة كالكوكب الطالع الشرقي أو الغربي))^(٢).. ويتساءل أهل الجنة وهم يرون هذه المنزلة الرفيعة تطل عليهم من أمكنتهم.. يتساءلون: ((فيقال: من هؤلاء؟)) كيف استحقوا هذه المرتبة العلية.. ويأتي الجواب.. باقتضابٍ.. محبٍ لأولي المشاعر الصادقة التي يجوزها أولو الألباب: ((فيقال: هؤلاء المتحابون في الله عز وجل)).. إنه الحب الصادق في الله..

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٣ / ٣٥٩.

(٢) أحمد ٣ / ٨٧.

أيا خليلاه: إنه الحب الذي كان لكم في الدنيا هو "الحياة التي من حُرْمِهَا فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقدته فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عَدِمَهُ حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله همومٌ وآلامٌ"^(١).

تقدم فهناك ما هو أعلى منه، وقابل هناك أعمدة الإسلام.. الراشدين الكرام:

ومن أعلى درجات الجنات مكانٌ تراءى لك ترائياً، وعلمت أنه الذي يسمى بالفردوس وهو -يا للعظمة- ((أوسط الجنة وأعلى الجنة)) تراه هناك أو يتراءى لك، و((فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة))^(٢).. وهناك نظرتَ إلى هذا التفاوت العظيم في درجات الجنة وحاولت إحصاءه فلم تستطع.. وكيف تستطيع وقد علمت أن ((أهل عليين يراهم من هو أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء))^(٣).. وبدا لك أناسٌ من أهل عليين طالما شدك الشوق إليهم.. طالما تمنيت رؤيتهم: منهم أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعلي.. وأوتاد الإسلام، وأركان الحق العظام، وخير من صلى وصام.. بعد الأنبياء الكرام.. وغيرهم من الأفاضال الذين تحفو لهم القلوب، وتراهم من وراء حجب الغيوب.. وعندما يبدو.. عندما يظهر أحدهم، ويشرف على أهل الجنة يحدث للجنة وهجٌ أحاذٍ.. ((إن الرجل من أهل عليين ليسرف على أهل الجنة فتضيء الجنة لوجهه كأنها كوكبٌ دري))^(٤).. يا حسن تلك الوجوه.. لطالما كنتَ تناجي الواحد منهم عسى أن تصحبه، أو تراه.. ولو رؤيا منامٍ.. طالما رددتَ له منشداً.. وناجيته مسعداً:

لا أعرفُ من أي الطرقاتِ أسير إليك

(١) انظر: مدارج السالكين ٣ / ٧.

(٢) البخاري ٣ / ١٠٢٨.

(٣) أحمد ٣ / ٥٠.

(٤) أبو داود ٤ / ٣٤.

وأنت الفاتح للطرق
لا أعرف من أي الهالات أطلُّ عليك
وأنت المشرق بالهالات

هاهو الواحد منهم ((من أهل عليين ليشرف على أهل الجنة.. فتضيء الجنة لوجهه كأنها كوكب دري))^(١)..أضاءوا الأرض بنشر الحق في عامة الخلق، وإقامة القسط في أزمنة القحط.. فأضاءوا الجنة بسناهم.. هذا مقامهم.. فكيف يكون مقام أعظمهم وأجلهم.. سيدنا محمد ذي المقام الأحمد، والمكان الرفيع الأسعد ﷺ؟.

ومنادي الحق ينادي: {وَلَا خِرَّةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} [الإسراء : ٢١]..

وهناك رأيت أقواماً من غير المجاهدين قد ارتقوا مرتقى عظيماً، ورفِع بعضهم إلى الفردوس، وبعضهم دنا منها، وعلمت أن ذلك كان بسبب اجتهادهم في الدعاء بالوصول إلى منتهى الأمل وغاية الرجاء.. وقرع سمعك ما كان النبي ﷺ يقوله في الدنيا: ((فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس))^(٢).

لا تحزنُ أيا صاحب القرآن! لا تحزن.. فإن مجرد كسب الجنة هو الفوز العظيم.. ولكن لا تقف عند ذلك بل ألهب فؤاد العزم وسل الله الفردوس، وابذر لها بذور الطاعات لترقى بك إلى أعلى الغايات.. حيث الفردوس الأعلى، ولربما تنعمت بما تشتهيهِ من رحلةٍ لترى ذلك الجمال، وتسمع دوي تسبيح الملائكة عن قرب.. فترى الجمال والجلال.. يا حبذا تلك الرحال.. أيها القلب استقم وقل متى إلى تلك الديار تشد الرحال.. اللهم اجعل ذاك حقيقة الحال لا مجرد خبرٍ عابرٍ يعتريه الزوال.

(١) أبو داود / ٤ / ٣٤.

(٢) البخاري / ٣ / ١٠٢٨.

زيارة خاصة لأعظم الأحبة.. حبيب طالما تمنيت رؤيته.. ولكنه من الأرفعين أعمالاً.. إنه من السابقين:

لربما لاحت في ذهنك صورة السابقين الأولين من آل البيت الأطهار، ومن المهاجرين والأنصار.. وتذكرت أعلام الهدى من الربع المقدمين الأخيار.. وما أكثر ما اشتقت إلى رؤيتهم مناماً في دنياك.. وها أنت ذا في عالم الحقائق أفلا تزورهم وقد أمضت الشوق فؤادك لرؤيتهم؟ فمن تريد أن تؤم؟: أبو بكر الصديق ناصر الإسلام، ومثبت دعائم الدين العظام في زمنٍ وهى فيه الناس حتى الأعلام، أم الفاروق الصداح بالحق.. القائم بالصدق، الذي بسط الله به للأمة زهرتها، وأعلى به دينها.. وصار بذلك على سائر الأمم فخرها.. أم عثمان وعليّ والسابقون معهم ممن ذاب القلب شوقاً إليهم.. وناح الفؤاد رغبةً في اللحاق بهم من {الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء : 69].. يا حسن رفقتهم، ويا عز صحبتهم، ويا جمال أخوتهم..

لربما طمح بصرك في الذهاب إليهم.. ولن تستطيع وصف ما اجتاحتك من نعيمٍ عند اللقاء بهم، أو غمرك من سعادةٍ عند رؤيتهم ومحادثتهم.. ذاك هم فكيف بالحبيب المصطفى والشفيع المرتضى، والخليل المجتبى ﷺ.. وإذا كان الكلمات تعيا عن الحديث عن ذلك فقد انساق الوصف إلى ما رأيت في ممالكهم من نعيمٍ، وما أبصرته من فوزٍ عظيم.. إنهم السابقون.. السابقون {أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ} [الواقعة : 11]..

أعيانك ما رأيت فلا تستطيع وصفه.. فكيف ستصنع؟

لقد أعيانك ما رأيت من نعيمٍ، وما أبصرت من ملكٍ عظيم.. فاكثفت بأن تعطينا صورةً سريعةً معترفاً بعجز الكلمات عن الإحاطة، وقصورها عن ذكر الأمر على سبيل الحقيقة..

صورة سريعة. كيف يمكن لسمعك وبصرك التقاطها، وهي كالضوء سرعة:

تراهم هناك متكئين {عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ} [الواقعة : ١٥] منسوجة بالذهب واللؤلؤ.. مشبكة بالدر والياقوت {مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَّقَابِلِينَ} [الواقعة : ١٦].. إنها وجوه بعضها إلى بعض ليس أحد وراء أحد.. من حبههم ولهفتهم وشوقهم إلى أصحابهم.. فهذا مع أصحابهم.. فكيف يكون الأمر مع أهاليهم؟ يتكئون متقابلين في راحةٍ وخلوٍ بالٍ من الهموم والأشغال.. يتسامرون تسامر اللذة والجمال.

وهم في اتكاءهم {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلِدَانٌ مَّحْلُودُونَ} [الواقعة : ١٧] على صفةٍ واحدةٍ لا يكبرون عنها.. ولا يشيرون.. ولا يتغيرون.. يطوفون عليهم لهم ولكم أيا ضيوفهم.. يطوفون عليكم في مجلس المقربين {بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ} [الواقعة : ١٨] من أنواع الشراب، وعلى رأسه ألد الرحيق.. إنه الخمر.. خمر من عينٍ جاريةٍ فإذا هي {لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفُونَ} [الواقعة : ١٩] لا تصيبك بالصداع كخمر الدنيا، ولا تنزف العقل وتستنزفها بل هي ثابتةٌ مع الشدة المطرية، واللذة الرائعة، والنشوة الذائعة.. ثم دارت عليكم بعد ذلك جميل الثمار {وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ} [الواقعة : ٢٠].. وترى ((الرجل إذا نزع ثمرةً من الجنة عادت مكانها الأخرى))^(١).. ثم قدمت المائدة بأطياب الطعام وألوانها مما لم يعهد وكان من أبرز ذلك ما اشتبهت من لحم ضأنٍ، وقد تقول معها ما وصفه الله -عزَّ جاره- {وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ} [الواقعة : ٢١]، وتعجبت منها فإن النبي ﷺ يصفها فيقول: ((إن طير الجنة كأمثال البخت يرعى في شجر الجنة)).. وقد أدهشك ما رأيت من نعومة هذه الطير حتى أن أبا بكرٍ الصديق لما سمع وصفها أعلن دهشته وقال: يا رسول الله إن هذه لطيرو ناعمة!.. فأجابه النبي ﷺ بما يُبشِّرُك ويسرك ويشوقك ويمتلك: ((فإن أكلها أنعم منها.. فإن

(١) انظر: مجمع الزوائد ١٠ / ٤١٤.

أكلها أنعم منها.. فإن أكلها أنعم منها.. وأني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها يا أبا بكر))^(١).. هكذا يُكْرَرُ النبي ﷺ وصفه لمدى نعمة أكلها..

وتابعت بعض هذه الطيور وهي ترفرف وتشد الأبصار بجمالها، وتنوع ألوانها، وطيرانها فإذا هي تحط على نهر الكوثر.. النهر الذي تراه أمامك ((أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل)) ولكن بصرك ينشد مع الطير فإذا ((أعناقها كأعناق الجزر)) الإبل العظام.. فيا لنعمتها.. فكيف تكون نعمة من يأكل منها؟.

وكما أن قطوف الثمار دانية فكذلك هذه الطير التي تراها فتوّد من جمالها ونعمتها أن تأكلها فوراً.. مهلاً.. مهلاً.. لقد تمنيت أكلها فهاهي تجري لتقع بين يديك.. فكلوه هنيئاً مريئاً.. ف"إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً"^(٢).. ماذا تنتظر.. كل ولا تستغرب.. هذا النعيم لا كبد الدنيا ولا كدها.. ما مدى ما برّح بك الشوق الآن إلى ذلك المكان؟.

ألا تريد رؤية أعلى درجات الجنة.. تقدم حيث الجلال النبوي، والمقام المحمود المصطفوي:

وتقدمت لترى أعلى درجة في الجنة.. ولا يُدرى أتشاهد ذلك أم تُنقل إليك صورته.. فإنها دون كل وصفٍ.. تحيط بها الهالات من كل مكان..

فلئن كانت الجنة مئة درجة بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض..

ولئن كان أهل الجنة يتراءون أهل الغرف كالكوكب الدرّي الغابر في الأفق،

ولئن كان أهل عليين والدرجات العلى يراهم من هو دونهم كالكوكب الغابر في الأفق،

(١) أحمد ٣/٢٢١، ورواه الضياء في المختارة ٥/١٣، وإسناده صحيح.. والبخت: إبلٌ طوال الأعناق.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٥١٨.

فكيف هي أعلى درجة في الجنة.. كيف ستكون؟ وكيف سُتري هالاتها.. إن المقام لا يمكن أن يوصف.. ولما أردت وصف ما ترى إن قُدِّرَتْ لك رؤيته.. أعياك العجز.. وتذكرت حينها أن موسى -عليه السلام- لما رام أن يشهداها، وطلب من ربه تعالى أن يصف له منزلة أعلى أهل الجنة قال الله له: ((أولئك الذين أردت.. غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها.. فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر..))^(١).

فإن لقيت أحد أصحاب هذه المنزلة، فسألته عن هذه المنزلة حيث تذوب الأحداق، أو وُقِّت في السباق.. فكنت ممن تناول لهذا النعيم فذاً في الآفاق.. فلا تدري أي شيء هو الأنعم فيها؟ أهو قول ربك -عز جاره- ((أولئك الذين أردت)) أردت.. كلمة تهنز لها الأعين فتجري دموعها شوقاً.. وتسيل مآقيها تعظيماً وحباً.. أم النعيم هو في قوله - تعالت عظمته-: ((غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها)).. هذه هي مرتبة أعلاكم منزلة.. فكيف تكون مرتبة أعلى الأعلى منزلة.. إن منادي الحق يقطع كل قائل: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٧].

ولربما سألت عن هذه الدرجة الرفيعة العالية.. فقيل لك: إنها الوسيلة درجة النبي ﷺ، ومرتبته التي لا يتطلع لها أحدٌ غيره ﷺ، إذ هي أقرب الدرجات إلى عرش الرحمن، وهي أقرب الدرجات إلى الله ولأنها كذلك فقد كانت أفضل الجنة، وأشرفها، وأعظمها نوراً.. تستمد نورها من عرش الرحمن.. الذي تستمد الجنات كلها نورها منه.. فالأقرب إليه أعظم نوراً وبركة.. ولا غرو.. ذاكم رسول الله ﷺ سيد الخلق وحبيب الحق ﷺ.

وهنا تذكرت أنك كنت تسأل الله أن يهبها له.. وقلت تردد ما كنت عليه في الدنيا مما تردده خلف المؤذن.. قلت تردد عسى أن تحظى بزيارة النبي المصطفى، والسيد المجتبي، والحبيب

(١) مسلم ١/١٧٦.

المرتبى ﷺ.. رددت حباً ولهفةً بلا شعور: اللهم صل وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.. اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة.. نعم! الوسيلة.. إنها المنزلة العظيمة.. إنها ((منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله))^(١)، وقد رجحت أمة النبي ﷺ أن يكون هو عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

أبشروا! فقد شُرِفْتِ بالقرب من منزلته ﷺ.. أتدري ما السبب؟:

أيها المخبت المنيب: لقد أعلنت درجتك، وقُرِّرَ أن تكون منزلتك في محلة قريبة من النبي ﷺ.. فكم ستبلغ هذه البشرية منك؟ وكيف ستأخذ بلبك؟ وتساءلت في نفسك: لم أكن أستحق هذا القرب، ولا أظنُّ عملي يبلغ هذه المنزلة الرفيعة العالية السامية فما الخير..؟ كيف تداركتني رحمة ربي.. فمنحني الله هذا التشريف السامي العظيم.. فلعله فضله المنتظر؟.. عندها سمعت من كانوا في منزلتك يتحدثون:

فقائلٌ يقول: نلتُ هذا الفضل العظيم قُرباً من النبي الكريم ﷺ بحسن الخلق فقد قال ﷺ - فيما رواه ابن عساکر-: ((إن أقربكم مني منزلاً يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً في الدنيا)).
وآخر يقول: لقد بلغت هذا المنزل بكثرة صلاتي على المصطفى المختار.. شفيع الأبرار.. وهادي الناس بخير منار ﷺ..

وثالثٌ قال: إنما كان لي هذا المكان السامي بكفالي للأيتام، وتفقدي لفقراء الأنام.. فهذا أنا من المكرمين فوق البرية بسلام.. فله الحمد على جليل المقام.

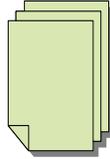
وقائلٌ فاح الشذا من كلامه فقال: لو رأيتم بساطتي في حياتي الدنيا، وقيامي بالفرائض وشيءٍ من النوافل لا أزيد.. لزهدت في.. أن أكون معكم في هذا المقام السامي، أو أقرب مجرد قربٍ من هذا المكان الرفيع.. غير أنني لا أذكر لي شيئاً يبلغني ما بلغت.. إلا أنني كنتُ أحب

(١) مسلم ١/٢٨٨.

النبي ﷺ أشد الحب حتى لتمر عليَّ الساعات.. فأذكر كيف تَعَبَ وكابد، وأوذى وطُرد، وقام حتى أقعده المرض.. كلُّ ذلك ليوصل الدعوة لي ولأمثالي.. أذكرُ ذلك فأبكي حبالاً له، وشوقاً إليه.. فوالله لقد باتَ النبي ﷺ أحبَّ إليَّ من نفسي، وهو أحبُّ إليَّ من أهلي، وهو أحبُّ إليَّ من ولدي.. وإني لأكون في البيت فأذكره فما أصبر -أحياناً- حتى أبكي.. أشتاق إلى النظر إليه في أيام الصبر الداكنة.. ومَرَّ عليَّ وقتٌ خشيت إن دخلت الجنة ألا أراه.. نفسي له الفداء، ووجهي لوجهه الوفاء.. فتجيش نفسي بكاءً عليه ﷺ.. وعندما أتت ساعة الحقيقة.. في يومٍ شخصت فيه الأبصار نودي: المرء مع من أحب.. فهتفتُ من كل قلبي.. كل شيءٍ أنكره من نفسي إلا حبي للنبي المحمود محمد أحمد ﷺ.. فصار أمري إلى ما رأيتم..

ومنادي الحق ينادي في جموع المحبين: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩)} ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا { [النساء : ٦٩ ، ٧٠]...عندها عُدتُ -أيا خاطب الجنة- بُجِيل ففكرت مشتاقاً ملتاعاً.. فمتى تُطوى الكلمات لتصير حقيقة.. وهل في أعمالي الصالحات ما يبلغني إلى تلك المنازل على خير طريقة:

أتبلُّ نفسي في الجنان مُناها	سقى الله آتي عهدها وسقاها
فهل أبتغي عن عهدِها بدلاً.. وهل	تَمَلَّكَ قلبي المستهام سواها
نأت عن عيوني دارها فمتى.. متى	أرى بعيوني دارها وأراها؟



المشهد الثاني جولة في جنان الجنة..

ما هو النعيم الأعلى: الجمال والإبداع الخارجي، أم السكينة الداخلية:
وألقيت نظرةً بل نظراتٍ على حدائق قصرِكَ الغناء.. فوجدتها في غاية الحسن، وأفخم الزينة،
وأبهى الجمال الذي يأخذ الألباب، ويسلب العقول..وعندها تَدَكَّرْتُ أن الله الجليل قد زين
للناس الحياة الدنيا..وبين هذه الحقيقة فقال -عزَّ جاره-: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ
النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ...} [آل عمران : ١٤] ولكنه ﷺ قد جعل زينة الدنيا لا
تُذَكِّرُ أمام زينة الجنة في الآخرة..واستمعت إلى منادي الحق ينادي: {قُلْ أُوْتِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ
ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [آل عمران: ١٥]..
فقمتَ تتجول في هذه الجنات..ومما يسلب بصرك فيها انتباهك فيها أنها تستحق تسمية
{جَنَّاتٌ} [آل عمران: ١٥] لأنها بساتين كثيفة الأشجار.. كثيرة النباتات.. بُجُجٌ من فيها
فتستره بشجرها، وتضمه بنباتاتها..ورأيت الأنهار تجري من تحت الأشجار، تعلو على كل
ذلك الأطيوار، وتغدو عليك فيه للمتعة والتسلية حسناوات الأبقار..فكان مشهداً يصور
لك جزءاً من نعيمٍ اختاره لك الغفار..
انظر المشهد بعين الوَلِّه..وسل من له الملك وحده لا شريك له..وإذ رأيت الأطيوار قد
أسرتك بجمالها في الدنيا..فاذكر بدمعة الشوق منك مآلك في العقي:
إذا هتف الحمام على غصون جرت عبرات دمعي بانسكاب^(١)

(١) أنشدها حارثة بن صخر العذري..انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٥٠١.

فَرَجَّعَ الطرف في الأرض التي لك حيث الجنان الوفيرة، والأنهار الغزيرة، والجداول العلييلة المثيرة.. هناك ترى أهل الجنة { فِي رَوْضَةٍ يُجْبَرُونَ } [الروم: ١٥].. نعم تكون في روضةٍ وأهلك تحبسون فيها.. وأعجبتك الروضة فإن: أحسن ما تكون الروضة إذا كانت في موضعٍ مرتفعٍ غليظٍ، ولا يقال لها روضة إلا إذا كان فيها نبتٌ وحوها تجري الغدران، ولا شك أن الأقوال فيها تتقاصر فقامت تترنم^(١)..

ما روضةٌ من رياض الربيع معشبةٌ خضراء جاد عليها مسبلٌ هطلٌ
يضاحك الشمس منها كوكبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّرٌ بعميم النبت مُكْتَهَلٌ
يوماً بأطيب منها نشرٌ رائحةٍ ولا بأحسن منها إذ دنا الأُصْلُ

فهذه رياضك، ولكن هذا الوصف مجرد تقريبٍ لواقع الحال فكيف تكون الحقائق؟ لا يمكن أن يعبر عنها شيءٌ إلا ما يملأ عينيك.. فاملاً عينيك الآن.
وأنت تتحرك في مملكتك لترى ما أعد لكم رأيت أخيراً الجنات العظيمة { جَنَّاتٍ عَدْنٍ } [التوبة: ٧٢] وهي سرّة الجنة ووسطها، وسائر الجنات محدقةٌ بها، والواحد منكم يعطى جناتٍ لا جنة واحدة لسعتها.. والجنات لا تكون جناتٍ دون أن { تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } [آل عمران: ١٥]..

ومنادي الحق ينادي: { تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا } [مريم: ٦٣].
وراقك منظر الماء حيث الأنهار حيث تجري تحت الغرف والأشجار.. ترى الأنهار تجري من تحت أشجار الجنة وغرفها.. وهذه هي الأنهار الصغيرة التي تتخلل جنانك في مملكتك الخاصة.. ناهيك عن الأنهار الكبرى كنهـر الكوثر وأنهار الماء والعسل واللبن والخمر.. ثم أشرفت على أعظم أنهر الجنة (الكوثر) فإذا هو يتخلل جنانك.. تصور! ولا خيال فإنها جنة

(١) انظر: تفسير القرطبي ٤ / ١٣.

الخلد.. طينتها المسك الأذفر، وحبهاؤها اللؤلؤ والجوهر.. ومضيت في استمتاعك ثم رفعت يديك خاشعاً تقول: اللهم إني أسألك من فضلك إنك أنت البر الرحيم.

تذكر يا محب الحجاز ما كنت تراه في الحجاز وقارن:

ونظرت في الأشجار فإذا هي تختلف من جنة إلى جنة، ومن مملكة إلى مملكة بحسب الأعمال.. ودخلت جنة من الجنان التي لبعض أصحابك فإذا هي مُتْرَعَةٌ مرتفعة.. إذ وجدت نفسك وسط بستانٍ عظيمٍ تنمو نباتاته، وتسير طيوره { في سِدْرٍ مَخْضُودٍ } [الواقعة: ٢٨] مُوقَّرٍ بالثمر.. قد أثقل أصله من كثرته، وتراه لا شوك فيه.. ولربما حانت منك هاهنا ابتسامه فرحٍ وغبطةٍ؛ إذ تتذكر سدر الدنيا فتذكر أنه كثير الشوك، قليل الثمر.. ضعيف الشجر.. تؤذي صاحبها.. أما هذه التي أمامك فإنك تلمسها بيدك فإذا هي سدرٌ مخضودٌ قد ((خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكه ثمرة.. فإنها لتنبت ثمرًا فتفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من طعامٍ ما فيها لونٌ يشبه الآخر))^(١)..

ورأيت من الشجر هناك مما يشبه شجر الدنيا اسماً ولا يشبهها رسماً شجر الطلح.. يصفه ربي -عزَّ جاره- فيقول: { وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ } [الواقعة: ٢٩].. تأملت فيها فإذا هي شجرٌ عظامٌ كنتم ترونها بأرض الحجاز كثيرة الشوك.. ولكنها الآن منضودة متراكمة الثمر مصفوفة.. ثمرة أحلى من العسل.. ولربما سألك صاحبك لك: لم تركز على هاتين الشجرتين؟ فكانت إجابتك المصحوبة بابتسامه وردية: إنها تشبه شجر جزيرة العرب في زماننا في الدنيا.. لكن في الدنيا.. كان ما أكثر أذاها، وأقل جناها.. وهي هنا ما أعظمها جنى، وأجملها ندى.. وأطيب ثمرها، وأكثر درها...

(١) انظر: الترغيب والترهيب ٤ / ٢٩٣ وقال: رواه ابن أبي الدنيا بإسنادٍ حسن.

ثم تمتعت بالسير في تلك الحدائق الغناء فإذا بك تمشي بين شجرٍ عظيم الأفنان، جميل الأغصان، ذي ورقٍ ريان.. وثمر منضود.. تحت ظلٍ ظليلٍ، ونسيمٍ عليل.. و {وَوَظِلِّ مَمْدُودٍ} [الواقعة: ٣٠].. ورأيت هناك شجرةً مميزةً في ثمرها وهيئتها وظلها.. إنها شجرة باسقة عظيمة.. نعم ف ((إن في الجنة شجرةً يسير الراكب الجواد المضمر السريع في ظلها مئة عام لا يقطعها))^(١).. ومنادي الحق ينادي ((وظل ممدود))..

والتفت أخرى فرأيت شجرة أخرى.. إنها شجرة طوبى ((وهي شجرة في الجنة.. مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها))^(٢).. و ((ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب))^(٣)..

وهناك رأيت من الأشجار البهية الأشكال.. العالوية الطوال.. ما أخبر عنه النبي ﷺ.. اسمع إليه وهو يقص ذلك بتفصيل يشوق الأسماع..

فقد قام أعرابي إلى رسول الله ﷺ فسأله عن الجنة فقال: فيها عنبٌ يا رسول الله؟.. هل اشتهى صاحبنا العنب فقلق عليه.. ولذا سأل؟!..

قال ﷺ: نعم!..

قال: ما عظم العنقود منها؟..

قال ﷺ: مسيرة شهرٍ للغراب الأبقع لا ينثنى ولا يفتر.

قال: ما عظم الحبة منه؟.. وحتى يبين النبي ﷺ حجم الحبة الواحدة ضرب له مثلاً..

فقال ﷺ: ذبح أبوك تيساً من غنمه قط عظيمًا؟..

قال: نعم!

(١) البخاري ٣/ ١١٨٧.

(٢) أحمد ٣/ ٧١.

(٣) الترمذي ٤/ ٦٧١، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني.

قال ﷺ: فسليخ إهابه فأعطاه أمك، وقال: ادبغى لنا هذا ثم افري لنا منه دلواً نروى به ماشيتنا؟..

قال: نعم.. ثم إن الأعرابي قال: فإن تلك الحبة تشبعتني وأهل بيتي؟
قال ﷺ: نعم وعمامة عشيرتك^(١).

هذه مجرد حبة عنبٍ.. كيف ستكون الشجرة.. هذه هي الجنة.. وهذه بعض أشجارها.

روعة الاتكاء والمجالسة تحت الأفنان:

وترى ابن عباس يحكي مشهدكم -أهل الجنة- وقد خرجتم من قصوركم ((إليها أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم)) فتحدثون في ظلها.. فيشتهي بعضكم، ويذكر هو الدنيا، فيرسل الله رجلاً من الجنوب.. فتحرك تلك الشجرة بكل هوٍ في الدنيا^(٢).

وزين ذلك كله ما ترى من {وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ} [الواقعة: ٣١] يجري في غير أخدود يتخلل الأشجار والقصور.. ثم بدأت أنواع الفواكه تدور عليكم.. فماذا ينقصكم من الابتهاج وأنتم.. أنتم في {سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ (٢٩) وَظِلِّ مَّدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ} [الواقعة: ٢٨ - ٣٣]، والفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ تأتيكم من كل جانب.. وتناولت منها عنقوداً واحداً حتى تعلم مقدار طعمها، وبركة حجمها.. وعجبت من تجدده، وتكاثره مع لذيذ طعمه، وجميل ذوقه.. ولو أكل منه أهل الدنيا.. لو أكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه^(٣)..

(١) أحمد ٤/١٨٣، ورواه ابن حبان ١٦/٤٣٢، وصححه الأرنؤوط لغيره.

(٢) أخرجه ابن كثير في تفسيره ٤/٢٩١ عن ابن أبي حاتم وقال: "وهذا أثر غريب، وإسناده جيدٌ قويٌّ حسن".

(٣) الضياء في المختارة ٣/٣٩٦، أحمد ٣/٣٥٢.

..ربما خطرت ببالك الدنيا وتنغيصها.. فاطمن فإن هذه الفاكهة لا تنقطع شتاءً ولا صيفاً بل أكلها دائماً مستمراً أبداً مهما طلبتم وجدتم لا يمتنع عليكم بقدره الله شيء.. وكما يقول قتادة: لا يمنعكم من تناولها عودٌ ولا شوكٌ ولا بعدٌ..

وهناك بينما أنت مع أهلك تارة، أو مع صحبك أخرى.. بينما أنتم {ظلالٌ وعيونٌ} (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ} [المرسلات: ٤١، ٤٢] تسمعون منادي الحق ينادي زيادةً في النعيم والثناء {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [المرسلات: ٤٣]... وتتردد في مسامعك أصداء النداء الرخيم الشجي {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [المرسلات: ٤٤].

أيها المتقون: أتحفناكم بكل ذلك جزاءً لكم على الإحسان.. لقد نلتُم ما تستحقونه على عبادة الملك الديان.. أيها المتقون: لقد زدناكم من فضلنا مغفرةً وشرفناكم بالرضوان.. أيها المحسنون: هذا الوعد الذي وعدناكم فـ {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن: ٦٠].

فما العيش إلا ذاك لا عيش عزةٍ وسُعدى ولا ليلى ولا أمٌ سالم وذلك فضل الله يؤتيه من يشا ويرجى لعبدٍ قارع الباب لازم وبعد: أيا خاطب الجنة ((ألا هل مشمر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها: هي ورب الكعبة نورٌ كلها يتلألأ.. وريحانةٌ تهتز.. وقصرٌ مشيد.. ونهرٌ مطرد.. وثمرَةٌ نضيجة.. وزوجةٌ حسناء جميلة.. وحللٌ كثيرة.. في مقام أبداً في حيرة ونضرة في دور عالية سليمة بهية)) (١).. ألا هل من مشمرٍ إلى الجنة؟.

(١) ابن ماجه ٢/١٤٤٨، ابن حبان ١٦/٣٨٩.

أيها المتقون: انظروا إلى أنهار الجنة الكبرى.. هل رأيتم منظرًا أشهى وأحلى؟:

وقمت لتنظر في أصول الأنهار الجارية في حدائق ملكك.. فأنت ترى جنانك في مملكتك تشققها أنهار من ماء، وأنهار من خمر، وأنهار من لبن، وأنهار من عسل.. أردت أن تنظر في أصولها، ومن أين تأتي.. تتبعت ذلك لترى أنهار الجنة الكبرى التي تشق الجنة، وتتفرع عنها أنهار منها تجري من تحت غرفها وقصورها، وتعبّر أماكنها العامة، وتتفرع منها كل الأنهار الصغيرة التي تدخل في كل مملكة من ممالك الواحد منكم.. فرأيت.. ماذا رأيت؟

لقد رأيت أنهاراً { مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ } [مُحَمَّد: ١٥] غير متغير الرائحة.. تصور أنهاراً من ماءٍ غير آسن.. أنهاراً وليست صحافاً أو أكواباً.. وانظر كيف تسير في انسياب، وينجذب لها المرء غاية الانجذاب.. ولا تجدد إلا اللذة والصفاء وأنت تتناولها فلا أذى ولا قذى.

ثم نظرت في جهة أخرى فإذا هي { وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ } [مُحَمَّد: ١٥] فلم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة.. ولا تعود النفس بعد شربه متأذيةً مريضة.. ونظرت بعدها فإذا هي { وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ } [مُحَمَّد: ١٥] لم تدنسها الأرجل، ولم تعبت بها الأيدي كخمر الدنيا فهي لذيدة الطعم، طيب مذاقها، لا يتكرهها الشاربون ولا يملونها.. وهي أنهار وليست نهرًا واحدًا..

ونظرت أخيراً: فإذا أنت ترى أنهاراً { وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى } [مُحَمَّد: ١٥] فالعسل ما يسيل من لعاب النحل، ويحتاج إلى تصفية من الشمع والقذى.. أما هنا في الجنة فقد خلقه الله كذلك لم يطبخ على نارٍ ولا قاربه النحل؛ لأنه لم يخرج من بطون النحل..

إنها أبحرٌ لا أنهر.. تلتذون بها وفيها: هذا شربكم.. وذا منبع استمتاعكم.. ألا تردون:
وأنت في تأملك وانبهارك لحظت مقدار سعتها حتى لكأنها أبحر وليست أنهاراً.. النفث لبعض صحبك فقلت: انظروا: إنها لأبحرٌ من سعتها، وكثرة تدفقها.. إنها لأبحر.. ويحق لنا أن نقول ما

قاله النبي ﷺ: ((إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار التي تجري في جنان كل واحد منكم - بعد))^(١)..

ردّ آخر: إنها لأبحر في عظمتها وسعتها، أهر في عدوبتها وجرياتها وتدققها..
وتوافق قولكم على ذلك مسبحين حامدين..

وتأملتم في هذه الأنهار، فإذا هي "أفضل أشربة النوع الإنساني"^(٢).
فالماء لريكم، واستمتاعكم، وسباحتكم، وتلذذكم بطلب صيده أو اللعب مع موجه.. خذ
من ذلك وقل: رب زدني من بركاتك وفضلك.

والعسل كان في الدنيا لشفائكم ونفعكم.. وهل ثم مرضٌ في الجنة حتى يكون شفاء؟ كلا.. إنما هي العافية الدائمة.. بل العسل لتلذذكم، ولتفاخركم بنفاسته.. انظر هناك -أيها البار الأواب- كيف تنافس في تقديمه، والالتذاذ بأنواعه.

وأما اللبن فللحوت والغذاء كان في الدنيا، وهو هنا للشرب والهناء..
وأما الخمر فللذة والسرور، والتمازح والحبور.. ونعمةٌ يهفو إليها الكثير.. هديةٌ من الرب الغفور، لمن حرم لذتها في دنيا الغرور.. فخذها يا قائماً في السحور تناجي الإله الشكور.
وحاولت تتبع أصول الأنهار التي تجري في الجنة تلذذاً بطلب المعرفة، واستمتاعاً بالتجوال.. فعلمتَ وربما رأيتَ أن أعلى درجات الجنة وأوسطها وأعدلها وهو الفردوس الذي ترى فوقه عرش الرحمن... هو منبع هذه الأنهار حيث تفجر منه أنهار الجنة.. وهناك يسكن المشمرون لله من المصطفين الأخيار..

(١) الترمذي ٤ / ٦٩٩، وقال: حسنٌ صحيحٌ، وصححه الألباني.

(٢) انظر: فيض القدير ٢ / ٤٦٦.

أيها الثابتون على الدين.. الزاهدون فيما يلعب به الناس من الناكسين: هذا هو الكوثر:

ولقد رأيت هناك شيئاً مما أعطى الله لنبيه ﷺ، فقد أعطى الله لنبيه ﷺ الكوثر وهو الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه، وكان من ذلك الخير الكثير نهر الكوثر، وتفقدته فإذا هو نُهرٌ في الجنة^(١)، عليه قصرٌ من لؤلؤٍ وزبرجد، وعليه خيام اللؤلؤ والياقوت والزبرجد وعليه طيرٌ خضر^(٢) (أعناقها كأعناق الجزر) أنعم طير رأيت فهي كالإبل العظام سمان مترفة.. حتى قال عمر ﷺ: إن هذه لناعمة، فقال رسول الله ﷺ: ((أكلتها أحسن منها))^(٣).. يا لها من كلمة مشوقة للنعيم.. المقيم.. أبشر فأنت من أكلتها وستكون إنعم منها..

وتعجبت من صفاء لونه وبياضه فإنه ((أشد بياضاً من اللبن))..ناولك النبي ﷺ مباشرة بيده، أو بواسطة أعوانه كوباً عظيماً..فطعمت منه..فإذا هو ((أحلى من العسل)).. وحاولت أن تتلمسه فضربت بيدك عليه ثم شممته فإذا هو مسكٌ أذفر..وتأملت حافتيه فإذا هما من ذهب، وعلى حافتيه (جانبيه) آنية الذهب والفضة من الأباريق قد عُلقَتْ بطريقة لا عهد لك بها في الجمال والرونق.. وأما أشكالها وهيئاتها وجمالها ف((كأن الأباريق فيه النجوم)) لشدة وضائتها وصفائها..وأما عددها فكعدد النجوم فحاول أن تحسب العدد إن رغبت؟..

ونظرت ما بين طرفيه فلم تستطع الوصول إلى الطرف الآخر إلا بإعانة من الله ف((إن بعد ما بين طرفيه كما بين صنعاء وأيلة-القدس-)) أو ((من عدن إلى عمّان البلقاء..))..(وزواياه سواء)..فهو مربعٌ..فاحسب مساحته التي تستغرق عدة دول كبيرة في عصرنا..

(١) انظر: البخاري ٤/ ١٩٠٠.

(٢) الترمذي ٤/ ٦٨٠، وقال: حسنٌ غريب، وصححه الألباني، وقد ورد أن السائل أبو بكر.. فيحمل على التعدد.

وعلى شاطئيه ((حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف)) حيث رأيت دُرّاً مجوفة كالقباب العظيمة.. لا يخطر ببالك ما يوضع من استراحات على الشواطئ فلا مقارنة بين الاثنين... هاهنا دُرٌّ من لؤلؤ مذهب.. وليس مجرد بناءٍ من حجر أو خشب..

ثم نظرت في النهر فإذا هو يجري على رضراض^(١) من الياقوت والزمرد.. تصور هذا ومتع ناظريك في الجمال المتألق: حصاه الصغار عبارة عن الدر الثمين من الياقوت الأحمر والزمرد الفاخر.. ثم نظرت إلى مائه فإذا هو أشد بياضاً من اللبن.. أغراك جمال المنظر، وروعة صفاء الماء، وتألؤ الدر والياقوت.. أغراك ذلك كله لتشرب من هذا اللجين المتألق الصافي فطلبت الآنية فأتتك دون أن تبذل لها جهداً.. عندها أخذت من آنيته فاغترفت من ذلك الماء فشربت.. وربما عرفت لك بنفسها.. فطعمته فكيف يمكن أن تصف الطعم باللغة القاصرة التي لا تماثل الحقيقة ولا تدانيها.. تناولته فإذا طعمه أحلى من العسل.. لا تستطيع وصفه بأكثر من ذلك.. لأنه لا يوجد ما هو أكثر من ذلك في عالم الألفاظ الحبيسة.. ويا للفرق العظيم بين اللغة واللفظ وبين الحقيقة والمعنى، وبين الجنة وعبث الدنيا التعيسة.. وازدان الطعم برائحة أشد من رائحة من المسك^(٢)..

ذكرى المسك مع كوثر الملك:

ولك مع كوثر النبي ﷺ ذكرى عطرة تملأ عليك قلبك سعادة.. إذ في مشهدٍ من مشاهد القيامة من قبل وقد أخذ منكم العطش مأخذه -معاشر المتقين-.. يسبق النبي ﷺ الجميع ليشرب من حوضه الأغر، ويملاً عينه مما أعطاه الله إياه من الكوثر، وليستقبل جموع القادمين يلتمسون شرب الماء بل الذهب الصافي والجوهر الرائق.. وذلك لما يرون عليه الماء من صفاء

(١) الرضراض: الحصى الصغار.. انظر النهاية ٢/ ٢٢٩.

(٢) انظر: الطبري ٣٠/ ٣٢١، والحديث في البخاري ٦/ ٢٧٣١، وانظر: فتح الباري ٧/ ٢١٤.

وعذوبة.. يذكر النبي ﷺ تقدمه فيقول: ((إني فرطكم على الحوض [حتى أنظر من يردُّ عليَّ منكم])^(١)..

وذلك أن الناس يشتد بهم العطش يوم القيامة فيكون أشد شيء عليهم.. ولكلٍ منهم حوضٌ خاصٌ بهم.. فإن النبي ﷺ يقول: ((إن الأنبياء يتباهون أيهم أكثر أصحاباً من أمته، فأرجو أن أكون يومئذٍ أكثرهم كلهم وارداً.. وإن كل رجلٍ منهم يومئذٍ قائمٌ على حوضٍ ملآن معه عصاً يدعو من عرف من أمته))^(٢)..

ثم ينادي منادٍ عليكم لتردوا حوض النبي ﷺ فوردموه فكنتم فيه فريقين: فريقٌ استقبلهم النبي ﷺ.. فيا حفاوة ذلك الاستقبال.. ثم جاءهم الأواني ساعيةً ليغترفوا منها شربةً لا يظمأون بعدها أبداً.. والنبي ﷺ يبشر بذلك قائلاً: ((من مر عليَّ شرب.. ومن شرب لم يظمأ أبداً))^(٣)..

ثم ليغترفوا ما شاءوا لالتذاذ لا للظمأ..

كان أولكم وروداً وشرباً.. كالعادة أصحاب السبق العظيم، والمسارعة الكبيرة إلى الخيرات، الأوائل في اليقين بحقائق الدنيا: ((فقراء المهاجرين: الشعث رؤوساً، الدنس ثياباً، الذين لا ينكحون المنعمات، ولا تفتح لهم السدد، الذين يعطون الحق الذي عليهم، ولا يعطون الحق الذي لهم))^(٤)...

(١) البخاري ٥/ ٢٤٠٤، والزيادة عند مسلم ٤/ ١٧٩٤.

(٢) الترمذي ٤/ ٦٢٨، وصححه الألباني.

(٣) البخاري ٥/ ٢٤٠٦.

(٤) الترمذي ٤/ ٦٢٩، وابن ماجه ٢/ ١٤٣٨، وصححه الألباني.

لا تذهل عن الحقائق..إنهم فريق الخير في هذه الحياة:

إنهم الشعث رؤوساً..الدنس ثياباً لا لأنهم لم يضربوا في الأرض ينتغون من فضل الله..فهم قد بذلوا الأسباب لتحصيل أرزاقهم غير أنهم كانوا يقنعون بالقليل مع قدرتهم على التوسع والاستمتاع بالكثير..رضوا به، واطمأنوا إلى العمل بالآخرة.. فلم يُلهمهم الكثير عن العمل للآخرة مع أنه كان في أيديهم..إنهم الذين فقهوا قول ربه: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]..هدفهم وهمهم فيما يجمعونه تحصيل ما يقيمهم في الدنيا ثم الانشغال بما يرفعهم في العقبى..

إنهم الذين لا ينكحون المنعمات، ولا تفتح لهم السدد..لا لأنهم يعافون ذلك، أو يتظاهرون بالزهد المزعوم..ولكنهم بذلوا الأسباب لتحصيل رزقهم، وتمكين مكانتهم عند الناس..بيد أنهم آثروا ذوات الدين على ذوات اللهو المهين..

إنهم الصنف الإيجابي المتفاعل مع الحياة بيد أنهم ملكوها بأيديهم، ولم تدخل قلوبهم، ولم تملك نفوسهم، فهان عليهم أن ينفقوها مسارعةً إلى الله والدار الآخرة..يسبقهم النبي ﷺ الذي لو شاء لسارت له الجبال ذهباً وفضة، ولكنه آثر الآخرة، فكانت لا توقد في بيته نار ثلاثة أهلة في شهرين..فإذا ما ضاق حالهم يوماً، وقد بذلوا ما معهم ابتغاء رضوان الله لم يتسخطوا، ولا جزعوا، ولا ندموا أن قدموا لأنفسهم شيئاً ينفعهم في غدٍ الحق..بل نادوا في ظلمات الضيق الذي ألمَّ بهم..وصاحوا في أجواء الكرب الذي نزل عليهم: رب أسألك نفساً مطمئنة توقن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك، وتحشاك حق خشيتك، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبي الله ونعم الوكيل..

هتفوا في الليالي الكالجات: رب قنعي بما آتيتني، ولا تفتني بما حرمتني..رب آوني وأيديني بنصرك، وارزقني من الطيبات واجعلني من الشاكرين..

يا صاحب القلب المنيب في فريق المكرمين بالشرب من الحوض المورد..أيها الرفيع الأجدد..كان نصيبك الأسعد قد أقدمك المقدم الأحمد..فكنت من هذا الفريق المجدد..فلندع مشاعر الذكرى السعيدة تغمرك..ولنتقل إلى الفريق الآخر..

رؤوف رحيم يقول لمن بدل وغير: سحقاً.. سحقاً.. فلماذا؟

فبينما أنتم كذلك إذ رأيتم فريقاً من المصلين قد وردوا الحوض يريدون الاغتراف..والنهل من نهر الألفاف..فردتهم الخدمة من حوالي النهر..واختلجتهم بعيداً عنه..فذهبوا بعيداً..ومنعوا شرباً يروي منهم عطشاً مزيداً..والنبي ﷺ ينزع الخدمة عليهم ويحاول إعادتهم من شفقتة ورفقه ﷺ، ولكنه يُغلب عليهم آخر الأمر..فيظهر حزنه عليهم، وألمه لما حل بهم..ويدافع عنهم بما عرفه منهم..فيأتيه النداء..قد أمر بتوجيهه رب الأرض والسماء: ((إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك))..اهتف معي صادقاً: اللهم إني أسألك العافية، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

وبعد: وفي لحظاتٍ تظهر اغتباطكم بما أعطاكم الله في الدنيا على الدين من ثبات..تحمدون لأجلها رب الأرض والسموات..لربما وصف النبي ﷺ لكم هذا المشهد المفرح لكم..المخزي لغيركم ممن زُذوا على أعقابهم فانقلبوا خاسرين..يصف النبي ﷺ ذلك فيقول: ((ليردن عليّ الحوض رجالٌ ممن صاحبي [أعرفهم ويعرفونني]، حتى إذا رأيتهم ورفعوا إليّ [أهويت لأناولهم] اختلجوا دوني، [ولأنازعن أقواماً ثم لأغلبن عليهم] [ثم يحال بيني وبينهم] فلاقولن: أي رب أصيحابي أصيحابي، [فأقول إنهم مني ومن أمّتي]..ثم يقول ﷺ: فيم هذا؟ فليقالن لي: [هل شعرت ما عملوا بعدك والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم].. إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك [هم ارتدوا على أديبارهم القهقري]..[فأقول سحقاً سحقاً لمن غير

بعدي] .. [فإياي لا يأتين أحدكم فيدبُ عني كما يذب البعير الضال])^(١)
 سحقا.. سحقا.. يا لها من كلمة خرجت من فم رؤوف رحيم.. هي سيات العذاب الأليم
 على من غيّر وبدّل وارتضع من هواه فجره إلى الجحيم.. عندها يكون النبي ﷺ هو الذي
 يذودهم عن الحوض.. يُخبر ﷺ عن ذلك فيقول: ((والذي نفسي بيده لأذودنّ رجلاً عن
 حوضي كما تذاذ الغريبة من الإبل عن الحوض))^(٢).. فردد الآن -أيا حبيباه- مع ابن أبي
 مليكة خاشعاً منيباً: اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن عن ديننا.. آمين.

انظر هناك: عيون متفجرة ترتفع إلى أعلى.. ألا تتمتع؟:

أيا حبيب الجنة: انفتحت عينك وأنت ترى هناك {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا
 تَفْجِيرًا} [الإنسان: ٦] انظر إليها وتأمل كيف تشرب منها، وتروى منها.. وتأمل جريانها بل
 تأمل نوافيرها وهي تنبع نبعاً، وتفجر تفجيراً، وتشققها شقاً كما يفجر الرجل النهر ها هنا
 وها هنا إلى حيث يريد.. وتمتع بعلو نوافيرها فإذا هي ترتفع علواً عظيماً بتفاوتٍ في خطوطها
 ليتم الجمال والاستمتاع..

وللزنجبيل عينٌ تسيله يشرب بها المقربون صرفاً.. وتمزج لسائر أهل الجنة..

واذكر هناك {عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا} [الإنسان: ١٨] إنه شراب السلسبيل.. اسمها يدل
 على عظيم طيب طعمها، ولذيذ رائحتها.. واسمها بذاته يدل على أنه سهل الدخول في الحلق
 لعدوبته وصفائه.. وتعجب من هذه العين إذ تراها تسيل عليكم في الطرق، وفي منازلكم،
 وهي تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنة ثم تسير سلسلةً ينقاد ماؤها حيث
 شئتم.

(١) البخاري ٥/ ٢٤٠٦، مسلم ٤/ ١٨٠٠، والزيادات عندهما في مواضع متفرقة.

(٢) البخاري ٢/ ٨٣٤.

وترى نفسك تمشي في بيوتاتك، وتصعد إلى قصورك وربما كان بيدك قضيبٌ تشير به إلى الماء، فيجري معك حيثما دُرَّتْ في منازلك على مستوى الأرض في غير أهدودٍ، ويتبعك حيثما صعدت إلى أعلى قصورك.. يا لجمالها.. ويا للتمتع شُرباً وريّاً ونظراً وتلذذاً^(١).

وتميزت لك عيون الجنة لأعيانها: فالتسليم مثلاً للمقربين خاصة، ومثلها الكافور، ويمزج للأبرار من التسليم شراهم، ويمزج لسائر أهل الجنة من شراب الأبرار^(٢).

أيها الأبرار.. أيها المقربون: هذه العيون من حواليكم تتفجر فتناولوا منها ما شئتم نعيماً كبيراً، ولا تخافوا النقص فإنها وافرةٌ ووفرةٌ عظيمةٌ.. ألا ترونها تتفجر من حولكم تفجيراً..

أيها الأبرار.. أيها المقربون: كما أوفيتم بنذرکم وفرضكم من صلاةٍ خاشعةٍ، وزكاةٍ ذائعةٍ، وصوم أيامٍ متتابعةٍ، وحجٍّ وعمرةٍ جامعةٍ، وعيشةٍ طائعةٍ.. أوفينا لكم بعينٍ طالعةٍ، ومننا عليكم بمحبةٍ ورحمةٍ واسعةٍ.

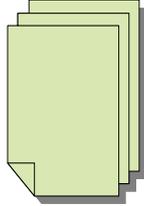
ونظرت إلى نفسك: تتنعم بالعيون، ويجري حواليك الماء الهتون.. شرباً واستمتاعاً.. فيا

للشجون! أجل.. وأذن المجد هناك.. ورددت أذانه أصداء الفخار:

هؤلاء هم الأبرار فليتمتعوا فإنهم كانوا {يُؤْفُونَ بِاللَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا}

[الإنسان: ٧].. كانوا يقولون {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا}

[الإنسان: ٩] فقليل لهم {إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا} [الإنسان: ٢٢].



(١) تفسير القرطبي ١٩ / ١٢٥، وهذا جمعٌ بين تفسير مجاهدٍ وغيره.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١٩ / ١٢٧.

المشهد الثالث
إلى أبهى جمال، وأحلى دلال..

هل يمكن لهذا الجمال أن تتخيله دون أن تراه..إنهن الحور ينتظرنك:
هناك في القصور العالية، والفرش الرخية، والحجال^(١) البهية تنتظرك الحور العين.. خذ ما
تشاء فتمتع بوقتك ونفسك..فإنك تعرف زوجك فور دخولك الجنة..إذ يهديك الله بإيمانك
إلى مكان ملكك الكبير، وزوجك وفراشك الوثير..
إنهن كما وصف ربي -عزَّ جاره- {وَحُورٌ عِينٌ} (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ { [الواقعة:
٢٢، ٢٣] كأهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه.
وفي مضجع الحب والود واللعب، والتفكه..مع زوجك الوفية.. لربما تذكرت صورتها وهي في
الدنيا وكيف قد أخذت فيها الأيام، وعملت في صفائها الليالي..فإذا هي الآن قد أعيد
تركيبها وبنائها وخلقها، فأعادها الله في أبهى شبابه، وأروع جمالها {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً} (٣٥)
فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا} (٣٦) {عُرْبًا أَّتْرَابًا} [الواقعة: ٣٥ - ٣٧].. بكرة كأن لم يطمثها من قبل
إنس ولا جان.. سبحان ربنا الخلاق العظيم..لقد قُبِضَتْ في دار الدنيا وقد وهى عظمها،
وذوت زينتها فجعلها الله عذراء (عروبا) متعشقة.. متحبة.. محببة.. متعجبة.. ذات دلال
في أخلاقها، وسحر في خلقها..ألا تشتاق..بلى فلطالما عانى العشاق..ليصلوا..لسان
حالمهم في غابر عهدهم:

القلب محترق، والدمع مستبق والكرب مجتمع، والصبر مفترق
كيف القراز على من لا قرار له مما جناه الهوى والشوق والقلق

(١) الحجال: هي الأرائك والسرر.

يا رب إن يك شيءٌ فيه لي فرحٌ فامنن عليَّ به ما دام بي رمقٌ
بل رأيتَ أعظمَ من ذلك فهاهي ذي تقوم بين يديك بحركاتٍ لم تعتد عليها في الدنيا من
التودد والتغنج والتحبب والتقرب.. الله ما ألد هذه الحياة، وما أشهى ذلك اللعب.. نعم إنها
عروبٌ متحبةٌ إلى زوجها بالحلاوة والظرافة والملاحة.. وهي عروبٌ عاشقةٌ لك وأنت لها
عاشقٌ.. متملقةٌ لك.. متوددةٌ بأحسن الكلام بين يديك.. مع حسن تبعيلٍ طالما تمنيت
استمراره في الدنيا.. تراها على الحجال -وهي الأرائك- فلا تجد لشدة جمالها وتغنجها أي
نموذج أو مثال:

وَعروبٌ حوراء ذات دلالٍ	في حجالٍ تدوب حبًّا وشوقاً
هي كاللؤلؤ الرطيب بياضاً	وصفاءً يعود بالدهر أنقى
لا تسليني عن التغنج فيها	هشَّ قلبي من السرور ودقاً
يا لعشقي يزيد الدهر عشقا	هو أسمى من كل وصفٍ وأرقى ^(١)

أي خَلقٍ يأسر النظر.. ويدعو إلى حبٍ مستقر.. كأنه سحرٌ مستمر:
وقلبت الطرف فيها فأول شيءٍ بدأت بالنظر إليه: عيناها فإذا أنت ترى أمراً يأسرك في
الحسن والملاحة.. إنها حوراء عينا.. فهي {وَحُورٌ عَيْنٌ} [الواقعة: ٢٢]..
ثم تأملت في قامتها ومد جسمها.. فإذا هي {كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ} [الواقعة: ٢٣]
صفاءها صفاء الدر الذي في الأصداق.. لم تمسه الأيدي، ولم تصير.. فلمست ذلك الجلد
فوجدت أمراً عظيماً.. عظيماً في الملاحة.. كأنها {كَأَنَّهِنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} [الصفات: ٤٩]
حقاً؛ فإن رقتها كرقعة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي القشور، وهي تجمع بين رقة

(١) لحادينا على طريق الجنة: عبد الرحمن العديني.

الجلد وشدة صفائه..ها هي ذي أمامك..تمتّع..ألا تغريك للمس جلدها..ما الذي أسرك فيها: أعيونها، أم صفاؤها، أم..؟! فقلِّب طرفك فيها..كيف تراك تجدها؟

قَلِّبِ الطرفَ فالجمال تجلّى وتمتّع فكل وصفٍ عجيبُ
"يا جمال العيون تأسر قلبي وأرى الأسر في هواك يطيبُ"
وترى اللؤلؤ الرطيب فتفهو لصفاءٍ هو الصفاء الحبيبُ
المس الجلدَ فالملاحة فيه رقٌّ حتى يكاد حسناً يذوبُ^(١)

مهلاً..مهلاً..أتريد أن تعرف مقدار صفائها..إنك من شدة صفائها ترى شيئاً عجيباً..فعلى الرغم من أن على كل زوجة سبعين حلةً إلا أنه يرى مخ ساقها من ورائها..يرى مخ ساقها من وراء اللحم..كما يُرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء..فليس المراد أن يخاف المرء وهو يرى مخ الساق..بل المراد أنها ذات صفاء عالٍ، وبياضٍ عظيم..تزداد جمالاً وحسناً بصفائها كما يزداد الكأس جمالاً وألقاً بصفائه حتى يكشف عما فيه من الشراب..وما زال جاهلاً، و صفاؤها، وطيب ريحها، وألق ثيابها..يسلب عقلك، فتحبس عينك أن تنصرف عنها مجرد انصرافة.. كيف لا ونيك المصطفى ﷺ يقول: ((ولو أن امرأةً من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما وملأته ربحاً.. ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها))^(٢)..هذا النصيف قارنه بأجمل نساء الأرض..حاول أن تقارن.. ثم أعلن اليأس عن التصوير عندما تنتقل من النصيف إلى الشعر..

يا لجسمٍ قد جمّلته ثيابٌ زاهياتٌ فكل ثوبٍ قشيبُ
هي سبعون قد تناهت جمالاً لك.. فانظر فكل لونٍ قريبُ
وترى مخ ساقها من وراء اللحم قل لي فكيف تُشْرِى العروبُ

(١) لحادينا على طريق الجنة: عبد الرحمن العديني.

(٢) البخاري ٣/ ١٠٢٩.

لو تراها وقد تبدت علينا فاستنارت منها الدنا والدروب
ونصيفٌ يُتَوَّجُ الرأس فيها هو خيرٌ مما يقل الجبوب^(١)

وسباك أنهن من الكواعب فهن الفتيات الناهدات اللواتي استدار ثديهن وبرز وظهر فأكسبن
جاذبية وجمالاً لا يقاوم..

ما هذا الذي عندكم يا صاحب القلب المنيب؟ {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أُتْرَابٌ} [ص:
٥٢] عندكم قاصرات الطرف على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم.. قصرت أطرافهن على
أزواجهن فلا يردن غيرهم، ولا يمددن أعينهن إلى سواهم، وهن أتراب على سنٍّ واحدٍ،
وميلاد امرأةٍ واحدةٍ.. وقد تساوين في الحسن والشباب.. بنات ثلاث وثلاثين سنة.. وهن
أترابٌ أيضاً متواخيات لا يتباغضن ولا يتغايرن^(٢). ثم أعدت النظر في الوجه.. فإذا هي من
الحسان.. يا لحسن ذاك الوجه، وجمال ذاك القد.. وخشيت من أن تخالف أخلاقها
خلقها.. فوجدتها من الخيرات الأخلاق الرفيعات الأذواق.. لا عجب أن تكون زوجك من
{خَيْرَاتٍ حَسَنَاتٍ} [الرحمن: ٧٠] خيرات الأخلاق حسان الوجوه والأجساد.. يسكن الجنة
لخيرين حسني الوجوه من أمثالك..

حسنٌ وجهٍ يزين خلقاً ربيعاً إن عيشاً من دونها لجديب
قَصَرَتْ طرفها عليك فأنت الروح منها، وأنت.. أنت الحبيب^(٣)

ثم وأنت تشرب هزك النظر في ثغر امرأتك وهي تتناول الكأس.. إذ هو ثغر حبيبٍ شهيقٍ
دفي.. يقترب من كأسٍ طيبٍ رخيٍ هني.. فأخذت بيد إحداهن وانطلقت نحو الأرائك
متمازحين.. وناديت بالرحيل إلى سررك العالية لغيرها من الحور العين..

(١) لحادينا على طريق الجنة: عبد الرحمن العديني، والجبوب هي الأرض.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٢٣ / ١١٧٤.

(٣) لحادينا على طريق الجنة: عبد الرحمن العديني.

لطالما مرث عليك أوقاتٌ في الدنيا تتذكر مثل هذا النعيم في العقبى فتتهتف مناجياً راجياً:
يا من تشابه منه الخَلْقُ والخُلُقُ فما تسافر إلا نحوه الحدقُ
لم يبق لي رمقٌ أشكو هواك به وإنما يتشكى من به رمقٌ^(١)

مجلسٌ من مجالس الحب مع الأزواج المطهرة:

واستهللت مجلس الحب مع قاصرات الطرف..
فتعال لننظر حالكم وهيئات جلوسكم واستمتاعكم بأوقاتكم {مُتَكَبِّرِينَ عَلَى سُرُرٍ} [الطور: ٢٠] متكبين على سررٍ مصفوفة.. تدعون في مجلس الأُنس بفاكهة كثيرةٍ وشرابٍ.. فمهما طلبتم وجدتم، وأحضر لكم كما أردتم.. والشراب.. من أي أنواعه شئتم أتتكم به الخدام {بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ} [الواقعة: ١٨]..
ومنادي الحق ينادي {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} [ص: ٥٤] ما آتيناكم من قوةٍ، ونعيمٍ، واستمتاعٍ هو عطاؤنا كرامةً لكم ما له من انقطاعٍ أو زوالٍ أو أفولٍ... فقروا عيناً وخذوا ما شئتم من النعيم. نعم هذا عطاؤنا نزجيه لكم {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود: ١٠٨] غير مقطوعٍ، ولكم فيها {أَجْرٌ غَيْرٌ مَمْنُونٍ} [فصلت: ٨] غير مقطوع.. وجناتكم، وأنهاركم، وبساتينكم {أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا} [الرعد: ٣٥]..
إنها جنة الخلد لك فيها "راحة الاتكاء، ومتعة الطعام والشراب، ولك فيها كذلك متعة الحوريات الشواب"^(٢).

وقت التضاحك في المضجع، والتقلب في المخدع.. تراه كيف يكون ؟
إلى الأرائك للعب والتمتع:

(١) أنشدها عبد الواحد بن نصر البيغاء.. انظر: تاريخ بغداد ١١ / ١١.

(٢) انظر: الظلال ص ٣٠٢٣.

وأقبلت على الأرائك.. أقبلت على سررك تتكى.. وتتودد إليك العرب الأتراب.. فأقبلن يتكنن معك على الأرائك وقد نُزع ما فيهن من غل.. وهناك تدانت السرر لتتداني الأجساد.. وتنعمتم بنوعٍ من اللهو قبل أن تُرووا الأكباد.. من شغلكم فاكهين.. نوعٌ من اللهو كالمسامرة، والضحك، والغمز، وتضاغط الأيدي.. وأمثاله مما يجبذه العشاق بينهم.. وأريكتكم هي الأريكة التي لا تظاهيها أرائك الدنيا ولا سررها.. نعم! هي كما في الدنيا بيئتٌ كالثَّبةِ يُستَرُّ بالثَّياب.. وتكون له أزرارٌ كَبَّارٌ، وستائرٌ رخيَّةٌ.. بيد أن الأمر لمن في الدنيا للتقريب لا غير.. وإلا فالحقيقة لا تدركها عينٌ.

وعندما يأخذك حب القلب والتضاحك في المخدع والمضجع مع أهلك وسكنك، وحبك.. فإنكم تأوون إلى فرشٍ مرفوعةٍ.. عاليةٍ.. وطينةٍ.. ناعمةٍ.. تميل بكم متى شئتم وكان ألدَّ لكم، وتثبت متى أردتم، وكان أشهى لكم..

هذه هي السرر التي تلهو وأهلك تحت أغطية ستائرها فاكهين: تارةً تتشبثون بالسرير.. وأخرى تلهون بالستائر.. وثالثةً تعاركون بعضكم عليها وفيها.. معاركة الأحياب.. الذين يستلذون بأطيب المضاربة أو المعاركة المستملحة.. وأنت تلتفت إلى السرر ترى الفرش الرخية عليها تدعوك بمهيتها ونعومتها إلى أن ترمي بجسدك عليها مترعاً منعماً..

عندها لم تملك نفسك.. حتى مضيت في شغلك اللذيذ.. ومنادي الحق ينادي: {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ} [يس: ٥٥].

ودنت متعة القلب والضمِّ فملتَم إلى الفراش الوثير
هو عالٍ، وناعمٌ، ووطيءٌ أين منه نعومةٍ من حرير؟
مال إن شئت أن يميل فلذَّ الميل منه وكان مثوى الجبور

ومتى رمت للفراش ثباتاً كان أشهى فماله من نظير^(١)

صورة الحسن تبديت.. لكنها الآن منك:

ورأيتَ أهلك وولدانك المخلدين ينظرون إليك بانبهار.. فتعجبتَ ولربما صدّرتَ منك حركات الاستغراب المستملحة.. ثم زال عجبك وأنت تنظر إلى صورتك.. إذ رأيتَ هيئةً قد بلغت الغاية في الحُسن.. إنها هيئتك ((على صورة القمر ليلة البدر أو على أشد كوكبٍ دري في السماء إضاءةً))، ومضى الوقت فإذا أنت تأكل وتشرب وتنعم وتهنأ.. ولكنك لا تبصق ولا تمتخط، ولا تتغوط، ولا يصيبك مسٌّ من نصبٍ أو سقمٍ.. فكيف يكون جمالك مع كل هذا التنعم فوق الجمال الذي توهبه ابتداءً حين يكون وجهك من الوجوه الناضرة البيضاء الضاحكة المستبشرة، ثم تجري عليكم قبل دخول الجنة نضرة النعيم... ولذا ترى حسنك وحسن أهلك يزداد حيناً بعد حين.. وأنتك تروح وتحيء دارةً رزقها عليك فإذا هي من الذهب.. وأما أمشاطك فهي من الذهب والفضة.. وأما مجامرك فهي الألوة الألنوج عود الطيب.. وأما رشحك فهو المسك.. وهكذا فقتَ من حولك جمالاً وإضاءةً.. وأنت تتقلب بينهم لا تدري أنك أكثرهم جمالاً.. أكثرهم فيما عدا حورك الحسان..

عرفنا ما حباك الله به من جمالٍ يُغطي الشمس.. فما حال ملابسك؟

خرجت إلى حورك.. فنظرت فيك: أتراهن يقلبن وجوههن دهشةً لما حباك الله به من جمالٍ يا صاحب الوجه الأبيض الناعم النضر الذي تعرف فيه نضرة النعيم.. وقد رأيتها.. لكن ثيابك وزينتك زادتك إشراقاً كما زدتها إشراقاً.. أترى مالك بن أسماء كان يصفك حينما قال:

وتزيدين طيب الطيب طيباً إن تمسيه أين مثلك أين

وإذا الدر زان حُسن وجوهٍ كان للدر حسن وجهك زينا

(١) لحادينا على طريق الجنة: عبد الرحمن العديني.

كيف حلتيك أولاً؟ أتستطيع الوصف؟ :

انظر إلى جمال حلتيك.. إلى جمال الحلبي، وسبح بحمد العليم الغني.. إنها ﴿أساور من ذهب﴾ (الحج: ٢٣) فعلى كل واحدٍ منكم ثلاثة أنواعٍ من الأساور: فنوعٌ من ذهب، ونوع من فضة، ونوع من لؤلؤ.. أجل أنهم ﴿يُحَلِّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [الحج: ٢٣].. ومعها ﴿وَحُلُوعًا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١].. واتتبه.. فإنك تحلى وتلبس بواسطة خدمك المتخصصين في اللباس.. ولا تجهد نفسك لفعل ذلك بنفسك.. فتارةً تلبسون الذهب، وتارةً تلبسون الفضة، وتارةً يجمع في يد أحدكم سواران من ذهبٍ، وسواران من فضة، وسواران من لؤلؤ ليجتمع لكم محاسن الجنة، ويجعل لكل قومٍ منكم ما تميل إليه نفوسهم^(١).. والسوار هو الذي يلبس في الذراع من ذهبٍ، فإن كان من فضة فهو قلب^(٢)..

وعندما خرجت لتلقى بقية المصطفين الأخيار من صحبك الأبرار.. نظرتم إلى بعضكم فإذا بينكم تفاوتٌ في مقدار الحلية.. عندها لربما تذكرت وأنى لك الذكرى.. تذكرت أن سبب هذا التفاوت بينكم في الحلية يرجع إلى إتقان الوضوء، إذ ((تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء))^(٣).. فيا ليت قومي من أهل الدنيا يعلمون.. اهتف معي مقبلاً على ربك: اللهم أعني على شكرك وذكرك وحسن عبادتك.. فلما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان جعل الله تعالى ذلك لأهل الجنة..

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٩ / ١٤٧.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١٠ / ٣٩٦.

(٣) مسلم ١ / ٣٩٦.

وتصور مقدار الجمال والبريق اللذان يصدران عن الأساور فإنه ((لو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدا أساوره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم))^(١)، ومنادي الحق ينادي: {وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى} [طه: ٧٦].

إنه منظرٌ تسيل له الأدمع المشتاق، وتهفو له نفسٌ مكابدةٌ تواقفة..

سفكت عليه أدمعي فسقيته كما هو من كأس الشجون سقاني

وقفْتُ به حيرانَ وقفه هائمٍ أعالج قلباً دائماً الخفقانِ

أيها المزكي لنفسه، أيها المطهر لقلبه: استمع لوصف بريق أساورك في الجنة.. انظر أيها المشتاق لعظم تلك الزينة والمنة.. ثم قل لي: هذه حليتك فكيف ستكون أنت؟.. ولا تنس عندها أن ترفع يديك سائلاً ربك الرحيم جنة النعيم.

والآن خذ صورةً مبسطةً لهيئةٍ من هيئاتكم:

تتأمل فيكم فإذا أنتم ((مسورون بالذهب والفضة مكللة بالدر، وعليكم أكاليل من درٍ وياقوت متواصلة، ويزينكم من أعلى تاجٌ يقرب منه تاج الملوك، وأنتم شبابٌ جردٌ مردٌ مكحلون))^(٢).

هذه هي الأساور؟ فكيف ستكون الثياب؟

وأنت أمام نساتك يقلبن النظر فيك بعد أن أخذهن بريق أساورك، عدن يرجعن النظر في ثيابك فإذا أنت قد لبست ثياب الحرير من {سُنْدُسٍ خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٍ} [الإنسان: ٢١] فمرةً يرينك وقد لبست ثوباً أخضر من السندس الحريري الرقيق النحيف.. ولأنك تتمتع بتبديل ثيابك كل برهةٍ من زمانٍ، فإنك تظهر أحياناً أخرى وقد لبست ثياباً خضراً من الإستبرق مما

(١) انظر: الترمذي ٤/ ٦٧٨.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٥٥٨.

ثخن من الحرير، والإستبرق هو الديباج المنسوج بالذهب.. وتارةً تجمع بين النوعين.. فتلبس السندس وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي الأبدان، وتارة تلبس الإستبرق بين الناس.. بما فيه من بريقٍ ولمعانٍ.. وهو مما يلي الظاهر كما هو المعهود في اللباس.. تتقلب بين حرير رقيق.. أو سميك مبطن أنيق.

ولكن أيا حبيب الجنة: لا تقلق! ربما تحب لوناً غير الأخضر.. حسناً فإنك تلبس الألوان المختلفة خضراء أو بيضاء أو سوداء أو غيرها.. وإنما ذكر الله اللون الأخضر في لباسك لأنه الموافق للبصر.. المنسجم مع خضرة الجنة.. فالبياض يبدد النظر ويؤلم، والسواد يذم، والخضرة بين البياض والسواد وذلك يجمع الشعاع^(١)..

إنه لباس أهل الجنة.. تراهم {عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا} [الإنسان: ٢١].. عاليهم.. "تأمل ما دلت عليه لفظة عاليهم من كون ذلك اللباس ظاهراً بارزاً يجمل ظواهرهم ليس بمنزلة الشعاع الباطن.. بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال"^(٢).

ونداء من الملاء الأعلى ينادي عليكم بالتهنئة والتكريم، والبشرى بالنعيم: {إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا} [الإنسان: ٢٢].. جازاكم الله تعالى على العمل اليسير بالأجر الكثير، وهذا النداء لكم يعدل هذه المناعم كلها، ويمنحها قيمة أخرى فوق قيمتها. الله! الله! ما مقدار الحب الذي تكنه في صدرك لربك الغفور الودود.. ألا تراه - كما يقول قتادة - غفر لكم الذنب، وشكر لكم الحسنى...

وأنتم في هذه الزينة وهذا المتاع، تتلقونه كله من ربكم فهو عطاءً كريماً من معطي كريم.

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٠ / ٣٩٧.

(٢) حادي الأرواح ص ١٣٦.

يا خاطب الجنة، وصاحبها الحميم: إنه النعيم المقيم.. انظر فيه إلى ما أسبغ الله عليك به من الفضل العميم.

ومنادي السماء نادى بلطفٍ "أبشروا كان سعيكم مشكوراً"^(١)

مجلس أنس يضم زوجته أو زوجاتك من أهل الدنيا ونساءك من الحور العين.. قارن!

وفي مجلس أنس فريدٍ من نوعه.. اجتمع فيه زوجتك أو زوجاتك من أهل الدنيا مع نسائك من الحور العين.. لا غيرة بينهم ولا تباغض.. فقد نزع الله الغل من قلوب المؤمنين وسقاهم رهم شراباً طهوراً أذهب ما في صدورهم من فحش الدنيا وضغائنهما.. اجتمعن معاً في مجلسٍ واحدٍ.. وصرت جالساً بين أيديهن.. ونظرت إليهن نظرة حبٍ في أثناء تضحككم ولعبكم.. فإذا هن أترابٌ في الأخلاق متواخياتٌ بينهم ليس بينهم تباغضٌ ولا تحاسدٌ.. لا كما كنَّ ضرائر متعاديات في الدنيا.. وهن أترابٌ مستويات الأسنان يأتلفن جميعاً، ويلعبن جميعاً.. وحاتت منك نظرةٌ لهن فتأملت فإذا هن بيض الألوان.. خضر الثياب.. صفر الحلبي.. مجامرهن الدر.. وأمشاطهن الذهب..

أعد النظر إليهن مراتٍ.. فهل يُملٍ منهن؟.. لا! إنهن حورٌ حبيباتٌ لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن حياءً وعفة.. مع أنهن {عَيْنٌ} [الواقعة: ٢٢] واسعاتٌ جميلات العيون! وهن كذلك مصوناتٌ مع رقةٍ ولطفٍ ونعومة: {كَأَنَّهِنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} [الصفات: ٤٩] لا تتبدله الأيدي ولا العيون!"^(٢).

فيا نظرةً أهدت إلى الوجه نظرةً أمن بعدها يسلو المحب المتيمم
فلله كم من خيرةٍ إن تبسمت أضاء لها نور من الفجر أعظم

(١) لشاعرنا المبدع عبد الرحمن العديبي.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ص ٢٩٨٧.

نساء الدنيا زادت الطاعة في حسنهن ﴿فإن الله أعد للمحسنات منكم أجراً عظيماً﴾:
اجتمعت نساؤك من نساء الدنيا مع الحور العين.. كل منهن عروبٌ متحبةٌ متعجبةٌ.. وبعد
أن كنت تشهد الواحدة منهنّ وحدها فتظنُّ أنّها قد استولت على الحسن كله، وأن ليس بعد
جمالها بعد.. وظهر لك فرقٌ عظيم بين الصنفين في الحسن والجمال.. **فإن نساء الدنيا أفضل
من الحور العين.. لا غرو! ألم يُكسبن نوراً وحسناً** بعظيم عبادتكن، وطاعتكن في الدنيا..
فذلك زيادةٌ يزيدها الله في خلقهن بما كنّ يعملن في الدنيا.. ولم لا يكن أجمل وأحسن؟..
انظر إليهن.. كيف زادت الطاعة في حسنهن: اكتسبن ذلك بصلاتكن وصيامهن وعبادتكن لله
عز وجل، فقذف الله في الدنيا في قلوبكن نوراً، وزادهن في الأخرى بهجةً وسروراً.. ومنادي
الحق ينادي: **{ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا }** [الأحزاب: ٢٩].. فهل ستغار
الحور من هذا الجمال البهيج لنساء الدنيا؟ كان ذلك سيكون لولا أن الله ينزع الغيرة
منهن.. ولم لا تحق لهن الغيرة.. وهن يرين من الجمال ما لا يوصف؟.. فهل سيتساءلن: من
هذه التي غطت جمالهن الأخاذ؟.. أم سيبادر زوجها الذي ربما لن يعرفها للوهلة الأولى وقد
أنشأها الله إنشاءً، وأعاد بناء جسدها من جديد.. فغطت الشمس بجمالها، وأهاجت الفؤاد
بدلالها.. وعندما يبادر زوجها للسؤال فما تراه يقول: يا هذه من أنت؟..

يا أنتِ ما هذا الجمال؟ ولمن أرى هذا الدلال؟

الحُسْنُ فيك تجمعا أخجلتِ رباتِ الحجالِ

المسكُ أنتِ أريجه والدُرُّ أنتِ له المثال

إني أراكِ بديعةً بالله ما هذا الجمال؟

عادت قليلاً للورا وتذكرتِ بيضَ الفِعالِ

وسببته حين تبسمت فرأى لفتنتها اكتمال

قالت وسحرٌ حديثها يهفو فتننتعش الظلال

زاد الجمال بطاعة لله ربي ذي الجلال

فاض الفؤاد بحبه والحب عنوان الكمال

أنا من ينجي ربه في الليل إذ أرخى الحبال

أدعوه أذرفُ أدمعي وأخاف من سوء المأل

حفظي لربي في الخفا ذلي له في كل حال

ومنعت نفسي ما نهي وأطبت سمعي والمقال

لبس الحجاب ألا ترى زاد الجمال على الجمال^(١)

وأما طيبتها وعبيرها الذي يفوح منها.. فأقل ما فيه أن يقال: هو الذي يكسب الطيب طيباً،

وهو الذي يعطر المسك لا العكس.. وهو حقيق بوصف مالك بن أسماء:

وتزيدين طيب الطيب طيباً إن تمسيه أين مثلك أينا

وإذا الدر زان حسن وجوهٍ كان للدر حسن وجهك زينا

انظر إليهن.. متّع نظرك بما حُبّين به من جمال.. وقد يُكَدِّرُ عليك في هذا الجمال ما كان

يُكَدِّرُ عليك في الدنيا من أن هؤلاء الأزواج يخفين وراء جماهن أذى وقذى يحطم ذلك

الجمال وبأباه.. من حيض ونفاس.. فتأتيك البشرية: أبشر! فهذا الجمال جمالٌ محض لم

يُشَبَّ.. لم يختلط بشائبة أذى.. فإن هؤلاء الأزواج {مُطَهَّرَةٌ} [البقرة: ٢٥] طَهَّرَن من كل أذى

وقذى وريبة مما يكون في نساء أهل الدنيا من الحيض، والنفاس، والغائط، والبول، والمخاط

والبصاق بل وحتى المني وما أشبه ذلك من الأذى والأدناس والريب والمكاره^(٢).. إنهن

النساء.. ولكنَّ نساء الجنة:

نساؤها المؤمنات الصابرات على حفظ العهود مع الإملاق والضرر

(١) لحادي الركب: عبد الرحمن العديني.

(٢) انظر: الطبري/١/١٦٩.

كأنهن بدورٌ في غصون نفا على كثيبٍ بدت في ظلمة السحر

ألا من غناءٍ يزيد مجلس الأُنس طرباً:

واشتهيت منهن غناءً يزيدك طرباً، أو سبقك لذاك لزيادة ولعك.. فعند ذلك اجتمعن معاً.. اسمع نبيك ﷺ وهو يصف ذلك الاجتماع البديع فيقول: ((إن في الجنة مجتمعاً للحوار العين يرفعن أصواتاً لم تسمع الخلائق بمثلها))^(١).. وتراهن وهن ((يغنين أزواجهن بأحسن أصوات ما سمعها أحد قط))^(٢)..

ها هن قد قمن يتغنجن بين يديك، ويرفعن أصواتهن بغناءٍ عذبٍ جميلٍ.. وكان مما سمعته منهن مما زاد شوقك للعناق، وحُبَّك لذيالك الارتفاق:

نحن الخالدات فلا نموت أبداً.. ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً..

ونحن المقيمات فلا نضعن أبداً..

ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً.. طوبى لمن كنا له وكان لنا..

ومن غنائهن: ((نحن الخيرات الحسان..

أزواج قومٍ كرام..

يُنظرن بقرة أعيان^(٣)..))^(٤)..

ولئن حاولت تنعيم هذه الأبيات لتجدنَّ لوقعها وإثارتها عجباً.. فكيف وهو يصدر ممن وضاءتها تمسح عين الشمس؟...

فيا لذة الأبصار إن هي أقبلتُ ويا لذة الأسماع حين تكلمتُ

(١) الترمذي ٤/ ٦٩٦.

(٢) الطبراني في الصغير ٢/ ٣٥، وصححه الألباني وما بعده في صحيح الجامع الصغير، انظر الترتيب ٤/ ٢٧٣.

(٣) أي ينظر إليهن فتقر أعين الناظر إليهن.

(٤) الطبراني في الأوسط ٥/ ١٥٠، وقال في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٩: ورجاله رجال الصحيح.

وفي أثناء غنائهن وتغنجهن شدت انتباهك إحداهن فصرت لا تجيل عنها الطرف..

وإذا بدت في حلةٍ من لبسها وتمايلت كتمايل النشوان
تَهْتَز كالغصن الرطيب وحمله وردٌ وتفاخٌ على رمانٍ
حتى إذا ما واجهته تقابلاً أ رأيت إذ يتقابل القمرانِ
فسل المتيم: هل يحل الصبر عن ضمِّ وتقبييلٍ، وعن فلتانِ
وسل المتيم: أين خلَّف صبره في أي وادٍ أم بأي مكان
وسل المتيم كيف حالته وقد ملئت له الأذنان والعينان
من منطِقٍ رقت حواشيه ووجهٍ كم به للشمس من جريان

ولكن مهلاً لا تشغلك الأولى عن الثانية.. ألا يكفيك احمرار الخدود عند طلب التحول من نهود إلى نهود...:

فإن أهل الجنة ((لكل رجل منهم زوجتان))^(١) سوى الحور العين.. فلا تنشغل بواحدة دون الأخرى.. وإن كانت الواحدة لتكفي الإنسان شغلاً..

تدخل على الأولى منهما فإذا هي في غرفةٍ من ياقوتةٍ على سريرٍ من ذهبٍ مكللٍ باللؤلؤ عليه سبعون زوجاً من سندسٍ وإستبرقٍ.. وتأمل المشهد الذي هزَّ العشاق طرباً؛ إذ يضع يده بين كتفها، ثم ينظر إلى يده من صدرها من وراء ثيابها وجلدها ولحمها.. وإنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك في قصبة الياقوت.. كبده لها مرآة.. وكبدها له مرآة.. فبينما هو عندها لا يملها ولا تملها، ولا يأتيها من مرةٍ إلا ويجدها عذراء.. فبينما هو كذلك إذ نودي من الثانية المستهامة المنتظرة: قد عرفنا أنك لا تمل، ولا تُمل.. إلا أن لك أزواجاً

(١) البخاري ٣/ ١١٨٥، مسلم ٤/ ٢١٧٨.

غيرها.. فيخرج فيأتيهن واحدةً واحدةً.. كلما جاء واحدة قالت: والله ما في الجنة شيءٌ أحسن منك، وما في الجنة شيءٌ أحب إلي منك^(١)..

عند ذلك يسدل الستار على مجلس الاستمتاع بأمّتع إزار.. حتى إن الواحد من أهل الجنة ((ليعطى قوة مئة في الأكل والشرب والنكاح))^(٢).. حسبه بذلك استمتاعاً.. وهو في دنياه عندما يريد الزيادة على ما أوتي من قوةٍ ضعيفة يكاد ينهار دون ذلك انقطاعاً.

فيا خجلة الغصن الرطيب إذا انثنت ويا خجلة الفجرين حين تبسم
فإن كنت ذا قلبٍ عليلٍ بحبها فلم يبق إلا وصلها لك مرهم
ولا سيما في لثمها عند ضمها وقد صار منها تحت جيدك معصم

وهناك رددت الأصداء انشغال أصحاب الجنة بالذ شغلٍ يتغيه الشباب، ويرجوه العشاق عند أحب لقاء.. {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِّئُونَ} [يس: ٥٥، ٥٦] فهل شغلهم إلا افتضاض العذارى كما قال ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومجاهد.. إنه شغل المحبين.. فما هو إلا:

شغل العروس بعرسه من بعدما عشت به الأشواق طول زمانٍ
بالله لا تسأله عن أشغاله تلك الليالي شأنه ذو شانٍ
واضرب لهم مثلاً بصبِّ غاب عن محبوه في شاسع البلدان
والشوقُ يزعجه إليه وماله بلقائه سببٌ من الإمكان
وافى إليه بعد طول مغيبه عنه وصار الوصل ذا إمكان
أتلومه أن صار ذا شغلٍ به؟ لا والذي أعطى بلا حسابان

(١) ورد مرفوعاً في حديث الصور الطويل.. وقد ذكرناه لأن واقع الآيات والأحاديث الصحاح تدل عليه.

(٢) الترمذي/٤/٦٧٧، وقال: صحيح غريب، ابن حبان/١٦/٤١٣، وصححه الأرنؤوط.

ويطيب لهم هذا الشغل حتى إن الرجل منهم - كما يقول أبو قلابة-: بينما يكون مع أهله إذ قيل له: تحول إلى أهلك، فيقول: أنا مع أهلي مشغول. فيقال: تحول أيضاً إلى أهلك^(١).. ألا يكفيك احمرار الخدود عند طلب التحول من نهود إلى نهود..

كأن احمرار الورد فوق غصونه بوقت الضحى في روضة المتضاحك
خدود عذارى قد خجلن من الحيا تهادين بالريحان فوق الأرائك

لعب على الأرائك تحت ظلال الأشجار:

وهكذا فأنتم في شغلكم فاكهون مسرورون.. معجبون.. ناعمون.. متمازحون مع طيب نفسٍ، وضحكةٍ فيم، وسرور قلبٍ، وانشراح صدرٍ، وأنسٍ نفسٍ^(٢).. وقد تتنعم مع أهلك تحت ظلال الأشجار على الأرائك متكئون.. {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِّئُونَ} [يس: ٥٥، ٥٦].

واتكأتم فيها على الأرائك متقابلين.. وكستكم النعمة فلا ترون فيها شمساً ولا تحسون زمهرياً.. فأنتم تلتفتون فلا ترون فيها شمساً كشمس الدنيا ولا قمرأ كقمر الدنيا تجدون أنفسكم في ضياءٍ مستديم لا ليل فيه ولا نهار.. وداعي الوصف يراكم بأجمل حياة فيردد {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَكِّئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيًّا} [الإنسان: ١٢، ١٣].

..هناك ترى اللذات صفواً بلا شائبة تنغيص.. فليس في الجنة شدة حرٍّ كحر الشمس، ولا شدة بردٍ كزمهرير الدنيا.. ليس عندكم حرٌّ مزعج.. ولا بردٌ مؤلم.. بل هي مزاجٌ واحدٌ دائمٌ سرمدٍ لا تبغون عنها حولا..

(١) تفسير القرطبي ٤٣/١٥.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ٤٣/١٥، تفسير ابن كثير ٤/٢٨٤.

بينما أنتم في الجنة إذ رأيتم نوراً أشرق، وضوءاً أبرق.. فلربما ظننتموه شمساً قد أشرقت فأشرقت
بذلك النور الجنة.. وإنما هو ابتسامَةٌ سطرها ثغر حسناء من الحور لزوجها..

كملت خلائقها وأكمل حسنها *** كالبدن ليل الست بعد ثمان
والشمس تجري في محاسن وجهها ** والليل تحت ذوائب الأغصان
فتراه يعجب وهو موضع ذاك من *** ليلٍ وشمسٍ كيف يجتمعان
فيقول سبحان الذي ذا صنعه *** سبحان متقن صنعة الإنسان
وكلاهما مرآة صاحبه إذا *** ما شاء يبصر وجهه يريان
فيرى محاسن وجهه في وجهها *** وترى محاسنها به بعيان
حمر الحدود ثغورهن لآلئٍ *** سود العيون فواتر الأجفان
والبرق يبدو حين يبسم ثغرها *** فيضيء سقف القفصر بالجدران
ولقد روينا أن برقاً ساطعاً *** يبدو فيسأل عنه من بجان
فيقال هذا ضوء ثغرٍ ضاحكٍ *** في الجنة العليا كما تريان
لله لاثم ذلك الثغر الذي *** في لثمه إدراك كل أمان(١)
وتزول جميع الهموم.. وتنقشع كل الغموم.. لرؤية وجهها.. لكأنه رسم مرسوم!
تراه إذا أبدت له حسن وجهها يلد به قبل الوصال وينعم
تُدَكِّرُ بالرحمن من هو ناظرٌ فينطق بالتسبيح لا يتلعثم
إذا قابلت جيش الهموم بوجهها تولى على أعقابه الجيش يهزم

ولعلك أردت أن تكرر النظر والحوار.. في جلسات المحادثة المتجددة.. فلتتلذذ الآذان بتكرار
الحديث على أوجهٍ أخرى مختلفة.. لقد كان هذا غاية ما يسعى إليه الدنيويون: تكرار ما

(١) نونية ابن القيم ٢/٥٤٩.

يجدونه من لذاتٍ..ولو بفعل المستحيلات.. بعد زمن الهرم والموات.. لكنك تعيش خالداً
مخلداً في شبابك فافعل ما بدا لك من نعيمٍ.. وكرر ما أحببت من لذةٍ.. وأعد ما شئت من
أقوال:

يا من يذكرني بعهدٍ أحبتي طاب الحديث بذكرهم ويطيب

أعد الحديث عليّ من جنباته إن الحديث عن الحبيب حبيب

أين من يعد المهر الخالص لمثل هذه اللذة الصافية.. فاذاً هنا أي خاطب الحور
الحسان.. اذكر أن بعض الصالحين قال: كنت في مجلس أبي منصور الواعظ فوقع رقعة في
المجلس.. فإذا فيها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: يا أبا منصور أنا رجلٌ من إخوانك.. تُبْتُ إلى الله على يديك.. وأنا
اشتريت من الله عز وجل حوراً على صداق ثلاثين ختمة.. فختمت منها تسعاً وعشرين فأنا
في الثلاثين.. إذ حملتني عيناى -أي نمث- فرأيت كأن حوراء خرجت عليّ من المحراب.. فلما
رأته أنظر إليها أنشأت تقول برحيم صوتها:

أتخطب مثلي وعني تنام ونوم المحبين عني حرام

لأننا خلقنا لكل امرئٍ كثير الصلاة براه الصيام^(١)

وبعد: فما رأيك بنعيم كهذا النعيم: ألا تسرج له مركب الشوق بعبادةٍ فانتة، وحب
خالص؟ وإنما يحاول أهل الدنيا التقليد:

أنتم مشغولون عن أهل النار وعذابهم بما أنتم فيه من النعيم، ملتذون متفكهون.. تتكئون في
ظلالٍ مستطابةٍ.. تستروحون نسيمها.. يأتيكم ما تطلبون من فاكهةٍ.. وما تشتهون من غيرها

(١) انظر: حلية الأولياء ٩/ ٣٢٦.

مما يمتنع جلستكم، ويزيدكم نعيمكم.. ولكم فوق اللذائذ تحايا التأهيل والتكريم: سلامٌ.. تتلقونه من ربكم الكريم: {قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ} [يس: ٥٨]..^(١)

..وهكذا يستمر نعيمكم لا تبلى ثيابكم، ولا يفنى شبابكم.. ولا تني ولا تضعف قوتكم.. وتتجدد لكم في كل حين لذتكم وشهوتكم.. ولقد ترى الدينويين المترعين بشبابهم يملأون الدنيا ضجيجاً بما حباهم الله به قوة جسد، وحلاوة مشهد.. فما يفتأون يطلبون لذتهم قبل احترام المنايا لهم.. فكيف ولذات الدنيا كلها تُمل.. وعندها الأبدان تُكِل.. تصاب بالعلل.. لو قورنت بلذات الآخرة المتجددة المستطابة..

وحسبك ذلك فإن له ما بعده وإنما هي إشارة إلى مكنن العشق الأحق.. لا إلى عشق الزيف، والاكتفاء في الدنيا بالرمق.

فما ترى في هذا النعيم أيا حبيب الجنة وعاشقها: تفكك مع الأبقار.. سماع لغنائ عذب مع الأبرار^(٢).. وإنما يحاول أهل الدنيا التقليد.. وهل يمكن تقليد ما يفنى بما يبقى، أو يلحق الشرى بالنجم الأعلى.. بل أيدركه وهو عنه منقطع لا يصل إلى ذرة منه أو أدنى.. {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى} [النجم: ٥٥]..

وقد أسكت النبي ﷺ تطلع التصورات حينما ذكر أن كل ما في الدنيا من لذائذ وشهوات ((لا تساوي جناح بعوضة))^(٣).. فهل يقارن ما لا يساوي جناح بعوضة بكل هذه القوة وذلك النعيم، وهذا المتاع.. وذا الملك الكبير..؟

"إنه نعيمٌ مضاعفٌ يجمع كل مظاهر النعيم.. نعيم تستمتع به النفس، ويستمتع به الحس.. وتجد فيه كل نفسٍ ما تشتهيهِ من ألوان النعيم.

(١) انظر: الضلال ص ٢٩٧٢.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٦.

(٣) انظر: الترمذي ٤/ ٥٦٠، وقال: صحيح غريب.

ولم لا؟ وأنتم - أولاً - عباد الله المخلصون.. يا له من تكريم أن يناديك الجليل: {إِلَّا عِبَادَ
اللهِ الْمُخْلِصِينَ} [الصافات: ٤٠].. وفي هذه الإشارة أعلى مراتب التكريم.
وأنتم - ثانياً - {مُكْرَمُونَ} [المعارج: ٣٥] في الملاء الأعلى.. ويا له من تكريم^(١).. هو وحده
نعيمٌ وأي نعيم.

أيا حبيب الجنة: فاستبق إلى ذلك المقام.. إذا استبق اللاهون في اللعب والآثام.. واحذر أن
تكون ممن قال فيهم أستاذ التربية الإيمانية يحيى بن معاذ الرازي: "عملٌ كالسراب.. وقلبٌ من
التقوى خراب.. وذنوبٌ بعدد الرمل والتراب.. ثم تطمع في الكواعب الأتراب؟!
هيهات.. هيهات.. أنت سكران بغير شراب..
أيا حبيب الجنة: ما أكملك لو بادرت أملك..
أيا خاطب الجنة: ما أجلك لو بادرت أجلك.. فأنجزت العمل.. قبل حلول الأجل..
أيا خاطب الحور الحسان: ما أقواك لو خالفت هواك.."^(٢).

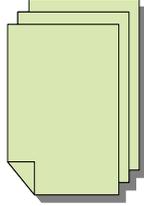
فيا خاطب الحسنة إن كنت راغباً فهذا زمان المهر فهو المقدم
والآن.. بعد هذا العيش الرائق، والفصل الشائق.. هل ستعلل نفسك وأنت تعد مهر العروس
بطيف العروس يشرق عليك سناها فتتهفو إلى الوصال المرتقب؟.. إليك هتافك وهتاف
طيفها.. في انتظار اللقاء الحق:

عليني بالوصال المرتقب وأزيلي همّ عني والتعب
وامنحي قلبي شوقاً جامحاً يطرد النوم ويشدو بالنصب
إيه حوراء سلبي مهجتي يا هناء الأسر يا فخر السلب
ما حياتي دون لقياك وهل طابت الدنيا وعنك المحتجب

(١) في ظلال القرآن ص ٢٩٨٧ بتصرف.

(٢) انظر: تاريخ بغداد ٤ / ١ / ٢١٠.. بتصرف.

فأنتني عند غمضِ حالمٍ ورنت هامسةً (يا للطرب)
يا حبيب القلب إني هاهنا في اشتياقٍ بات يغلي كاللهب
جد في السير إلى خالقنا واحذر الآثام دوماً والغضب
لا تعر قلبك دنيا زينت وطوت في ثوبها كل الكرب
قم من الليل ورتل في الدجى سور القرآن.. أجر المنسكب
واغتنم صوماً بيومٍ صائفٍ سوف يجلو الكأس مني والرطب
ردد الأذكار في أوقاتها و اسرّ بالروح ولا تحش العتب
وأطل ذكراً لنا إن الهوى يمنع الغمض ويعلو بالرتب
يا حبيب القلب هذا مهرنا وغداً ألقاك يا فوز الطلب^(١)



(١) لحادي الركب: عبد الرحمن العديني.

المشهد الرابع
أيها الصابرون: ((كلوا واشربوا هنيئاً
بما أسلفتم في الأيام الخالية))

أبهة الطعام وتحف الهدايا تتناوب المجيء إلى الكرام:

طابت الجنة وطاب سكنها.. فيا جناح الشوق احملي إليها بطاعة أنفياً فننّها..

واشتهيت الطعام فإذا رزقك منه.. تراه يأتيك متى طلبته بكرّة وعشياً.. الفائزون بجنات رهم
{هُم فِيهَا فَآكِهَةٌ} {يس: ٥٧} ليس ذلك فقط.. {وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} [فصلت:
٣١].. رزق يتناوب عليك مجيئه {بُكْرَةً وَعَشِيًّا} [مريم: ٦٢] فهو غير منقطع، ويتفكه معه
بفاكهة كثيرة {لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ} [الواقعة: ٣٣].. كل شيء هنا معدّ للتناول بلا كدٍ
ولا مشقة.. ورزق العشاء يختلف عن رزق الغداء.. وهكذا ترى النعم تتلون عليكم لتزدادوا
تنعماً وغبطة.. ليس لأن هناك ليلاً يُرى إنما هو ضوء ونور.. يرد الغدو على الرواح والرواح
على الغدو.. وتأتيكم طرف الهدايا من الله تعالى مما لا يمكنكم الإحاطة بتمنيته، وعندما تأتي
الهدايا تدخل عليكم الملائكة من كل باب تسلم عليكم سلام ذوي الوجاهة الرفيعة عند
رهم: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: ٢٤]..

تمتع بأبهة الخدمة، وطيب المقام، ولذة الطعام:

وأنت في مجبوحة قصرك أو في سرير ملكك أو في غرفتك، أو.. وأنت تتمشى في بساتينك،
أو تقضي بعض الوقت في جلسة ممتعة أمام الجداول المنبعثة من أنهار الجنة.. حيث البساتين
والرياض النظرة التي تجري من تحتها الأنهار.. وأنت في أي مشهدٍ من هذه المشاهد مستأنساً
لحديث أصحابك، أو مستمتعاً بالخلوة بأهلك.. ترى من أبهة الخدمة الجارية عليك ما لم

يَحْطِرُ لَكَ عَلَى بَالٍ، بَلْ وَلَا لِمَلِكٍ مِنْ مَلُوكِ الدُّنْيَا.. إِذْ تَرَى أَهْلَ الْجَنَّةِ {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ} [الزخرف: ٧١].. فَلَكَ فِي الْجَنَّةِ أَطْعَمَةٌ وَأَشْرَبَةٌ يُطَافُ بِهَا عَلَيْكَ فِي صِحَافٍ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ذَهَبٍ^(١)..

.. كُلِّ صِحَافٍ وَأَنْيَتِكَ مِنْ ذَهَبٍ.. جَاءَ يَوْمَ جِزَاءِ الْحَسَنَى.. كَمْ امْتَنَعْتَ مِنْ أَنْ تَسْتَعْمَلَ الذَّهَبَ آتِيَةً فِي دُنْيَاكَ ابْتِغَاءً وَجْهَ رَبِّكَ، فَأَعْقَبَكَ اللَّهُ بِأَعْظَمِ الذَّهَبِ فِي آخِرَتِكَ..

وَالآنَ أَوْقِفْ كُلَّ تَصَوُّرٍ عِنْدَكَ.. وَانظُرْ مَعِيَ إِلَى هَذِهِ الصُّورَةِ:

ها هم أولاء غلمانك المخلدون الذي يسيرون من حولك كأنهم لؤلؤٌ منشور.. وهم يطوفون بصحاف الذهب، وأكواب الذهب عليها ألوان الطعام والشراب.. وفي كل واحدةٍ منها لونٌ ليس في صاحبته.. وأنت تأكل من آخرها كما تأكل من أولها.. لا تمل ولا يعتريك ما يعترى الشبعان من الامتلاء الذي يمنعه من التمتع والتلذذ.. ثم تراك تجد طعم آخرها في اللذة كما تجد طعم أولها.. لا يشبه بعضه بعضاً.. ولا ينسى بعضه بعضاً.. ويراح عليك بمثلها.. وتصور نفسك وقد دعوت لذلك صحبك، وأهل أنسك.. ثم تصور نفسك تتناوله في حديقةٍ من حدائقك الغناء مع أهلك وأحب الناس إليك، أو مع حورك ونسائك.. وأنتم تُشَبِّفُونَ آذَانَكُمْ بِخَرِيرِ الْمِيَاهِ وَتَغْرِيدِ الطُّيُورِ.. وَالْأَصْوَاتِ الْحَسَنَةِ الْعَالِيَةِ، وَالتَّبَجِيلَاتِ الْمَفْخَمَةِ تَتَكَرَّرُ عَلَيْكُمْ تقول: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} [الحاقة: ٢٤].

عندها تذكرت الوعد الحق في الدنيا قد صار ماثلاً في الآخرة و {كُلَّمَا} [البقرة: ٢٥] رأيت نعيماً جديداً بادرت تقول: {هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ} [البقرة: ٢٥] هذا الذي وعدنا به في الدنيا، وجرى على لسانك ترتيل الوعد الذي سمعته في الدنيا، فترنمت تقرأ: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٦ / ١١١.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ {البقرة: ٢٥} فجرى على لسانك
تسييح الغفور الشكور.. شكراً وحمداً.

وعندما تتناول شيئاً من أعاجيب الثمار أو الطعام بادرت تقول لصحبك من حواليك، أو
لزوجك وأهلك في مجلس أنسك: {هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ} {البقرة: ٢٥} في الجنة.. لأنكم
ترزقون أولاً ثم ترزقون به ثانياً، فإذا أتيتم بطعامٍ وثمارٍ في أول النهار فأكلتم منها، ثم أتيتم
منها في آخر النهار قلتم {هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ} {البقرة: ٢٥} {مُتَشَابِهًا} {البقرة:
٢٥} يشبه بعضه بعضاً في المنظر ويختلف في الطعم.. كما تشبه بعضها بعضاً في أكلها كلها
"خيار لا رذل فيها" ولا رديء، ولا فاسد يغير بمنظره لأول وهلة "وليس كثمار الدنيا التي لا
تشابه.. لأن فيها خياراً وغير خيار" (١).. فليس أوله خيراً من آخره، بل أوله مثل آخره
وآخره مثل أوله.. فهو خيار كله يشبه بعضه بعضاً (٢).

وتعجبتم من اختلافه عن طعام الدنيا مع أنه يشبهه في أصل المادة فقلتم تاراتٍ آخر: {هَذَا
الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ} {البقرة: ٢٥} على وجه التعجب.. وأنى له أن يشبهه تماماً و((ليس في
الدنيا شيءٌ مما في الجنة سوى الأسماء)) فكأنكم تعجبتم لما رأيتم من حسن الثمرة، وعظم
خلقها (٣)..

واجتمع لهذا كله في هذه الصورة: جمال الولدان المخلدين الطائفين، وجمال الجنان، وجمال
القصور والعمران، وجمال الأثاث والخلان، وتوهج جمالك، وبريق جمال نسائك الخيرات
الحسان.. فأى منظرٍ من ذلك هو الذي يطغى عليك حبه والالتفات إليه أكثر..؟.

(١) انظر: تفسير القرطبي / ١ / ٢٤٠.

(٢) حادي الأرواح ص ١١٧.

(٣) انظر: تفسير القرطبي / ١ / ٢٤٠.

أواني الطعام: أكواب فضة طائفة، وصحاف من ذهب دائرة:

وأنت في متكئك أو في قيامك وتلذذك بالمشي في أرجاء جنانك، ورحاب قصورك يطاف عليكم {بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرًا (١٥) قوارير من فضة قدروها تقديرًا} [الإنسان: ١٥، ١٦].. يدور عليكم الولدان المخلدون ليعرضوا عليكم الشراب والأكل بآنية من فضة، ومثلها صحاف من ذهب.. لكن تذكر أيضاً عجز الكلمات فليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء.. فما في الجنة أشرف وأعلى.. وأسمى وأنقى.. وبالصحاف الدائرة والأكواب الطائفة يطيب المجلس ويجلو المتكا.

وحانت منك رغبة في تناول الكوب فأخذك جماله وصفائه، وحسن شكله حتى لربما أشغلك عن الشرب منه إذ تراه في صفاء القوارير، وبياض الفضة فصفائها صفاء الزجاج.. وهي من فضة مع ذلك المزاج^(١)..

وراعك ذاك الصفاء لأكواب الفضة إذ هي شفافاً يرى ما في باطنها من ظاهرها فإنه ليس في الجنة شيء إلا قد رأيت في الدنيا شبهه إلا القوارير من فضة^(٢).. فإنك لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم تر من ورائها الماء، ولكن قوارير الجنة من الفضة ولكنها فضة كالزجاج تبين صفاءها وصفاء ما ورائها من قوارير..

وبعد هذا الاستمتاع في النظر إلى الأكواب عمدت إلى النظر إلى محتوى الأكواب من أنواع الشراب.. وقد هفت نفسك للثم الكوب من صفائه فعجبت كيف أن الأكواب قد {قدروها تقديرًا} [الإنسان: ١٦] فقدرها لكم السقاة الذين يطوفون بها عليكم فأتوا بها على قدر رغبتكم واستمتاعكم والتذاذكم بغير زيادة ولا نقصان، وذلك ألد وأشهى.. وترى الأقداح عند بعضكم زاد شراؤها، وعند بعضكم نقص.. وذلك لاختلاف رغباتكم في الشرب فهي لا

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٩ / ١٤٠.

(٢) المراد رأيت ما يشبهه على هيئة ما.. كالأسماء.. وإلا فالجنة لا تقارن بما ملاذ الدنيا.. والأمر للتقريب.

تفضل عن الري، ولا تنقص منه فقد أهمت الأقداح ألياً معرفة مقدار استمتاع المشتهى حتى تعترف بذلك المقدار.

أيا عباد الله: ذلك لكم إيناساً وتكريماً، وإعلاناً للفضل، وللقرب من الجليل سبحانه.

ثمر الجنان.. وظلال الأفنان يتبعانك أنى دعوتهما.. فهما لك في كل حالٍ دان:

وأنت في مُتَكَبِّك في إحدى الجنان مع صحبتك تتحادثون أو مع أهلك تلعبون.. رغبت في أن يمتد عليك ظلٌّ من ظلال الجنة يعطيك نوعاً من الاستمتاع الجديد.. فترى الظلال تأتيك حيث رغبت.. فالظلال دانية عليكم.. {وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّكَتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا} [الإنسان: ١٤].. أكمل المشهد المثير للذة والاستمتاع: ففي ذلك المتكأ ذلت قطوفها تذليلاً.. تلتفت إلى الثمار الشهية، والفواكه الرخية فتحب أخذ شيءٍ من قطافها تلذذاً بأكلها، أو تفكهاً بمناولة زوجك بجوارك، أو راغباً في التفكه بالنظر إليها وتقليبها.. فترى القطوف تتجه نحوك بذلةً، وتضع نفسها في يديك في استجابةٍ تامة.. نعم فقد {وَذُلَّكَتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا} [الإنسان: ١٤] سُحِرَّتْ لك قطوفها وثمارها تسخيراً.. فإنك وأنت قاعدٌ أو وأنت مضطجعٌ لا يرد يديك عنها بعدٌ ولا شوكٌ.. بل إن قمت ارتفعت لك، وإن جلست تدلت عليك، وإن اضطجعت دنت منك فأكلت منها، أو تفكها بها.. إن أكلت منها قائماً لم تؤذك، وإن أكلت منها قاعداً لم تؤذك، وإن أكلت منها مضطجعاً لم تؤذك.. بل تذلت لك حتى تناولها.. وإذا هممت -مجرد همٍ يا ولي الله- أن تتناول من ثمارها تدلت إليك حتى تتناول منها ما تريد..

وعندما تذلل لك قطفوها ويسهل لك تناولها تراها تدنو منك فتبرز لك من أكمامها، وتخلص لك من نواها^(١).. ثم تتدلى من أعلى غصنها سامعةً طائعةً.. ومنادي الحق ينادي بخبرهم ويخبر عنهم: {وَجِئِ الْجَنَّتَيْنِ ذَانِ} [الرحمن: ٥٤].

ولا تسئل عن أنواع الفواكه، وألوان الثمرات.. فإنك ترى في الجنة {مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رِزْقَانِ} [الرحمن: ٥٢].. ففيها مثلاً {فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ} [الرحمن: ٦٨].. عَزَّ لَنَا يَا حَبِيبِ الجنة عما ترى من ألوان الفواكه وأطايب الطعام.. فماذا يمكنك أن تقول؟ لعلك وأنت مبتسمٌ مندهشٌ لا تستطيع التعبير عما تراه إلا بقول ربك جل وعز {وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} [المُجَدِّ: ١٥].. وزاد ربك عز جاره فأعطاهم شيئاً أعظم من كل هذا النعيم فقال: {وَمَعْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ} [المُجَدِّ: ١٥] لذنوبهم.. أيارب ذلك ما نبغي.. ذلك ما نبغي..

أيا خاطب الجنة: ماذا تريد أكثر من ذاك؟.. إذا ذلت القطوف ودنت الظلال.. فهي الراحة والاسترواح على أمتع ما يمتد إليه الخيال !.

حبذا اللهو مع الأحاب.. ودوران كؤوس الشراب:

الخمر.. كم تشنق لها النفوس، وتطرب لها القلوب.. وكم يهفو إليها من أراد الاستمتاع.. بعد دوران أصناف الفواكه التي ليس لها انقطاع.. ولكن خمرة الدنيا ما تزال سيئة الصورة منظرًا ومخبراً عند ذوي العقول.. فإليك صورة من عجائب الالتذاذ بخمرة صافية.. تطرب لها النفوس حقاً.. وتعشقها القلوب بدون استثناء صدقاً.. ولكن أيا حبيباه: انتظرها في الجنة ولا تعجل على التشبه بها في الدنيا.. إليك هذه الصورة الممتعة فاستمعها معلناً هيامك بها: لما طاب التمتع طاف عليكم الولدان المخلدون بأنواع الكؤوس التي تَرْفَعُ اللذة، وتُسَابِقُ للاستمتاع بها النفوس.. وترى أهلك معك وهم {

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٩ / ١٣٨.. هكذا قال، والظاهر أنه لا يوجد نوى في الجنة.

وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا { [الإنسان: ١٧] .. تسقون الخمر في الإناء ممزوجاً بالزنجبيل.. يطيب لكم رائحته، ويُجَمِّلُ ذائقته، ويجذب إليه اللسان جذباً.. فتارةً يمزج لهم الشراب بالكافور وهو باردٌ.. وتارةً يمزج بالزنجبيل وهو حارٌ ليعتدل الأمر أحياناً.. وأحياناً ليتم الالتذاذ بالنوعين.. والكافور عين ماءٍ في الجنة.. فالخمر تمزج للأبرار بالكافور، وتختم بالمسك.. وترى الكافور ظاهراً في ریحها؛ إذ تطيب الخمرة بالمسك والكافور والزنجبيل.. فشاهد هذا المشهد الرائع.. كاملاً في قوله تعالى: { إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا } [الإنسان: ٥] ..

أي خاطب الجنة وحبیبها: وعندما تصف ذلك بالكافور فيتراءى لك عبق كافور الدنيا.. أو بالزنجبيل فاذا ذكر أن ذلك بسبب أننا أسرى الكلمات التي نشاهدها ونألفها وإلا فهو ليس بكافور الدنيا ولكن سمي الله ما عنده بما عند أهل الدنيا حتى تهتدي لها القلوب.. فلا تخلط ما تسمع بما ترى في الدنيا فإنما هي أوصافٌ للتقريب، يعلم الله أن الناس لا يملكون سواها لتصور هذا الغيب المحجوب.

صورة إجمالية ترسمها سورة الإنسان:

فأنتم في تمتعكم متكئين على الأرائك بين الظلال الوارفة، والقطوف الدانية، والجو الرائق.. يطفأ عليكم بأشربةٍ في آنيةٍ من فضة، وفي أكوابٍ من فضةٍ كذلك، ولكنها شفافةٌ كالقوارير، مما لم تعهده الأرض في آنية الفضة. وهي بأحجامٍ مقدرهٍ تقديراً يحقق المتاع والجمال. ثم هي تمزج بالزنجبيل كما مزجت مرةً بالكافور. وهي كذلك تملأ من عين جارية تسمى سلسبيلا، لشدة عذوبتها واستساغتها لدى الشاربين!

وزيادة في المتاع فإن الذين يطوفون بهذه الأواني والأكواب بالشراب هم غلمانٌ صباح الوجوه، لا يفعل فيهم الزمن، ولا تدركهم السن؛ فهم مخلدون في سن الصباحة والصباه والوضاءة. وهم هنا وهناك كاللؤلؤ المنتور: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا} [الإنسان: ١٩] (١).

مخرج الطعام.. نعيم إلى نعيم:

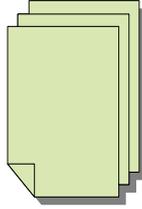
نعم ألا تنظر إلى صحبك ونفسك وأنتم: تأكلون فيها، وتشربون، ولا تتفلون، ولا تبولون، ولا تتغوطون، ولا تمتخطون.. لربما تساءلت وقد انفتحت أساريك، وأُشْرِعَ مَرْكَبُ شَوْقِكَ: فما بال الطعام.. كيف مخرجه حتى نستلذ بطعامٍ آخر؟ أو يكون إخراجه كما في الدنيا عذاباً في ذاته؟ فانظر ما حال طعامك الذي أكلت بعد أن أكلت.. وحتى تعود بطونكم إلى حالها فتستهي الأكل من جديد.. لقد تحول إلى ((جُشَاءٍ وِرْشِحٍ كَرِشِحِ الْمَسْكِ)) (٢).. فبعد الأكل يسقيكم ربكم {شَرَابًا طَهُورًا} [الإنسان: ٢١] تطوف عليكم به الولدان المخلدون.. أتيتهم في آخر ذلك بالشراب الطهور فتضمّر لذلك بطونكم، ويفيض عرقاً من جلودكم.. ولكنه عرقٌ أطيب من ريح المسك (٣) فإذا شربتموه بعد أكلكم طهركم وصار ما أكلتموه وما شربتموه رشح مسك وضمرت بطونكم.. لتلذذوا بطعامٍ جديدٍ، وشرابٍ فريد.. وترتيل الوصف يلهب الأسماع المشتاقة {وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا} [الإنسان: ٢١].. ومنادي الحق ينادي عليكم بالتعظيم والتبجيل، والتنعيم والتدليل: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ} [الزخرف: ٧٢، ٧٣].

(١) انظر: الضلال ص ٣٧٨٣.

(٢) انظر: مسلم ٤/ ١٣٥.

(٣) انظر تفسير القرطبي ١٦/ ١١٢.

وهناك لا تملكون أنفسكم وأنتم ترون هذه النعمة من التسبيح والتحميد، بل تلهمون التسبيح والتحميد والتكبير كما تلهمون النفس^(١)، وألستكم ما تفترون أن تردد { الْحَمْدُ لِلَّهِ } { الأعراف: ٤٣ } .. { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ } { الأعراف: ٤٣ } .. إنه الشعور بالنعمة لأنها ليست ككل نعمة.. إنها الجنة.. إنها الجنة أيها المشمرون فأين أنتم؟.. اللهم إني أسالك الجنة.. اللهم إني أسالك الفردوس وما قرب إليها من قول وعمل.



(١) انظر: مسلم ٤ / ١٣٥ .

المشهد الخامس
كالجمال في الصورة..
إليك الجمال في الصوت

الأصوات الطيبة.. تطيب المكان، وتوفظ الوسنان، وتأسر الإنسان:

وتتحرك في أرجاء مملكتك في جنتك العالية المرتفعة في المكان العالية في القدر والمقام؛ إذ فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون^(١)..

تعجب من ذلك ففوق شهوة النفس يوجد التذاذ العيون.. في المضمون الكمال، وفي الشكل الجمال.. فهامي المشتهيات على أطيب مثال.. فهل جدّ في تحصيله العمّال..؟

تتحرك وأنت قد بتّ راضياً عن عملك الذي عملته في الدنيا.. راضياً عن ثوابه الذي أعطاك ربك.. وماذا تبتغي أكثر؟ فقد أعطاك في الجنة هذا الملك العظيم الذي لم يكن يخطر على بالك أن تُعطى عَشْرَ عَشْرِهِ.. بل أن تستحقه في مقابل العمل اليسير الذي قدمته في الحياة الدنيا ولكنه ربك الجليل يجزي على اليسير بالكثير {إِنَّ رَبَّنَا لَعَفُورٌ شَكُورٌ} [فاطر: ٣٤].. ومنادي الحق ينادي: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: ٥٨]..

ولربما تساءلت وأنت تمر يجنانك، وجيرانك، وأسواق الجنة، ومجمعاتها: لكن مع كثرة العاملين في مملكتك والداخلين من زوارك وصحبك وضيّفانك.. ألن تسمع مع هذا الاختلاط شيئاً من اللغو يزعجك.. ولو قل؟ ويأتيك الجواب: {لَا تَسْمَعُ فِيهَا} [الغاشية: ١١] كلمة {لَاغِيَةً} [الغاشية: ١١].. فلا تسمع فيها كلمة لغو بل ولن تسمع حتى شيئاً من رفث التكلم فكل ما تسمعه هو كلام مرضي رقيق رائق..

(١) تفسير القرطبي، ٢٠ / ٣٢.

يا نضر الوجه: ما أكثر ما كنت تتأذى من لغو الكلام ورفث القول في الدنيا في بيتك، أو في سوقك، أو في طريقك... فأحياناً تسمع كذباً وبهتاناً وكفراً بالله عز وجل، وأحياناً تسمع كلاماً باطلاً يطفو منه الإثم، وأحياناً تسمع شتماً وسباً، وأحياناً كنت تسمع معصيةً، أو ما يؤدي إليها، وكثيراً ما كنت تتأذى بسماع الحالف يخلف بكذبٍ.. وأقل ذلك أن تسمع كلمة لغوٍ يظهر منها الفحش أو سوء الأدب.. ذاك كان في ماضي الأزمان.. أما في الجنان فلا تسمع إلا الحكمة، وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم، وشكر الديان.. والجميل من القول يخاطب بعضهم به بعضاً.. إنهم أصحاب الجنة: {أدخلوا الجنة {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} [الحج: ٢٤].

أيا نضر الوجه: شَنَّفُ سمعك لأعذب الكلام الذي تلقاه في كل أرجاء الجنة، فإنك تجده إما:

أن يكون التحية فيما بينكم -معاشر أهل الجنة-، وتحيتكم {فِيهَا سَلَامٌ} [يونس: ١٠]، وإما أن يكون الكلام الذي تسمعون من الملائكة الداخلين عليكم، والملائكة حين يدخلون عليكم من كل بابٍ، فإنما يرددون ثبوت السلام والأمن لكم، ويعطونكم أجمل عبارات التهنية والحب: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: ٢٤].. وهكذا أنتم لا تسمعون {فِيهَا لَعْنًا وَلَا تَأْتِيَمًا} (٢٥) إِلَّا قِيلاً سَلَامًا} [الواقعة: ٢٥]، وفي كل مجلسٍ لكم تُلقون في أرجاء الجنة تحيةً وسلاماً.. فلا تسمعون في الجنة كلاماً لاغياً عابثاً خالياً عن المعنى.. أو مشتتلاً على معنى حقيرٍ أو ضعيفٍ.. فضلاً عن أنك لا تسمع فيها تأثيماً من كل كلامٍ فيه قبح.. مما كنت تتأذى منه في الدنيا {إِلَّا قِيلاً سَلَامًا} [الواقعة: ٢٦] ولا تجد إلا التسليم منكم بعضكم على بعض، أو طيب القول يهز النفس، ويطرب الفؤاد.

تصور ذلك وقارنه بالذل الذي يلقاه أصحاب النار، والإهانة التي يتجرعونها مع العذاب الذي هم فيه حيث يوبخون بالكلام ويُقَرَّعون به ويقال لهم: {ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [آل عمران: ١٨١].

لا بد أنك اشتقت إلى شيء من الغناء والصوت الشجي، فاسمع ثم احكم:
والآن أيا عاشق الجنة: مهلاً! أيا خاطب الجنة: ماذا نسيت مما تشتهي.. تذكّر.. أو تريد من يُدركك؟.

هناك تذكرت.. تذكرت شيئاً. فما هو؟ لقد اشتقت لغناءٍ مباحٍ يطربك.. وصوتٍ حسنٍ يشجيك ويسليك.. ويعلي نعيمك.. فاسمع ما حوالياك مما تشتهي سماعه فإنه "سماغٌ لم يستمع السامعون إلى مثله" (١)..

تشتاق إلى الغناء في الجنة، فتطلبه فيجتمع لك فوراً ذووه المتخصصون فيه (إذا أخذ أهل الجنة في (الغناء) السماع لم تبق شجرةٌ في الجنة إلا رددت الغناء بالتسبيح والتقديس) (٢).. ويهب المغنون يغنون بأغانيها، والطير بأحانها، وقد قيل: يوحى الله تبارك وتعالى إلى الملائكة عند الترمم بالتسبيح أن جاوبوهم وأسمعوا عبادي الذين نزهوا أسماعهم عن مزامير الشيطان، فيجاوبون بأحان وأصوات، فتختلط هذه الأصوات، فتصير رجّةً واحدةً..

ثم إنك لا بد تشتاق إلى سماع صوت داود -عليه السلام- الذي كانت تسبح معه الجبال لشدة جمال صوته.. فاطلبه تجده يمجد ربه بصوت يغمر الأصوات ويسبقها حسناً وسبكاً، وحين ذاك تتضاعف اللذة.. وأهل الجنة في ذلك كله: {فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ} [الروم: ١٥] (٣).

(١) انظر: الطبري ٢٥ / ٩٧.

(٢) انظر: القرطبي ١٤ / ١٢.

(٣) انظر: تفسير القرطبي ١٤ / ١٣، وهذا على تفسير مجبرون بسماع الغناء.

ألا تشتهي الخروج للتبضع والترفيه في سوق الجنة:

وإذا اشتقت إلى متعة التسوق مع أبهة الإيمان وتما الترفه.. خرجت من مملكتك بموكبك وهيبتك متجهاً بمراكبك الوطيفة إلى سوق الجنة.. لا تنسَ هنا.. لا تنسَ أيا حبيباه وسل الله بعينين دامتين شوقاً وخوفاً أن يجمعك بأعز أصحابك في ذلك السوق.. أتريد رؤية السوق والتنزه فيه، ولقاء الأحبة والترفيه معهم؟.. فانظر إلى أهل الجنة قد خرجوا من بيوتهم في يوم التسوق.. نعم فإن ((في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً))^(١).. وخرجت معهم وازددت حسناً وجمالاً.. ثم رجعت إلى أهلك بعد أن ملأت مراكبك بتبضعك.. رجعت وقد ازدادت حسناً وجمالاً، ورجع أصحابك كذلك.. وهناك وجدتم مفاجأة جديدة من مفاجات التنعم إذ ((يقول لهم أهلوههم: والله لقد ازددت بعدنا حسناً وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددت بعدنا حسناً وجمالاً)).. لا تنسَ أيا المشتاق أن أسواق الدنيا ترجع منها وقد ازدادت غباراً وكمداً ونكدًا.. ثم سل الله من فضله.. رب إني أسألك من فضلك ورحمتك.

الحمد هو اللهجة المتكررة إزاء النعم المتجددة:

وأشرفت على صاحب القلب المنيب وأصحابه والنعم تزداد وتكثر يوماً بعد يوم وحيناً بعد حين.. نظرت إليهم فوجدتهم لا يملون أن يرددوا لهجة الحمد.. كلمة واحدة تختصر لهم شكر ما لا طاقة لهم بشكره.. نعم! فبعد أن عاينوا تلك الأنعم، وتقلبهم في الجنة في ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والمملك الكبير لم يملكوا إلا أن يهتفوا: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ } [الزمر: ٧٤] الذي كان وعدنا على السنة رسله الكرام بهذا مما لا يخطر لنا على بال فأنفذ الآن وعده.. هم يستذكرون.. ويتذكرون.. أنهم كانوا يدعون في الدنيا بذلك:

(١) مسلم ٤/ ٢١٧٨.

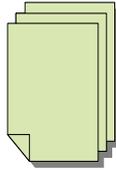
{رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [آل عمران: ١٩٤]..والآن..الآن عياناً يشهدون أنه قد استجاب لهم {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ} [آل عمران: ١٩٥]..استجاب لهم ربهم فهم يتقبلون في جناته..عندها يهتفون ويكررون: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْثَقْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ} [الزمر: ٧٤]..هناك سمعت صاحب القلب المنيب:

وسمعت المنيب يحمّد ربّاً
صَدَقَ الوَعْدَ قد هدى مَنْ أَنابا
"يا هناء الدخول أسعدت روحي راق عيشي بقرب ربي وطابا"

{نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ} [الزمر: ٧٤] أين شئنا حللنا، وفي مكان أردنا نزلنا، ولأي نعمة اشتهينا وجدنا {فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [الزمر: ٧٤] فنعمة الأجر أجرنا.. ولشعوركم بهذه النعمة العظيمة، وعظم الإحسان الذي أغدق الباري الكريم به عليكم.. تلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس^(١).

وتسمع عند ذلك ثناء الله عليهم مجدداً: {فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [الزمر: ٧٤].
والحظ.. أنه أجر العاملين وليس الكسالى الغافلين:

امنع جفونك أن تذوق مناما
واذر الدموع على الحدود سجاما
واعلم بأنك ميتٌ ومحاسبٌ
يا من على سخط الجليل أقاما
لله قومٌ أخلصوا في حُبِّه
فأثابهم واختصهم خداما
قومٌ إذا جنَّ الظلام عليهم
باتوا هنالك سُجداً وقياما



(١) انظر: مسلم ٤/ ٢١٨٠.

المشهد السادس
تنعم يا صاحب المتاب..
بلقاء أصدق الأصدقاء

نداء إلهي للمتقين من الأصدقاء والأحباب في يوم الحساب:

ومضينا مع نعيمك يا صاحب القلب المنيب.. فبينما يكون {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو} [الزخرف: ٦٧] يتعادون ويتباغضون ويتلاومون، ويتبرأ بعضهم من بعض.. وكل يدعي أن الآخر أغواه.. إلا أن فئة المتقين المفلحين غير ذلك.. نعم! {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو} [الزخرف: ٦٧] لاح النور، وذهبت هتافات الزيف.. فكل صداقة وصحبة لغير الله.. فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عز وجل فإنه دائم بدوامه^(١).. واجتمع المتقون من الأصدقاء تحت ظل العرش يوم التلاقي.. أظلمهم الله بعرشه كما أظلوا أنفسهم بالحب فيه..

وانظر الصورة التكرمية العظيمة التي تنالك وصحبك المتحابين فيه لا في غيره، المتبادلين فيه لا في سواه.. انظر هنا: {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} [الزخرف: ٦٧] ينادون نداء التشريف والإكرام، ويمنحون ألد وسام.. يقال لهم: {يا عباد لا خوف عليكم اليوم} [الزخرف: ٦٨] من عقابي فإني قد أمنتم منه برضاي عنكم.. {ولا أنتم تحزنون} [الزخرف: ٦٨] على فراق الدنيا.. فإن الذي قدمتم عليه خير لكم مما فارقتموه منها^(٢).

قر عيناً يا صاحب القلب المنيب بحبيبك ما دام من المتقين.. فالمتقون هناك تزداد أخوتهم، وتعاظم محبتهم يوم القيامة وبعدها.. أما يوم القيامة فيجمعهم الله على منابر من نور، ويظلمهم

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ١٣٥.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٢٥/ ٩٥.

تحت ظل عرشه؛ إذ قد اجتمعوا في الدنيا على الله، وتفرقوا عليه.. فكان جزاؤهم أن يجمعهما الله تحت ظل عرشه يُمتعون.. بينما الناس في عرصات القيامة يعذبون.. وأما في بلاد الأفراح ودار السعادة.. في الجنة فيلتقي بعضهم ببعض في الفردوس.. حيث ضمنت لهم الراحة الأبدية.. ونالهم التكريم السرمدي.. حتى يكون لكم أيها المتحابون في الله - كما قال ابن كيسان - شغلٌ عظيمٌ بزيارة بعضكم بعضاً^(١).. فبذاك يكون النعيم هو النعيم.. أنساً بأحبابكم، وشوقاً لأصحابكم.

لله هذه الخلة الطاهرة..

مشهدٌ من مشاهد صدق الصداقة الطاهرة:

أيا صاحب القلب المنيب! لعلك أخبرت وقد استقر بك المقام في جنات المأوى عن قصة حبٍ صادقٍ في الله - جلَّ جلاله - جمع بين خليلين مؤمنين في الدنيا^(٢).. فمات أحدهما.. فلما لقي ربه ذكر ما كان بينه وبين خليله من تحابٍ عظيمٍ في الجليل جلَّ شأنه.. كيف كانت أوقاتها تذكيراً لبعضهما بحقائق الإيمان، ودعائم الإسلام، فلما تذكر ساعات الصفاء.. وأوقات الإخاء.. اشتعل قلبه.. فقام ينادي ربه، ويدعو لصاحبه وهو في الآخرة وذاك في الدنيا.. يقول:

يا رب إن فلاناً كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير، وينهاني عن الشر، ويخبرني أني ملائكتك.

يا رب فلا تضله بعدي، واهده كما هديتني، وأكرمه كما أكرمتني.

فإذا أذكر فقدان أخي أتقلب في لحافي أرقا

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٥ / ٤٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٢٥ / ٩٤، موقوفاً عن علي عليه السلام.

وأخي.. أي أخٍ مثل أخي قد جرى في كل خيرٍ سبقاً
 فلما مات خليله المؤمن جمع الله -جلَّ جلاله- بينهما ثم قال لهما: لِيُثْنِ أَحَدُكُمَا عَلَى
 صاحبه.
 فقام الأول ليثني على صاحبه، ويسبق بذكر عواطفه فقال: يا رب إنه كان يأمرني بطاعتك
 وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير، وينهايني عن الشر، ويخبرني أي ملائكتك..
 كلماتٍ حبٍ صادقة فاحت عبيراً من فيمٍ طاهر.. فكان نتيجة الثناء على صاحبه أن يقول
 الله -جلَّ جلاله-: نعم الخليل! ونعم الأخ! ونعم الصاحب!.
 أنزفت هذه القصة فؤادك الولوع.. فاستثارت عينيك بالدموع؟.. أتركت وأنت تقرؤها
 المهجوع.. يتجافى جنبك عن المضاجع.. وأنت تتذكر أعز صحبك ممن قبضهم الله إليه
 قبلك..

من كان يُسليه نأْيٌ عن أخي ثقةٍ فإنني غير سألٍ آخر الأبدِ
 وكيف ينسأك من قد كنت راحته وموضع المشتكى في الدين والولدِ
 كنت الخليل الذي نرجو النجاة به وكنت مني مكان الروح في الجسدِ
 ففرقتُ بيننا الأقدارُ واضطربتُ بالوجد والشوق نازُ الحزن في كبدي
 لعلك تتألم منادياً: أيا لهفتاه ما قالوا وما قيل لهم.. وفوجئت بهم قد جمعك الله بهم في مقعد
 صدق عند مليك مقتدر.. في مقعد صدقٍ في الآخرة اجتمعتم.. وبجبه التقيتم.. كما
 افتترقتم.. لقد اجتمعتم في مقعد صدقٍ من الإيمان والأخوة في الدنيا حتى ((لو أن رجلين تحابا
 في الله أحدهما في المشرق والآخر في المغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة يقول الله: هذا
 الذي أحببته في))^(١).

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٣٥.

أما والذي إن شاء لم يخلق النوى لئن غبت عن عيني لما غبت عن قلبي
أخي رعاك الله في كل وجهةٍ توجهتها ما بين شرقٍ إلى غرب
توهمتُ منك الشوق حتى كأنني أناجيك من قربٍ وإن لم تك قربي^(١)
وفي زيارتك لأحبابك طاب الأنس، وأشرق المجلس ببهجته.. وأخذتم مقاعدكم تارةً في
الحدائق الغناء، وأخرى في النوادي المزدانة، وثالثة في الدواوين المزخرفة..

السُرر المرفوعة المتحركة..منظرٌ لا يُنسى:

وأخذتم مقاعدكم، وكانت مقاعدكم مكنم الراحة والسرور.. أنعمَ بها من متكأ راحة.. فإنها
{سُررٌ} {الطور: ٢٠} فلكل واحدٍ منكم سريرٌ يتكى عليه.. والسرير كرسِيٌّ طويلٌ متسعٌ..
يجلس عليه المتكى والمضطجع.. ولكن لم يكن اختيار السرير ليكون موضع الراحة لكم
عبثاً.. فإنه مأخوذٌ من السرور.. فهو للمترفهين من ذوي النعم.. أنتم الآن تتكئون على سرر
المسرات.. ونظرتم إليها فإن نعيمكم لا يُملُّ النظر إليه.. نظرتم إليها فإذا هي مصنوعةٌ من
ذهبٍ.. مكللةٌ باليواقيت والزبرجد والدر.

ثم نظرتم إلى ارتفاعها عن الأرض فإذا هي {مرفوعةٌ} {الغاشية: ١٣} فأنتم بها في رفعةٍ
حسية، وعلوٍ معنوي ونفسي.. وكرامةٍ تامة.. وإنما كانت مرتفعةً ارتفاعاً عظيماً لترى أي ولي
الله ومن معك ما آتاك الله من ملكٍ حولك.. ولذا فهذه السرر تدور بكم أنى
شئتم.. وتنتقلون بها هنا وهناك.. تقلبون طرفكم في النعيم العظيم حوالىكم.

وتركتم النظر إليها بعد أخذ مقاعدكم.. ونظرتم إلى ما هو أجمل منها: إلى أنفسكم.. وتقلب
طرفك لترى وجهك في وجه أخيك من شدة الصفاء، وترى نفسك في المرايا المنتشرة.. فما
ترى إلا وجوهاً نضرةً ضاحكةً مستبشرة.. ثم تعيد النظر في وجوه أصحابك.. فماذا ترى؟ إنَّ

(١) كتاب الإخوان لابن أبي الدنيا ص ١٤٠، والحديث تفصيلاً لما تنبته الآيات والأحاديث الصحيحة لذا أثبتناه.

كل شيءٍ يغيب فلا ترى في ذلك الوجه إلا الجمال المحض، والصفاء الخالص.. ف{تَعْرِفُ فِي
وَجْوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ} [المطففين: ٢٤] ترى بهجة النعيم، وغضارة النعيم، ونور
النعيم.. فوجهكم مزهرة، وأفواهكم ضاحكة، وأفئدتكم مستبشرة.
فلربما سبقت منكم البسملة وأنتم تتأملون فيما أتى الله بَعْضُكُمْ بعضاً من جمال.. بسملتم
ودعوتم.. وحمدتم:

فيا حبذا ذاك الحبيب المبسمل..

وأنتم في جميع أحوالكم متقابلون.. لا ينظر بعضكم إلى قفا بعض.. بل أنتم {عَلَى سُورٍ
مُتَقَابِلِينَ} [الحجر: ٤٧] متواجهين على أشرف أحوال الاجتماع.. يجتمعون وتتنادمون وتظلمون
متساوين في التواصل والتزاور..

والاتكاء له لذته فهو مرةً يكون بالاضطجاع.. وذلك مع أهلك وأزواجك من الحور العين..
وتارةً يكون بالتمرفق، أو بالتربع، أو بالتمكن في الجلوس.. وذلك مع أهلك، وولدانك،
وصحبك وخلانك.

لربما قلت: كم من التعب قد أصابني به التواصل والتزاور في الدنيا.. ولا بد من تعبٍ في ديمومة
التواصل ولو قل.. فماذا يكون حالي هنا؟.

ويأتيك الجواب: بنداء الحق العلوي {لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ} [الحجر: ٤٨] فأنتم على
حالتكم هذه من الاتكاء، أو من الارتفاع إلى السرر العالية، أو من التواصل المتبادل، أو من
السعي إلى ما تشتهون.. لا يمكن أن يمسكم التعب.. لا يمسكم مجرد مس^(١)..

انظر حوالبك: زينة تحف بكم من كل حدبٍ وصوب.. فتشغلكم عن بعضكم لوقتٍ:

ويزين منظر مجلسكم:

(١) انظر: روح المعاني ١٤ / ٥٩.

رؤية {عَيْنٌ جَارِيَةٌ} [الغاشية: ١٢] تجري بالماء المتدفق الذي يجري في غير أخايد والذي حاول البشر تقليد شيء لا يذكر بجانبه في الدنيا عن طريق النوافير.. والعين الجارية تجمع الجمال إلى العذوبة والصفاء والمتعة.. جمال الحركة والتدفق والجريان.. والماء الجاري يجاوب الحس بالحيوية وبالروح التي تنتفض وتنبض! وهو متعة للنظر والنفس من هذا الجانب الخفي الذي يتسرب إلى أعماق الحس..

وبينما ترى حولكم العين الجارية في غير أخطود.. ترونها وأنتم في مكانكم على {سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ} [الغاشية: ١٣].. والطير في تغريدها ولهوها تروكم بهجتها، والغلمان يطوفون بكم قياماً وعوداً للخدمة والزينة.. ومنادي الحق ينادي {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} [ص: ٥٤] لا ينقطع الانقطاع الذي كان أهل الدنيا يعانون منه.

ويزيد المنظر طرباً وحسناً وجمالاً ما اصطف بين أيديكم من أنواع الأكواب الموضوعة من الأباريق والأواني.. وأدوات الضيافة هنا تشغل بجمالها ونعيمها عن غيرها.. فإن الإبريق لم يُسمَ كذلك إلا لشدة بريقه، ونضارته، وظهور صفائه..

وفي متكئكم تتفكهون بأكواب موضوعة.. {وَمَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ} [الغاشية: ١٥] وسائد مصطفة هنا وهناك.. كل واحدة إلى جنب الأخرى.. على سرركم وعليها تتكئون.. ويجمل المنظر وأنتم تهزون الرؤوس من العذب اللجين الذي يُملأ في الكؤوس..

وإننا لنجري الكأس بين شروينا وبين أبي قابوس فوق النمارق

ومن تحتكم وعن يمينكم وعن شمائلكم {وَزَرَائِي مَبْثُوثَةٌ} [الغاشية: ١٦] بسطٌ وسجاداتٌ وطنافس لها خمل رقيق، وملمس ناعم وثير.. والفرش {بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ} [الرحمن: ٥٤] و إذا كانت هذه هي البطائن فكيف بالظهائر.. لها سمكٌ وحشوٌ بين البطانة والظهارة.. وقد نُشِرَتْ في الأرجاء.. وأنتم فوق ذلك كله متكئين فيها ناعمين.. بعضها فوق بعض..

يا لها من جلسةٍ مريحةٍ مطمئنةٍ.. والجو حولكم رخاءٌ ناعمٌ دافئٌ في غير حر، نديٌّ في غير برد.
فلا ترون { فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا } [الإنسان: ١٣].

ونظرت إلى الجالسين حوالبك فإذا هم:

صِحابٌ وشبانٌ حسانٌ وجوههم على سررٍ مصفوفةٍ ونمارق

تصور مشهد الحب: تنازع أحبابك الكؤوس.. تمازحهم وتداعبهم بتنازع الكؤوس:
وفيها جميعاً كنتم { مُتَّكِرِينَ فِيهَا } [ص: ٥١].. تدعون فيها ﴿بفاكهةٍ كثيرةٍ
وشرابٍ﴾ (ص: ٥١) تطلبون ألوان الفواكه والشراب الكثير.. مجرد كلمة.. ويُجاب الطلب.. ولربما
اشتهيتهم مع الفاكهة أنواعاً مختلفة من اللحوم فذكر ربي -عزَّ جاره- أن ذلك قد تمَّ فقال:
{ وَأَمَدَدْنَاَهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ } [الطور: ٢٢].. وإنما تمَّ الإمداد بالفاكهة واللحم
المشتهى تمهيداً لذكر النشوة المترتبة على تناول الكأس بعدها.. إذ كان أهل الترف في الدنيا
إذا شربوا الخمر كسروا سَورة حدثاً في البطن بالشواء من اللحم.. ويدفعون لدع الخمر عن
أفواههم بأكل الفواكه^(١)..

هكذا اجتمعت حولكم الزينة من أبوابها، والبهجة بأطنابها.. وأجمل من ذلك كله اجتماعكم
يا أصحاب المتاب.. بعد أن أصابكم في الدنيا ضرٌّ من الشيطان والفراق وعذاب.. لتلتقوا
الآن بعد ثباتٍ على الابتلاء.. في ثواب ربكم العظيم.. فنعم الثواب:

أخي إن نمت نلق أحبابنا فروضات ربي أعدت لنا
وأطيارها رفرت حولنا فطوبى لنا في ديار الخلود

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٧ / ٦٦.

الولد اللؤلؤة: سيدي.. الشراب.. الشراب:

وبينما أنتم في ذلك دلف الولدان المخلدون يطوفون عليكم بالشراب فيسقونكم من رحيق محتوم.. إنه شرابٌ لا غش فيه، ويأتي على رأسه الخمر الصافية العتيقة البيضاء النيرة.

ومن الوصف العجيب الذي يوصف به ما في هذه الكأس التي في يدك أنه {مَحْتَموم (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ} [المطففين: ٢٥، ٢٦] فأنت تختم به آخر جرعة، فإذا شربت هذا الرحيق ففني ما في الكأس انختم ذلك بخاتم المسك فعاقبته وأخر طعمها طعم المسك.. تكون رائحة آخره رائحة المسك.

كما أن هذه الكؤوس محتومة فختمت ومُنِعَتْ عن أن يمسه ماسٌ إلى أن يفك ختامها أنت ذا وصحبك الأبرار.. هل من سبيلٍ أيها المشتاق إلى العبور والاعتبار.. هل من سبيلٍ إلى الرجوع والادكار..

وقد ختم الكأس مع ذلك بالمسك بدلاً من أي شيءٍ آخر^(١)، وترى هذا الرحيق العذب مزاجه من تسنيم.. تراه وقد مُزجَ بشرابٍ يَنْصَبُ عليكم من علوٍ وهو أشرف شراب في الجنة.. إنها تسنيم أشرف عين ماءٍ تجري من علوٍ إلى أسفل يشرب بها المقربون صرفاً.. فتجري في الهواء بقدرة الله تعالى.. فتنصب في أواني أهل الجنة على قدر مائها.. فإذا امتلأت أمسك الماء فلا تقع منه قطرة على الأرض، ولا تحتاجون إلى الاستقاء.. فإذا ما أردتم شرب الرحيق السلسل الصافي مُزجت كؤوسكم منها لتزداد طيباً، وتستنشق منها بعض ما أوتيته المقربون^(٢).

وأنت تمازح أحبابك.. فابتهج بهذه المداعبة.. إذ نراهم وهم في مجلسهم: {يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْوُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهم} [الطور: ٢٣] فتتنازعون من الشراب كأساً من الخمرة الصافية {لَا لَعْوُ

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٩ / ٢٦٣.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١٩ / ٢٦٣.

فِيهَا وَلَا تَأْتِيْمُ} [الطور: ٢٣] وتتمازحون في نزاعكم إذ تتجاذبونها للمداعبة والملاطفة.. يتجاذبونها بينهم ويتعاطونها مجتمعين، زيادة في الإيناس واللذة والنعيم.. يا للمشهد.. واشوقاه إلى لقاء الأحبة على سرر متقابلين.. واشوقاه.. تتنازعون وتتمازحون.. وتعيدون ذكرى أخوة طالما رعت حدود الله في دنياها.. فكلاًها الله برعايته في دنياها وأخراها.. وتدللتهم في الطلبات.. من فاكهةٍ وطعامٍ ولحمٍ طير.. وأمانٍ سابغات..

وإزاء هذه النعمة العظيمة تسمع منادي الحق ينادي {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [المطففين: ٢٦] فليرغب الراغبون في هذا الشيء النفيس الذي لا مثيل له.. في ذلك فليبادر المبادرون إلى العمل المؤدي إلى هذا النعيم.. وفي ذلك فليتفاخر المتفاخرون وليتباه المتباهون. أيها المشتاق إلى الجنة: أجل {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [المطففين: ٢٦].. إنه مطلبٌ يستحق المنافسة.. أفضُّ يستحق السباق.. غايةً تستحق المغالبة.. مكانٌ يستحق التشمير إليه..

ويكرر الله عليك ذلك بعد أن ذكر هذه النعمة.. يكرر ذلك حاثاً وحاضاً ((لمثل هذا فليعمل العاملون)) فأين المشمرون؟ أين المشمرون؟.

جلسة محادثة: تعلنون فيها أنكم أشد حبا لله:

ولربما اشتقت إلى أخٍ من أحب إخوانك من أهل الدنيا.. عندها قد تتساءل عنه، ولربما قلت: رب! أين أخي فلان؟ فقد يحدث لك شيءٌ عجيب.. إذ يأمر الله ((يحيي سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا)) فتتحدثان فيتكئ هذا ويتكئ هذا فتتحدثان بما كان في الدنيا.. ((فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان تدري يوم كنا في مكان كذا وكذا فدعونا الله أن

يغفر لنا.. فغفر الله لنا))^(١)، لا تقف وأنت تقرأ هذا هادئاً بل ارفع يديك أيا حبيباه مع صحبك وقل: رب يا رحمن.. اغفر لنا.
 وفي إحدى جلسات أنسكم الخالد قمتم تتبادلون الأحاديث، وتقبلون أيامكم الماضيات في الحياة الدنيا... {وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ} [الطور: ٢٥] أقبل بعضكم على بعض تتساءلون.. تتذكرون ما كنتم فيه في الدنيا من التعب والخوف من العقابة.. وتحمدون الله تعالى على زوال الخوف عنكم، وقد يسأل بعضكم بعضاً: لم أكرمنا الله بهذه المنزلة الرفيعة؟..

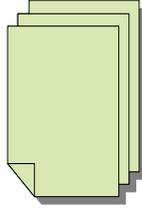
كنا مشفقين من عذابه وعقابه.. أن يتخطفنا قبل أن نصل بالتوبة إلى بابه:
 قال بعضكم مبيناً السبب: {إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ} [الطور: ٢٦] إنا كنا في دار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين وجلين من ربنا..
 مشفقين من عذابه وعقابه.. أن يتخطفنا قبل أن نصل بالتوبة إلى بابه.
 مشفقين من معاصينا الخاطئات.. أن تأكل منا إيماننا ويقيننا فترميننا في دنيا الغفلات.
 مشفقين من زلل أقدامنا بعد الدين والثبات.. أن نفتن عن ديننا ونرجع على أعقابنا بعد إذ هدانا الله.. وقد خلت من قبلنا في ذلك المثالات.
 مشفقين من معاصٍ فرطت منا.. وغفلة في أداء الطاعات.. نشفق أن ترد علينا فلا تقبل منا فتمضي حياتنا حسرات.

(١) الأصبهاني في العظمة ٣/ ١١٢٠، وانظر مجمع الزوائد ١٠/ ٤٢١.. وبغض النظر عن صحة الحديث هنا فإن إقبال أهل الجنة بعضهم على بعض يتساءلون يسهل تصور وقوع ذلك إن شاء الله تعالى.

{ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا } [الطور: ٢٧] بالتوفيق والهداية أولاً، ثم بالثبات ثانياً ثم بالمغفرة والجنة ثالثاً.. ثم تصدق علينا وأجارنا مما نخاف، { وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ } [الطور: ٢٧] وهي طبقة من طباق جهنم..

وتابعتم الحديث: { إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ } [الطور: ٢٨] فنعبده في الدنيا، ثم نسأله ونتضرع بين يديه أن يمن علينا بالمغفرة عن تقصيرنا، والمغفرة لذنوبنا.. { إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ } [الطور: ٢٨].. يا رفعة الفوز.. فاللهم من علينا وقنا عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم.

أيا خاطب الجنة: هذا هو الميدان الذي تذوب من أجله قلوب العشاق.. فرحم الله امرأً ضمّر نفسه للسباق، وساقها إلى الغاية أشد مساق.. واستعد للموت قبل هجومه.. وأخذ حذره منه قبل قدومه.. وأنفذ دموعه على الأوقات التي أضعها قبل أن تنزل به القدم.. قبل أن يُؤَاخِذَ بما علم وبما لم يعلم^(١).



(١) وانظر: اغتنام الأوقات ص ٦٢.

المشهد السابع
حاجة أهل النار إليك.. نعيمٌ عظيمٌ..
وجاهك عند الله نعيمٌ أعظم

شفاعتك لإخوانك: كرامةٌ جديدةٌ ومنزلةٌ عليّةٌ^(١):

أيا صاحب القلب المنيب: عندما تستشعر الخلاص، وتأمين من مكر الله، وتطمئن إلى النجاة من النيران، والتنعم بالجنان يلتهب قلبك على إخوانك وصحبك ممن قصرت بهم أعمالهم، وذهبت بهم رزيتهم في الدنيا حتى جعلتهم يُفوّثون رحمة الله وتفوتهم.. وعندما نجوت بمروك على الصراط يسعى نورك بين يديك ومن خلفك رأيت بعض هؤلاء وكانوا من المصلين.. رأيتهم وهم يتساقطون بين يديك ومن خلفك في جهنم، ووقع ذلك في قلوب أحبائهم من الناجين فقاموا يناشدون النبي ﷺ مناشدةً عظيمةً للشفاعة فيهم.. نعم هاهنا ينبغي أن تكون المناشدة والمتابعة.. ها هنا..

عند ذاك تجادل ربك فيهم طالباً الشفاعة في إخراجهم.. ويلهمك الله أن تشتد في طلبك تلذذاً برفعة جاهك عند ربك.. ((فما مجادلة أحدكم لصاحبه في الحق يكون له في الدنيا أشد مجادلةً من المؤمنين لربهم في إخوانهم الذين أدخلوا النار)) فتقول عند ذاك ومثلك باقي إخوانك من المخبتين وقد رأيتم كرامتكم عند ربكم..

((تقولون: ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويحجون معنا فأدخلتهم النار)).. الله! الله!.. هكذا بإدلال ورجاء أن يقبل الكبير المتعال.. شفاعتكم بإذنه لإخوانكم لكم عشرت بهم أعمالهم.. فرموا في النار.. نعوذ بالله..

(١) انظر الحديث عند: النسائي ٨/ ١١٢، ابن ماجه ١/ ٢٣، وصححه الألباني.

فتكون البشرى لك أن يقبل الله شفاعتك ((فيقول- لك ولصحبك-: اذهبوا فأخرجوا من عرفتم))..

الشرف... يُشارك المنيب في وفد الله إلى أهل النار... للشفاعة في بعضهم:

فتذهبون إلى النار مع الملائكة دون أن تصيبكم إذ لكم حمايتكم الخاصة.. أو لستم وفد الله؟ فتشاهدون أصحابكم دون أن تصيبكم النار بأذاها ((فتأتوهم [فيعرفوهم بعلامة آثار السجود، وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود] فتعرفوهم بصورهم.. لا تأكل النار صورهم..)) وتروهم في حالة عظيمة من العذاب والنكال.. **قل معي بخشوع وإخباتٍ: اللهم إني أسألك العافية...** ((فمنهم من أخذته النار إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من أخذته إلى كعبيه، فيخرجوهم فيقولون: ربنا أخرجنا من أمرتنا)).. ثم ينالكم معه نعيم آخر.. إذ يزيد الله لكم برحمته وفضله صنفاً آخر ف((يقول: أخرجوا من كان في قلبه وزن دينارٍ من الإيمان، ثم من كان في قلبه وزن نصف دينار حتى يقول: من كان في قلبه مثقال ذرة)) قال أبو سعيد: فمن لم يصدق بهذا فليقرأ هذه الآية {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ٤٠]- وأخيراً- يقولون: ربنا قد أخرجنا من أمرتنا، فلم يبق في النار أحد فيه خير))..

وعند ذلك يزيد الله برحمته وفضله أصنافاً أخر.. جبار السموات والأرض يقول: ((شفعت الملائكة، وشفع الأنبياء، وشفع المؤمنون، وبقي أرحم الراحمين.. فيقبض قبضة من النار أو قال قبضتين: ناسٌ لم يعملوا لله خيراً قط قد احترقوا حتى صاروا حمماً قال: فيؤتى بهم إلى ماءٍ يقال له ماء الحياة فيصب عليهم فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل فيخرجون من أجسادهم مثل اللؤلؤ..))، و((في أعناقهم الخاتم -مكتوبٌ عليه- عتقاء الله قال: فيقال لهم

ادخلوا الجنة فما تمنيتم أو رأيتم من شيءٍ فهو لكم عندي أفضل من هذا فيقولون: ربنا وما أفضل من ذلك قال: فيقول رضائي عليكم فلا أسخط عليكم أبداً^(١).
وعندما يغفر الله لأهل الإخلاص ذنوبهم يقول المشركون: تعالوا نقول لم نكن مشركين ويظنون أنهم يستطيعون الخداع والمراوغة فيقولون {وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣] فيختتم على أفواههم فتنتطق أيديهم فعند ذلك يعرف الكافر أن الله تعالى لا يكتفم حديثاً، وعند ذلك يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض...
فانظر جاهك عند أرحم الراحمين.. مزيداً من النعيم العظيم المبين..

في جلسةٍ من مجالس الأُنس الخالد:

زيارة صديقٍ من أصحاب الجنة لصاحبه من أهل النار:

وأنتم في مجلسكم الحافل بحمد الله وتمجيده على ما أنعم عليكم.. تنعمون بتحاوٍرٍ لذيذ ، وتذكرون فيه الماضي والحاضر.. أخذتم تتبادلون الأحاديث عن أيام الكدح في الدنيا.. وقام كلٌّ منكم يروي كيف عاصر أيام الدنيا فكادت أن تعصره ببلائها.. وكيف عاركها فكادت أن تعركه ببلائها.. وكيف بغت عليه نوائب الخير والشر تبثلي إيمانه.. فكادت أن تزيغه لولا أن تداركه الله برحمته منه وفضل.. وأخذ كلٌّ منكم يسائل صاحبه عما قاله وقيل له، وعما حدث له.. وطاب المجلس.. إي والله لقد طاب.. طاب فواشوقاه لمحادثة الأصحاب.. على فاكهة وشراب.. في جنات منحها برحمته المتفضل الوهاب..
واشتد النقاش والمساءلة.. للذة الحديث ولذة المقابلة.. {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ} [الصفات: ٥٠].. أقبلتم كلٌّ يبادل الآخر أحاديث الدنيا.. تماماً للأنس في

(١) البخاري ٦/ ٢٧٠٦.

الجنة.. لا تنس منظر المجد.. إذ هم في مساء لتهم لبعضهم وأثناء ذلك: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ} [الصفات: ٤٥] فهم يشربون فيتحدثون على الشراب كعادة الشُّرَاب:

وفي الجنات لذاتٌ ومنها أحاديث الكرام على المدام

انبعث أحدكم في أثناء ذلك من فضلاء الأولياء الصابرين الثابتين على دين الله -جلّ جلاله- في الدنيا.. انبعث يستعيد ماضيه، ويقصُّ على إخوانه طرفاً مما وقع له "({قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ} [الصفات: ٥١] قد كان لي قرينٌ.. كان لي صديقٌ ملازم لي {يَقُولُ أَأِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ} [الصفات: ٥٢].. كان هذا الصديق يسخر من اليوم الآخر ومن البعث والجزاء، ويقول لي: أحقاً ما سمعناه عنك؟ أحقاً أنت تصدق بالمبعث والجزاء؟ إنها لهجة المستهزئ المحقّر لليوم الآخر..

لربما قاطعه أحدكم قائلاً:

نعم كان لك قرينٌ من البشر يوسوس لك بهذا.. وأما أنا فكان الشيطان هو قريني الذي يوسوس.. يراودني على الكفر باليوم الآخر..

ربما قاطعه ثالث قائلاً: قد كان لكلٍ منا قرينه من شياطين الإنس والجن يحاولون أن نضل السبيل معهم.. ولكن يتفاوت مقدار تأثيرهم علينا من شخص لآخر..

ولربما قال رابع: وما قصه الله لنا في سورة الكهف الممجدة من قصة الرجلين: صاحب الجنتين وصاحبه الفقير.. عبرةٌ ظاهرة.. تصوروا كان يريد إغواءه لينكر اليوم الآخر لمجرد أنه غني.. قام يتناول على ربه فيقول: {أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا، وَدَخَلُ جَنَّتِهِ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً} [الكهف: ٣٤ - ٣٦] ها هي ذي قد بادت وها هي ذي الساعة قد قامت.. فماذا هو فاعل؟..

(١) انظر: في ظلال القرآن ص ٢٩٨٧.

أكمل صاحبكم قصته فقال: قام هذا القرين ينفث سمه بكلامه.. يقول بلهجة التعالي والغرور: {أَأَنْتَ لِمَنْ الْمُصَدِّقِينَ} [الصفات: ٥٢] أيعقل أن تكون مصدقاً لما يقال عن اليوم الآخر.. أيعقل أن تكون من المصدقين.. من المتصدقين بالمال طلباً لثواب الآخرة؟.. ومضى صاحبكم يقول: وتعجب منه كيف أوتي هذه القدرة على الحوار، وأنعم الله بها عليه فبدل نعمة الله كفوفاً، وأراد أن يحلني وقومي معه دار البوار.. بإنكار ركنٍ من أعظم أركان الإيمان.. ما زلت أذكره وهو يتابع حديثه ويكرره ويقول: {أَأِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ} [الصفات: ٥٣] أيمكن أن يحدث هذا: إذا صرنا عظاماً نُحَرَّةً باليةً، ثم فَتَنَّا التراب فصرنا كأن لا وجود لنا إلا هذه العظام المأكولة.. بعد ذلك نُحْيَا ونبعث من جديدٍ ثم ندان ونجازى ونحاسب.. تصوروا.. كان يسخر مني فيجمع الناس الذين على رأيه ليذهبني ويذهب عزتي بإيماني.. يجمع الناس ويقول كما كان يقال للنبي ﷺ: {هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَيِّنُكُمْ إِذَا مَرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} [سبأ: ٧] أندلكم على هذا الشخص الذي يقول بأن العظام الممزقة التي نشرتها الريح في كل مكان.. سوف تعود خلقاً آخر؟.

هل أنتم مطلعون.. لتروا كرامتكم وجزاء عناده؟

وعندما وصلتكم إلى هذا الحد من الحديث ناداكم منادي الحق: {هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ} [الصفات: ٥٤] على ما آل إليه أمر هذا المخاصم للحق؟.. وقال صاحبكم الصابر المخبت الأمر ذاته.. قال لكم: {هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ} [الصفات: ٥٤] إلى النار.. لننظر كيف حال ذلك القرين في دار البوار.. وتقارنوا: أما حالي فقد رأيتموه، وبقي أن نرى حاله.. ونعلم ذلك عين اليقين.. فقلتم جميعاً: نعم.. نريد أن نطلع على حاله فنغتبط أكثر بما نحن عليه.

عندها قال لكم: هلموا فاطلعوا.. فقمتم جميعاً إلى نجائبكم -مراكبكم-، وربما فتحت لكم كوةً ترون من خلالها أهل النار من غير أن يصلكم شيء من أذاهم، وربما كانت وسيلة الرؤية غير ذلك.. {فَاطَّلَعْ} [الصفات: ٥٥] ومن معه من المؤمنين الصحب القانتين على هذا الجاحد للبعث {فَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ} [الصفات: ٥٥] فرأيتم حال المنكر ليوم الدين.. كيف قد غُمس في وسط النار.. و"لولا أن الله جل وعز عَرَفَهُ إياه لما عرفه.. فقد تغير من شدة ما عذب" (١)..

فلما رآه صاحبكم في شدة العذاب، وسواء الجحيم ناداه متلهفاً على ما أدركه الله به من نعيم فقال: {قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ} [الصفات: ٥٦] والله لقد كدت أن تهلكني بوسوستك وإغرائك، وغمزك واستعلائك.. لقد كدت أن تهلكني لو اتبعتك وأصغيت إليك.. والله لقد كدت تهلكني لو كان تزعر إيماني بسبيك.. كنتُ أحياناً أميل إلى ما تقول، وأهم بفعل ما تفعل من اللعب والعبث والتمتع الحرام بالدنيا.. لكن الله أدركني وثبتني..
لربما قال له: رأيت لو استجبت لك فما يكون مصيري سوى الهلاك المحقق كما هو حالك الآن..

قال له: {وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} [الصفات: ٥٧] لولا أن عصمني ربي ووفقني للثبات على دينه.. لولا عصمة ربي وتوفيقه بالاستمساك بعروة الإسلام، والبراءة من قرين السوء {لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} [الصفات: ٥٧] لكنت معك في النار محضراً..
لكأنه قال له مكرراً: " يا هذا. لقد كدت توردي موارد الردى بوسوستك لولا أن الله قد أنعم علي، فعصمني من الاستماع إليك" (٢).

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٥ / ٨٣.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ص ٢٩٨٨.

وتثير رؤيتكم لقرينه في سواء الجحيم شعوركم بجزالة النعمة التي نلتموها فأحبب أحدكم أن يؤكدها ويستعرضها، ويطمئن إلى دوامها، تلذذاً بها، وربما كان صاحب القصة ذاته.. فقام يقول:

أيها الجاحد للبعث: انظر إلينا: ألسنا بمخلدين منعمين.. فما نحن بميتين ولا معدبين {إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدَّبِينَ} [الصفات: ٥٩].. انظر إلينا فهذه هي حالنا وصفتنا.. التي كنت تستهزئ بها في الدنيا.

ومضيتم تقولون ذلك تحدثاً بنعمة الله في أنكم لا تموتون، ولا تعذبون.. بل لعلكم تقولون ذلك جميعاً.

عندها استذكرت مع صحبك ما كان الكافر المغرور بدنياه يزهو به، ويدعو الناس إليه من العمل للدنيا محضاً، تذكرتكم أنه كان يزين للناس ذلك بقوله: {أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا} [الكهف: ٣٤].. يقول: لو كنت على حق أيها المؤمن لم تكن بهذه الحالة من الضعة وفقر الحال، وذلك المقام والمقال.. هكذا كان يستهزئ فقد رأينا الآن عاقبة استهزائه وتكذبيه،، والحمد لله رب العالمين.

فلما تذكرتم ذلك قلت أو قال أحد المخبتين منكم فوافق قوله قول الملائكة حوله: أترون النعيم الذي نحن فيه {إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الصفات: ٦٠] {لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ} [الصفات: ٦١] مثل هذا العطاء والفضل فليعمل العاملون..

ولعلكم عند ذلك سمعتم منادي الحق ينادي معلقاً على ما حدث بينكم من حوار.. يزيد صوته من نعيمكم: {إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الصفات: ٦٠] {لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ

الْعَامِلُونَ} [الصفات: ٦١]. ..يا لها من كلمة ختام لقصة الفتى الهمام الصابر على دينه توظف أنفسنا من غفلة الدنيا، وتنصب هممنا لعزة التوفيق في الحياة الأخرى^(١). إنه نداءً يوقظ القلوب ويوجهها إلى العمل والتسابق لمثل هذا المصير: لمثل هذا النعيم الذي لا يدركه فوت، ولا يخشى عليه من نفاذ، ولا يعقبه موت، ولا يتهدده العذاب. لمثل هذا فليعمل العاملون.. فهذا هو الذي يستحق الاحتفال.. ويطلب النسج على منواله لأقوم مثال، وما عداه مما ينفق فيه الناس أعمارهم على الأرض زهيد.. زهيد حين يقاس إلى هذا الخلود^(٢).

يا أهل الجنة أشرفوا على أهل النار، وذكروهم بما كانوا يستهزون:
وفي إحدى جلساتكم العامة بأطياب الملذات، وأعظم المحامد والتسيبحات تساءل بعض المؤمنين: {هَلْ تُؤْتَى الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [المطففين: ٣٦]^(٣). ..طراً عليكم أن تعرفوا ذلك عياناً.. وتبصروه بياناً.. عند ذلك تقوم مع بعض أصحابك من المفلحين برحلة ممتعة تزيدكم نعيماً إلى نعيمكم.. حيث تتحركون بأرائككم المرتفعة إلى مكانٍ تطلون منه على أصحاب النار، وربما بقيتم في متكئكم تنظرون إليهم عبر كوةٍ تفتح لكم لتروهم وأنتم في نعيمكم ترفلون، وهم في جحيمهم يعذبون.. تقفون منهم بحيث يسمعونكم عبر وسائل معينة.. يسمعونكم ولكن أنى لهم أن يتذوقوا مجرد عبيرٍ من فوح شذا النعيم الذي في الجنة..؟..

(١) أعمل الكاتب الآيات في كل الاحتمالات، فمثلاً: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ يحتمل أنه كان تعليقاً على القصة ليعتبر أهل الدنيا، ويحتمل أنه قاله أحد الملائكة أثناء حدوث القصة في الآخرة زيادة في التنعيم لأهل النعيم، ويحتمل أنه قاله أحد أصحاب القصة أو كلهم ابتهاجاً وإعلاناً بأنه كان ينبغي أن يعمل العاملون لمثل هذا المصير حتى لا يقعوا فيما وقع فيه هذا الشقي من الخسارة.. وهكذا بقية الآيات.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ص ٢٩٨٨.

(٣) هذا واحد من التفاسير الواردة فيها. انظر: تفسير القرطبي ٩ / ٢٦٨.

هناك تنادى ومن معك من أصحاب الجنة أصحاب النار من تعرفون ومن لا تعرفون.. تنادونهم سائلين سؤال تفرغ وتعيير:

يا أهل النار { قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا } [الأعراف: ٤٤] في الدنيا على ألسن رسله من الثواب حقاً، وعائنا ما قيل لنا فوجدناه صدقاً..

فماذا عنكم: { فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ } [الأعراف: ٤٤] على ألسنة الرسل حقاً؟..

يا أهل النار: هل عايتم عقوبة ربكم على الكفر به؟..

يا أهل النار: هل ذقتم سوء مصيركم على معاصيه؟..

يا أهل النار: هل شعرتم بعاقبة استهزائكم بنا وسخرتكم منا؟..

يا أهل النار: هل وجدتم ما وعد ربكم من ذلك حقاً؟..

تقولون ذلك فخراً و"تبجحاً بحالكم، وشماتةً بأصحاب النار، وتحسيراً لهم" ..

تصور المشهد..

تأمل أي حبيباه.. كم في هذا السؤال من السخرية المرة بمصير المبطلين.. كم فيه من السخرية بمصير الضالين. وانظر وقد نضر الله وجهك وقلبك: كم فيه من شعورك بالاطمئنان إلى النعيم العظيم الذي تحقق لك.. أنت مع المفلحين معك من سكان الجنة على ثقة من أن أهل النار في النار.. ولكنكم تسألونهم: هل أنتم في النار! لأن في السؤال تلذذاً من نوع خاص..

تصور نفسك وأنت تقول لهم: { فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا } [الأعراف: ٤٤] لم تقل لهم: هل وجدتم ما وعدكم.. بل ما وعد لأن ما ساءهم من الموعود لم يكن مخصوصاً بما وجدوه من النعمة والعذاب.. بل ساءهم أن رأوك وأصحابك في الجنة تُكْرَمون وهم في غيرهم يعمهون.

"ويجيء الجواب في كلمة واحدةٍ منهم: {قَالُوا نَعَمْ} [الأعراف: ٤٤]..كم تحمل هذه الكلمة من أثقال العذاب، وآلام الخزي، وعار الذلة والهوان..هؤلاء هم المستكبرون في الأرض..الآن بكل خزيٍ وألم.. يقولون: نعم..

وعندئذ ينتهي الجواب، وينقطع الحوار..وترى نفسك مع صحبك المخبتين على الكفار تضحكون و{عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ} [المطففين: ٣٥] إلى مصيرهم البائس.. {يَنْظُرُونَ} (٣٥) هَلْ ثُبُوبَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [المطففين: ٣٥، ٣٦] نعم قد ثوب الكفار ما كانوا يفعلون.

عندها نادي منادي الحق فيما بينهم بما يجلل أكباد المتحسين، ويمزق آلام الخائبين: {لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ٤٤] {لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ} [الأعراف: ٤٤، ٤٥].. لعنة الله على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم فصدوها عن سبيل الله، وصدوا الناس عن طريق الله، وأرادوا الحياة عوجاً لا استقامة فيها..(١).

ينطلق النداء..يشق الأرجاء: لعنة الله على الظالمين الذين هم بالآخرة كافرون...وتتردد أصداء لعنة الله على الظالمين في أرجاء الوجود بينكم معاشر أهل الجنة، وبين أهل النار..تتردد الأصداء فتزدادون نعيماً إلى نعيمكم، ويزدادون عذاباً إلى عذابهم..وكأن الكون يسبح عند ذلك وقد قضي بينكم بالحق، وآخر تسيحه في هذا المشهد المهيّب: {أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس: ١٠].

(١) الضلال ص ١٢٩٣.

نداء أخير من أهل النار لكم يزيدكم غبطة وحبوراً:

ولما رأى أهل النار أن أصحاب الأعراف قد صاروا إلى الجنة، وتذكروا مع وطأة العذاب أن لهم أقرباء في الجنة، وأن المؤمنين كانوا أصحاب القلوب الرحيمة في الأرض.. طَمِعُوا فِي أَنْ يُعَاثُوا بِشَيْءٍ يَخْفَفُ عَنْهُمْ الْأَلَامَ الرَّهِيْبَةَ الَّتِي يَتَعَرَّضُونَ لَهَا..^(١) فقالوا: يا ربنا إن لنا قراباتٍ في الجنة.. فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم.. فيؤذن لهم.. عند ذلك ينادونكم وأنتم في الجنة.. فلا تعرفونهم جميعاً بأشخاصهم لسواد وجوههم، وشدة ما لاقوا ويلاقون في النار.. إلا من دُلِّتُمْ أنه فلان.. عند ذلك يتجهون إليكم وأنتم ترونهم وتدلُّون على أسمائهم.. يتجهون إليكم وقد رأوكم تنظرون إليهم فيقولون: {أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ} [الأعراف: ٥٠] أفيضوا: أعطونا شيئاً مما وسع الله عليكم به..

وينادي أحدهم قريبه، وصاحبه: قد احترقت فشيئاً من ماءٍ أو شيئاً من طعامٍ.. قد احترقت..^(٢).

يا أهل الجنة قد رزقكم الله ملكاً عظيماً.. فشيئاً يسيراً تجودون به علينا.. الغوث.. الغوث.. لا إله إلا الله! **اسمعهم** -أيا حبيب الجنة- اسمعهم واهتف مُحْتَبِئاً خاشعاً رافعاً ليديك: يا أرحم الراحمين أجرني من النار.. يا مولاي ومالك روحي.. يا عالماً بسري ومسألتي: أجرني من النار..

ها أنت ذا ترى أن ابن آدم لا يستغني عن الطعام والشراب وإن كان في أسوأ العذاب.. فتردون عليهم بما يزيد حسرتهم، ويشعل أفتدتهم: {إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ} [الأعراف: ٥٠] حرم الله على الكافرين طعام الجنة وشرابها^(٣)؛ فإنه لا يدخل الجنة إلا نفسٌ

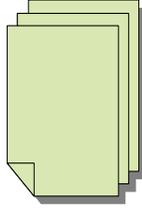
(١) انظر: تفسير القرطبي ٧/ ٢١٥.

(٢) انظر: مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ١٣٥، الأحاديث المختارة ١٠/ ٢٣٧.

(٣) انظر: الطبري ٨/ ٢٠٠، تفسير القرطبي ٧/ ٢١٥.

مؤمنة..ومنادي الحق ينادي مدوياً محذراً مخوفاً: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} [المائدة: ٧٢]..وعندها سمع الكفار ما أعادهم إلى الهلاك والبوار، وسمعت وصحبك الأخيار ما زادكم غبطةً وسروراً بالنجاة من النار..سمعت منادياً ينادي على الكفار {فَالْيَوْمَ نُنَسِّاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [الأعراف: ٥١].

والآن عودوا يا أهل الجنة عن متابعة هذه المشاهد للمعذبين.. فإنكم في شغلٍ بما أنتم فيه من اللذات والنعيم والشراب..عن الاهتمام بأهل المعاصي ومصيرهم إلى النار وما هم فيه من أليم العذاب.



المشهد الثامن
إليكم ختم الكرامة.. نعيمٌ أعظم من كل ما سبق..
هوته القلوب منقادة.. للذين أحسنوا الحسنَى وزيادة

يا أهل الجنة الخلود.. الخلود:

وقد يدور ببالك.. وينغص عيشتك الراضية المرضية.. ويكدر عليك أن هذه النعم مهما طال
زمنها لا بد أن تنقطع، ومهما طال أمدها لا بد أن تزول.. مهما طال أمدها، واستطال
دهرها.. فيرفع عنك غمامة التفكير.. نداء الحق يدوي في الأرجاء: {وَأَنْتُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ} [الزخرف: ٧١] أنتم فيها ماكنون أبداً لا تبيد.. فلا تخافوا زوال نعيمكم..
وتنعم أيا محب القرآن بأكثر من ذلك؛ إذ تتكرر النداءات تحببكم بالنعيم المقيم، واللذة
المتجددة التي لا يشوبها نصب، ولا ينغصها تفكير في انقطاعها.. فتسمع منادي الحق: {لَا
يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} [الحجر: ٤٨] فأتم الله عليك النعمة بالخلود
الدائم..

بل ما سميت جنات عدن بهذا الاسم إلا لأنها تدل على الإقامة الدائمة التي لا انتقال
معها.. ويُعلل لكم في أرجاء الجنة أنها تسمى باسم {دَارِ الْمُقَامَةِ} [فاطر: ٣٥].. فهي مكان
إقامة دائم لا تنقلون عنه، ولا تبغون أنتم عنه انتقالاً.. لا تبغون عنه تحولاً
و{جَوْلاً} [الكهف: ١٠٨].

يا صاحب القلب المنيب: لكأنه يُنادى عليكم بكلمات الترحيب الخالدة: هذا يوم
الخلود.. تخلدون في الجنة أبداً فلا تموتون أبداً، ولا تظعنون أبداً، وأنتم في ذلك كله لا تبغون
عنها حولا.. أعد نفسك فإنه يومٌ يستحق أن يُعدَّ له..

يوم الخلود: يوم الفرحة لكم.. ويوم الحسرة لهم:

ويُصَبُّ فيك يقين الخلود بصورةٍ محسوسةٍ في حدثٍ عجيبٍ.. إذ بينما أنتم في نعيمكم، وحبوركم وسروركم.. تسمعون المنادي ينادي يا أهل الجنة.. فتنتظرون ثم تجيبون الداعي.. فتشربون في مجمعٍ معين، وتنتظرون إلى الجهة التي أمرتم بالنظر إليها.. عند ذلك يأمر الله خالق الأكوان، ومانح الحياة للملائك والإنس والجان.. يأمر الله أن ((يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أملح^(١)) فيناديهم مناد فيقول: يا أهل الجنة! فيطلعون خائفين وجلين أن يخرجوا من مكائهم الذي هم فيه)).. تخرجون خائفين وجلين ربما لأن النداء من خارج الجنة.. من ((الصراط)) فتخافون أن يكون ذلك يعني نهاية نعيمكم، وقد آن أوان إخراجكم.. ويؤجج هذا الخوف أن أعمالكم الصالحة بالغاً ما بلغت.. لا تساوي شيئاً من النعيم الذي ترفلون فيه.. لولا رحمة ربي.. عندها ينتابكم القلق.. ويعتريكم الوجل.. ويغشاكم الخوف.. فإذا ما اطعتم ونظرتم.. أشير لكم إلى كبشٍ أملح على الصراط.. وقيل لكم عندها:

((هل تعرفون هذا؟ فتقولون: نعم! هذا الموت. وكلكم قد رآه)).. عندها تأتيكم الخواطر، وتنتابكم الظنون.. ما علاقة الموت بنا الآن.. ثم تسمعون المنادي ينادي:

((يا أهل النار! فيطلعون مستبشرين فرحين أن يخرجوا من مكائهم الذي هم فيه)).. أجل كانوا ينتظرون أي نداءٍ لهم من خارج النار عسى أن يكون فيه شيءٌ من أمل..

((فيشربون وينظرون.. فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه)).. لعل التفكير يعتريهم فيقولون: لو كُتبت علينا الموت لكان أفضل مما نحن فيه.. أنتم أي أهل الجنة تنظرون وتركزون نظركم إلى الموت.. وأهل النار يحدون نظرهم إليه.. ينتظرون ماذا هناك.. وأي شيءٍ سيقضى..

(١) الأملح الذي بياضه أكثر من سواده، وقيل الشديد البياض.

عندها تكون المفاجأة للفريقين معاً.. مفاجأة وأي مفاجأة.. إذ يرى الفريقان معاً المشهد الهائل التالي:

يؤخذ الموت ((فيذبح على الصراط))..

((ثم يقول: يا أهل الجنة خلوداً فلا موت.. ويا أهل النار خلوداً فلا موت..

فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم..))

ثم قرأ ﷺ { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } [مریم: ٣٩] (١).

وهناك تتكرر الأعلام بالإعلام عن يوم الخلود زيادةً في إشاعة المسرات.. وتُكرَّر الأرجاء نداء رب الأرض والسماوات: { ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ } [ق: ٣٤].. لمثله فليعمل العاملون..

يا أهل الجنة: الخلود لكم.. حياةً، والخلود لكم استمتاعاً.. ولم لا؟ والجنة { أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا } [الرعد: ٣٥] فالأكل دائم لكم { مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } [البقرة: ٢٦٦].. والخيرات والملاذات والمشتهيات { وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ } [فصلت: ٣١] لا ينقطع عنكم، ولا يزول، ولا يبسد، ولكنه ثابتٌ بلا نهاية.. ومنادي الحق يُبَشِّرُكم في الأوقات التي يكون فيها نداؤه يزيد في سروركم: { تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا } [الرعد: ٣٥] (٢).
يا أهل الجنة: أنتم الآن في المقام الأمين.. في مقام آمن من كل سوءٍ وآفةٍ ومكروه، وتنغيص أو فعلٍ سيئٍ مسفوه. في مقام آمن من الزوال والخراب.. وأنواع النقص والاضطراب.
يا أهل الجنة: أما تسمعون: { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ } [الدخان: ٥١]؟ أما تسمعون: { يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ } [الدخان: ٥٥]؟

(١) البخاري ٤/ ١٧٦٠، مسلم ٤/ ٢١٨٨.

(٢) انظر: الطبري ١٣/ ١٦٣، تفسير القرطبي ١٦/ ٢٣٦.

قد جمعنا لكم بين أمن المكان وأمن الطعام، وأمناكم من الزوال أو من سيئ الأسقام.. وأما الموت فقد انتهى فأنتم خالدون.. في دار السلام آمنون.

ولكن إليكم يا أيها الفائزون ما هو أكبر من الخلود.. وما أدراكم ما هو؟^(١)

يحدث للمتعمين من الفائزين بجنات الخلد فرحةً أعظم.. وتتجدد لهم البشائر في حالةٍ عظيمةٍ من حالات تقلبهم في النعيم المقيم.. إذ ((إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة!))..

يا لها من لحظةٍ عظيمةٍ حينما يخاطب الجليل جلَّ عن التجسيم والتمثيل.. حينما يخاطب عباده في الجنة.. فيكون نعيماً من أعظم النعيم الذي ينتابهم.. ويفاجئهم.. أسعد قلبك بهذه المفاجأة.. يناديهم ربنا الكبير المتعال..

-((فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك!))..

إنه حب الله الذي ملأ أفئدتهم.. فكيف لا يجيئون به حبه كان شعورهم الذي ينامون عليه، ويستيقظون عليه.. كان شعورهم الفياض الذي ملأ عليهم كل جوانحهم وأفئدتهم..

أشار القلبُ نحوك والضميرُ.. وسرُّ السر أنت به خيرُ

وإني إن هتفت بكم أنادي.. وفي زمن السكوت لكم أشيرُ

أيا من لا يُضاف إليه ثانٍ.. أتاك الواله الصب الفقيرُ

-((فيقول: هل رضيتم؟))..

الله! الله! ربنا يسألنا - إذ نحن في الجنة - هل رضينا.. ربنا هو الذي يسأل.. الجليل العلي العظيم.. هو الذي يسأل: هل رضينا.. ولسنا نحن الذين نقول: ربنا أرضيت عنا.. أرايت كرم الجبار القهار الكبير المتعال؟.. وبخجلٍ وشعورٍ عظيمٍ بالامتنان يردون.. بخجلٍ بالغٍ:

(١) القصة في الصحيحين.. انظر: البخاري/٥/٢٣٩، مسلم/٤/٢١٧٦، والزيادة عند الحاكم/١/١٥٦.

- ((فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟))..
 ويضعف المخلوق أيضاً يقولون ذلك.. كأنهم يتلهفون: ماذا بقي يا رب لنعطى فوق هذا؟
 ولكن الجليل يؤكد لهم أن هناك شيئاً عظيماً سيعطيهم إياه.. ويشوقهم لذلك..
 - ((فيقول: [تشتهون شيئاً فأزيدكم].. أنا أعطيتكم أفضل من ذلك))..
 ويتلهف شديد يبادرون إلى سؤال ربهم الجليل الكريم..
 - ((قالوا: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟))..
 - ((فيقول: [رضواني أكبر].. أجل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً)) يا لهذه
 النعمة.. نعمة الرضا الإلهي من الخالق الجليل الكبير للعبد البسيط الفقير.. ف" رضاه سبب كل
 فوزٍ وسعادةٍ، وكل من علم أن سيده راضٍ عنه كان أقر لعينه، وأطيب لقلبه من كل نعيمٍ لما
 في ذلك من التعظيم والتكريم" (١).. وهاتف الحق يهتف: { وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ
 الْقَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة: ٧٢].

إنه يوم المزيد.. أعلن العجز عن وصف ذلك النعيم المجيد:

قمة النعيم: إنه يوم المزيد.. وهو وقت الزيادة على الجنة.. فما هي الزيادة على الجنة؟:
 لقد استقر بك المقام، وطاب لك الحال، وأنت على حالك تزداد كل يوم تنعماً في غير مللٍ
 أو سأم.. وتظن أن ذلك هو غاية النعيم وليس بعده بعداً..
 وبينما كنت في مراتب قصورك.. وجنانك.. وحوورك.. تتنعم.. تتحدث صاحباً.. أو تلاعب
 حوراء.. أو تسابق الطيور.. أو تغتدي بسباحة في الجداول والبحور.. ولكن لا كأجمل نعيم في
 الدنيا.. سمعت في أرجاء الجنة إعلان الريادة: { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } [يونس:
 ٢٦].. فأقبل بعضكم معاشر أهل الجنة على بعضٍ تتساءلون.. ما الزيادة؟ وأتاكم الجواب

(١) تحفة الأحوذى / ٧ / ٢٣٠.

من رب الأرباب.. الملك الأعلى الوهاب.. وتلذذت أسماعكم بخير جواب.. فيفجؤك نداء
((منادٍ: إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه)).

فتتساءل أي شيء هو هذا الموعد.. وتسمع جواب تساؤلك في نداء الحق -عزّ جاره-:
يا أهل الجنة ((تريدون شيئاً أزيدكم؟)).

فيطرب قلبك فرحاً.. وترى أهل الجنة من حوالبك تخفق أفئدتهم سروراً وحبوراً.. ولا تدرون مما
تتعجبون أو بأي شيء تفرحون: أمن سماعكم لكلام المولى العزيز الكبير المتعال.. جل
عن الشبيه والمثال.. أم من الوعد الجديد الذي تسمعون.. وتتعجبون أكثر.. فما هو الشيء
الذي يمكن أن يزيد على ما أنتم فيه.. ثم تطرحون تساؤلاتكم التي تتضمن تلهفاً لمعابنة هذه
الزيادة.. كما تتضمن إكباراً لما أنعم به عليكم من منن وآلاء.. في عرصات القيامة وساعات
العناء..

تقولون: ((ألم تثقل موازيننا)). رينا.. رينا ((ألم تبيض وجوهنا؟)).

رينا.. رينا ((ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟)). وتتشفون.. عند ذلك يهولهم أن ((يُكشَفَ
الحجاب)) و.. و.. ((يتجلى لهم تبارك وتعالى فينظرون إليه)). فتتعمون بما يعجز اللسان أن
يصفه لأن الموصوف فوق كل شيء.. إنكم تتعمون بلذة النظر إلى وجه ربكم
الكريم.. وهناك.. ما أعطيتم شيئاً أحب إليكم من النظر إلى ربكم عز وجل^(١)..

إنه الغاية القصوى في نعيم الآخرة.. والدرجة العليا من عطايا الله الفاخرة^(٢)..

افتح عين البصيرة، وتصور الأمر على حقيقته:

(١) أحاديث الرؤية في البخاري ومسلم غير ما في الآيات.. والكاتب يذكرها كما جاءت بأسلوب الكتاب.. بغض النظر عن الدخول
في تفاصيل المعاني.

(٢) اليوم الآخر في ظلال القرآن ص ٣٤٥.

حين صارت الصحف في أيمانكم.. حين ثقلت موازينكم.. حين يُبَيِّضَتْ وجوهكم.. حين جاوزتم جسر جهنم.. حين أدخلتم الجنة وأُعطيتم فيها ما أُعطيتم من الكرامة والنعيم.. كل ذلك كان قليلاً في جنب الزيادة.. والوعد الإلهي هو {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦] أما الحسنى.. فهي الجنة.. ومعها الزيادة عليها..

أيها المحسنون: الآن وقت الوفاء {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن: ٦٠] فأليكم الحسنى.. إليكم الجنة {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ} [الحجر: ٤٦].

أيها المحسنون: قَرُّوا عَيْنًا فقد زادكم من كرمه شيئاً فوق الحسنى.. وهي الزيادة عليها.. ومن الزيادة عليها: أن يعطيكم ويحبوكم غفراناً ورضواناً.. وأن يُضَعِّفَ ثواب أعمالكم.. فيعطيكُم بالحسنة عشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف وزيادة على ذلك.. أيها المحسنون: كيف تظنون؟ فإن من الزيادة أن يعطيكم الله في الجنان من القصور والحدود والرضا عنكم.. وفوق ذلك ما أخفاه لكم من قرة أعين..

كل ذلك من زيادات عطاء الله لكم.. ولكن أعظم الزيادة إكرامكم بالنظر إلى وجهه الكريم.. {وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ} (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ} [القيامة: ٢٢، ٢٣]..

أيا خاطب الجنة وحببيها: ها هنا حالة تعجز الكلمات عن تصويرها:

كما يعجز الإدراك عن تصورها بكل حقيقتها؛ ذلك حين يتحقق للسعداء حالة من السعادة لا تشبهها حالة حتى لتتضاءل إلى جوارها الجنة بكل ما فيها من ألوان النعيم!.. هذه الوجوه الناضرة.. نَصَّرَهَا أكثر أنها إلى ربها ناظرة.. وما لها لا تنتضر وتتجمل وتزهو وهي إلى جمال ربها تنظر؟.. فأني مستوى من الرفعة هذا؟ أي مستوى من السعادة؟..

إن روح الإنسان لتستمتع أحياناً بلمحة من جمال الإبداع الإلهي في الكون أو النفس، تراها في الليلة القمرية.. أو الليل الساجي.. أو الفجر الوليد.. أو الظل المديد.. أو البحر العباب.. أو

الصحراء المناسبة.. أو الروض البهيج.. أو الطلعة البهية.. أو القلب النبيل.. أو الإيمان
الواثق.. أو الصبر الجميل.. إلى آخر مطالع الجمال في هذا الوجود.. فتغمرها النشوة، وتفيض
بالسعادة، وترف بأجنحة من نور في عوالم مكنحة طليقة. وتتوارى عنها أشواك الحياة، وما
فيها من ألم وقبح، وثقله طين.. فكيف؟ كيف بها وهي تنظر - لا إلى جمال صنع الله -
ولكن إلى جمال ذات الله؟..

ألا إنه مقام يحتاج أولاً إلى مدد خاص من الله ليتحقق.

ويحتاج ثانياً إلى تثبيت من الله ليملك الإنسان نفسه، فيثبت، ويستمتع بالسعادة، التي لا
يحيط بها وصف، ولا يتصور حقيقتها إدراك { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ
اللطيفُ الخبيرُ } [الأنعام: ١٠٣]..

إن الإنسان لينظر إلى شيء من صنع الله في الأرض: من طلعة بهية، أو زهرة ندية، أو جناح
رفاف، أو روح نبيل، أو فعل جميل فإذا السعادة تفيض من قلبه على ملامحه، فيبدو فيها
الوضاءة والنضارة.. فكيف بها حين تنظر إلى جمال الكمال..

**فأما كيف تنظر؟ فذلك حديث لا يخطر على قلب يمسه طائف من الفرح الذي يطلقه
النص القرآني، في القلب المؤمن، والسعادة التي يفيضها على الروح، والتشوف والتطلع
والانطلاق!** (١)

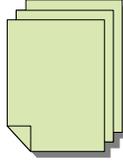
(١) انظر الظلال ص ٣٧٧٠ بتصرف، وتتمه كلامه: "فما بال أناس يرمون أرواحهم أن تعانق هذا النور الفاضل بالفرح والسعادة؟
ويشغلونها بالجدل حول مطلق لا تدركه العقول المقيدة بمألوفات العقل ومقرراته!؟".

إن ارتقاء الكينونة الإنسانية وانطلاقها من قيود هذه الكينونة الأرضية المحدودة، هو فقط محط الرجاء في التقائها بالحقيقة الطليقة
يومذاك. وقبل هذا الانطلاق سيعز عليها أن تتصور - مجرد تصور - كيف يكون ذلك اللقاء.

وإذن فقد كان جدلاً ضائعاً ذلك الجدل الطويل المديد الذي شغل به المعتزلة أنفسهم... حول حقيقة النظر والرؤية في مثل ذلك المقام.
لقد كانوا يقيسون بمقاييس الأرض؛ ويتحدثون عن الإنسان المثقل بمقررات العقل في الأرض؛ ويتصورون الأمر بالمدارك المحدودة المجال.
إن مدلول الكلمات ذاته مقيد بما تدركه عقولنا وتصوراتنا المحدودة. فإذا انطلقت وتحررت من هذه التصورات فقد تتغير طبيعة
الكلمات. فالكلمات ليست سوى رموز يختلف ما ترمز إليه بحسب التصورات الكامنة في مدارك الإنسان. فإذا تغيرت طاقته تغير

أيا حبيباه في الدنيا: هل تبكي من الفرح؟ أم من الشوق؟ أم تقول: ربِّ أقم الساعة؟ إن أفضل الزيادة التي تلاقىكم، وأعلاها النظر إلى وجهه الكريم؛ فإنها زيادةٌ أعظم من جميع ما أعطيتموه.. زيادةٌ لا تستحقونها بعملكم بل بفضل ربي جل وعز ورحمته.. (١).

كل ذلك لم يكن شيئاً فيما رأيتم.. كرر تصور ذلك،، ثم اهتف معي مشتاقاً محبباً راجياً في كرم ربك العظيم.. اهتف كما هتف النبي ﷺ من قبلك: ((اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة)) (٢).



معها رصيده من التصورات، وتغيرت معها طبيعة مدلول الكلمات، ونحن نتعامل في هذه الأرض بتلك الرموز على قدر حالنا! فما لنا نخوض في أمرٍ لا يثبت لنا منه حتى مدلول الكلمات؟!

فلنتطلع إلى فيض السعادة الغامر الهادئ، وفيض الفرح المقدس الطهور، الذي ينطلق من مجرد تصورنا لحقيقة الموقف على قدر ما نملك. ولنشغل أرواحنا بالتطلع إلى هذا الفيض؛ فهذا التطلع ذاته نعمة. لا تفوقها إلا نعمة النظر إلى وجهه الكريم".

(١) انظر: الطبري ١١ / ١٠٨، تفسير ابن كثير ٢ / ٤١٥.

(٢) النسائي ٣ / ٥٤، أحمد ٤ / ٢٦٤، ابن حبان ٥ / ٣٠٤، وقوى إسناده المعلق، الحاكم ١ / ٧٠٥، وصححه ووافقه الذهبي.

المشهد التاسع
فانظر إلى آثار رحمة الله..
بين عبدٍ أوفقته أعماله.. وأنقذته رحمة ربه

اشهد آخر أهل الجنة دخولاً الجنة وانظر إلى آثار رحمة الله:
وأطلَّ صاحب القلب المنيب وأصحابه على خارج الجنة وهم في نعيمهم.. أطلوا ليشهدوا
رجلاً لم يدخله الله الجنة بعد.. فأروه ((يخرج من النار حبواً))^(١)، ((ليس له من العمل ما
ينهض به فخرج يحبوا)) يسعى معتمداً على يديه ورجليه عسى أن يتعد عنها.. وتراه من
مكابدته للأهوال، ومن ضعف ما كان عمله في الدنيا من صالحات الأعمال.. تراه
((يمشي [على الصراط] مرةً، ويكبو مرةً، وتسفعه النار مرةً)).. ويرحمه الله فيتجاوز النار.. فأبي
فوزٍ عظيمٍ قد حازه.. ((فيذا ما جاوزها)) وشعر بلذة فوزه ((التفت إليها)) فعبّر عما يكتنُّ
لديه من مشاعر الابتهاج.. ويظهر ما وقع في نفسه من سرورٍ وهَّاج:
((فقال: تبارك الذي نجاني منك.. الحمد لله الذي نجاني منك))، لقد أعطاني الله شيئاً ما
أعطاه أحداً من الأولين والآخرين))..
وأنتم يا صاحب القلب المنيب وأصحابك في الجنة تشهدونه وترجون من الله أن يدركه برحمته
ولطفه.. ولربما قلتَ لما رأيتم نجاته، وسمعتَ قوله: إي وربي حقاً لقد أعطاك الله شيئاً عظيماً لا
يقاس به ما أعطاه لأحدٍ من العالمين.. ومنادي الحق ينادي: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ
الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].. فقد زُحِرَ هذا الرجل عن النار.. ولتتابع مسيرته:

(١) القصة بتفاصيلها عند: البخاري ٥/ ٢٤٠٢، ٦/ ٢٧٢٨، مسلم ١/ ١٧٣، الترمذي ٤/ ٧١٢، ابن ماجه ٢/ ١٤٥٢، ويحتمل أن
تكون لرجلٍ دخل النار ثم أُذن له بالخروج منها، أو لآخر رجلٍ يجتاز الصراط.

المرحلة الثانية: طمع الضعيف، وكرم الكريم:

رأيتموه وقد تجاوز النار.. ولكنه ((مقبلٌ بوجهه على النار فيقول: يا رب قد قشبتني ريجها، وأحرقني ذكاًؤها، فاصرف وجهي عن النار)).. اللهم إني أعوذ بنور وجهك.. هذه مجرد إطلاقتها من بعيدٍ قد قشبتة فكيف بمن انغمس فيها؟.. تأمل واهتف بخشوع: اللهم أجرني من النار.

وربما عجبت أيها المنيب من الرجل يدعو ربه في ذلك اليوم ويُلحُ ((فلا يزال يدعو الله)) ليعبد وجهه عن النار.. وبعد اجتهاده في الدعاء يرحمه الله.. ((فيقول-الله عزَّ جاره-: لعلك إن أعطيتك أن تسألني غيره. فيقول: لا! وعزتك لا أسألك غيره)) فيستجيب الله له.. ((فيصرف وجهه عن النار)).. فيا لسعة رحمة الرحمن الرحيم..

المرحلة الثالثة: تابع المشهد: نعيمٌ جاذبٌ.. وهو مجرد نعيمٍ خارج الجنة:

..ثم يمضي عليه الوقت وهو بين الطائفتين.. بين الدارين.. عندها يناجي اللطيف الخبير فيقول: ((يا رب مالي هاهنا؟. فيقول: يا ابن آدم ألم تكن تسألني أن أزحزحك عن النار؟ [هذا ما كنت تسألني يا ابن آدم]..

قال: بلى يا رب..)) ولكن رحمة الرحمن الرحيم تغريه فيبقى يدعو حتى يقول: قال: يا رب أين مثلك؟.. فأنت أرحم الراحمين، وخير الغافرين، ليس كمثلك شيءٌ في عفوك، وبرِّك، ورحمتك..

تابع مشهده حامداً مسبحاً فإنه عندما يصرف وجهه عن النار:

((تُرْفَع له شجرةٌ..)) كرمٌ من الله عليه، ونعمةٌ يرسلها إليه..

((فيقول: أي رب أدني من هذه الشجرة.. فلاستظل بظلها وأشرب من مائها))..

فيقول الله عز وجل: يا بن آدم لعلني إن أعطيتها سألتني غيرها.
فيقول: لا! يا رب. ويعاهده أن لا يسأله غيرها)).

فهل يستجيب الرحيم له؟ هل يستجيب له؟.. نعم! نعم! وكيف لا ((وربه يعذره لأنه يرى
مالا صبر له عليه.. فيدنيه منها فيستظل بظلها، ويشرب من مائها)). ويلبث على ذلك ما
شاء الله..

ولكنه يرى شيئاً آخر وهو تحت هذه الشجرة، وينعم الكريم الودود عليه برؤية نعيمٍ أعظم مما
هو فيه.. إذ ((ترفع له شجرةٌ هي أحسن من الأولى)) فلا يصبر وهو يرى ذاك النعيم!
تصور.. مجرد شجرةٍ خارج الجنة، ولا يستطيع أن يصبر عنها ولما يرى الجنة بعد.. عند ذاك
تسمعه ينادي بتلهفٍ:

((أي رب أدنني من هذه لأشرب من مائها، وأستظل بظلها)).

((فيقول -الله عزَّ جاره-: يا ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟)).

وكعادته في التذلل.. يقول: ((لا أسألك غيرها)).

وتدركه رحمة الرحمن الرحيم.. ((فيقول الله له: لعلني إن أدنيتك منها تسألني غيرها)).

((يعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره لأنه يرى مالا صبر له عليه فيدنيه منها، فيستظل
بظلها، ويشرب من مائها)).

ومن تحت هذه الشجرة العظيمة ذات الماء العذب والظل الظليل.. يُنعمُ المتفضل الكريم عليه
فيرى نعيماً آخر أعظم مما هو فيه؛ إذ ((تُرفع له شجرةٌ عند باب الجنة هي أحسن من
الأولين)) فيقوم وقد تذوق لذة كرم الله الجليل، ورأى إجابة ربه لسؤاله..

((فيقول: أي رب! أدنني من هذه لأستظل بظلها، وأشرب من مائها)).

ولا ينسى أن يضيف عبارته المعتادة التي تحمل معنى الطلب أكثر مما تحمل المعنى الذي يظهر
منها، فيقول رب: ((لا أسألك غيرها)).

((فيقول: يا بن آدم! ألم تعاهدي أن لا تسألني غيرها..
قال: بلى. يا رب هذه لا أسألك غيرها، وربه يعذره لأنه يرى مالا صبر له عليها فيدنيه
منها))..

ويبقى يتنعم بذلك.. وإن ذلك لنعيم.. وحسبه أن يتنعم بأن يدعو ربه، وربه يجيبه.. وأنتم ترون
أهل النار يحاولون أن يدعوا فيقول الله لهم: {أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ} [المؤمنون: ١٠٨] إن
مجرد دعائه.. وإجابة ربه له هو النعيم بذاته فكيف وقد قربه ثم قربه ثم قربه؟.. كيف وقد أدناه
ثم أدناه ثم أدناه؟..

المرحلة الرابعة: إنه باب الجنة.. نصف الطريق:

ولكنه ما زال بعيداً عن الجنة.. وهو يراها عن بعد.. عندها يطمع في رحمة ربه أكثر فيتدلل،
ويتدلل ويناجي ربه..

((يقول بعد ذلك: يا رب قربني إلى باب الجنة)).. انظر لطمع ابن آدم، ولا تعجب من
ذلك ولكن اعجب من سعة رحمة الرب الرحيم..

إذ إن ربه جل وعز ((يقول: أليس قد زعمت أن لا تسألني غيره؟ وملك يا ابن آدم ما
أغدرك)) ولكنه لا ييأس وهو يرى رحمة الرحمن الرحيم -عزَّ جاره- فيظل يدعو.. فلا يزال
يدعو.. حتى تدركه رحمة الله مجدداً..

((فيقول-الله له-: لعلي إن أعطيتك ذلك تسألني غيره؟))..

((فيقول: لا! وعزتك لا أسألك غيره))..

لقد حلف ولكن أيجلف أحداً ألا يسأل الرحمن الرحيم من رحمته ثم يستطيع أن يبر في
حلفه..؟ كلا! ((فيعطي الله ما شاء من عهود ومواثيق أن لا يسأله غيره فيقربه إلى باب

الجنة، [فإذا دنا منها انفهقت له الجنة.. فإذا رأى ما فيها من الحيرة والسرور سكت ما شاء الله أن يسكت]].

المرحلة الأخيرة: دخول الجنة:

والآن وقد دنا من الجنة ينظر إلى أبوابها، ويراها، ثم إنه ((يسمع أصوات أهل الجنة)). فما يقدر أن يحتمل، وتحركه معرفته برحمة ربه جل وعز ((فيقول: أي رب أدخلنيها)). ويكرر الدعاء فيقول:

((رب أدخلني الجنة)). يذكره ربه الرحمن الرحيم بعهده..

((فيقول: أو ليس قد زعمت أن لا تسألني غيره.. [وقد أعطيت عهدك وموآثيقك أن لا تسألني غيره].. ويلك يا ابن آدم ما أغدرك)). فيكرر على ربه ويلح وهو يعلم الآن كم هي سعة رحمة ربه.. إنها تفوق ما يملكه من تصور.. فليمض في دعائه وابتهالاته.. ((فيقول: يا رب! لا تجعلني أشقى خلقك)).

أسألُ الدمع على موقفٍ عظيمٍ كهذا الموقف..

لقد عدَّ نفسه أشقى خلق الله وهو خارج الجنة مع أنه لم يتعذب بالملكث في وسط النيران، إنما كانت تسفعه على الصراط.. فكيف من تلظى بها؟.. اللهم سلم.. سلم.. وعند ذلك أكثر من الإلحاح بالدعاء والتضرع.. وقد عوده ربه الرحمة والغفران والإجابة إذا لم يقنط من رحمة ربه.. ((فلا يزال يدعو حتى يضحك -ربي ﷻ وتعالى عن المثال- فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها)).

وأنت تشهد هذا المنظر مسبحاً حامداً أن نجوت من قبل.. ها أنت ذا تراه الآن وقد تلقاه الله برحمته وأخيراً أذن له الجبار بدخول الجنة.

سبيل الكرم ينهال:

بعد أن يأذن له ربه -عزَّ جاره- بدخول الجنة يقطعه ملكاً عظيماً في الجنة.. فيقول له:
((اذهب فادخل الجنة))..

((فيأتيها فيخيل إليه أنها مملأى فيرجع.. فيقول: يا رب وجدتها مملأى)).. هل سمعتَ هذا؟
بات الآن يعتقد أن له حقاً فيها.. يا لكرم الرحمن..

((فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة))..

((فيأتيها فيخيل إليه أنها مملأى فيرجع.. فيقول: يا رب وجدتها مملأى)).. فيكرر الله له:

((فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة)).. ولقد وردت الرواية لتكتمل لنا القصة بشيءٍ عظيمٍ
دار بين الله -عزَّ جاره- وبين عبده.. إذ يقول النبي ﷺ واصفاً الرجل وقد رجع إلى ربه ليسأله
أين يمكنه أن يحط عصا الترحال في الجنة.. يقول: ((فأقبل عليه عابساً فقال: وهل أبقيت لي
شيئاً؟)).. سبحانك اللهم.. حلمك بعد علمك.. وعفوك بعد قدرتك.. وسترك عن كمال
عزتك.. الرجل يُقبل عابساً كعادة من أصابه الهم والغم.. لا لأنه لم يرض بما قسم الله..
ولكنها طبيعة البشر..

تمنَّ.. تمنَّ.. هل نذكرك بالأمنيات؟:

فعند ذلك ((يجيء بعدما يدخل أهل الجنة الجنة فيقال: ادخل الجنة. فيقول: كيف أدخل
الجنة وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم)) لم يعد لي مكانٌ فيها.. فيؤمر أن يدخل فيها
وتراه يقوم يحاجُّ ربه كأن الحق قد صار له.. فيؤمر بالدخول ليرى ما أعد له..

((فإذا دخل فيها فيقال له: أتذكر الزمان الذي كنت فيه؟ أي الدنيا. فيقول: نعم! فيقال له:

تمنَّ.. فيتمنى.. تمنَّ من كذا.. فيتمنى.. ثم يقال له: تمنَّ من كذا.. فيتمنى.. [ويذكره الله سل

كذا وكذا] حتى تنقطع به الأماني [فإذا انقطعت به الأماني])..

تصور المشهد لم يعد يجد ما يتمناه انقطعت كل الأمانى لديه..
انظر إليه مجدداً ((يتمنى فيقول بلسانٍ طلقٍ ذليقٍ، وعقلٍ مجتمعٍ)).. نعم يعطيه الله ذلك حتى
يتمكن من أوفر الأمنيات.. ((يتمنى فيقول بلسان طلق ذلق وعقل مجتمع: أعطني اعطني
كذا.. حتى إذا لم يجد شيئاً لُقِّنَ فقيل له: قل كذا.. قل كذا فيقال له: هو لك ومثله
معه)).. ويذكره الودود بما ينبغي أن يتمناه..
((فيقول: يا بن آدم ما يصيرني منك)) ما يقطع أمانيك؟ ثم يعطيه الله ما يقطع أمانيه
قطعاً.. فحبذا ذاك الذي يقطع الأمانى من الكريم الودود الرحيم..
عند ذاك يعطيه الله ما يقطع أمانيه به.. ف((يقول الله له: أترضى أن يكون لك من الجنة مثل
ما كان لملكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: [بخٍ نعم أي رب]) ويغبط نفسه ولا يملكها من شدة
الفرح فيقول: بخ.. كأنه يقول: أمعقول؟
((فيقال: ذلك لك)) ثم يغدق الله عليه أكثر.. انظر واستمع واهتف: اللهم إني أسألك من
فضلك ورحمتك.. رب وعزتك لا غنى بي عن بركتك.. رب وعزتك لا غنى بي عن
بركاتك.. ثم تابع المشهد:
فيقول العبد وهو لا يكاد يصدق، وتأخذه طبيعته البشرية.. فيقول: ((يا رب أتستهزئ مني
وأنت رب العالمين؟ حتى ضحك النبي ﷺ وهو يحدث بالقصة فقالوا: مم تضحك يا رسول
الله؟ قال: من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزئ مني وأنت رب العالمين)).
فيتهاطل عليه الكرم الإلهي:
((فيقال: ذلك لك ومثله [معه] ومثله، ومثله، ومثله، ومثله)) كيف يكون شعوره وهو يسمع
كلمة ومثله في كل مرة؟..
لما وصل العد إلى الثالثة إلى الخامسة أي خمسة أمثال ملك الدنيا يطير قلبه فرحاً
وطرباً.. فيقطع الكلام.. تصور المشهد واعجب من رحمة الرحيم.. وافتتان العبد بكرم الكريم..

((فيقول: أي رب رضيت)).. فيزيده الله أعظم من ذلك ((فيقال له: إن لك هذا وعشرة أمثاله)) نعم.. هل تريد إعادة سماع ما سمعت؟.. فاسمع.. يقول الله له: ((اذهب فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها))..

أيَا خَاطِبِ الْجَنَّةِ: أَتَعْرِفُ مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ.. ((فذلك أنقص أهل الجنة حظاً)).. عندها لا يملك الرجل نفسه، ولا يصدق فيخطئ من شدة الفرح فيقول: ((رب أتضحك مني وأنت الملك))؟! ((لم تهزأ بي وأنت ربي))؟..

انظر إلى هذا الكلام المتدلل من هذا الرجل.. علم مكانه من ربه وبسطه له بالإعطاء.. استخفه الفرح وأدهشه فقال ذلك.. وكذلك خاف أن يُجَازَى على ما كان منه في الدنيا من التساهل في الطاعات، وارتكاب المعاصي والموبقات.. كفعل الساخرين فكأنه قال: أتجازيني على ما كان مني من سخريةٍ بسخريةٍ مماثلة؟^(١).. ((فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر))..

((فيقول: أي رب رضيت.. فيقال له: لك مع هذا ما اشتهدت نفسك، ولذت عينك)).. والآن تابع مشهده متعجباً من كرم ربه الجليل.. تابعه وهو يدخل أحد قصوره.. حتى إذا أخذ مكانه ((تدخل عليه زوجته من الحور العين فتقولان: الحمد لله الذي أحياك لنا، وأحيانا لك)) فكيف تصنع هذه الكلمة بصاحبها؟ كيف تصنع به عندها لا يملك إلا أن يقول: ((ما أعطي أحداً مثل ما أعطيت))..

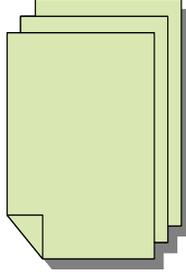
وهكذا يرضى بما أعطاه الله له.. حتى قال ﷺ: ((فيرضى حتى أنه أعطاه شيئاً ما أعطاه أحداً من أهل الجنة. فيقول: لو أذن لي لأدخلت على أهل الجنة طعاماً وشراباً وكسوة مما أعطاني الله ولا ينقصني شيئاً)).. أعطاه شيئاً ما أعطاه أحداً من أهل الجنة أي ظن أنه خير أهل الجنة

(١) انظر: فتح الباري ١١ / ٤٤٤.

منزلة، وأن عنده ما ليس عندهم فكيف بمن هو أعلى منه درجة؟ اهتف آملاً راجياً: اللهم يا أرحم الراحمين: أسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفد، ومرافقة نبينا محمد ﷺ في أعلى جنان الخلد.

واعجب من ذلك.. أيها المشتاق: سرّ بأحلامك.. بل طرّ بها إلى حيث شئت.. فلن تبلغ نهاية الملك الكبير الذي ينتظرك مهما حاولت لأنه يتجاوز آفاقك القاصرة، وأحلامك البسيطة.. أجل أيا حبيباه: إذا كان هذا أدناكم منزلةً معاشر أهل الجنة -وحاشاكم أن يكون فيكم ديني-.. فكيف من فوقه.. أشعل مصابيح الشوق.. وأوقد معها دموع الإشفاق والحشية والأمل والرجاء.. وقل: يا رب.. يا ذا الجلال والإكرام..

هل إلى العفو يا إلهي سبيلٌ	فنيث رحلتي وزادي قليلٌ
واحتوتني الهموم من كل صوبٍ	وطواني الأسي الممضُ الطويلُ
ربّ جئناك والنفوس حيارى	حيثما مالت الرياح نميلُ
كي تحيل الظلام نوراً ومن ذا	يرفع الشرّ إن طغى أو يحيلُ



ختام زفاف المؤمنين..تجدد النعم ودوام الحمد للمنان المتين

استمع إلى الكون ومن فيه مسبحين مُتَرَنِّمين: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾

الحمد لله والثناء والمجد يبدأ به الكون وينتهي إليه:

والآن -يا صاحب القلب المنيب- قُضِيَ الأمرُ وَقَرَّتْ نفسك بالحياة الخالدة، ورأيت أن الله لم يخلق السموات والأرض وما بينهما لعباً، ما خلقهما إلا بالحق..والقسط والعدل..وها هو ذا القانون العظيم أمام عينيك ظاهرٌ في حكمه في أهل الجنة والنار..

أُنزِلَ كلا الفريقين في المحل الذي يليق به، ويصلح له.. إنه الله -عزَّ جاره- الحكم العدل
﴿يَوْمَئِذٍ يُؤَقِّبُهمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

عندها لربما استذكرت -يا تالي القرآن- قول ربك ﴿وَوَخَّلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ
وَلِئَلْجَزَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢] طالما كنت تقرأها آيةً مكتوبةً،
فهاهي حقيقة واقعة أمامك فقد جوزيت كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون.

واكتمل مشهد الخلق عن حياة أبدية لكل منهم.. كلٌّ في مثواه.. ورأيت الختم البديع لهذا
المشهد في الصورة العظيمة التالية: ترى أهل النار في عذاباتهم..بينما.. ترى أهل الجنة يتقلبون
في نعيمهم وملكهم.. ويتلاقون بأحبائهم..يزورون الأنبياء.. ويلتقون بالصديقين
والأصفياء..وينعمون بأنعم عيشة وأروع هناء..في شغلهم من النعيم المقيم فاكهين
سعداء..مسبحين لله حامدين..هو أهل المن والعطاء..وإذا رفعت طرفك ترى العرش،
﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥].. ترى العباد المكرمين من الملائكة
في ذلك اليوم حافين محققين من حول العرش المجيد، وألسنتهم تلهج بالتسبيح والتمجيد

والتحميد..تنظر إليهم..تسمع أصواتهم وهم {يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} [الزمر: ٧٥] ويمجدونه، ويعظمونه، ويقدمونه، وينزهونه عن النقائص والجور.. يسبحون متلذذين بذلك.. يصلون حول العرش شكراً لربهم، وذلك بعد أن {وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ} [الزمر: ٦٩] فقد فصل في القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل بين أهل الجنة وأهل النار.

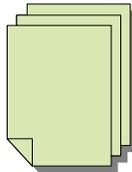
عندها "نطق الكون أجمعه: ناطقه وصامته لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه.. فدل على أن جميع الخلائق شهدت له بالحمد" (١).. أمام ذاك الفضل العظيم، والنعيم المقيم، والملك الواسع العميم.. غمر فؤادك الشعور.. بما حباك به المولى الودود الغفور.. فلم تجد شيئاً تعبر به عن شكرك إلا ما علمك ربك-عزَّ جاره-:

{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الزمر: ٧٥] الحمد لله رب العالمين..
ولو غدا ابن هلال والعميد ومن زان الجزيرة تجويداً وإتقاناً
مترجمين لما في القلب ما وجدوا إلى بيان الذي في القلب إمكاناً

أيها الحامد لربه.. أيا ذا القلب المنيب:

قد افتتح ربنا المجيد-جلَّ جلاله-الخلق بالحمد في قوله {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [الأنعام: ١].

واختتم الله تعالى أمر الفصل والقضاء في الكون بالحمد في قوله تبارك وتعالى {وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الزمر: ٧٥].. لذا ملأت الحمد لله الميزان.. فيا طوبى للحامدين.. والحمد لله رب العالمين.



(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٧٠.

خاتمة القصة

فراق مؤقت غير بعيد.. لنعيم مجيد.. إن شاء الله:

الآن قد عُدت -أيا حبيباه- من التقلب في أعطاف هذا النعيم العظيم.. تقلبت فيه، ووجدت لذته بمجرد الوصف والقراءة فكيف سيكون حالك عند المعاينة.. كيف ستكون عند انغماسك فيه.. جعلني الله وإياك من أهله، وأذاني الله وإياك حلاوة الفوز الحق به.. عدت -أيا خاطب الجنة- من هناك إلى دنياك.. فها أنت ذا في زحمة أثقال الأرض ومثقلات الذنوب، ورزايا الأوزار، وعُزْبَةٍ قَلَّ معها الصديق الناصح في طريق الإخلاص، وما يصيبك في هذه الحياة من ابتلاء ولُغُوب.. ترى الدنيا من حواليك بفتنتها تغريك.. تحاول إغواءك.. ترهبك حتى تستسلم لها، وتستنيم لخدائع زخارفها وهي ذات الغرور الدائم.. أيا حبيب الجنة: لقد خاطبتك، ونصحتك، وأنا أعلم أنني كنت أخاطب نفسي وأنصحها في شخصك.. أتراه يظهر بعد هذا الوصف الرائق المشوّق شوقك لبشرى ربك؟.. هل سترى من نفسك مسابقةً إلى نعيم جنّة عرضها السموات والأرض بتوبة نصوح، وإيمان صادق؟.. { وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ } [الأنعام: ١٢٠].

وفي هذه القصة للنساء سبقهن.. لهنَّ همٌّ لا منتهى لكبارها.. وهمتهن الأولى أجل من الدهر:

وكل ما ذكرناه عن هذا الشاب القانت يسري مثله على الفتاة أو المرأة القانتة العابدة فإن الله -عزَّ جاره- ذكر حقها وأجرها كما ذكر أجر الرجل.. وحسبنا في هذا ما جاء في الآية الجامعة التي نزلت بسبب سؤال أم سلمة -رضي الله عنها-: { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ

وَالْحَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ
وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٣٥].. ولا تختلف
المرأة عن الرجل في شيءٍ من ذلك النعيم، إلا ما كان من خصوصية واضحة لها، وذلك كأن
لا يكون لها زوجٌ في الدنيا كحال مريم البتول عليها السلام، أو تكون زوجةً لرجل كافر
كحال امرأة فرعون عليها السلام.. ففي هذه الحالة يزوجهما الله -عزَّ جاره- برجل من أهل
الجنة، كما ورد في هاتين أن الله يزوجهما بالنبي ﷺ، وليس الكتاب وراداً في بسط هذه
القضية.. وإنما أردت الإشارة لئلا يظن ظانٌ أن الكاتب يرتضي ما وصلت إليه بعض الآراء
من جمود حتى حجروا بعض نعيم الجنة على الرجال دون النساء وليس هذا من الدين.. بل
الدين كل الدين تلخص في قول الولي المتين: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٧] ولكن لأن
الكتاب أخذ منحى الكلام عن الشاب المنيب.. فقد توجه وجهةً ينبغي أن يولاهها.. وتركث
أشياء مثل التقسيمات الإدارية في الجنة التي يظهر فيها سادات الشباب، ورؤساء الشيوخ،
ومثل ذلك سيدات النساء أو المرأة الأولى في الجنة.. ولعلنا نتوسع في طبعة قادمة -إن شاء
الله- بشأن ذلك وبشأن بسط النعيم الذي تتلقاه المرأة في الجنة بل وتتميز به.

أيا حبيباه: فُتِحَتْ ميادين السباق.. فهل من مسابقي للذيذ العناق؟

أي أخاه: لقد تملك الشعور بنعيم الجنة على المتسابقين أنفسهم، وسيطر على حياتهم.. إنهم
المتسابقون إلى مغفرة من الله ورضوان.. سيطر عليهم التفكير في السباق حتى جعلهم يُبَدَعُونَ
في طلب كل وسيلة ربانية.. يَصِلُونَ بها لتحقيق غايتهم السامية.. انظر إلى أحدهم فيما
نحسب.. إنه أبو سليمان الداراني يحكي كيف صار الشوق إلى الجنة شعوراً فياضاً يملأ عليه

جوانحه، ويسيطر عليه مناماً ويقظة.. اسمعه وهو يقول: بينا أنا ساجدٌ.. إذ ذهب بي النوم..
 فإذا أنا بها - يعني حوراء من الحور العين - قد ركضتني برجلها فقالت:
 حبيبي أترقد عينك والملِك (قيوم) ينظر إلى المتهجدين في تهجدهم؟..
 بؤساً لعينٍ آثرت لذة نومها على لذة مناجاة العزيز..
 قم فقد لقي المحبون بعضهم بعضاً فما هذا الرقاد؟..
 حبيبي وقرة عيني أترقد عينك وأنا أُرَبِّي لك في الخدر منذ كذا وكذا؟ فوثبتُ فرعاً.. وقد عرقت
 استحياءً من توبيخها إياي، وإن حلاوة منطقتها لفي سمعي وقلبي^(١).. لسان الحال:

أخطب مثلي وعني تنام ونوم المحبين عني حرام
 لأننا خلقنا لكل امرئٍ كثير الصلاة براه الصيام^(٢)

فذكرت الجنة ونعيمها فأعرضت عنه:

كان الداراني يحكي نموذجاً في المسابقة إلى الله بأعمالٍ بينك وبين المولى العزيز.. وهذا يتقنه
 كثيرون.. ولكن العقدة التي ما زلنا نطلب لأنفسنا منها فكأكَأ تتمثل في عدم مسارعتنا إلى
 الخيرات بذلة أنفسنا لبعضنا، وإعلاء شأن الأخوة الإيمانية كما أعلاها الله - عزَّ جاره - بيننا،
 ونبد التعصب الذي حَلَقَ ديننا حلق الشعر، ونزع لعاعة الدنيا وقذارتها من قلوبنا..
 أيا حبيباه: ها هو ذا الحل أمامك قد صار ناراً على علمٍ.. ولكننا عنه في غفلٍ مريعة.. ألا
 ترى أنه إذا لاحظ لنا أعلام الجنة حقاً كان ذلك داعياً عظيماً لنا لنحاسب أنفسنا أشد
 المحاسبة على ما نأتي ونذر في تعاملنا مع بعضنا..
 وخذ لهذا مثلاً سَطَّرَهُ سيدٌ من أرباب التركيبة، وأستاذٌ من أساتذة التربية الإيمانية:

(١) انظر: شعب الإيمان / ١ / ٤٥٨.

(٢) انظر: حلية الأولياء / ٩ / ٣٢٦.

فقد ذُكِرَ عن الصحابي الزاهد الراغب الراهب نجم التربية الإيمانية، وثمره الثقافة العمرية عبد الله بن عمر بن الخطاب أنه سمع معاوية بن أبي سفيان يخطب في خلافته وهو يقول ما يمكن أن يقوله بشرُّ أعطاه الله الملك: من يطمع في هذا الأمر، ويرجوه، أو يمد له عنقه؟.. أي من يظن نفسه أهلاً للخلافة أكثر مني بعد موت علي (عليه السلام).

وهذا فيه نوع تركيبة للنفس، وتقديم للذات في وجود بعض من قد ظهر جلياً أنه أعلى شأنًا في الإسلام.. عندها لم تصير نفس ابن عمر على ذلك.. قال: فما حدثت نفسي بالدنيا قبل يومئذٍ.. وأراد ابن عمر الردَّ عليه، وحكى ما دار بينه وبين نفسه من صراعٍ فقال: ذهبْتُ أريد أن أقول له: يطمع فيه من ضربك وأباك على الإسلام حتى أدخلكما فيه، فذكرت الجنة ونعيمها، فأعرضت عنه، ولفظ البخاري-أرشق من ذلك ففيه: فحللت جبوتي، وهمت أن أقول أحق بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام، فخشيت أن أقول كلمةً تفرق بين الجمع، وتسفك الدم، ويحمل ذلك، فذكرت ما أعدَّ الله في الجنان (١)..

..وهكذا أذهب ذكر الجنة الدخول في جدالٍ قد يورث الضغائن.. ويؤذي بدور الشقاق..

حتى قال أحد السامعين لابن عمر إعجاباً وتأثراً: حفظت وعصمت..

فهل من مدكر؟.. أيا راغباً في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر:

يا فوزهم! غنموا الجنات والنعم	سار المجذون في الخيرات واجتهدوا
نالوا الهنا والمنى بالخير والكرم	صفت لأهل التقى أوقاتهم. سعدوا
أنجو به يوم هول الخوف والظلم	ضيعت عمري ولا قدمت لي عملاً
يوم اللقاء إذ الأقدام في زحم	ظهري ثقيلاً بذنبي. آه وأسفي
واشف بفضلك لي بلوأي مع سقمي	أرجوك يا ذا العلاكري تُفرِّجُه

(١) البخاري ٤/ ١٥٠٨، وانظر: مجمع الزوائد ٤/ ٢٠٨، فتح الباري ٧/ ٤٠٤، وليس في القصة غضٌّ من شأن بعض الصحابة (عليهم السلام)، وإنما بيان لما يحدث في النفوس البشرية.

إنه الملك الكبير ينتظر في الجنة.. أفْتَقَدَمُ عليه انتصارك لنفسك، واستجابتك لداعي هوك؟:

لقد كُتِبَت الدنيا في نفوسنا حتى طغت سخيمة قلوبنا علينا.. فصرنا ننسى هناك في الجنة {نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا} [الإنسان: ٢٠].. ننسى ملكاً كبيراً ينتظرنا.. ننساه أو نغفل عنه لرغبة في إمضاء غلٍ في الصدور، أو الاستجابة لداعي هوى.. انظر إلى رجلين أحدهما ترك الدنيا وزينتها من أجل حجز مقعده في الجنة، والآخر يستجيب لداعي هواه فيعرض عن أعظم عرضٍ مغرٍ بتجارةٍ راجحةٍ في الأرض.. فقد روى أنسٌ -رضي الله عنه- أن رجلاً قال: يا رسول الله! إن لفلان نخلة، وأنا أقيم حائطي بها فأمره أن يعطيني حتى أقيم حائطي بها.. فقال له النبي ﷺ: ((أعطها إياه بنخلة في الجنة)).. وأين نخلة من نخلة؟.. أين نخلة في الدنيا من نخلة في الجنة؟..

ألا يكفيه أن يحجز لنفسه مكاناً في الجنة؟.. لكن نزغة شيطانٍ عرضت له ملكت عليه عقله حينها فأبى المعاوضة، ورفض أعظم عرضٍ يجد فيه أريح تجارة.. أبى أن يستجيب لعرض النبي ﷺ.. في هذه الأثناء سمع أبو الدحداح بالنبأ.. فجاء إلى الرجل فقال: ((بعني نخلتك بحائطي)).. كان حائط أبي الدحداح -وهو البستان- يحتوي على ستمائة نخلة.. فأعطى الرجل بستانه في مقابل أن يتنازل عن نخلةٍ واحدة.. فوافق الرجل.. فأبي تجارة كاسدةٍ ارتضاها، وأي غنيمَةٍ راجحةٍ أباه.. ثم انطلق الراح الموفق أبو الدحداح إلى النبي ﷺ بعد أن أبرم الصفقة فقال: يا رسول الله! إني قد ابتعت النخلة بحائطي.. فاجعلها له -أي للرجل الذي طلب النخلة- فقد أعطيتها.. هكذا اشترى أبو الدحداح نخلةً واحدةً.. وباع بستانه المكوّن من ستمائة نخلةٍ لأجل أن يعطيها للنبي ﷺ في مقابل أن يضمن له النبي ﷺ النخلة التي وعد بها في الجنة.. عند ذلك أعلن النبي ﷺ الجائزة العظيمة التي يستحقها هذا المسابق للخيرات التارك عَرَض الدنيا من أجل ابتغاء وجه ربه، وتثبيتاً لنفسه.. فقال:

((كم من عذقٍ رداحٍ مُعَلَّقٍ لأبي الدحداح في الجنة)) قالها مراراً بياناً لفضيلة أبي الدحداح، وإشهاراً لأمر استحقاقه لوسام الشرف الأخرى الرفيع.. فأتى أبو الدحداح امرأته فقال: ((يا أم الدحداح! اخرجي من الحائط فإني قد بعته بنخلة في الجنة)) فشاركته زوجه في المسارعة إلى مغفرة من الله ورضوان فقالت: ربح البيع^(١)..

التفكير بالجنة.. مانع من ظاهر الإثم وباطنه:

أيا حبيباه: أتري من يُفكِّرُ باليوم الآخر والجنة ونعيمها والنار وجحيمها: يفرغ قلبه ليتبع حقدًا.. أيفرغ قلبه ليسير وراء حسدٍ.. أيفرغ قلبه ليُنبت لحمه ولحم أولاده من نار بمالٍ حرامٍ.. أيفرغ قلبه ليلقي الكلمات على عواهنها: يغتاب هذا، ويجرح هذا، ويأكل لحم هذا، ويعرقل معاملة ذاك، ويتتبع عورات المسلمين في دورهم، ويُزكي نفسه في حين يأتي الفواحش القولية والفعلية ما ظهر منها وما بطن..؟

إن الغفلة عن اليوم الآخر، وضعف اليقين به.. وعدم تصور قربه، وضآلة الشعور به يؤدي إلى أن يصبح الناس وحوشاً في الدنيا حتى وإن ظهرت منهم صلاة أو صيام.. ذلك أنهم قد ينسون.. فلا يتصورون أنه يترتب على كلمةٍ تخرج منهم أن تتخطفهم كالإيب جهنم.. نعم مجرد خروج الكلمة.. ف((إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب))^(٢).. اللهم إنا نعوذ بك منها..

وفي المقابل رب كلمةٍ طيبةٍ بقلبٍ صادقٍ مشفقٍ يقولها الرجل يرفعه الله بها درجات.. اللهم اجعلني والقراء من أصحابها..

(١) ابن حبان ١٦/١١٣، والضياء في المختارة ٥/٥٩.

(٢) البخاري ٥/٢٣٧٧.

أيا حبيب الجنة: إن تذكر الموت والمستقبل الغيبي القادم يعني أن تحاول صنع مستقبلك، والاستعداد لغدك غير قاعدٍ ولا متواكلٍ.. ولا يعني أن يُؤلِّد عقيدة الإحباط واليأس التي يدين لها من لا دين له عندما يتذكر الموت.. وأنه نهاية لكل متاعٍ دنيوي.. لقد أدت هذه العقيدة بهؤلاء الغافلين إلى الانتحار.. أو سلوك أفعال الخاسرين.. أما أنت أيها البار القانت فإن الموت وما بعده يعني الحركة الإيجابية في الحياة بالازدياد من الطاعات.. والمصارعة في القربات.. والقيام بالصالحات في التعامل مع نفسك ومع الخلق.. رغبة في سلوك أرضى السبل لرب الأرض والسماوات.. فإن النبي ﷺ يقول: ((خيركم من طال عمره، وحسن عمله))^(١)..

((يا ليت قومي يعلمون..)).. ليتهم ينظرون:

لقد علا على قلوب بعضنا -معاشر المؤمنين- هذه الأيام كثيرٌ من الران، وساد البغي والإثم والعدوان.. فتأخر النصر، وصار بأسنا فيما بيننا.. ووهت الأمة باشتغالها ببعضها تحت مطارق سنن التعذيب.. لمن أعرض عن أوامر السميع المجيب.. ولا تكاد تجد سبباً حقيقياً مباشراً لذلك كله كالغفلة والإعراض عن الآخرة.. {وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ} [الحج: ١٨].. ها هو ذا القرآن بين يديك.. لا تجد فيه توجيهاً من التوجيهات الربانية.. أو معلماً من المعالم القانونية إلا مقترناً بالتذكير باليوم الآخر، والإخبار بلقاء الله..

أيها الحبيب: تقرأ قول الله {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ} [البقرة: ٢٢٣] فتهاب لقاءه وحسابه.. وتنزع عما كنت عزمت عليه من العصيان في الخلوات.. والعدوان المستتر بستر المصلحة أو حتى بستر الدين على المخلوقات.. لأنك تعلم أنك ملاقي الله فيجازيك على مثقال الذر.. من خيرٍ أو شر.. ولكننا تمنا في متاهاتٍ غريبة، وبعدنا عن فقه القدم على الله، ونسينا اليوم الآخر.. {يَوْمَ بَدَّدْ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ حَيْرٍ مُخْضَرًا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ

(١) الضياء في المختارة / ٩ / ٤٣.

سوءٌ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا} [آل عمران: ٣٠] وما عملت من سوءٍ ولو كان صغيراً في نظر بعض الناس كالغيبية والنميمة والكلام في أعراض الناس، واختلاس شيءٍ من الأموال، وغلول مقادير من الحقوق.. فضلاً عن الكبر، وبطر الحق، وغمط الناس، والغل على الذين آمنوا، وتدمير معالم الدين وحقائقه أحياناً بجرة قلمٍ.. وذلك كله ابتغاء عرضٍ زائل من الدنيا.. قد يكون مالاً لا يساوي جناح بعوضة، وقد تكون شهرةً زائفةً.. إنها الدنيا في قلوب الغافلين:

هي المشتهى، والمنتهى، ومع السهى أمانى منها دونهن العظام
ولم تُلَفِنَا إِلَّا وَفِينَا تَحَاسُدٌ عليها وإلا في الصدور سخائم
ومن تذكّر النعيم المقيم يوم غدٍ: أيخضع لها؟ كلا.. أيا قوم! هذا خطاب الله لنا يفتح آفاق
الطاعة، ويُجَمِّرُ الدنيا المطاعة.. {اتَّقُوا اللَّهَ وَاتَّقُوا نَفْسَ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} [الحشر: ١٨].. وفي
مآسينا الداخلية ما تفيض منه الدموع..

ففاضت دموعي عند ذاك وربما تشهر بالدمع السرار المكتم

خاتمة الكتاب.. أياها الحبيب: لي ولك لا لغيرنا كان الخطاب:

أيا حبيباه: تأتينا الآيات تلو الآيات فكأن المخاطب بها غيرنا من المخلوقات..
نذهب لنطلب من الناس أن يزكوا أنفسهم وننسى أن المطلوب من إخبارهم بذلك هو أن
تزكو أنفسنا.. لا أن نغفل عنها لنعظ غيرنا..
ننسى أن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول: ((اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من
زكها.. أنت وليها ومولاها))^(١)..

(١) مسلم ٤/٢٠٨٨.

نسى أنه ﷺ نفسي لنفسه الفداء ووجهي لوجهه الوقاء ﷺ كان يدعو ((اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي..))^(١)، ويكثر أن يقول: ((واسل سخيمة قلبي))^(٢)..

إنه إعداد أنفسنا حقاً لاستحقاق التكريم في اليوم الآخر.. ولأن نُزف إلى جنة عرضها السموات والأرض.. فاذكر -أيها الحبيب- في مقام الأشواق الذي رأيناه.. وسمعناه موعظة المحبت المنيب أبي الدرداء.. توقظ قلوبنا النائمة، وتقرع أسماعنا الهائمة.. يقول: (أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث..)

أيا أبا الدرداء: فاقصص علينا قصص الحق: ما أضحكك؟ وما أبكاك.. علّ الرحمة تنزل على أفئدتنا فنضحك لضحكك، ونعتبر ببكاك.. اقصص أبا الدرداء.. يتابع أبو الدرداء فيقول:

(أضحكني: مؤمل دنيا والموت يطلبه.. وغافلٍ وليس بمغفولٍ عنه.. وضاحكٍ بملء فيه ولا يدري أرضى الله أم أسخطه).. والذي شَوَّقَ المتقين إلى جناته.. إنها لتبكي يا أبا الدرداء أكثر مما تُضحك.. فما يبكيك أبا الدرداء؟ يقول المحبت المنيب أبو الدرداء:

(وأبكاني: فراق الأحبة: محمدٍ وحزبه.. وهول المطلع عند غمرات الموت.. والوقوف بين يدي الله عز وجل يوم تبدو السريرة علانية ثم لا أدري إلى الجنة أم إلى النار)^(٣).. فما نقول أيا أيها الحبيب أبا الدرداء.. ما نقول؟ الله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(١) ابن حبان ٣/٢٤٢، وهو صحيح مشهور.

(٢) ابن حبان ٣/٢٢٨ وهو صحيح مشهور.

(٣) الزهد لابن المبارك ص ٨٤، حلية الأولياء ١/٢٠٧.

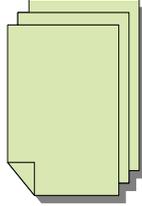
كانت تلك -أيا حبيب الجنة- قصة رحلة الخلود.. حيث رأيت فيها شاباً مؤمناً يرفُ إلى جنة الرحيم الودود.. تحمل تفاصيلها أحداثاً مثيرة، وأخباراً مشوقةً كثيرةً.. تشوق النائم لأن يستفيق، والمقتصد لأن يجتهد.. فقد استبان الطريق.. ولاحت.. فهل أجد نفسي وأجدك- أي حبيباه- فيها من المتنافسين؟..

نفس توي قد دنا منك الخطر	وربيع العمر ولى لا وزر
غفلةً جاثمةً يا ويحنا	فعلى العصيان كم طاب السهر
ما كأن الموت يسعى نحونا	أو كأننا قد نجونا من سقر
ومع التفريط نكتال المنى	لكأن القلب أقسى من حجر
أين منا خوف ساداتٍ لنا	كأي بكرٍ وكالنور عمر
أين صوتٌ لعلِّي باكياً	هيَّج الدهر فجلاً المعتبر
(قلة الزاد ودربٌ موحشٌ	ويح نفسي آه من طول السفر)
قم بجوف الليل أعلن توبةً	واذرف الدمع على خد السحر
واشحد الهمة من أخبار مَنْ	عرفوا الله فجدوا في السفر
يخرج المؤمن من دنياه لم	يقض من حمدٍ على الله الوطر ^(١)

اللهم يا منقذ الغرقى.. يا منجي الهلكى.. يا دائم الإحسان.. يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام.. يا من أن أذقنا برد عفوك.. يا رحمن أنلنا من كرمك وجودك ما تَقَرُّ به عيوننا.. وزدنا من فضلك ورحمتك فوق ما ترجوه قلوبنا، وتطلبه مسائلنا.. نسألك من خير ما سألك منه عبدك ورسولك نبينا محمد ﷺ، ونعوذ بك من شر ما استعاذك منه عبدك ورسولك نبينا محمد ﷺ.. يا أرحم الراحمين..

(١) لحادينا على طريق الجنة: عبد الرحمن العديني.

يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام: كم من نعمة أنعمتَ بها علينا قلَّ لك عندها
شكرنا..وكم من بلية ابتليتنا بها قلَّ لك عندها صبرنا..
فيا مَنْ قلَّ عند نعمتك شكرنا فلم يجرمنا..ويا من قلَّ عند بليته صبرنا فلم يخذلنا..ويا من
رأنا على المعاصي فلم يفضحنا..
يا ذا النعماء التي لا تنفد أبداً..ويا ذا الإحسان الذي لا ينقضي أبداً..صلِّ على محمدٍ وعلى
آله وصحبه..وارزقنا الفردوس الأعلى برحمتك يا أرحم الراحمين..
(والى الله تعالى ذكره- جزيل الضراعة والمنة بقبول ما منه لوجهه، والعفو عما
تخلله من تزيين وتصنع لغيره)(^١) أمين.
وصلّى الله على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين،
ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبنا الله ونعم الوكيل، على الله ربنا توكلنا،
والحمد لله رب العالمين.



(^١) من خاتمة كتاب الشفا للقاضي عياض ٣١٢/٢.

الفهرس الموضوعي التفصيلي

٢	الإهداء.....
٣	تقديم فضيلة الشيخ علامة اليمن/ محمد بن إسماعيل العمراني.....
٤	تقديم فضيلة العلامة الأستاذ الدكتور/ حسن الأهدل.....
٦	تقديم فضيلة الشيخ / محمد الصادق مغلس المراني.....
٨	المقدمة.....
٨	هذا الكتابُ يحكي قصةً حقيقيةً. بسم الله مجراها ومرساها:.....
١٠	أيها المشتاق لنعيمٍ تتطاول له الأعناق، وتذوب لنيله الأحداق:.....
١١	انظر عباد الله المقربين.. يتسابقون إلى معرفة ذلك النعيم.. بشوقٍ وحنين:.....
١٢	منهج كتابة هذه السلسلة المباركة:.....
١٤	الفصل الأول: الأفراح بين السماء والأرض.....
١٥	المشهد الأول: الخطوات المجيدة.. بين يدي حياةٍ جديدة.....
١٦	المفاجأة:.....
٢٠	وتابع صاحبه تفكيره:.....
٢٠	وانسابت دمعتان ذهبيتان من مآقي صاحبه وهو ينظر إليه بإكبار له، وألم على الشعور بأنه سيفارقه عما قريب.. ولكنه تابع تفكيره وقد حانت منه ابتسامةٌ مفاجئة:.....
٢١	موعد الصفاء مع أحب لقاء:.....
٢٢	تردد الإفاقة والإغماء.. لا تقلق.. قد سبق ذلك مع خير الناس ﷺ:.....
٢٣	أبشر! هنا موعدٌ مع المعنى الحقيقي لحسن الظن بالله:.....
٢٥	إنه صاحب القلب المنيب: لم تجتمع عليه سكرة الموت وحسرة الفوت.. واحدةٌ تكفي:.....
٢٥	مسك الختام لخير حياةٍ مع الأنام:.....
٢٨	المشهد الثاني: الغيب يتحول إلى شهادة:.....
٢٨	نحن ((أولياؤكم)).. إنه إعلان السعادة.....
٢٨	الدرس الخامس:.....
٢٨	آخر استفاقةٍ.. انظر من القادم ليلقى أحباءه وعشاقه:.....
٢٨	استقبل العالم الجديد.. نعيمٌ أعد لكل أبوابٍ برّ قانتٍ سعيد:.....
٣٠	في ساعة الانتقال: كفاها بشرى.. من أوليائه ومحبيه من الملائم الأعلى:.....
٣١	بداية الزفاف:.....
٣١	أيها القانت الأواب: لا تخف أن يُردَّ ثوابك، ولا تحزن على ذنوبٍ فرطت منك في حالة ضعف:.....
٣٢	ولم الخوف أو الحزن وأمامك الآن دار السعادة، وعند ربك أعم الوفاة:.....
٣٣	أيها الحبيب الصفي: في رحلة الأهوال القادمة الصحبة.. الصحبة:.....
٣٥	أيها المشتاق.. هل أتاك نبأ قصة حبٍ طاهرٍ صادقٍ بين مخلوقين.. تجاهله العشاق():.....

- دغدغة عواطف العبد المخبت على فراش موته بذكر بعض نعيم دار السعادة: ٣٥
- إنها البشرية.. تتابع.. أما المجرمون فيقولون حجراً محجوراً: ٣٨
- بعد هذه البشائر المتتابعة: ما هي أعظم أمنية لك أيها المخبت المنيب: ٣٩
- أيتها الملائكة الطاهرة: عجلي.. عجلي.. يا رب طال شوقي إليك فعجل قدمي عليك: ٤٠
- آخر نظرة إلى دنيا الكدح: ٤١
- المشهد الثالث: رحلة الخروج: إنه الزفاف وسعادة العروج** ٤٣
- نعيم في عذاب الموت؟ هل تتصور ذلك؟: ٤٣
- بهاءً وسناءً.. إنها رحلة في آفاق الجمال.. تلمع في بداية الترحال: ٤٣
- استقبل تحية الخروج فرحاً جديلاً من عالم الفانية إلى عالم الباقية: ٤٤
- الملائكة تتنافس على حمل الروح الطاهرة؟ من يريد صورةً تذكارية؟: ٤٧
- الملائكة توصي بعضها بالرفق بك.. يا للشوق إلى دفء هذا الحنان: ٤٨
- العروج إلى السماء.. زفافٌ جديد: ٤٩
- انقسم الملائكة الذين يزفونك إلى قسمين: ٥٠
- أيها المخبت الأواب: كبار الملائكة ينضمون لتشييع روحك في زفافها: ٥١
- لقاءً رائعاً بأبيك آدم.. وسعادة وابتهاج مستحکم: ٥٢
- اجتماع مع المخبتين من المؤمنين في السماء: هل تحلم بزيارة سريعة لأعز الأصدقاء الذين خرجوا قبلك من الدنيا؟: ٥٢
- دعوه فإنه كان في غم الدنيا.. افرحوا بمرتبته العليا: ٥٤
- أبشر بخير يومٍ مرَّ عليك: صك الرضوان، وشهادة الغفران، ونعيم الفوز العظيم.. يأمرُ بإيرامه الرحمن: ٥٧
- أيا أنيس القرآن.. أيا عابداً في محارِب الإيمان: ٥٨
- المشهد الرابع: مرة أخرى.. إلى الأرض.. ولكن اطمئن واستقبل أفرح البرزخ**
- ٦٠
- ماذا حدث للجسد المسحى.. على الفراش أثناء أفرح الروح في الملأ الأعلى؟: ٦٠
- الناس يبتهجون به في الدنيا.. وهم لا يعلمون فكيف لو علموا؟: ٦١
- لله مكانك يا صاحب القلب المنيب: هذا مقامٌ يطمح إليه الطامحون: ٦٢
- عودة الروح الفرحة المستبشرة تنادي: قدموني.. قدموني: ٦٣
- ضمة القبر لا بُدَّ منها.. اطمئن إنها ليست عذاباً: ٦٤
- وداع المحبين له.. أيسمَعُ ذلك الوداع: ٦٦
- المشهد الخامس: ابتلاء في القبور.. ترقب نتيجة تملأ الفؤاد بالسرور** ٦٨
- حرسٌ من القوات الإيمانية الخاصة حيث لا تنفع كل أسلحة الدنيا: ٦٨
- يا صاحب سورة الملك.. هذا هو الوعد الحق: ٧٠
- أول اختبارٍ في عالم الغيب.. ترقب النتيجة بل توقعها بعد هذه المقدمات: ٧٠
- المؤمن يحاول قطع الاختبار.. ويحن إلى صلاته.. إنه يأرز إلى إيمانه: ٧١
- أسئلة الاختبار العظيم.. إنه أهم اختبارٍ شفوي أمام أقوى لجنةٍ تمر عليك مذ عرفت الحياة: ٧١

- ٧٢ تذكر مفتاح اللغز ((فيقول ما كان يقول)):
- ٧٤ نتيجة مرضية، وعيشة هنية.. وفتح مبين.. لعبد من المتقين:
- ٧٥ ترقب الفوز الكبير، وتنعم بروية الأفراح المستقبلية:
- ٧٦ خاتمة بشائر القبر: لقاء حميم مع رفيق ازدهر حبه.. ولكنه لقاء غير متوقع:
- ٧٧ كيف سيقضي الحياة الناعمة في البرزخ؟:
- ٧٨ مصير الروح.. مصير الجسد:
- ٧٨ أيتها الروح الطاهرة.. انظري هناك: منازل خاصة.. لمن هي؟:
- ٨٠ زيارة صغيرة من حبيب من أهل الدنيا لحبيبه من أهل البرزخ:
- ٨٣ الفصل الثاني: إنها الساعة... يا أصحاب الأفراح: تتلقاكم الملائكة (هذا المشهد الأول: استنق! إنه يوم الفرع الأكبر.. أيا صاحب القلب المنيب: (هذا يومكم الذي كنتم توعدون))**
- ٨٤ أمطاراً لا تنبت البذور والأشجار بل تنبت الأجساد:
- ٨٤ نفخة واحدة.. لتعود الأرواح، وتخرج صاعدة:
- ٨٥ انظر إليهم يخرجون من الأحداث.. أخرجت الأرض أبقالها:
- ٨٦ صيحات الفرع من الخارجين.. ﴿كلا لا وزر﴾ حنانيك يا يوم الخائفين:
- ٨٨ لكن كيف حال العروس بين الفرعين؟:
- ٨٩ يا صاحب القلب المنيب: انظر حواليك.. إنه الفرع الأكبر:
- ٩٠ من جديد: من القادم؟ اللقاء بأطهر المخلوقات.. لقاء الأحبة مجدداً:
- ٩١ انظر إلى غيرك لترى نعيمك ما بلغ:
- ٩٢ الشمس تدنو من العباد فتصهرهم.. فأين المفر للخلائق برّهم وفاجرهم؟:
- ٩٣ في ذلك الجو اللاهب: أيسر.. أتحت ظل عرش الرحمن؟:
- ٩٥ تحت ظل عرش الرحمن: أي نعيم وأي مزية:
- ٩٦ شاببت الولدان، وذابت الأجنان: إنه قادم الهلاك.. كيف الفكاك منه.. كيف الفكاك؟:
- ٩٧ أيسر.. هاهي الجنة تقترب.. مَتَّعْ نَظْرَكَ.. إنها أمامك:
- ٩٨ الكسوة والستر.. يوم يُحْصَلُ ما في الصدور.. يوم تبلى السرائر:
- ١٠١ أي حبيب الجنة ومحبتها: تصور! النبي ﷺ قلق عليك.. وانظر كيف بلغ حبه لك:
- ١٠١ **المشهد الثاني: يا رب أرحني.. فلنشرق الأرض بنور ربها**
- ١٠٣ هل سمعت قائلاً يقول: يا رب أرحني ولو إلى النار:
- ١٠٣ ويشدد الأمر على المؤمنين أيضاً.. وكلمة تصدع الحليم تخرج من الكريم آدم أبي البشر-عليه السلام:- لست هناك:
- ١٠٤ الأنبياء الذين بعثوا لإنقاذ غيرهم يقولون: ((نفسى.. نفسى)):
- ١٠٥ يا صاحب القلب المنيب: مقام السيد النبي المصطفى ﷺ في الدرجات العلى:
- ١٠٧ يا صاحب القلب المنيب: من النعيم العظيم في موقف الخطب الجسيم: الانتماء إلى أمة محمد ﷺ:
- ١٠٩ :

- يا صاحب القلب المنيب: النبي ﷺ يبحث عنك،، إنها أمة محمدٍ المكرمة لمن أمن منها وعمل صالحاً: ١١٠
- أيها الساجدون! أيها المتطهرون! أيشروا: أنتم المعروفون عند النبي ﷺ المقدمون بين يديه: ١١١
- يا صاحب القلب المنيب: فلتشرق أنوارك الوضوء.. فقد أشرقت الأرض بنور ربها لفصل القضاء.. ولكن: ١١٢
- شيءٌ عظيمٌ.. وخطبٌ جسيمٌ.. تعرضون لا تخفى منكم خافية: ١١٣
- ولربما تساءل صاحب القلب المنيب في نفسه متلهفاً: ١١٦
- يا رحمة ربي.. قررة عيني.. ومبعث رجائي وحيي: ١١٧
- المشهد الثالث: وُضع الكتاب.. وبدأ الحساب** ١١٩
- بداية الحساب.. واحر قلباه: من يكون صاحب الزلفى من ربه.. من له حسن مآب؟: ١١٩
- أيها الخلق: الوزن يومئذٍ الحق.. الوزن يا أيها الناس.. ألا هل من يدرك نفسه من الأذكياء الأكياس؟: ١٢٠
- صورةٌ إجماليةٌ للحساب: نفسٍ فلقة.. ونبضٌ فرغٌ.. أو روحٌ متشوفةٌ: ١٢١
- تابع صورةٌ من صور الحساب: وزناً، وحساباً، وإعطاءً للكتاب يوم القيامة: ١٢٣
- إنها الرحمة، والكرم الإلهي: فيا شوق لا تبعده، ويا دمع فض وزد: ١٢٤
- دورك الآن.. هل تعلن راية الفرح: تعالوا.. تعالوا.. فاقروا كتابيه: ١٢٥
- يا لإشراق وجهك.. إذ الناس خاشعة أبصارهم، ترهقهم القترة والذلة: ١٢٨
- أيها الناس: انظروا إلى هؤلاء لتعرفوا في وجوههم نصرمة النعيم: ١٢٨
- يا أبيض الوجه: حسنٌ بعد حسن.. وجمال بعد جمال: ١٢٩
- المشهد الرابع: أسبل الدمع الهطال وأنت تشاهد صور الحساب** ١٣١
- عند الوزن يطيش العقل: ابحث عن رحمة الله مُخبتاً قانتاً تائباً: ١٣١
- أيما حافظ القرآن: خذ هذه الهدية.. ونل هذا التميز: ١٣٣
- أنتستطيع التصور: أيفرح الحبيب بأخذ حسنات حبيبه.. يا له من يوم: ١٣٤
- انظر هناك: يا لعظمة التكريم على الملاء ما أسهل سببه لو كانوا يعقلون:-: ١٣٥
- تكريمٌ عظيم: أنت تشهد على سائر الأمم: ١٣٦
- انظر موقف الدلال: عملتُ ذنوباً لم تعرضوها علي: ١٣٧
- ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون.. فمن تعبد أيا صاحب القلب المنيب؟: ١٣٨
- انظر واسمع: اشربوا.. فيتساقطون في جهنم: ١٣٩
- هنيئاً لك بتذوق لذة السجود لله في هذا اليوم: ١٤١
- المشهد الخامس: إنه العبور الخطير على جسر جهنم.. هل أعددت مركبتك القوية لتتمكن من الانتقال عليها؟** ١٤٣
- إنها عقبة الفرع الأكبر: جسر جهنم.. أي شيءٍ أفضع من جسر جهنم وأشد هولاً: ١٤٣
- أسل دموعك خشيةً وتعظيماً واستعد له من الآن: ١٤٤
- إنه أدق من الشعر وأحد من السيف.. مدحضة مزلةٌ عليه خطاطيف وكلايب: ١٤٤

- يا أهل الموقف: إنه جسر جهنم.. وكيف تنام العين وهي قريرة: ١٤٥
- يا من وصلتكم الرحم وأديتم الأمانة أبشروا: ١٤٦
- الظلمات الحالكة.. إنه نور الله يُرسلُ إلى من تاب وعمل صالحاً: ١٤٧
- أي طالب التوفيق، وخاطب الجنان: النور يضاء لك قبل مرور الصراط حناناً وزكاة: ١٤٩
- نورك يسعى معك.. هل أعددته في الدنيا كما ينبغي: ١٥٠
- يا صاحب القلب المنيب: من جديد: لا تخف ولا تحزن: إنها الصحبة الدائمة، والود الصادق: ١٥٠
- بعد تكامل الطمأنات تبدأ ساعة الانطلاق: بسم الله مجراها ومرساها ١٥١
- أبشر! فأنت من أوائل من يجيز الصراط.. ولكن ما هي نتائج المشهد الحق: ١٥٢
- المشهد السادس: نورك البهي يسعى.. والحصاد المر لمن نكث وأكدى ١٥٤**
- انظر الحصاد المر: منافق لا نور له، ومنافق أعطي النور فمضى ثم خُدع فانطفأ نوره فهوى: ١٥٤
- يا صاحب النور يوم القيامة.. أتمَّ الله لك نورك.. وأدام سرورك: ١٥٥
- يهتف صاحب القلب المنيب مع بقية المؤمنين وهم يشهدون ما حدث للمنافقين.. يهتفون: .. ١٥٥
- أي طالب التوفيق: اشهد مشهد الخيبة والأحزان الذي وقع فيه المنافقون: ١٥٦
- تابع المشهد، وانظر الفوز الأحمد: عوامل الهلاك في الدنيا هي عوامل الهلاك في الآخرة: ١٥٨
- أيها البار الفانت: كم هو موقف ممتع لك وإخوانك المؤمنين أن تبتكت المنافقين الذين كانوا يضحكون منكم، وتقول لهم: ١٥٩
- الفصل الثالث: على مشارف الجنة واهاً.. لريح الجنة ١٦١**
- المشهد الأول: إنني أرى ما ليس عليه صبر.. يا قوم رَوْحوا بنا إلى الجنة ١٦٢**
- الوصول إلى الجهة الأخرى: ألا تهنئون بعضكم بعضاً على النجاة: ١٦٢
- الرائحة الغريبة الزكية.. والنفحة العطرية البهية: ١٦٣
- السابقون إلى الجنة.. في ذلك -لا في غيره- فليتأنفس المتأنفسون: ١٦٤
- فئة الحمادين: ١٦٤
- أيها الفقراء المستضعفون الحامدون البادلون أبشروا فقد نجحتم في الابتلاء: أنتم المُقَدَّمون السابقون: ١٦٦
- احتفال خاص بهم: ١٦٧
- اندهاش خزنة الجنة من هذا الفوج السابق: ١٦٨
- حبيب من أهل الجنة سبق.. يخاطب حبيبه: أي أخي ما حبسك؟ ١٦٩
- الثلة الأولى: لا حساب عليهم أصلاً فماذا ينتظرون؟ ها هو ذا طريق أبواب الجنة قد لاح.. هلموا فخذوا منها واحداً: ١٧٠
- نداء الحب، وهتافات التهاني.. بُزف للسابقين.. أنت أي صاحب القلب المنيب منهم؟ ١٧١
- نداء الكبير المتعال: أذهب الحزن، وأزاح الوهن، وأراح الفؤاد: ١٧٢
- في طريق الشوق إلى الجنة.. تحيةً وتثبيتاً من أهل الأعراف: ١٧٤
- من النعيم.. تبكيت الخلق للمستكبرين، والثناء على الفائزين: ١٧٦

المشهد الثاني: على مشارف الجنة: التهيئة للدخول ١٧٨

- ١٧٨ التهيئة النفسية لدخول الجنة: على صراطٍ ثانٍ.. جسرٍ آخر.. لكن اطمئن:
- ١٧٩ ومن نماذج الإصلاح لنفوسهم نموذجٌ صورهُ النبي ﷺ كأننا نحضره:
- ١٨٠ يا خاطب الجنة: نعمة نزع الغل من أعظم النعم التي تُهدى لك في آخرتك:
- ١٨١ هاهي الجنة قد أزلفت غير بعيدٍ.. أتستطيع أن تُفصح عن مشاعرك؟
- ١٨٣ وفد الرحمن المظفر ينطلق نحو الجنة لا حائل إلا مسافة الطريق فكيف اللقاء:
- ١٨٥ على مشارف أبواب الجنة:
- ١٨٧ يا صاحب القلب المنيب وأنت تقف على مشارف الأبواب: إنها دار السلام:
- اشفع لنا يا رسول الله لندخل الجنة.. كم جعل الله لك من كرامة على البشر في الدنيا والأخرى يا سيدي يا رسول الله:
- ١٨٩ يا حبيب الجنة: الجنة تطالب بك.. وتشتاق إليك:
- ١٨٩ انظر هناك: إنها أبواب الجنة المفتوحة:
- ١٩٠ أيها المفلقون: أن أوان تكملة التهيئة الجسدية لدخول الجنة:

المشهد الثالث: عند أبواب دار السعادة: الاستقبال الحافل والمفاجآت الممتعة

- ١٩٣ تحية خزنة الجنة عند الدخول: لقد طبتم ظاهراً وباطناً.. الآن تستطيعون الدخول:
- ١٩٤ ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون:
- ١٩٥ أول زمرةٍ وثاني زمرةٍ يدخلون الجنة منكم.. كيف هؤلاء الأمراء المحظوظون؟:
- ١٩٦ أمام أبواب الجنة نداء رخيٍّ لك أيها صاحب القلب المنيب:
- ١٩٧ مفاجأة ممتعة: استقبالٌ حافلٌ من الولدان المخلدن:
- ١٩٨ حركة مفاجئة: ولدٌ ذكيٌّ من الولدان يسبقك ليخبر أهلك:
- ١٩٩ انظر الآن إلى هينتك وأنت تدخل الجنة:
- ٢٠٠ نداء الله الجليل المتعال لك وللركب المفلقين وأنتم تدخلون الجنة:
- ٢٠١ لا تحتاج إلى من يدلك على مملكتك فأنت تعرف طريقك إليها:
- ٢٠١ أبواب الجنة التي تغلق وتفتح تلقائياً:

المشهد الرابع: أخيراً.. إتكاء الراحة الأبدية ٢٠٣

- ٢٠٣ أول نظرةٍ على قصرٍ من قصور مملكتك الرحبية:
- ٢٠٤ نظرةٌ إلى بعض قصورك، وترتيب الغرف بداخلها:
- يا صاحب القلب المنيب: للجنة تسكب العبرات.. وعند الاطمئنان بدخولها تنهال الذكريات.. ذكريات المسارعة إلى الخيرات:
- ٢٠٦ أخيراً: إتكاء الراحة الأبدية في جنة المأوى:
- ٢١٠ ضيافة الرحمن الفورية:
- ٢١٠ لكم منازلكم وترثون منازل الكفار.. وتنادونهم: هل وجدتم ما أخبرناكم؟:
- ٢١١ الملائكة يدخلون من كل باب دخول الخدمة والمحبة:
- ٢١٢ خدمك من الولدان.. من أعظم النعيم في الجنان:

- ٢١٢ في جلسة خلوية مع النفس: تفكر ماذا ستطلب في الجنة؟
- ٢١٥ مهلاً! أيا خاطب الجنة: ماذا نسيت مما تشتهي.. هل تتذكر أو تريد من يذكرك؟:
- ٢١٦ فرحة جديدة..ها هم أولاء أخلاؤك وأقرباؤك..إنه اجتماع الشمل:
- ٢١٨ لحظة للمقارنة:
- ٢٢٠ الفصل الرابع: إنها... الجنة تقرب هناك.. لترى نعيماً وملكاً كبيراً**
- ٢٢١ المشهد الأول: وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً**
- ٢٢١ نظرة عامة عليهم وهم في ملكهم..أظننت أنك تستطيع التعبير عما ترى؟:
- ٢٢٣ رأيت نعيماً.. رأيت ملكاً كبيراً:
- ٢٢٤ أنت بشر! بدأت تحاول إحصاء ملكك وسعة مملكتك..أتستطيع؟:
- أتريد أن تعرف التفاوت بين المؤمنين في الدرجات؟ قم بجولة لترى معه وجهك الصافي
الذاهل:
٢٢٥ درجات رقيقة، بعضها فوق بعض.. هل تطمح لها؟:
- ٢٢٦ فئة المحبة الصادقة.. ارتقت مكاناً علياً بنفس واثقة.. وصارت مناراً للأنفس الواهمة:
٢٢٨ تقدم فهناك ما هو أعلى منه، وقابل هناك أعمدة الإسلام.. الراشدين الكرام:
٢٢٩ زيارة خاصة لأعظم الأحبة.. حبيب طالما تمنيت رؤيته.. ولكنه من الأرفعين أعمالاً.. إنه من
السابقين:
٢٣١ أعيالك ما رأيت فلا تستطيع وصفه.. فكيف ستصنع؟
٢٣١ صورة سريعة.. كيف يمكن لسمعك وبصرك التقاطها، وهي كالضوء سرعة:
٢٣٢ ألا تريد رؤية أعلى درجات الجنة.. تقدم حيث الجلال النبوي، والمقام المحمود المصطفوي:
٢٣٣
أبشر! فقد شرفت بالقرب من منزلته... أتدري ما السبب؟:
٢٣٥
٢٣٧ المشهد الثاني: جولة في جنان الجنة
- ٢٣٧ ما هو النعيم الأعلى: الجمال والإبداع الخارجي، أم السكينة الداخلية:
٢٣٩ تذكر يا محب الحجاز ما كنت تراه في الحجاز وقارن:
٢٤١ روعة الاتكاء والمجالسة تحت الأفنان:
٢٤٣ أيها المتقون: انظروا إلى أنهار الجنة الكبرى.. هل رأيتم منظرأ أشهى وأعلى؟:
٢٤٣ إنها أبحر لا أنهر.. تلتذون بها وفيها: هذا شربكم.. وذا منبع استمتعكم.. ألا تردون:
٢٤٥ أيها الثابتون على الدين.. الزاهدون فيما يلعب به الناس من الناكسين: هذا هو الكوثر:
٢٤٥ ذكرى المسك مع كوثر الملك:
٢٤٦ لا تذهل عن الحقائق.. إنهم فريق الخير في هذه الحياة:
٢٤٨ رؤوف رحيم يقول لمن بدل وغير: سحاً.. سحاً.. فلماذا؟
٢٤٩ انظر هناك: عيون متفجرة ترتفع إلى أعلى.. ألا تتمتع؟:
٢٥٠
٢٥٢ المشهد الثالث: إلى أبهى جمال، وأحلى دلال
- ٢٥٢ هل يمكن لهذا الجمال أن تتخيله دون أن تراه.. إنهن الحور ينتظرنك:
٢٥٢ أي خلق يأسر النظر.. ويدعو إلى حب مستقر.. كأنه سحر مستمر:
٢٥٣

- ٢٥٦ مجلسٌ من مجالس الحب مع الأزواج المطهرة:
 وقت التضاحك في المضجع، والنقلب في المخدع.. تراه كيف يكون؟ ٢٥٦
 صورة الحسن تبتدئ.. لكنها الآن منك: ٢٥٨
 عرفنا ما حباك الله به من جمالٍ يُغطي الشمس.. فما حال ملابسك؟ ٢٥٨
 كيف حليتكِ أولاً؟ أنتستطيع الوصف؟ : ٢٥٩
 والآن خذ صورةً مبسطةً لهيئةٍ من هيئاتكم: ٢٦٠
 هذه هي الأساور؟ فكيف ستكون الثياب؟ ٢٦٠
 مجلس أنيسٍ يضم زوجتك أو زوجاتك من أهل الدنيا ونساءك من الحور العين.. قارن! ٢٦٢
 نساء الدنيا زادت الطاعة في حسنهن ﴿فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾: ٢٦٣
 ألا من غناء يزيد مجلس الأنس طرباً: ٢٦٥
 ولكن مهلاً لا تشغلك الأولى عن الثانية.. ألا يكفيك احمرار الخدود عند طلب التحول من نهود
 إلى نهود: ٢٦٦
 لعبٌ على الأرائك تحت ظلال الأشجار: ٢٦٨
 وبعد: فما رأيك بنعيم كهذا النعيم: ألا تسرج له مركب الشوق بعبادةٍ فانتة، وحب خالص؟ وإنما
 يحاول أهل الدنيا التقليد: ٢٧٠

المشهد الرابع: أيها الصابرون: ((كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام

- الخالية)) ٢٧٤
 أبهة الطعام وتحف الهدايا تتناوب المجيء إلى الكرام: ٢٧٤
 تمتع بأبهة الخدمة، وطيب المقام، ولذة الطعام: ٢٧٤
 والآن أوقف كل تصورٍ عندك.. وانظر معي إلى هذه الصورة: ٢٧٥
 أواني الطعام: أكواب فضة طائفة، وصحافٌ من ذهب دائرة: ٢٧٧
 ثمر الجنان.. وظلال الأفنان يتبعانك أنى دعوتهما.. فهما لك في كل حالٍ دان: ٢٧٨
 حبذا اللهو مع الأحباب.. ودوران كؤوس الشراب: ٢٧٩
 صورة إجمالية ترسمها سورة الإنسان: ٢٨٠
 مخرج الطعام.. نعيم إلى نعيم: ٢٨١
المشهد الخامس: كالجمال في الصورة.. إليك الجمال في الصوت ٢٨٣
 الأصوات الطيبة.. تطيب المكان، وتوقظ الوسنان، وتأسر الإنسان: ٢٨٣
 لا بد أنك اشتقت إلى شيء من الغناء والصوت الشجي، فاسمع ثم احكم: ٢٨٥
 ألا تشتهي الخروج للتبضع والترفيه في سوق الجنة: ٢٨٦
 الحمد هو اللهجة المتكررة إزاء النعم المتجددة: ٢٨٦
المشهد السادس: تنعم يا صاحب المتاب.. بلقاء أصدق الأصدقاء ٢٨٨
 نداءً إلهيًّا للمتقين من الأصدقاء والأخلاء والأحباب في يوم الحساب: ٢٨٨
 مشهدٌ من مشاهد صدق الصداقة الطاهرة: ٢٨٩
 السرر المرفوعة المتحركة.. منظرٌ لا يُنسى: ٢٩١
 انظر حو اليك: زينة تحف بكم من كل حدبٍ وصوب.. فتشغلكم عن بعضكم لوقتٍ: ٢٩٢

- ٢٩٤ تصور مشهد الحب: تنازع أحبابك الكؤوس..تمازحهم وتداعبهم بتنازع الكؤوس:
- ٢٩٥ الولد اللؤلؤة: سيدي.. الشراب.. الشراب:
- ٢٩٦ جلسة محادثة: تعلنون فيها أنكم أشد حبا لله:
- ٢٩٧ كنا مشفقين من عذابه وعقابه.. أن يتخطفنا قبل أن نصل بالتوبة إلى بابه:
- ٢٩٩ **المشهد السابع: حاجة أهل النار إليك.. نعيم عظيم**.....
- ٢٩٩ **وجاهك عند الله نعيم أعظم**.....
- ٢٩٩ شفاعتك لإخوانك: كرامة جديدة ومنزلة عليّة:
- ٣٠٠ الشرف... يُشارك المنيب في وفد الله إلى أهل النار... للشفاعة في بعضهم:
- ٣٠١ في جلسة من مجالس الأنس الخالد:
- ٣٠١ زيارة صديق من أصحاب الجنة لصاحبه من أهل النار:
- ٣٠٢ وفي الجنات لذات ومنها أحاديث الكرام على المدام
- ٣٠٣ هل أنتم مطلعون.. لتروا كرامتكم وجزاء عناده؟.....
- ٣٠٦ يا أهل الجنة أشرفوا على أهل النار، وذكروهم بما كانوا يستهزئون:
- ٣٠٩ نداء أخير من أهل النار لكم يزيدكم غبطةً وحبوراً:
- المشهد الثامن: إليكم ختم الكرامة.. نعيم أعظم من كل ما سبق.. هوته القلوب**
- ٣١١ **منقادة.. للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**.....
- ٣١١ يا أهل الجنة الخلود.. الخلود:
- ٣١٢ يوم الخلود: يوم الفرحة لكم.. ويوم الحسرة لهم:
- ٣١٤ ولكن إليكم يا أيها الفائزون ما هو أكبر من الخلود..وما أدراك ما هو؟
- ٣١٥ إنه يوم المزيد.. أعلن العجز عن وصف ذلك النعيم المجيد:
- ٣١٧ إنه الغاية القصوى في نعيم الآخرة.. والدرجة العليا من عطايا الله الفاخرة.
- ٣١٧ أيا خاطب الجنة وحبیبها: ها هنا حالة تعجز الكلمات عن تصويرها:
- ٣٢٠ **المشهد التاسع: فانظر إلى آثار رحمة الله..**.....
- ٣٢٠ **بين عبد أوبقته أعماله.. وأنقذته رحمة ربه**.....
- ٣٢٠ أشهد آخر أهل الجنة دخولا الجنة وانظر إلى آثار رحمة الله:
- ٣٢١ المرحلة الثانية: طمع الضعيف، وكرم الكريم:
- ٣٢١ المرحلة الثالثة: تابع المشهد: نعيم جاذب.. وهو مجرد نعيم خارج الجنة:
- ٣٢٣ المرحلة الرابعة: إنه باب الجنة.. نصف الطريق:
- ٣٢٤ المرحلة الأخيرة: دخول الجنة:
- ٣٢٥ سيل الكرم ينهال:
- ٣٢٥ تمن.. تمن.. هل نذكرك بالأمنيات؟:
- ٣٢٩ **ختام زفاف المؤمنين.. تجدد النعم**.....
- ٣٢٩ **ودوام الحمد للمنان المتين**.....
- ٣٢٩ استمع إلى الكون زمن فيه مسبحين مترنمين: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾

٣٢٩	الحمد لله والثناء والمجد يبدأ به الكون وينتهي إليه:
٣٣١	خاتمة القصة
٣٣١	فراق مؤقت غير بعيد. لتعظيم مجيد. إن شاء الله:
	وفي هذه القصة للنساء سبقهن. لهنَّ هممٌ لا منتهى لكبارها. وهمتهن الأولى أجل من الدهر:
٣٣١
٣٣٢	أيا حبيباه: فُتِحَتْ ميادين السباق. فهل من مسابقٍ للذيذ العناق؟
٣٣٣	فذكرت الجنة ونعيمها فأعرضت عنه:
	إنه الملك الكبير ينتظرك في الجنة. أفنُقِّدَمَ عليه انتصارك لنفسك، واستجابتك لداعي هواك؟:
٣٣٥
٣٣٦	التفكير بالجنة. مانعٌ من ظاهر الإثم وباطنه:
٣٣٧	((يا ليت قومي يعلمون...)).. ليتهم ينظرون:
٣٣٨	خاتمة الكتاب. أيها الحبيب: لي ولك لا نغيرنا كان الخطاب:
٣٤٢	الفهرس الموضوعي التفصيلي

مما قاله بعض من قرأ الكتاب:

رسالة من نائب عميد كلية الطب/جامعة ذمار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلى الأستاذ الفاضل الدكتور عبد السلام المجيدي

الذي فتح أمامي بوابات إيمان لا حدود لها
وقفت بين أكتاف سطورك شاردًا.. كانت حروفك تجري، ودمعي يسابق لهائي.. تدور بي
صفحات رحلتك.. وأنا على صهوة صبري أدور.. ما افتزقت عنك.. خفت من وجع يحاصر
ذاكرتي.. صرت أحاذر من ألمي.. فقد هز روحي شدو إيمانك.. فأشرق في دياجير رحلتي
شعاع ينير ظلمتي.. فزمزم برق.. وجاشت من أرض ذمار ربح.. سحابة وجد.. تراكم تحت
شغافها حنين.. وما حيلتي أن قلبي يفيض.. يجرفني قشة في هدير العباب.. أيها القلب ما
شئت خذ واتسع لتكون كبيرًا.. نجمة أفصحت عن رؤاها.. نسمة خطرت من رباها.. وتمضي
الكلمات.. كل شيء كساه الهدوء.. تمنيت في خلدي أن يطول السفر.. لن أفارق الفيض
حتى أقرب من جنان الخلود..

وبعد هذا يحيرني السؤال.. ما الذي أتدبر فيك كي أنصفك؟.. صعدت متلمسًا الجنة
كالثرثريا.. فتخلل الدرب عنفوان من مسك وطيب.

أخوكم الدكتور مجيد محسن الحمداني

كلية الطب والعلوم الصحية - جامعة ذمار

ورسالة أخرى من المهندس مُجَّد بادي فيها:

عجب علي عجب ومثلي يعجب

لا أدري والله.. هل أعجب من فكرة الكتاب المبتكرة، أم من منهجية كتابته، أم من عذوبة أسلوبه، أم من بلاغة كتابه، أم من السداد الذي كسى خاتمته.. كنت ولا زلت عيباً في المدح، ولكنني إخال الكتاب يصرخ قائلاً: هل من مزيد.

المحب.. المهندس / مُجَّد علي بادي